الجمهورية العربية السورية
وزارة الثقافة

جغرافية دار الإسلام البشرية

حتى منتصف القرن الحادي عشر

تأليف

اندريه ميكيل

ترجمة

ابراهيم خوري

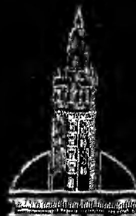

إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية

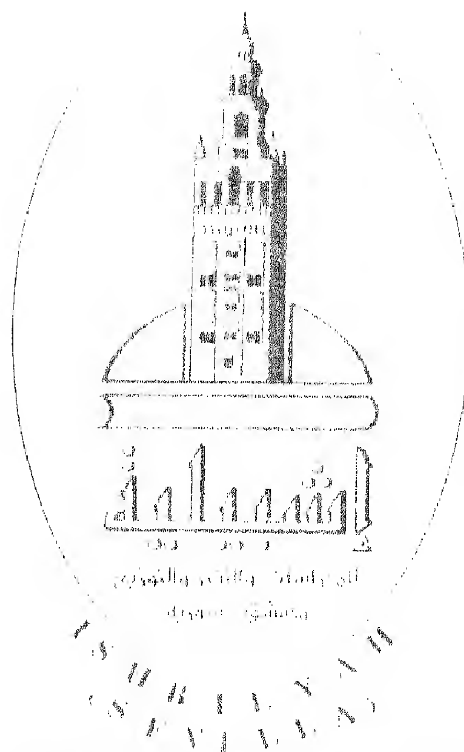

Studies, Publication & Distribution

اندريه ميكيل

جغرافية دار الإسلام البشرية

حتى منتصف القرن الحادي عشر

الجزء الأول

الجغرافية والجغرافية البشرية في الأدب العربي

من البدء حتى عام ١٠٥٠م

القسم الأول

ترجمة: ابراهيم خوري

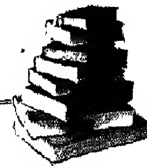

منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي
دمشق - ١٩٨٣

العنوان الأصلي للكتـــاب :

ANDRÉ MIQUEL

La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du 11e siècle

Géographie et géographie humaine dans la littérature arabe des origines à 1050

MOUTON & CO
PARIS - LA HAYE
MCMLXVII

تنبيه

جاء هذا الكتاب على خلاف ما كان يقتضي وضعهُ الأصلي . أو أتى بالأحرى قبل مصنّف صمّمتُه في البدء على نحو آخر . فدراسةُ الجغرافيين العرب ، وتصويرُ رؤية شاملة عن الشرق الأسلامي في القرون الوسطى ، مبادأةٌ يمكن أن يجريَ الباحثُ بها مجريين . أولهما بلا ريب ، ان ينهجَ نهجَ المؤرخ : عندئذ لا بدّ له أن يرسم لوحة العالم على حقيقته ، مثلما كان فيما سلف ، وتدلّ عليه الأحداث ، استناداً الى النصوص ، وبقدر ما تجيزُه . إلا أنّ هذه الفكرة قديمة ، سبق آخرون وسلكوا دروبَها ، إمّا لأنّهم استفادوا من كنوز هذه المؤلفات في إيضاح هذه النقطة الخاصة أو تلك من تاريخ الأسلام ، أو لأن بعضهم انطلق بطموح بالغ ، يرتبط به اسم موريس لومبار ، وسعى صادقا الى كتابة تاريخ الشرق كاملا . مع ذلك ، هنالك نواحي كثيرة في هذا المضمار ، لا تزال تحتاج الى انجاز دراستها . لكن ما يكتشف عمل المؤرخ من عناء مضنٍ ، وأكثر منه ، ما أشعرُ به من قصور في هذا المجال ، صرفاني عن الاتجاه السابق ، وساقاني الى رحاب بدت لي عذراء ، لم يتطرّقْ الى بحثها أحد . فقلت في نفسي : لماذا لا أسبر غور هذه المصنّفات في أعماقها ؟ ولماذا لا أعزف عن محاولة استخلاص الواقع التاريخي الموضوعي وانتزاعه منها ، وأتناول نصوصها بتمامها ، فاعتبرها لا شواهد على واقع معيّنٍ ، بل على تمثيل هذا

الواقع ، مستهدّفا ، بما قلّ ودلّ من الكلام ، لا إبراز عالم يبدعه استقصاءٌ يتمّ بعد مضيّ ألف عام ، بل إحياء عالم يُحتمل أن تكونَ ضمائرُ البشر آنذاك قد أحسّت به ، وأدركته ، وتخيّلته ؟ ماذا كان يعني البحر ، والنهر ، والمدينة ، والضريبة ، والحدود ، ليس في تاريخ يُحدّدُ بالعام ألف ، بل في مفهوم مسلم عاش منذ ألف عام ؟ فالغوصُ الى مكنون النصوص ، والتعاطفُ مع الناس ، وباعتبارهم أمواتا ، محاولةُ « وعي ما لشخصيّتهم من ملامح خفية (تستعصي على التحليل العلمي ، ويحبوها قيمتها الشعورُ الحدسي بالتواصل الانساني وممارسة الصداقة) » (ليفي ستروس) ، جميعُ هذه النواحي تؤلّف في عرفي ، مبادأةً مثيرةً وجديدةً ، يجدرُ بي أنّ أمضي في تنفيذها .

على أنّ هذه المبادأة خطرة أيضاً : فلا بد من تطبيق مناهج تحقيق مجربة وجدية على هذه النصوص لادراك فحواها ، ولا بد ، لفهمها بروح من التعاطف التام الحتمي ، أن يحضر في ذهن الباحث ما اعتمدت عليه من مرتكزات ، وما اهاءها من أخبار ، وما توفر لها من وسائل تعبير . وبوجيز الكلام ، تفترض دراسة هذه المفاهيمَ والأفكار والصور ايضاح جو نشؤ هذه الجغرافية في البدء ، كي يتسنى مجددا وضعها فيه على الدوام . فبهذا الأسلوب ، وبه وحده ، يتم تحاشي خطر الشروح الأدبية التقليدية أو المقارنات الزائفة ، التي تقيد الباحث باستمرار من حيث لا يدري ، بالعودة الى احساسه الخاص .

اعترف ان عزمي وهن ، وملت الى التردد ، عندما وصلت الى هذه النقطة من استقصائي . فقد أصبت بنفاد الصبر ، وأنا أقوم جدول عالم ذهني ، انبأتني مطالعاتي الأولى عن مدى الشغف به ، وبدا لي

ما قمت به من دراسة تمهيدية ، اضطررت الى اجرائها ، حرصا على الاستقامة العلمية ، وكأنه عقبة ، أو ما هو أسوأ منها ، تكرار لأقوال جاءت في أعمال هامر – برغستال ، وربنو ، وفران ، ووستنفيلد ، ناهيك بالجامع الكبير لكل هذه الأبحاث ، أعني تاريخ الأدب الجغرافي الممتاز لكراتشكوفسكي . عندئذ لفت نظري أولئك الذين حثوني على الاقدام على هذا العمل ، الى ان الفرصة متاحة لي ، لكي اباشر ، عن طريق الجغرافيين ، الى دراسة ما تنفرد به الثقافة العربية الأسلامية في القرون الوسطى من أشكال أساسية . ويعبر عن هذه الثقافة بكلمة واحدة ، هي لفظ الأدب . وهذه الكلمة جوهرية ، وسحرية تقريبا ، لا يزال مدلولها مستعصيا جدا على الافهام ، تشمل جميع التصرفات الأجتماعية ، لا سيما ما يتعلق منها ، على وجه التخصيص ، بالثقافة كتراث جماعي . هنا أيضا يصعب المضي قدما في البحث ، وسوف تظل هذه العقبة قائمة ، على أي حال ، ما دامت جميع النصوص ، الوارد فيها هذا اللفظ ، لم يتم حصرها ، ولم تمحص بنهج قويم . ومهما يكن ، الحال. ان التقصي عن أشكال الثقافة العربية الاسلامية ، من خلال ما كتبه الجغرافيون ، اذا لم يأت وافيا شاملا ، فقد جاء طريفا ، وعقلانيا بينا ، بمعنى انه تناول مجموعة نصوص محددة جيدا ، يمكن وضع قائمة كاملة بها . فجملة القول ان الجغرافيين يوفرون لي ما يسميه علماء الاجتماع « المعطيات » .

لم تعد تعترضني سوى عقبة واحدة ، لكنها كأداء وهي تعريف الجغرافية .

تراءت لي نقطة معينة ، لا يسعني التردد فيها طويلا : فموضوع

دراستي يقتصر على نوع من الضمير الوسطي ، ويستبعد هذا التحديد مسبقا بحث العلماء المتخصص والنظري ، الذي تستبهم تقنيته على معظم الناس ، في هذا المجتمع وفي غيره من المجتمعات : فاهملت مصنفات صورة الأرض (علم الخرائط) أو الجغرافية الرياضية والفلكية الصرفة ، التي تدخل دراستها في تاريخ العلوم . وتبقت لدي آنئذ آكام هائلة من النصوص ، قد يتعذر عليها ايصالي الى صميم الضمير الشعبي ، الخالي منه كليا الأدب العربي الكلاسيكي ، لكنها تمكنني من أخذ صورة صادقة عن طبقة الجمهور الوسطى في ذلك الزمن : وهي طبقة مثقفة وغير متخصصة ، تمرست على الأدب ، ويسعها ، من خلاله ، ان تهتم بجميع معارف العصر ، حتى لو استقيت من جغرافية الرياضيين ، شريطة ان تبسط لتلائم مستواها ، وان يعبر عنها بلغة يفهمها الجميع : أي ، بكلمة واحدة ، مثلما قال غرونبوم ، ان « تستأدب » .

بعد اجراء التمييز التمهيدي السابق ، اطرح سؤالا جديداً : مَنْ هم الذين يجوز ان اطلق عليهم اسم جغرافيين ، وأين اعثر على المادة الجغرافية في جميع ما احتفظت به من انتاج أدبي ؟ طبعا ، بالدرجة الأولى ، في المؤلفات الجغرافية بالذات ، ولكن في مؤلفات اخرى أيضا . فالموضوعات الجغرافية اندمجت شيئا فشيئا في ثقافة الانسان الشريف ، واتسع انتشارها رويدا رويدا ، فانتقلت الى الموسوعيين ، وجامعي المختارات الأدبية ، أو حتى الى مصنفات مواضيعها ضيقة وبعيدة جدا أصلا عن اهتمامات الجغرافيين . اذن تقتضي الضرورة استخراج الجغرافية من هذه المكامن : وقد قمت بهذا العمل مستندا الى المبادىء المعروضة في جدول المؤلفين . فاليه احيل احالة واحدة ونهائية .

بقيت مسألة واحدة ، تتعلق بتعريف الجغرافية ، تبين بسرعة ، بعد التدقيق ، أنها احدى القضايا الخاطئة ، الناشئة عن نفور الباحثين من التخلي عن أنظمة احالاتهم وتصنيفهم . فمن الناحية المبدئية ، رأيت نفسي مدفوعا دفعا الى اختيار قسم من الأقسام الأساسية الثلاثة في الجغرافية : أي الجغرافية الرياضية . اذا تناولت الدراسة علاقة الأرض بالاجرام ، والجغرافية الطبيعية ، اذا اقتصرت على الأرض بحد ذاتها ، والجغرافية البشرية ، اذا عنيت بسكانها . وقد استبعدت نصوص علماء الهيئة والكارتوغرافيين ، فاصبحت الجغرافية الأولى غير واردة . ولم يعد علي منطقيا إلا انتقاء أحد القسمين الأخيرين . لكن سرعان ما ظهر لي الخطل في تقديري : فقد أدركت بالفعل ، مثلما قلت فيما سبق ، ان النصوص الأدبية لم تكن خالية من مواضيع الجغرافية الرياضية ، وأنها كانت تكتفي بتكييفها مع طرق تعبيرها ومع جمهورها ، دون أن تتخلى عنها . اذن أصبح ما تركته جانبا ، مع علماء الخرائط والهيئة يقتصر على التعبير الرياضي العلمي والمجرد في هذه المواضيع ، وليس هذه المواضيع بحد ذاتها . وهكذا بدأت أشعر ان الاختيار بين الأقسام الثلاثة المثالية في الجغرافية ، لا يمكن ان يكون إلا كيفيا ، وان النصوص لا تساعد على اجرائه . فحاولت بعض الوقت ، حسبما تسنى لي ، أثناء مطالعاتي ، ان أفصل مواضيع الجغرافية البشرية عن مواضيع الجغرافية الطبيعية والفلكية . فذهبت أتعابي سدى ، لأن المواضيع كانت تتعدى ، مثلما تشاء ، الحدود التي أردت فرضها عليها ، وتتشابك على الدوام ، وكنت أنا ، وأنا وحدي ، أقرر ، هنا وهناك ، اعتمادا على مبادىء البحث المعاصرة ، انتماءها الى أحد فروع الجغرافية .

اذن كان علي ان ارضخ الى الأمر الواقع : فلم يرد في الجغرافية العربية ما يثبت انها لم تكن تعي شمولها ثلاثة ميادين مختلفة . وقد تغر عناوينها القارىء أحيانا ، فتدفعه الى الاعتقاد بوجود شيء من التخصص فيها ، في حين تظل في الواقع علما كليا ، تتعذر تجزئته . وهي موحدة في جوهرها ، لا تفصل لا الأرض ولا الإنسان عن الكائنات الاخرى أو عن خلائق الكون ، ولا تختلف معالجتها المعدن عن معالجتها النبات ، أو معالجتها المدينة عن معالجتها الكائن الحي ، أو معالجتها الانسان عن معالجتها الكون . بالتالي ، أخذتها مثلما ارادت ان تكون : كلية .

لماذا والحالة هذه اتحدث عن الجغرافية البشرية ؟ — لأنني لم أجد تعبيرا أفضل منه يسوغ لي معارضة جغرافية العلماء بهذه الجغرافية الكلية والأدبية معا . بالفعل ، لو رفض الباحث فهم الجغرافية البشرية بالمعنى الضيق الذي يحصرها العلماء فيه اليوم ، عندما يتكلمون عنها، لوافق على صحة تعبيري لثلاثة أسباب . فاولا تعني الجغرافية البشرية ، كما يتوقع المرء ، ان تنصب الدراسة ، التي يتناولها هذا الكتاب على نصوص ومواضيع جغرافية ، يحتل البشر معظم أبحاثها ، لا سيما ان الجغرافية الرياضية أو الطبيعية لا تقابل ابدا تنوع وغنى أوضاع الناس ونشاطاتهم إلا ببعض النماذج المتشابهة ، فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة .

لكن يتجاوز الانسان اطاره الخاص هنا : فالجغرافية البشرية تعني أيضا ان الانسان موجود في كل مكان في الجغرافية الكلية ، وفي مركزها على الأصح ، لأنه في مركز هذه الخليقة التي تدعي الجغرافية انها صورة عنها : أقصد مركزها الأخلاقي الذي تخضع له جميع

المخلوقات وتسخر ، حسب المعتقد الأسلامي ، ومركزها العقلاني والمنطقي ، لأن الانسان وحده ، في الأسلام ، مثلما كان في في نظر اليونان ، صورة عن الكون ، كون صغير . وبالمعنى الحقيقي ، العالم اجمع بشري ، لأنه يتصرف حسب آليات ونواميس تجتمع مصغرة في الانسان : وكما تقول النصوص ، تغتاظ البحار وتهرم الأرض مثل البشر . وتتضمن الجغرافية العربية موضوعا من اقدم المواضيع وأهمها ، ورثته أصلا عن اليونان ، وهو العلاقة بين طبائع البشر وسلوكهم من جهة وبين موقعهم على الأرض وتحت الكواكب من جهة اخرى . بالتالي ، ليس هذا الموضوع ، الذي ترتكز عليه وحده جغرافية بشرية كاملة ، وتعليل شامل لوجود الانسان على الأرض ولاوجه نشاطه ، سوى القضية العكسية المصغرة لموضوع رئيسي ، يقضي ان يكون الانسان احد عناصر أي حدث يهم الخليقة ، أو ، في أضعف الاحتمالات ، مثالا موضحا له .

أخيراً تعني الجغرافية البشرية ، خلافا لتفكير رياضيات الكواكب الذي يفصل الروح عن الجسد ، جغرافية صنعها البشر ، وعلما موضوعه وصانعه الانسان . فهنا تتدخل كائنات حية ، وتظهر باديانها وفلسفتها واذواقها وهمومها . لذا تصبح الحوافزالبشرية عند مؤلفي الجغرافية أساسية في تعريفها : فهي وحدها تكاد تكفي لتمييزها عن جغرافية جغرافيينا ، الذين ربما احمرت وجناتهم خجلا ، في رأيي ، اذا ما تراءى طيفهم ، أو رآهم الناس ، من خلال أعمالهم الفكرية ، باعتبارهم مواضيع جغرافية .

فاذا عرفنا الجغرافية على هذا النحو : واعتبرنا انها تصدر عن

البشر ، وتعالج بأن واحد الانسان ووسطه الطبيعي المتصل به بحكم تنظيم الكون ، أمكننا بحث تاريخها ومواضيعها على التوالي . ويستهدف هذا الكتاب عرض تاريخ الجغرافية .

وينبغي ان اتحدث أيضا ، بمزيد من الاختصار ، عن الحدود المكانية والزمانية . فقد كتب مسلمون هذه الجغرافية باللغة العربية ، وخصّوها بداهة بالدرجة الأولى بالبلدان الأسلامية ، لكن قد يتكلمون أحيانا عن بلدان غير اسلامية بأشكال شتى . فهل يتحتم علي، هنا أيضا ، ان اجرى كيفيا تمييزا آخر في حين لا تفعل النصوص شيئا من ذلك ؟ على أي حال ، تعتبر جغرافية العالم الأسلامي البشرية أيضا جغرافية علاقات هذا العالم بجيرانه ، وجغرافية تصوره الشعوب الشديدة البعد عنه ، وحتى تصوره الأرض بأجمعها . وقد احترمت الطريق التي رسمتها لنفسي ، فرفضت ، فيما يتعلق بدراستي اللاحقة لمواضيع هذه الجغرافية ، ان اتثبت من الموضوعية التاريخية لهذه النصوص ، لكي اتفرغ ، باعتباري عالما اجتماعيا أدبيا ، الى ابراز الصورة التي تعطيها : واترك الى آخرين ، ممن هم أقدر مني ، مهمة تقرير ما اذا كان بالامكان الاعتماد على مثل هذا الوصف لبيزنطية أو الصين ، واطرح على نفسي هذا السؤال الآخر : كيف كان الناس ينظرون الى هذين البلدين في بغداد منذ ألف سنة ؟

أما التاريخ المحدد، ١٠٥٠ ميلادية ، فيعتبره مؤرخو الأسلام وعلماء اجتماعه ، منعطفا حاسما ، بسبب الاحداث الطارئة بعده : مثل ظفر العنصر الطوراني السياسي ، وعودة العرب الى الظهور ، وترسيم السنة ، وازدهار الثقافات غير العربية ، والاختناق الاقتصادي . ولم تنج الجغرافية

من هذا التحول الكبير . على ان وجودها نفسه لم يتعرض للخطر ، شأنه شأن وجود أنماط الفكر العربي الاخرى : فالفلك ، ووصف الأرض أو وصف البلدان امتد وجودها جميعا ، باندفاع عظيم أحيانا ، الى ما بعد العام ألف . أما ما تبدل تبدلا جذريا فعلا ، فهو روح هذه الجغرافية ، مما يدل على انقلابات عميقة تناولت الضمائر . فعندما نقارن المقدسي بابن جبير أو بابن بطوطة ، نلاحظ في تلك الفترة الفاصلة بينهم . زوال ظاهرة هائلة ، كانت ترتكز عليها كل الجغرافية قبل القرن الحادي عشر ، اقصد زوال المملكة ، أي الامبراطورية الأسلامية ، التي كانت ، حتى أثناء انحطاطها ، تغذى الأنتاج الجغرافي بمجمله حتى العام ألف ، والتي اختفت فيما بعد كليا من المصنفات ، دون سبب ظاهر ، ودون ان يشار اليها حتى اشارة عابرة . وهذا الحدث يصور وضعا جديدا قام في القرن الحادي عشر . ومنذ ذلك التاريخ ، انهار نهائيا الحلم الكبير بقيام خلافة واحدة في عالم اسلامي متحد سياسيا واقتصاديا وثقافيا من جهة ، وانتصرت السنة رسميا من جهة اخرى ، فبدا هذان الحدثان وكأنهما يضعان الجغرافية في جو الحذر ، وفي منظور من قصر النظر ، يوضحهما توضيحاً رائعا نمطان أساسيان ن الأدب ، هما المصنفات النقلية والرحلات . وأعطت الأولى مؤلفات شريفة ، لكنها تخلت عن نظرة العالم الشاملة ، وأصبح بعد الآن ما يمكن ان تقدمه هذه النظرة من عظات تابعا للتاريخ : فتاريخ ابن خلدون ، بطابعه العالمي ، وتعديه حدود البلدان الأسلامية ، وتشاؤمه العميق الذي ينكب على التأمل في ماضي البشر ، وعلى ما انجزوه في عالم أعطي لهم ، ينعى جغرافية العالم الأسلامي : فهذه الجغرافية تشهد على الوقائع ، وتاريخ ابن

خلدون يدونها . أما وصف الرحلات ، فيهم مؤرخ اليوم ، لكنه لا يبالي بالأهداف السامية ، وما يشغله هو أن يرتب البلدان والأيام ، على التوالي ، لا أن يعمل مثلما كانوا يفعلون بين القرنين الرابع والعاشر ، فيجعل الزمان والمكان وسيلة بسيطة لايراد خبر ، واخضاع هذا وذاك الى بناء امبراطورية بناء متسقا وشاملا .

أخيراً بقيت صعاب لا حول لنا عليها : أي النصوص المفقودة ، والاسقاطات الواقعة في النصوص المتوفرة لدينا ، والاسنادات المشكوك فيها ، والمخطوطات غير المعروفة حتى الآن والملقى بها في جميع الأماكن ، أو المفهرسة التي تنتظر النشر . فعندما لا نستطيع حل هذه المشكلات ، نشير اليها في النص أو في الحواشي ، كلما طرأت . مع ذلك ، يدفعني حجم النصوص المتبقية ، لحسن الحظ ، الى الاعتقاد ان هذه العقبات لن تغير تغييراً أساسياً الأستنتاجات المستخلصة بشأن تاريخ الجغرافية العربية ومواضيعها .

وقد تبنيت في نقل الألفاظ العربية الى الفرنسية الأسلوب المسمى « المرصوص » ، مع بعض التعديلات الطفيفة : فجعلت الألف المقصورة«a» ،والتزمت بالنقل الأصلي الخاص بالقاف«q»في احالاتي الى بعض الكتاب بالمحافظة على : K ،ولم اؤد همزة اوائل الكلم . أخيراً ابقيت الاملاء الفرنسي لبعض الكلمات العربية على حاله مثل العراق وقاضي وبغداد ، بعد ان أصبح مألوفا عندنا .

وتسهل الصفحات السابقة تقدير ما أنا مدين به من ارشادات وتشجيع : أولا للسيد ش . بيلا الذي قبل الأشراف على هذا العمل ، وقام

به بتمكن وعطف سواء بسواء ، ثم للسيدين ر . بلاشيرو هـ . لاووست اللذين ساعداني معه على اختيار هذا الموضوع ، وللسيد وايت الذي مدني بأكثر من نص ، وللسيد برودبل أيضا الذي ادخل هذا الكتاب في مجموعة الكتب المنشورة برعاية القسم السادس في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا .

باريس ، أيلول ١٩٦٦

* * *

ثبت المؤلفين

أودُّ أنّ ألفت الأنظار الى أنّ اهتمامين مختلفين أوحيا اليّ بالصفحات التالية :

— ١ —

آ — أردت في البدء أن أنظمّ ثبتاً بالكتّاب ، يتمثّل في وضع لائحة تحوي أسماء المؤلفين بالمعنى الصحيح ، وتشتمل على الكتّاب الذين تتضمّن مصنّفاتهم علاقة ، مهما كان نوعها ، بالجغرافية أو بالمواضيع الجغرافية (باستثناء الجغرافية الرياضية والفلكية الصرفة) : بتعبير آخر ، توخّيت أن أقدم هنا قائمةً إجمالية بالأسماء الواردة في متن شتى الفصول وحواشيها . وينطوي كلّ عنوان منها على اسم المؤلف ، وعلى تعريف موجز بكتبه ، وعلى المراجع الخاصة به : أقصد المراجع الأساسية في حالة المؤلفين الكبار ، المرموقين في الأدب العربي ، والمراجع المفصّلة بمزيد من الإسهاب ، لحالات ، يكون الإلمام بها ضعيفا ، أو النزاع بشأنها قائما ، أو تعالج الجغرافيين بالمعنى الدقيق . وقد ضمّنتُ عند الاقتضاء شروح هذه العناوين مناقشات تتناول بعض النقاط التفصيلية ، لأني خشيت أنْ أثقلَ حواشيَ كتابي بما يخرج عن نطاق المألوف .

ب — وسوف أميّز :

— المؤلفين الذين حُفِظَتْ مؤلفاتهم ، كاملةً وسليمة (النص المنشور أو المخطوط) ومفرَّدة جيدا .

— والمؤلفين (المفرَّقين بعلامة نجمية) الذين فُقدت مؤلفاتهم أو لا تُعرف إلاّ بمقاطع أو بتنويهات بسيطة أوردها كتّاب متأخرون .

ويتضح بداهة أنني لم آخذ بعين الاعتبار ، في حالة الكتّاب المكثرين ، إلا المؤلفات ، المحفوظة أو المفقودة ، التي تهمّ موضوعي على النحو المحدّد في الفقرة آ .

جـ — وصنّفتُ المؤلفين حسب التسلسل الزمني ، استناداً الى تاريخ وفاتهم (أو الى مرتكزات اخرى عندما يكون تاريخ الوفاة مجهولا) . وأعني بالمؤلفين محرّري مصنّفٍ كُتِبَ ، أو ، في حالة المصنّف المفقود ، يُفْتَرَضُ أنّه كُتِبَ ، واستبعدتُ الإخباريين العاديين : فلم أذكر مثلا خالد البريدي ، إخباري المقدسي (الترجمة الفرنسية ، فقرة ١٢٣) ، ولا أسرى بيزنطية (الروم) المسلمين الذين سجّل ابن حوقل أقوالهم (ص ١٩٥) . بالمقابل ، ذكرتُ في جملة مَنْ ذكرتُهم عمارة بن حمزة ، لأن الفاصل الزمني بينه وبين ابن الفقيه الذي يشير اليه ، ينطوي على تناقل مصنّف مكتوب ، وبالأولى الغزال ، الذي تفصله عن ناقليه مدة زمنية أطول أيضاً .

— ٢ —

وبعد أنْ وضعتُ على النحو السابق مخطّط تاريخ المواضيع الجغرافية من خلال ثبت المؤلفين المدروسين في هذا المجلد ، بدا لي مفيداً أن أختار منذ الآن المؤلفين الذين ينبغي عليّ الاعتماد عليهم في كتاب لاحق من أجل دراسة ، لا تاريخ المواضيع الجغرافية ، بل مضمونها ،

بتعبير آخر ، من أجل دراسة العالم مثلما رأتْهُ جغرافيةُ تلك الأيام ، ممّا يؤول الى طرح السؤال التالي : تنتشر المواضيع الجغرافية في جميع الأماكن في هذا الانتاج الهائل من الأدب العربي ، فأين تقع الجغرافية فيه ، وكيف تُحدَّدُ ، ومَنْ هو الجغرافي ؟ أظنّ أنّ بامكاني الانطلاق من القرائن الآتية :

آ ــ أولاً ، على مستوى التسلسل الزمني ، احتفظُ فقط بالمؤلفين الذين ثَبَتَ أنْ مؤلفاتهم كُتِبَتْ قبل عام ١٠٥٠ م . واذا لم يتأكّد تاريخ التأليف ، أخذتُ بعين الاعتبار نضوج المؤلف واستخلصتُه جهد المستطاع ، من تاريخ الولادة أو الوفاة ، وتبيّنتُ وقوعَه أصلا قبل عام ١٠٥٠ م أو بعده . لذلك استبعدتُ العذري والبكري مثلا (أنظر الفصل ٨ ، حاشية ١١٥٣) . وأنظر الفصل ٦ لحالة البيروني الخاصة .

ب ــ أمّا على مستوى الموضوعات ، ومع أخذ القضية المطروحة بعين الاعتبار ،أي تعيين المادة الجغرافية ،فسوف استغلّ في المجلدالثاني :

١ ــ استغلالاً كلياً : المؤلفات التي يرتبط مضمونها ارتباطا مباشرا بالجغرافية ، أي المؤلفات المشار اليها في الفصول ٣ (باستثناء الشابشتي : انظر فيما يلي الفقرة ٢) و ٤ و ٥ و ٨ ، يضاف اليها في الفصل السابع : الهمداني ، وتقويم قرطبة ، والرازي والورّاق ، ومعجم اسحق بن الحسين . واقصد بالاستغلال الكلي ، أنْ استقيمَن المؤلفات ، التي تعتبر جغرافية ، جميعَ المعطيات ، بما فيها المعطيات غير الجغرافية بالمعنى الصحيح : لأن التاريخ مثلا ، على نحو ما جاء عند ابن حوقل أو المقدسي ، يؤلف جزءاً لا يتجزأ من المسالك والممالك .

٢ — واستغلالا جزئيا : مؤلفات الموسوعيين ، سواء كانوا جمّاعي مختارات ، وكتّابا مكثرين ، في أقسامها أو مقاطعها التي تبحث في الجغرافية (بالمعنى الضيّق أو الواسع : كعلم الأجناس ، وعلم الأحياء). فيقع على عاتقي إذن هنا أنْ استخلصَ الجغرافية من بحث أعمّ يتجاوزها. فلاّ بد ، بالتالي في هذه الحالة ، أن أقتصر على الجغرافية ، إذ أن التاريخ والعلوم الدينية أو الحديث ، التي يجيء بها المؤلفون المعنيون ، تدخل في نطاق بناء كلي ، ولا يمكن أن تُنْسَبَ الى الجغرافية ، كما هي الحال في الوضع السابق . والمؤلفون المستغلون على هذا النحو هم مؤلفو الفصل ٢ و ٦ ، يضاف اليهم في الفصل الثالث : الشابشتي ، وفي الفصل السادس : الثعالبي وابن النديم .

٣ — ولن استغلّ مطلقا : المؤلفين (مؤرخين ، جمّاعي مختارات ، كتّاب مكثرين وغيرهم) الذين يخرج كلامهم صراحة عن موضوع الجغرافية (بما فيه « جغرافية » الخطط الطوبغرافية التي ليست سوى شكل من التاريخ الصرف) . وتكون الجغرافية عندهم ، بالتالي مسخّرة لخدمة التاريخ ، أو موجودة كاهتمام أدبي الخ . وهكذا استبعدتُ مؤلفي الفصلين السادس والسابع ، ما عدا المؤلفين الذين أشرتُ اليهم في الفقرة ٢ . وبالنسبة الى المؤلفين المقصودين هنا ، أكتفي ببعض إحالات تختصّ بنقاط أعتبرها هامة لأنها توضح العلاقات بين المواضيع الجغرافية والأدب .

جـ — وعلى المستوى المنهجي الأدقّ ، لن أذكر في المجلد اللاحق المؤلفات المفقودة والمحفوظة لدى مؤلفين متأخرين ، إلا اذا وقع هؤلاء المؤلفون خارج الإطار الزمني المحدد في الفقرة ١ — جـ . مثلا ،

أذكر ابراهيم بن يعقوب (حفظه البكري والقزويني اللذان كتبا بعد عام ١٠٥٠) ، لكن لا أذكر هارون بن يحيى (حفظه ابن رسته ، الذي يدخل ضمن الحدود الزمنية الخاصة بدراستي) . ووفقا لما قيل في الفقرة ١ ــ ب ، آخذُ بعين الاعتبار ، لتحديد هذه المصنفات المفقودة ، لا حجم المقاطع المحفوظة نفسه (على هذا النحو ، أذكر المغرورين أو غزال ، ومقاطع مصنفاتهم المحفوظة ضئيلة جدا) ، بل إمكانية إعادة النصوص فعلا الى مؤلفيها : فاستبعدُ مثلا ، في إطار هذا التفكير ، سنان بن ثابت بن قرة ، الذي ذكره البيروني ، بطريقة متداخلة جدا لا تسمح بالتمييز (انظر الفصل ٧ ، الحاشية ١١١١)

د ــ وسوف ترد أسماء المؤلفين أو مؤلفاتهم المحتفظ بها للمجلد اللاحق في لائحة خاصة (ثانيا) بصيغة مقتضبة في شرح المجلد المشار اليه .

* * *

أولا ـ ثبت المؤلفين المدروسين في المجلد الحالي

* **موسى بن نصير (١٩ هـ / ٦٤٠ م ـ ٩٨ هـ / ٧١٦ ـ ٧١٧ م)**

موسى بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء ، أبو عبد الرحمن . فاتح الأندلس الشهير . غزا افريقية ، واستولى على الأندلس . ويقال أنه خلف أخبار « العجائب » التي صادفها أثناء حملته الافريقية . وهو الشخصية الرئيسية في أساطير مدينة النحاس ووادي الرمل ، التي نقلها عنه ابن الفقيه على وجه التخصيص . انظر المسعودي ، مروج الذهب ، فقرة ٤٠٩ .

* **ابن السائب الكلبي (٠٠ / ٠٠ ـ ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م)**

محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي ، أبو النضر . مؤلف معجم على طريقة الأصمعي (انظر هذا الأسم) . وكتب وصفا لعيون الماء في الجزيرة العربية (مناهل العرب) ، فُقِدَ مع الأسف . انظر بروكلمان ، م ١ ، ج ٣ ، ص ٧٣٠ ، وفصل ٧ ، حاشية ١٠٤٦

* **ابن ميمون (٠٠ / ٠٠ ـ ١٩٩ هـ / ٨١٤ م)**

عمارة بن حمزة بن ميمون ، من ولد عكرمة مولى ابن عباس . وهو مولى المنصور ؟ ، الذي أرسله بسفارة الى القسطنطينية . اعتمد ابن الفقيه على أخباره (حوالي ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م) في الصفحات ١٣٧ ـ

١٣٩ . بالتالي يستدل من الفاصل الزمني بينه وبين ابن الفقيه ان مصنف عمارة كان مكتوبا . انظر احالات المراجع التي أعطاها دي خويه ، مشار اليه ، ص ١٣٧ ، حاشية ه .

* **النضر بن شميل (١٢٢ ه / ٧٤٠ م — ٢٠٤ ه / ٨١٨ — ٨١٩ م)**

النضر بن شميل بن حرشة بن يزيد المازني التميمي ، أبو الحسن . أحد أعلام الأدب . صاحب معجم (الصفات) خاص بأماكن الجزيرة العربية ، وببعض نواحي الحضارة أيضا ، وأسماء الزروع ، والحيوانات ، والظاهرات الجوية . من مصنفاته أيضا « كتاب الانواء » . تبدو جميع مؤلفاته مفقودة . انظر تاع ، ج ١ ، ص ١٠١ ، ورينو ، ص ٥١ روماني .

ما شاء الله (٠٠ / ٠٠ — ٢٠٥ ه / ٨٢٠ م)

ما شاء الله بن سارية . عالم يهودي ومنجم شهير . ألف كتاب انواء مبنيا أساسا على اعتبارات تنجيمية (انظر المقالة المشار اليها فيما بعد ، لليفي ديلا فيدا ، ص ٢٧١ وما يليها ، ومصنفا ، وصلتنا منه بعض المقاطع ، عن أسعار المواد الغذائية . انظر كارادي فو ، « مفكرو الأسلام » ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ، و م . ستينشنايدر « الأدب العربي في اليهودية » ، فرانكفورت على المين ، ١٩٠٢ ، ص ١٥ — ٢٣ (تفصيل التصانيف ص ١٦ وما يليها) ، وت اع ، الملحق ، ج ١ ، ص ٣٩١ — ٣٩٢ ، وغ . ليفي ديلا فيدا « رسالة فلكية لما شاء الله » ، في مجلة الدراسات الشرقية ، ١٤ روماني ، ١٩٣٣ — ١٩٣٤ ، ص ٢٧٠ — ٢٨١ (مع لمحة اجمالية عن مصنفاته) ، و ش . بيلا ، الوسط ،

ص ٢٣٠ ، وكراتشكوفسكي ، ص ٦٥ (٧٠) ، ٦٨ (٧٢) ، ٧٣ (٧٦) .

* **ابن السائب الكلبي (٠٠ / ٠٠ — ٢٠٦ هـ / ٨٢٠ م)**

هشام بن محمد أبي النضر ابن السائب بن بشر الكلبي ، أبو منذر . ابن محمد بن السائب . يمثل الاتجاه المعجمي العربي « الموسع » على طريقة النضر بن شميل (انظر هذا الأسم) . يبدو ان هشام يوسع أيضا في كتابه « اشتقاق البلدان » ، المفقود مع الأسف ، مجال التحقيق المعجمي ، ويجعله يشمل أسماء أماكن البلدان الخارجة عن الجزيرة العربية انظر ش . بروكلمان ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٧٣٠ — ٧٣١ ، و ت أع ، ج ١ ، ص ١٤٤ — ١٤٥ ، والملحق ، ج ١ ، ص ٢١١ — ٢١٢ .

* **الاصمعي (١٢٢ هـ / ٧٤٠ م — ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م)**

عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي ، أبو سعيد الأصمعي معجمي شهير ، تناولت ابحاثه على وجه التخصيص أسماء الأماكن في الجزيرة العربية دون غيرها من البلدان . افاد ياقوت على وجه التخصيص من كتابه « جزيرة العرب » . انظر ب . ليوين ، م١ ، (٢) ، ج ١ ، ص ٧٣٩ — ٧٤٠ .

* **أبو عبيد (١٥٤ هـ / ٧٧٠ م — ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ — ٨٣٨ م)**

القاسم بن سلام الهروي الازدي الخزاعي بالولاء ، الخرساني البغدادي ، أبو سعيد . من كبار العلماء بالنحو والحديث والفقه . سار في الاتجاه المعجمي وتحديد الأماكن ، لا سيما في كتابه « الغريب المصنف » ، على نهج النضر بن شميل ، واستوحى منه (انظر هذا

الاسم) : انظر ت ا ع ، ج ١ ، ص ١٠٥ — ١٠٦ ، والملحق ، ج ١ ، ص ١٦٦ — ١٦٧ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٢٠ (١٢٦) ، وهـ . ل . غوتشالك ، م ١ ، (٢) ، ج ١ ، ص ١٦١ — ١٦٢ .

عرام بن الاصبغ (٠٠ / ٠٠ — ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م)

عرام بن الاصبغ السلمي . كان اعرابيا من بني سليم . احد ممثلي التأليف المعجمي العربي . اهتم حصراً بالجزيرة العربية ، لكنه تجاوز اطار ايراد الأسماء البسيط فيما يتعلق بالأماكن ، مثلما فعل نضر بن شميل (انظر هذا الاسم) . قلد أبو الاشعث الكندي (انظر هذا الاسم) مصنفه « اسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه » . والهم أبو الاشعث الكندي (انظر هذا الاسم) بدوره أبا عبيد (عبيد الله) السكوني (انظر هذا الاسم) . الفصل السابع (والحاشية صفحة ١٢٧ من الترجمة العربية لكتاب كراتشكوفسكي) والبكري ، معجم ما استعجم ، المشار اليه عند كراتشكوفسكي ، ص ٢٧٨ (٢٧٧) .

الخوارزمي (٠٠ / ٠٠ — بعد ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م)

محمد بن موسى الخوارزمي ، أبو عبد الله . منجم شهير في عصر المأمون (٨١٣ — ٨٣٣) ، ومؤلف أول « كتاب صورة الأرض من المدن والجبال الخ . . » ، ورائد الجغرافية الرياضية . مع ذلك يأتي بمعارف تتفق والذوق العام في عهده . انظر ا . وايدمان ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٩٦٥ — ٩٦٦ ، و ت ا ع ، ج ١ ، ص ٢٥٧ ، والملحق ، ج ١ ، ص ٣٨١ — ٣٨٢ ، وكراتشكوفسكي ، ص ٩١ وما يليها (و ٩٨ وما يليها) ، واماكن أخرى متفرقة .

الازرقي (٠٠ / ٠٠ — ٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م)

محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق ، أبو الوليد الأزرقي . يمثل ، هو والفاكهي ، أدب وصف الأماكن المقدسة في الجزيرة العربيةوتاريخها . انظر و . فوك ، م١ ، (٢) ، ج١ ، ص ٨٤٩ — ٨٥٠ .

* **الغزال (١٥٣ هـ / ٧٧٠ م — ٢٥٠ هـ / ٨٦٤)**

يحيى بن الحكم البكري الجياني ، المعروف بالغزال . أرسله عبد الرحمان الثاني على التوالي رسولا الى الامبراطور البيزنطي تيوفيل والى نورمان جوتلند . وترك أخباراً ، لا نعرف إلا شذرات مقتضبة منها جاءت في نصوص متأخرة جدا : لدى ابن دحية (القرنان ١٢ و ١٣) ، ولدى المقري (القرنان ١٦ و ١٧) (انظر المراجع) . عرف أيضا كنديم وشاعر . انظر ليفي بروفنسال « تبادل السفارات بين قرطبة وبيزنطية (الروم) في القرن التاسع » ، في بيزنتيون ، ١٩٣٧ ، ص ١ — ٢٢٤ ، وفاسيلييف ، « بيزنطية والعرب » ، ج١ ، ص ١٨٦ — ١٨٧ (فيه مراجع) ، وه . بيريس ، « الشعر الأندلسي بالعربية الفصحى في القرن الحادي عشر » ، باريس ، ١٩٥٣ ، الطبعة الثانية ص ٤٤ — ٤٥ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٣٣ — ١٣٤ (١٣٥ — ١٣٦) ، و ١٠/أ . هويسي ميراندا ، في م ١ ، (٢) ، ج ٢ ، ص ١٠٦٢ ، والكتب الواردة في المراجع (لفظ غزال) .

الجاحظ (١٦٣ هـ / ٧٨٠ — ٢٥٥ هـ / ٨٦٩)

عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء ، أبو عثمان ، الشهير بالجاحظ . احد عظماء الكتاب المكثرين وكتاب النثر العرب . عاش في

الفترة الأساسية لنشوء الجغرافية العربية التي يعتبر رائدا من روادها من بعض النواحي . انظر رينو ، ص ٥٢ — ٥٣ روماني ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٢٣ — ١٢٦ (١٢٨ — ١٣٠) ، ولا سيما ش . بيلا ، م١ ، (٢)، ج٢ ، ص ٣٩٥ — ٣٩٨ (وبه مراجع) . انظر أيضا الاحالات الواردة في الفصل الثاني ، وأماكن متفرقة .

* **الجرمي (٠٠ / ٠٠ — ٠٠ / ٠٠)**

مسلم (أو محمد) بن أبي مسلم الجرمي . لست على بينة من حقيقة اسمه (هل هو الجرمي أم الخرمي ؟) . فقدت جميع تصانيفه تقريبا . لعله كتب مؤلفا ، في عهد الواثق بالله (٢٢٨ — ٢٣٣ هـ / ٨٤٢ — ٨٤٧ م) عن تنظيم الروم والابر والبلغار والصقالبة والخزر وتقاليدهم . وقد افاد ابن خرداذبه من معطياته ، ص ١٠٥ — ١٠٨ (وص ١١٣ على الارجح) ، الترجمة ، ص ٧٧ — ١٨٠ (أو ص ٨٦) ، باستثناء المقطع ص ١٠٦ — ١٠٧ (الترجمة ، ص ٧٨ — ٧٩) : أي قصة أصحاب الرقيم المروية عن محمد بن موسى (انظر هذا الأسم) . انظر المسعودي ، كتاب التنبيه والاشراف ، ص ٢٥٧ — ٢٥٨ ، وفاسيليف ، « بيزنطية والعرب » ، ج١ ، ص ٢٠٣ ، وماركارت ، ستريفزوج ، ص ٢٨ — ٣٠ ، و ت ا ع ، الملحق ، ج١ ، ص ٤٠٤ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٣١ — ١٣٢ (١٣٤) .

* **سلام المعروف بالترجمان**

موظف عند الخليفة الواثق بالله (انظر ما تقدم) ، قام برحلة استغرقت ٢٨ شهرا في آسية الوسطى ليعاين سد يأجوج ومأجوج (جدار

الصين الكبير) . فعاد بخبره (وكتبه في كتاب للواثق ، لكنه حدث ابن خرداذبه بجملة هذا الخبر) المليء بالعجائب . ونقله عن ابن خرداذبه ابن الفقيه وابن رسته . ونشير اشارة عابرة الى ان عبد الله بن طاهر اغاث سلاما في طريق عودته . ويحدد بعض المؤرخين وفاة عبد الله بن طاهر بعام ٨٤٢ ، لكننا ، اعتمادا على تاريخ رحلة سلام ومدتها ، نستطيع أن نجعل وفاته في عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م ، وهذا التاريخ أكثر قبولا . انظر ابن خرداذبه ، ص ١٦٢ وما يليها ، وابن رسته ، ص ١٤٩ — ١٥٠ (ترجمة ، ص ١٦٧ ، حاشية ٧ ، مع المراجع) ، ورينو ، ص ٥٥ — ٥٦ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٣١ (١٣٤) .

أخبار الصين والهند

مصنف كتبه مؤلف مجهول عام ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م . له أهمية أساسية بتاريخه (فهو أول التصانيف المعروفة عن الرحلات الى الشرق الأقصى) وبنوعية قصصه (انظر مدخل سوفاجيه) . قلده بعض المؤلفين اللاحقين . بشأن ما يثيره كتاب أخبار الصين والهند من قضايا ، انظر كراتشكوفسكي ، ص ١٤١ — ١٤٢ ، ولا سيما سوفاجيه (عد الى المراجع) في أماكن متفرقة .

ابن عبد الحكم (٠٠ / ٠٠ — ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م)

عبد الرحمن بن علي بن عبد الحكم ، أبو القاسم . مؤرخ . من كتبه ، « فتوح مصر والمغرب والأندلس » ، الذي يدخل في عداد تصانيف نمط الخطط في اوائل عهدها . انظر تاع ، ج١ ، ص ١٥٤ ، والملحق ، ج١ ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

• **محمد بن موسى**

يبدو ان حامل هذا الاسم قام برحلتين بأمر من الخليفة الواثق بالله . وتوجهت الرحلة الأولى الى آسية الصغرى لرؤية أصحاب الرقيم ، وحفظ لنا جانبا منها ابن خرداذبه (ص ١٠٦ — ١٠٧ (والمسعودي (انظر مايلي) . وتوجهت الرحلة الثانية الى الخزر ، وترتبط برحلة سلام الترجمان . ولا شك ان الشخص المقصود هو محمد بن موسى ابن شاكر ، الذي حصل احيانا ، هنا وفي حالات اخرى ، التباس بينه وبين حامل الاسم نفسه ، الشهير مثله بالفلك والرياضيات ، أي محمد ابن موسى الخوارزمي ، المشكوك بتاريخ وفاته (محمد بن موسى بن شاكر متوفى ، عام ٢٥٩ هـ / ٨٧٣ م) . فاذا سلمنا (انظر ج . روسكا ، « بنو موسى » ، م ١ ، ج ٣ ، ص ٧٩٢) بوجود فارق بالسن ، كبير بعض الشيء (جيل بلا شك) بين الرجلين ، باعتبار محمد بن موسى بن شاكر أصغر سنا ، ووصل الى أشده في عصر المأمون (٨١٣ — ٨٣٣) ، يصبح تاريخ الرحلتين في عهد الواثق بالله يشير الى رجل في عنفوان شبابه بالنسبة الى محمد بن موسى بن شاكر ، والى شيخ عجوز بالنسبة الى محمد بن موسى الخوارزمي . مما يدفعنا الى اختيار الأول ، على الرغم من رواية المقدسي (المشار اليها فيما سبق) التي يذكر فيها صراحة محمد بن موسى الخوارزمي في رحلة الخزر ، معطيا مثالا آخر على الالتباس المتواتر بين الرجلين ، ويشير المسعودي (التنبيه والاشراف ، ص ١٣٤ ، الترجمة ، ص ١٨٦ ، مكررا ما جاء في المروج ، فقرة ٧٣٠) بالصراحة ذاتها في كلامه عن رحلة آسية الصغرى ، الى ان اسم الرحالة محمد بن موسى بن شاكر . انظر المقدسي ، طبعة دي خويه ،

ص ٣٦٢ ، وابن خلكان ، ج٤ ، ص ٢٤٧ – ٢٤٩ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٣٠ – ١٣١ (١٣٣ – ١٣٤) .

الكندي (٠٠ / ٠٠ – نحو ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م)

يعقوب بن اسحاق بن الصباح الكندي ، أبو يوسف . الفيلسوف والعالم الشهير . من تصانيفه ، « رسم المعمور » وهو خرائط وصور عن الأرض ، و « المد والجزر » . وقد حفظت كتبه المتصله بالجغرافية في ترجماتها اللاتينية أو في مقاطع وردت عند المؤلفين المتأخرين ، لا سيما المسعودي . انظر المسعودي ، التنبيه والاشراف ، الترجمة ، ص ٧٧ ، وت١ ع ، ج١ ، ص ٢٣٠ – ٢٣١ ، والملحق ، ج١ ، ص ٣٧١ – ٣٧٤ ، وكراتشكوفسكي ، ص ٩٩ – ١٠٠ (١٠٥) وأماكن متفرقة .

*** أبو الاشعث الكندي (القرن التاسع)**

عبد الرحمن بن عبد الملك ، أبو الاشعث الكندي . هو ممثل اتجاه تدوين اسماء الأماكن على حروف المعجم . قال ياقوت انه ألف مصنفا عن جبال تهامة ، استوحاه ، على ما رواه البكري ، من مصنف عرام بن الاصبغ (انظر هذا الاسم) . والهم مصنف أبي الأشعث بدوره أبا عبيد (عبيد الله) السكوني (انظر هذا الاسم) . لا نعلم شيئا عن حياته . انظر احالات الفصل السابع ، حاشيه ١٠٤٦ ، والبكري ، معجم ما استعجم ، على ما ذكره كرتشكوفسكي ، ص ٢٧٨ (٢٧٧) .

الفاكهي (٠٠ / ٠٠ – ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م)

محمد بن اسحاق بن العباس الفاكهي ، أبو عبد الله . مؤرخ . يمثل ،

هو والأزرقي ، أدب وصف الأماكن المقدسة وتاريخها . انظر روزنتال ، م۱ ، (۲) ، ج ۲ ، ص ۷۷۵ .

* **المروزي (۰۰ / ۰۰ – ٢٧٤ هـ / ۸۸۷ م)**

جعفر بن أحمد المروزي ، أبو العباس . صنف كتاب مسالك وممالك يبدو مفقوداً . انظر الفهرست ، ص ١٥٠ ، وياقوت معجم الأدباء ، ج۷ ، ص ١٥١ ، وكراتشكوفسكي ، ص ۱۲۷ (۱۳۱) .

ابن قتيبة (٢١٣ هـ / ٨٢٨ – ٢٧٦ هـ / ۸۸۹ م)

عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، أبو محمد . مصنف مكثر شهير . حول علاقته. بالجغرافية ، انظر الفصل الثاني . وحول ابن قتيبة ، انظر ج . لوكونت ، ابن قتيبة ، اشير اليه .

البلاذري (۰۰ / ۰۰ – ۲۷۹ هـ / ۸۹۲ م)

أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري . أول المؤرخين العرب الكبار . أثبت نوعية هذا النمط الأدبي وطرافته ، لا سيما فيما يتعلق بعلاقاته بالجغرافية . انظر ف . روزنتال ، م۱ (۲) ، ج۱ ، ص ۱۰۰۱ – ۱۰۰۲

* **ابن طيفور (٢٠٤ هـ / ۸۱۹ – ۲۸۰ هـ / ۸۹۳ م)**

أحمد بن طيفور (أبي طاهر) الخراساني ، أبو الفضل . مؤرخ ، له « تاريخ بغداد » ، الذي وصلنا ؟ (طبع) منه الجزء السادس فقط . يحتمل ان هذا الكتاب يشتمل على مدخل طوبوغرافي مثل مدخل كتاب الخطيب البغدادي . انظر ش . هوار ، م۱ ، ج۲ ، ص ۳۷۹ ، و ت۱ع ، ج۱ ، ص ١٤٤ ، والملحق ، ج۱ ، ص ١١٠ .

الدينوري (٠٠ / ٠٠ ــ ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م)

أحمد بن داود بن ونند الدينوري ، أبو حنيفة . ألف كتاب القبلة ، وكتاب الانواء ، وكتاب النبات على أساس معجمي . تستنتج بشأنه كمؤرخ النتائج ذاتها التي استخلصت بالنسبة الى البلاذري (انظر هذا الاسم) . انظر ب . ليوين ، م١ (٢) ، ج٢ ، ص ٣٠٨ ،وكراتشكوفسكي ص ١١٨ (١٢٤) .

* **ابن الطيب السرخسي (٠٠ / ٠٠ ــ ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م)**

أحمد بن محمد بن مروان بن الطيب ، أبو العباس . قرأ على الفيلسوف والعالم الكندي (يعقوب بن اسحاق) . ويعتقد انه صنف كتابا حسنا في المسالك والممالك والبحار والأنهار وأخبار البلدان وغيرها ، ومختصر كتب المنطق ، وكتاب « منفعة الجبال » وكتاب أركان الفلسفة وتثبيت علم أحكام النجوم . علّم المعتضد بالله ، ونادمه وخص به ، ثم قتله المعتضد عام ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م ، فهو اذن معاصر لابن خرداذبه . انظر ابن رسته ، ص ٦ ؛ (ترجمة ، ص ٤ ، حاشية ١) ، والمسعودي ، مروج الذهب ، الفقرة ٢٦٨ ، ٢٧٧ ، ٢٩٧ ــ ٢٩٨ ، وج٢ ، ص ٣٠٧ ــ ٣٠٩ ، وج ٨ ، ص ١٧٩ . والتنبيه والاشراف ، الترجمة ، ص ٧٧ ، ٨٩ ، ١٠٩ ، وابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٦١ ــ ٢٦٢ ، و ت اع ، ج١ ، ص ٢١٠ ــ ٢١١ ، والملحق ، ج١ ، ص ٣٧٥ ، ٤٠٤ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٢٧ ــ ١٢٨ (١٣١) ، وروزنتال ، السرخسي ، اشير اليه ، ص ٥٩ ــ ٦٠ ، وغيرهما ، ودونلوب ، « البلخي » ، م١ ، (٢) ، ج١ ، ص ١٠٣٤ .

ابن خرداذبه (نحو ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م ـ نحو ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م)

عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه ، أبو القاسم . صنف كتاب المسالك والممالك ، أول كتاب وصل الينا يحمل هذا العنوان ، حرره عام ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م ، واجرى عليه اضافات بيده حوالي ٢٧٢ هـ / ٨٨٥م . وهو يمثل مؤلفات الوثائق الفنية اللازمة للموظفين . مع ذلك تشتمل بعض مقاطعه ، التي تنفرد بها بلا شك نسخة عام ٢٧٢ هـ المنقحة . على نطاق لا يزال محدودا ، على بعض موضوعات الأدب المألوفة . وقد صنف ابن خرداذبه أيضا كتب تاريخ وأدب . انظر المسعودي ،مروج الذهب ، فقرة ٥٠٣ ، وج ٨ ، ص ٨٨ ـ ١٠٠ ؛ والمقدسي ، ص ٤ ـ ٥ ؛ ورينو ، ص ٥٧ روماني ، ودي خويه ، المدخل الى ج٦ ، من م ج ع ، و س . فان أرندونك ، م١ ، ج ٢ ، ص ٤٢٢ ، وت ا ع ، ج١ ، ص ١٥٨ ، والملحق ، ج١ ، ص ٤٠٤ ، وبلاشير ، م ج ع ، ص ١٧ ـ ٢٢ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٤٧ ـ ١٥٠ (١٥٥ ـ ١٥٨) .

اليعقوبي (٠٠ / ٠٠ ـ بعد ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م)

أحمد بن اسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي ، أبو العباس . توفاه الله في السنوات الأخيرة من القرن التاسع أو الأولى من القرن العاشر . صنف كتاب البلدان عام ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ ـ ٨٩٠ م . يتميز بأهمية الاسهام الشخصي والوثائق المباشرة ووثائق الرحلات . لا شك انه ألف للغاية ذاتها التي ألف لها ابن خرداذبه كتابه ، إلا ان موضوعات الأخبار المباشرة تتدخل هنا تدخلا حاسما . ويعثر على الاهتمام ذاته في مؤلف اليعقوبي التاريخي الذي يظل مع ذلك مختلفا

اختلافا كليا عن جغرافية البلدان (انظر الفصل السادس فيما يلي) . انظر ياقوت ، معجم الأدباء ، ج٦ ، ص ١٥٣ ــ ١٥٤ ، ورينو ، ٦١ روماني ، ودي خويه ، مجع ، ج٧ ، ص٧ ــ ٨ روماني ، وش . بروكلمان ، م١ ، ج٤ ، ص ١٢١٥ ــ ١٢١٦ . وتع ، ج١ ، ص ٢٥٨ ــ ٢٦٠ ، والملحق ، ج١ ، ص ٤٠٥ ، ووايت ، المدخل الى كتاب البلدان ، اشير اليه ، وبلاشير ، مجع ، ص ١١٠ ــ ١١٦ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٥١ ــ ١٥٤ (١٥٨ ــ ١٦١) .

* **هارون بن يحيى**

اسير عند الروم ، زار القسطنطينية وسلوقية والرومية . ترك عن هذه الرحلة رواية استخدمها المؤلفون اللاحقون ، لا سيما ابن رسته ، مما يضعف صحة التاريخ ٣٠٠ ه : ٩١١ م ، المحدد لرحلته . أما ما قاله عز الدين (مذكور فيما يلي) من ان حرية تجواله في القسطنطينية ، وعلى نطاق أضيق ، اهتمامه بالكنائس وعدم اكتراثه بالجوامع ، فتعزى الى كونه مسيحيا تخمينا ، إلا ان م . كانار دحض هذا التأويل ، « العلاقات السياسية والاجتماعية بين الروم والعرب » ، في وثائق دمبرتون اوكز ، ١٨ روماني ، ١٩٦٤ ، ص ٤٥ ــ ٤٦ ، الذي يثبت ان حرية التنقل هذه كانت أوسع مما نميل الى الافتراض . انظر ماركار ، ستريفزوج ، ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧ ، وفاسيليف ، بيزنطية والعرب ، ج٢ ، ص ٣٨٢ ــ ٣٩٤ ، وت اع ، ج١ ، ص ٢٦٠ ــ ٢٦١ ، وم . عز الدين ، مجلة الدراسات الاسلامية ، ١٩٤١ ــ ١٩٤٦ ، ص ٤١ ــ ٦٢ ، ووايت ، الاعلاق النفيسة ، ص ١٣٤ ، حاشية ٣ (مع مصادر) وكراتشكوفسكي ، ص ١٣٢ ــ ١٣٣ (١٣٥) .

٭ **محمد بن اسحاق ، أبو عبد الله**

رحالة (قبل ٢٩٠ ﻫ / ٩٠٣ م) ، وتاجر بلا ريب ، بالنظر لطبيعة ملاحظاته (انظر سوفاجيه ، أخبار الصين والهند ، ص ٣٣ روماني) . استوحى ابن رسته من قصة رحلته الى الهند وقمار . انظر كراتشكوفسكي ، ص ١٣٦ — ١٣٧ (١٣٨) .

ابن الفقيه (•• / •• — •• / ••)

أحمد بن محمد بن اسحاق بن ابراهيم الهمداني ، أبو بكر ابن الفقيه . أصله فارسي . صنف حوالي ٢٩٠ ﻫ / ٩٠٣ م ، نوعا من الموسوعه الثقافية العامة لعصره ، اسماها كتاب البلدان ، لا نعرفها إلا من خلال مختصر لها كتب بلا ريب في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . إلا انه رئيسي بتنهيجه روح الأدب ضمن الجغرافية ذاتها . ويعثر في مخطوطة مشهد على نص جرت دراسته على وجه أكمل من دراسة م ج ع ، لكنه يقتصر مع الأسف على النصف الأول من كتاب البلدان ، وتحوي أيضا رسالة بن فضلان ورسالتي أبي دلف مسعر (انظر الاحالات في ف . مينورسكي ، « جيهاني الزائف » ، في م م د ش ١ — مجلة معهد الدراسات الشرقية والافريقية — ، ١٣ روماني ، ١٩٤٩ — ١٩٥٠ ، ص ٨٩ ، حاشية ٥ ، والمدخل الى رسالة أبي دلف مسعر الثانية ، مشار اليه ، ص ٢ ، حاشية ٣ ، مع المراجع) . وحول ابن الفقيه ، الذي جمع أيضا مختارات شعرية ، وكان معروفا من جهة ثانية كمحدث ، انظر الفهرست ، ص ١٥٤ ، وياقوت ، معجم الأدباء ، ج ٤ ، ص ١٩٩ — ٢٠٠ ، ودي خويه ، المدخل الى ج ٥ من م ج ع ، و م ا ، ج ٢ ، ص ٣٩٨ (مقالة مغفلة) ، و ت ا ع ، ج ١ ، ص ٢٦٠ ،

والملحق ، ج١ ، ص ٤٠٥ — ٤٠٦ ، وبلاشير ، مجع ، ص ٦٧ — ٦٩ . وكراتشكوفسكي ، ص ١٥٦ — ١٥٩ (١٦٢ — ١٦٤) .

ابن رسته (٠٠ / ٠٠ — ٠٠ / ٠٠)

أحمد بن عمر ، أبو علي ، ابن رسته . أصله فارسي ، صنف مباشرة بعد عام ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م موسوعة أسماها كتاب الاعلاق النفيسة ، وصلنا منها الجزء السابع فقط . ويعرض موضوعات الأدب التقليدية والمعارف الجغرافية التي أصبحت كلاسيكية بعد الآن ، في مقاطع طويلة متعاقبة ومتسلسلة . انظر دي خويه ، المدخل الى ج٧ من مجع ، ص ٥ — ٧ روماني . وماركار ، ستريفزوج ، ص ٢٥ — ٢٦ (مع حجج ضعيفة بشأن تاريخ تصنيف الاعلاق النفيسة ، مثلما يلاحظ بحق و . بارتولد ، م١ ، ج١ ، ص ٣٤٥) ، وس . فان ارندونك ، م١ ، ج٢ ، ص ٤٣٥ ، و ت١ع ، ج١ ، ص ٢٦٠ ، والملحق ، ج١ ، ص ٤٠٦ ، ووايت . الاعلاق النفيسة ، مشار اليه ، ص ٨ روماني ، وبلا شير ، مجع ، ص ١٨ — ١٩ و ٣٢ — ٣٣ ، ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٥٩ — ١٦٠ (١٦٤ — ١٦٥) .

أبو زيد السيرافي (٠٠ / ٠٠ — ٠٠ / ٠٠)

محمد بن يزيد . صنف ملحقا لأخبار الصين والهند (انظر هذا الاسم) ، كتبه على الارجح في السنوات الأولى من القرن العاشر ، مثلما نستطيع ان نحكم استنادا الى المسعودي (مروج الذهب ، فقرة ٣٥١) الذي اتصل به . ولم يكن رحالة ولا نوتيا ، بل عالما مولعا بالجغرافية (فران ، أخبار رحلات ، ص ١٣) . أعطانا مصنفا يشهد على بعض

التقدم في معرفة الشرق الأقصى : وعلى دخول العجائب وموضوعات الأدب في قصص الرحلات . انظر غ . فران ، رحلة التاجر العربي سليمان الى الهند والصين ، المصنفة عام ٨٥١ م ، مع ملاحظات أبي زيد حسن (حوالي ٩١٦ م) ، باريس ، ١٩٢٢ ، وسوفاجيه ، أخبار الصين والهند ، ص ٢٥ روماني . الحاشيتان ٢ — ٣ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٤١ — ١٤٢ (١٤١ — ١٤٢) .

ابن جرير الطبري (٢٢٤ ﻫ / ٨٣٩ م — ٣١٠ ﻫ / ٩٢٣ م)

محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، أبو جعفر . من أعظم المؤرخين في الأدب العربي . نستخلص بالنسبة اليه النتائج ذاتها التي استخلصناها للبلاذري (انظر هذا الاسم) ، حول نوعية التاريخ في علاقته بالجغرافية . انظر ر . باريه ، م١ ، ج٤ ، ص ٦٠٧ — ٦٠٨ ، وت‌اع ، ج١ ، ص ١٤٨ — ١٤٩ ، والملحق ، ج١ ، ص ٢١٧ — ٢١٨ .

*** الجيهاني (٠٠ / ٠٠ — ٠٠ / ٠٠)**

محمد بن أحمد بن نصر الجيهاني ، أبو عبد الله . وزير أمير خراسان ، صنف حوالي عام ٩٠٠ م كتاب المسالك والممالك الذي أخذ عنه ابن خرداذبه ووسعه . وقد نقل الجغرافيون اللاحقون عن ابن خرداذبه : كالادريسي الذي أخذ عنه وصف آسية ، واعتمد عليه قبل الادريسي ، جميع جغرافيي القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي اعتمادا كبيرا أيضا . ويطغى غموض شديد على المعطيات المتعلقة بحياة الجيهاني ، وحتّى باسمه : فابن النديم يسميه مثلا أحمد بن محمد ، وياقوت محمد بن أحمد . من ناحية اخرى ، يلتبس اسمه غالبا مع اسم ابنه أبي علي (محمد بن محمد) . ولدينا المعلومات التالية عن حياة الرجلين :

آ ـ أبو عبد الله وزير نصر الأول بن أحمد الذي ملك من عام ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م الى عام ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م . وقد كتب مؤلفه بين عام ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م و ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م (ت ا ع) .

ب ـ سمي الشخص ذاته وزيرا في أول عهد نصر الثاني بن أحمد ، الصغير البالغ من العمر ثمانية أعوام في سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م (حسب ياقوت) .

ج ـ استقبل نصر الثاني والجيهاني (بدون تحديد) ابن فضلان (الرسالة ، ص ٧٦) أثناء رحلته الذهابية . ويقتضي هذا التاريخ ان يكون عمر الملك الساماني عندئذ ١٣ سنة . بالفعل يصفه ابن فضلان بقوله أنه « غلام امرد » . وأشير الى الجيهاني بأنه كاتب (لا وزير) « أمير خراسان » ، لكنه يحمل لقب الشيخ العميد (« الشيخ العميد » ، حول هذا اللقب ، انظر الرسالة ، ترجمة كانار ، ص ٥٤ ، حاشية ٥١) الذي لا يمكن اسناده طبعا إلا الى رجل من سن ومكانة أبي عبد عبد الله (لا الى ابنه) .

د ـ اتصل البلخي (المتوفى عام ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) بأبي علي الجيهاني ، وزير نصر الثاني بن أحمد (الفهرست) .

هـ ـ خلف الجيهاني في آخر عهد نصر الثاني (٣٠١ هـ / ٩١٣ م ـ ٣٣١ هـ / ٩٤٣ م) الوزير أبا الفضل البلعمي (حسب المقدسي في طبعة القسطنطينية التي يشار فيها الى الشخص بنسبته فقط . ، وفي طبعة برلين الاحدث يضاف : أبو عبد الله) .

و ـ خلف أبو علي الجيهاني في عام ٣٢٦ هـ / ٩٣٧ م ـ ٩٣٨ م

الوزير أبا الفضل البلعمي وتوفي في حادث سنة ٣٣٠ ه / ٩٤١ م (حسب ابن الأثير ، ذكره دنلوب ومينورسكي) .

ز – عين « ابن الجيهاني » أول وزير لنوح بن منصور الذي يبدأ ملكه عام ٣٦٦ ه / ٩٧٦ م (حسب المقدسي) .

يتضح من هذه المعلومات المليئة بالتشويش في الغالب (انظر ترددات د . م . دنلوب ، « بلعمي » ، و « بلخي » ، م ا (٢) ، ج ١ ، ص ١٠١٥ (١) ، ١٠٣٤ (١))ان اسمي الجيهاني في الفقرتين (ه) ، (و) يدلان على شخص واحد بلا أدنى ريب : هو أبو علي ، المتوفى عام ٣٣٠ ه / ٩٤١ – ٩٤٢ م ، الذي يصبح الجيهاني المذكور في الفقرة (ز) ابنه (لعل المقدسي قصد في الفقرة (ه) فعلا أبا علي ، لكن الاضافة في مخطوطة برلين تدفعنا الى الاعتقاد انه اعتبر الابن هو الأ ب في الواقع ، وبالتالي الحفيد هو الابن في الفقرة (ز) . ونشير أخيرا تعليقا على الفقرة (د) ان الفهرست كان حتما ذكر أبا عبد الله لو ان البلخي عرفه .

يمكن اذن ان نستخلص مما تقدم ان الجغرافي أبا عبد الله الجيهاني توفي أثناء حكم نصر الثاني ، وبالتأكيد بين عام ٣٠٩ ه / ٩٢١ م وعام ٣٢٢ ه / ٩٣٤ م ، وبصورة أدق ، ربما حوالي ٣١٣ ه / ٩٢٥ م – ٣١٨ ه / ٩٣٠ م ، وفي تلك الفترة ، كان لايزال له الاحترام ذاته . انما لم يعد « الوزير » الذي يتحدث عنه المقدسي (ترجمة فقرة ١٠) . ويتأيد هذا الاستنتاج الأخير بأن البلعمي خلف في الوزارة أبا يعقوب النيسابوري (انظر المقدسي ، طبعة دي خويه ، ص ٣٣٧) ، حوالي ٣١٠ ه / ٩٢٢ م انظر برتولد ذكره دنلوب ، مشار اليه ، ص ١٠١٥) دون ان تشير النصوص الى وزارة الجيهاني خلال هذه الفترة .

انظر المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ١٠٩ . والمقدسي ، الترجمة ، فقرة ١٠ — ١١ ؛ وطبعة دي خويه ، ص ٢٤١ ، ٣٣٧ — ٣٣٨ . وأبا حيان التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، ج١ ، ص ٧٨ — ٨٩ . والفهرست ، ص ١٣٨ ؛ ١٥٤ . وياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٧ ، ص ١٥٦ — ١٥٩ ، ودي خويه ، مدخل الى ج٥ من م ج ع ، ص ٧ — ١١ روماني ، ورينو ، ص ٦٣ — ٦٤ روماني ، وماركار ، ستريفزوج ، ص ١٦٠ — ٢٠٦ ؛ وك .ف . زيترستاين ، « نصر بن أحمد » ، م١ ، ج٣ ، ص ٩٣٢ — ٩٣٣ ، وتاع ، ج١ ، ص ٦٢ ، والملحق ، ج١ ، ص ٤٠٧ ، وبرتولد ، حدود العالم ، ص ٢٣ وما يليها ، وف . مينورسكي ، « جيهاني الزائف » ، ممدش١ ، ١٣ روماني ، ١٩٤٩ — ١٩٥٠ ؛ ص ٨٩ — ٩٦ . كذلك ، مينورسكي ، مدخل الى الرسالة الثانية لأبي دلف مسعر ، مشار اليه ، ص ٢٤ . وكراتشكوفسكي ، ص ٢١٩ — ٢٢٦ (٢١٩ — ٢٢٤) . ود .م. دنلوب ، مشار اليه ، وا . ميكيل ، « أوربة الغربية في رحلة ابراهيم بن يعقوب العربية » ، بلفظ ماينس ، حاشية ٣ .

البيهقي (حوالي ٢٩٥ ﻫ / ٩٠٨ م — ٣٢٠ ﻫ / ٩٣٢ م)

ابراهيم بن محمد . لا ترد في كتابه « المحاسن والمساوىء » المواضيع الجغرافية إلا نادرا . ويتذرع بها دوما لذكر الأمثال أو العظات الاخلاقية. انظر تاع ، الملحق ، ج١ ، ص ٢٤٩ ، وش . بروكلمان ، م١ ، ج١ ، ص ١١٦٦ .

ابن فضلان (٠٠ / ٠٠ — ٠٠ / ٠٠)

أحمد بن فضلان بن العباس بن الراشد بن حماد . مشكوك باسم

هذا الشخص ذاته (انظر مناقشة بهذا الشأن في مقدمة س . الدهان للرسالة ، ص ٣٧ — ٣٨) ، ويكتنف الغموض حياته . خلّف من اشتراكه في سفارة الى بلغار الفولغا ، عام ٣٠٩ — ٣١٠ ﻫ / ٩٢١ — ٩٢٢ م ، أخبار رحلة لم تصل الينا بلا شك إلا في صيغة مختصرة (واذا كان هذا المختصر ، مثلما يعتقد م . كانار ، مشار اليه ، ص ٤٣ ، قد لخصه وزير ساماني من بخارى ، فيمكن ان يكون الجيهاني نفسه قد قام بهذا العمل : انظر الفصل ٣ ، حاشية ٤٣٣) . وقد نقل عنها على نطاق واسع الجغرافيون المتأخرون (انظر س . الدهان ، مشار اليه ، ص ٤١) : وتمثل ، على مستوى الأسلوب والمنهج ، معا ، (دور المعاينة) مرحلة هامة في تطور الجغرافية العربية . انظر رينو ، ص ٧٩ — ٨٠ ، وبرتولد ، م١ ، ج٢ ، ص٣٩٨ ، وبتاع ، ج١ ، ص ٢٦١ — ٢٦٢ ، والملحق ، ج١ ، ص ٤٦ . وكراتشكوفسكي ، ص ١٨٤ — ١٨٦ (١٨٦ — ١٨٧) ، وس . الدهان ، مقدمةطبع الرسالة ، ص ٤٥ وما يليها ، وخصوصا م . كانار ، مقدمةوخاتمة ترجمةالرسالة ، مشار اليها ، ص ٤١ — ٤٨ (مع المراجع) .

* **أبو عبيد السكوني**

ورد اسمه عند ياقوت بعد اسم الأصمعي ، وينبغي بلا ريب ان نرى فيه معجميا اهتم باسماء أماكن جزيرة العرب : ويقول البكري في معجم ما استعجم (مذكور عند كراتشكوفسكي ، الاحالات تلي) : انه نقل من كتاب لأبي عبد الله عمرو بن بشر السكوني في جبال تهامة ومحالها ، وان السكوني أخذ عن أبي الاشعث عبد الرحمن بن عبد الملك الكندي (انظر هذا الأسم) ، الذي اعتمد على عرام

بن الاصبغ (انظر هذا الاسم) . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص ١١ ، ترجمة انكليزية ا و . جويده ، فصول مقدمة معجم البلدان لياقوت ، ليدن ، ١٩٥٩ ، ص ١١ ؛ وكراتشكوفسكي ، ص ٢٧٨ (٢٧٧) .

* **عجائب البحر**

مصنف مفقود ، ذكره الصولي ، أخبار الراضي والمتقي ، القاهرة ، ١٩٣٥ ، الناشرج . دون ، ص ٦ . يرجع الى ما قبل عام ٣٢٢ ه / ٩٣٤ م ، اذ ان الراضي ، الذي ينسب الصولي الخبر اليه ، لم يذكره التاريخ إلا ولي عهد ، اعتلى العرش عام ٣٢٢ ه / ٩٣٤ م . انظر أحمد أمين ، ظهر الأسلام ، ج١ ، ص ٢٧ . سوفاجيه ، أخبار الصين والهند ، ص ٣٠ روماني ، فقرة ٣ .

* **البلخي (حوالي ٢٣٥ ه / ٨٤٩ م – ٣٢٢ ه / ٩٣٤ م)**

أحمد بن سهل البلخي ، أبو زيد . اعتبره بروكلمان « مؤسس المدرسة الكلاسيكية في الجغرافية العربية . صنف حوالي ٣٠٨ – ٣٠٩ ه / ٩٢٠ م ، أو بعدذلك بقليل ،أطلس محشى لعالم الاسلام ، انتقلت حبكته الى مصنفي المسالك والممالك في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . انظر دي خويه ، ZDMG ؛ ٢٥ روماني ، ص ٤٢ – ٥٨ . س . هوار ، ص ١٠ – ١١ في مقدمة البدء والتاريخ للمقدسي (مطهر بن طاهر) (انظر هذا الاسم) . بارتولد ، حدود العالم ، مشار اليه، ص ١٥ وما يليها . كراتشكوفسكي ، ص ١٩٥ – ١٩٧ (١٩٨ – ١٩٩) ، ود . م . دنلوب م١ ، (٢) ، ج١ ، ص ١٠٣٣ – ١٠٣٤ .

* ابن أبي عون (٠٠ / ٠٠ – ٣٢٢ ﻫ / ٩٣٤م)

ابراهيم بن محمد بن أبي عون بن أحمد المنجم . قتله الراضي بالله العباسي صلبا في أول خلافته مع الشلمغاني لخروجه على الدين (من أشياع الشيعي محمد بن علي ، أبي جعفر الشلمغاني ، المعروف بابن أبي العزاقر). مشكوك جدا في صحة اسمه . من تصانيفه ، حسب المسعودي (التنبيه والاشراف ، ص٧٥ ، الترجمة ، ١٠٩ – ١١٠ ، ٥٠٣) ، كتاب « النواحي والآفاق » ، الذي يروى « الأخبار عن البلدان وكثير من عجائب ما في البر والبحر » وهذا المصنف مفقود مع الأسف . حذار من الالتباس مع ابن أبي عون ، اسحاق بن علي ، الذي يعتقد بأنه اعاد النظر في زيج الخوارزمي (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ترجمة جويده ، ص ١٠ – ١١ ، وحاشية ١ ، وكراتشكوفسكي ، ص ٣٤٠ (٣٤٢) . انظر الفهرست ، ص ١٤٧ وكراتشكوفسكي ، ص ١٧٩ – ١٨٠ (١٨٣ – ١٨٤) ، ولاووست ، ابن بطه ، ص٣٨ روماني ، * حاشية ٨٦ ، وسورديل ، الوزارة ، ص ٤٨٦ ، حاشية ٤ .

الوشاء (٠٠ / ٠٠ – ٣٢٥ ﻫ / ٩٣٧ م)

محمد بن أحمد بن اسحاق بن يحيى ، أبو الطيب ، المعروف بالوشاء . صنف « الموشى » الذي لا يتصل بالجغرافية إلا بموضوعات نادرة جدا ، يتوارى فيها البحث الأصلي ، خلف المغزى الاخلاقي أو الاجتماعي الممكن استخدامه بمناسبتها . انظر ش . بروكلمان ، م١ ، ج ٤ ، ص ١١٨٦ ، وتاع ، ج١ ، ص ١٢٩ .

ابن عبد ربه (٢٤٦ ﻫ / ٨٦٠ م – ٣٢٨ ﻫ / ٩٤٠ م)

أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم ، أبو عمر .

صاحب « العقد الفريد » ، كتاب المختارات الأدبية الشهير ، الذي الفه في الأندلس ، وادخل فيه الجغرافية بصيغة مواضيع تقليدية . ومما يؤسف له ان سعيه المنهج وراء العجيب شوه هذه الصورة عن كتابه . انظر بروكلمان ، م١ ، ج٢ ، ص ٣٧٥ – ٣٧٦ ، وت ا ع ، ج١ ، ص ١٦١ ، والملحق ، ج١ ؛ ص ٢٥٠ – ٢٥١ .

*** وكيع (٠٠ / ٠٠ – ٣٠٦ ه / ٩١٨ م)**

محمد بن خلف بن حيان بن صدقة الضبي ، أبو بكر ، الملقب بوكيع : قاض . له مصنفات . منها « الانواء » و « الطريق » ، ويقال له « النواحي » في أخبار البلدان ومسالك الطرق ولم يتممه ؟ مع الأسف وفقد . انظر الفصل ٧ ، حاشية ١٠٥٧ ، والفهرست ، ص ١١٤ وت اع الملحق ، ج١ ، ص ٢٢٥ ؛ وكراتشكوفسكي ، ص ١٢٣ (١٢٨) .

*** سنان بن ثابت (٠٠ / ٠٠ – ٣٣١ ه / ٩٤٣ م)**

سنان بن ثابت بن قرة الحراني ، أبو سعيد . ابن ثابت بن قرة ، الحاسب والفلكي الشهير . وقد الف سنان كتاب انواء (تقويما) ، حفظ لنا البيروني في كتابه « الآثار الباقية عن الأمم الخالية » مقاطع منه تتداخل مع أقواله حتى ليتعذر علينا تحديد ما يعود منها لسنان وما يعود للبيروني . انظر ، ت اع ، ج١ ، ص ٢٤٤ – ٢٤٥ ، والملحق ، ج١ ، ص ٣٨٦ .

ابن الحائك الهمداني (٢٨٠ ه / ٨٩٣ م – ٣٣٤ ه / ٩٤٥ م)

الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود ، من بني همدان ، أبو محمد . يعرف أيضا بابن الحائك ، وبالنسابة ، وبابن ذي الدمينة .

ولد في اليمن من جنوب الجزيرة ، وتوفاه الله في صنعاء . عالم عارف بشتى العلوم (بالانساب ، والكيمياء ، والفلك ، وفقه اللغة) . من تصانيفه المشهورة ، « الاكليل من أخبار اليمن » ، وهو مصنف في انساب حمير وأيام ملوكها (تاريخ اليمن القديم) ، و « كتاب الجوهرتين المائعتين من الصفراء والبيضاء » في الكيمياء والطبيعة ، و « صفة جزيرة العرب » ، في وصف الجزيرة ، يثبت فيه رسوخ علمه ، وقدرته على النقد الرصين ، وصحة وثائقه ، وحرصه على مقارنة موضوع تقليدي بمكتسبات العلم في عصره . انظر ياقوت ، معجم الأدباء ، ج٧ ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ ؛ تاع ، ج١ ، ص ٢٦٣ — ٢٦٤ ، الملحق ، ج١ ، ص ٤٠٩ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٢٦ — ١٢٨ . بشأن الاكليل ، انظر الطبعة والترجمة الجزئيتين لنبيه أمين فارس ، برنستاون ، ١٩٣٨ — ١٩٤٠ ، ١ . لوفغرين ، ابسالا ، ١٩٥٤ .

ابن القاص (٠٠ / ٠٠ — ٣٣٥ ﻫ / ٩٤٦ م)

أحمد بن أحمد الطبري ثم البغدادي ، أبو العباس ، ابن القاص . فقيه شافعي . تناول البلدان على أساس اتجاهها الى القبلة ، وابان على وجه التخصيص موقعها ، وخصائصها الرئيسية ونوادرها . ويسمى مصنفه « دلائل القبلة » . وقد عثر عليه في مجموعة شخصية ، ولا يزال مخطوطا مع الأسف . انظر الفصل ٦ ، حاشية ١٠٢٠ ، وت اع ، ج١ ، ص ١٩١ ؛ والملحق ، ج١ ، ص ٣٠٦ — ٣٠٧ ، وكراتشكوفسكي ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧ (٢٣٠ — ٢٣٢) ، وجرجس لـ أفندي صفا ، « تعريف بعض مخطوطات مكتبتي ، المشرق ، ١٦ روماني ، ١٩١٣ ، ص ٤٣٩ — ٤٤٢ (مع ايراد مقطعين مقتضبين ، من بضعة اسطر ، متعلقين ،

بالقسطنطينية (مستلهمين من هارون بن يحيى ، [انظر هذا الاسم] وبالبصرة) .

قدامة بن جعفر (٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م — ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م)

قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي ، أبو الفرج . أحد أميز ممثلي الجغرافية السياسية ، التي تصنف من أجل كتاب دواوين الخلافة. مع الأسف لم يصلنا من مؤلفه « كتاب الخراج وصناعة الانشاء » ، وهو موسوعة كتبت بهذه الذهنية حوالي ٣١٦ — ٣٢٠ هـ / ٩٢٨ — ٩٣٢ م ، إلا أبحاثه الأخيرة ، التي نشرت أجزاء منها فقط . من تصانيفه أيضا ، المختارات الأدبية ، وأعمال النقد والتاريخ . ويشك في كتب الفلسفة المنسوبة له . انظر الفهرست ، ص ١٣٠ ، وياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٧ ، ص ١٢ — ١٥ ، ورينو ، ص ٦٠ — ٦١ روماني ، ودي خويه ، مدخل الى ج٦ ، من مجع ، ص ٢٢ — ٢٣ روماني ، وش . بروكلمان ، م١ ، ج٢ ، ص ١١٥٨ ، وتاع ، ج١ ، ص ٢٦٢ ، والملحق ، ج١ ، ص ٤٠٦ — ٤٠٧ ، وبلاشير ، مجع ، ص ١٩ — ٢٠، ٥٣ — ٥٤ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٦٠ — ١٦٢ (١٦٥ — ١٦٦) وا .مكي ، « قدامة بن جعفر وأعماله » مشار اليه ، وسورديل ، الوزارة ، ص ٢٥ — ٢٦ روماني .

ابن سرابيون

بين عام ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م وعام ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م ، حرر مؤلف ، يدعى سهراب ، ولعل هذا الاسم لقب ، نسخة جديدة عن صورة الأرض للخوارزمي ، ونسبها الى ابن سرابيون ، غير المعروف أصلا .

ويبدو ان اسم المؤلف وعنوان المصنف سيظلان مجهولين الى الأبد ، لكن يتضح بجلاء ان المصنف ذاته يتبع تقليد صورة الأرض ويضخمه . فهو يحافظ ، من بين أصول النمط ، على بعض المواضيع ، وعلى ذهنية تصنيف معينة (مثلا ، التدوين بتعيين الاحداثيات الجغرافية) لكنه يتوسع بها أحيانا على طريقة الأدب . انظر ت ا ع ، ج ١ ، ص ٢٦١ ؛ والملحق ، ج ١ ، ص ٤٠٦ ؛ وكراتشكوفسكي ، ص ٩٧ — ٩٩ (١٠٣ — ١٠٥) .

* **المغرورون**

يقصد التقليد بلفظ « المغرورين » ثمانية شباب ، ابحروا من لشبونة في القرن الرابع واستكشفوا جوار جزيرة الغنم (ماديرة) وجزر الكناري. وتركوا أخبار رحلتهم (ولا يلائم الفاصل الزمني بينهم وبين رواة قصتهم نقل الخبر الشفهي) . فحفظ الادريسي القليل منها ، واعاد قصتهم أبو حامد الغرناطي والعمري . انظر المراجع وكراتشكوفسكي ، ص ١٣٤ — ١٣٥ (١٣٦ — ١٣٧) .

* **السلاّمي (٠٠ / ٠٠ — ٠٠ / ٠٠)**

علي السلامي . ألف كتابا مفقودا يسمى « التاريخ في أخبار ولاة خراسان » حوالي عام ٣٤٤ ه / ٩٥٥ م . انظر كراتشكوفسكي ، ص ١٦٤ (١٦٨) .

كتاب عجائب الهند (٣٣٩ ه / .. — ٣٤٤ ه / ٩٥٥ م)

نسب هذا الكتاب خطأ الى الناخذاه بزرك بن شهريار الرام هرمزي . صنف حوالي ٣٣٩ ه / ٩٥٠ م ؛ ويثبت اجتياح الأسطورة

للقصص العائدة الى بحار الهند . انظر ت١ع ، الملحق ، ج١ ، ص ٤٠٩-٤١٠ ، وكراتشكوفسكي . ص ١٤٣ (١٤٣) ، وسوفاجيه ، أخبار الصين والهند ، ص ٢٩ - ٣٠ روماني (تصحح ألفاظ الحاشية ٣ من ص ٢٩ روماني لعل اسم بزرك بن شهريار يظهر في النص ذاته ، فقرة ٤٦ ، بصيغة شهر ياري الربان) ، و ج. و. فوك ، « بزركبنشهريار » ، في م١ (٢) ، ج١ ، ص ١٣٩٨ - ١٣٩٩ ، وس . مقبول أحمد ، « جغرافية » ، مشار اليه ، ص ٥٩٨ (١) .

الرازي (٠٠/٠٠ - ٣٤٤هـ/٩٥٥ م)

أحمد بن محمد الرازي ، أبو بكر : مؤرخ وجغرافي أندلسي . بعض جوانب حياته مبهمة (تقديرات متباينة عن تاريخ وفاته ، يحددها ليفي بروفنسال بعام ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ، انظر أيضا تاريخ الولادة المقترح) ذو الحجة ٢٧٤ هـ / نيسان ٨٨٨م (اعتمادا على تاريخ وفاة والده : ربيع الثاني ٢٧٣ هـ / أيلول - تشرين الأول ٨٨٦ م) . من تصانيفه « صفة قرطبة » ، المفقود ، وكتاب آخر أضخم ، يتناول الطرق ، والموانيء ، والمدن والتقسيمات الادارية في الأندلس ؛ وهذا المصنف الأخير أشبه بكتاب مسالك وممالك أندلسي ، حفظ في ترجمة برتغالية ، نقلت بدورها الى اللغة القشتلية . انظر ت١ع ، ج١ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ ، والملحق ، ج١ ، ص ٢٣١ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٦٥ - ١٦٦ (١٦٩) ، و١ . ليفي بروفنسال ، م١ ، ج٣ ، ص ١٢١٥ - ١٢١٦ (مع مراجع) . كذلك مدخل الى ترجمة « صفة الأندلس لأحمد الرازي » ، في الأندلس ، ١٨ روماني ، ١٩٥٣ ، ص ٥١ وما يليها .

المسعودي (·· / ·· — ٣٤٦ ﻫ / ٩٥٧ م)

علي بن الحسين بن علي ، أبو الحسن المسعودي . أحد مشاهير الموسوعيين المسلمين . ولد في بغداد ، وتوفي في مصر عام ٣٥٥ ﻫ أو ٣٥٦ ﻫ / ٩٥٦ — ٩٥٧ م ؟ . رحالة عظيم . صنف تصانيف كثيرة ، حفظ منها مصنفان كاملين فقط : هما مروج الذهب ، وكتاب التنبيه والاشراف ، مختصر الكتاب السابق . ويمثل تمثيلا نموذجيا النزعة الأدبية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، وميوله شيعية . انظر الفهرست ، ص ١٥٤ ، وياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٣ ، ص ٩٠ — ٩٤ وش . باربيه دي ماينار ، المدخل الى ترجمة مروج الذهب ، ص ١ — ١٢ روماني ، وب . كارادي فو ، مدخل الى ترجمة كتاب التنبيه والاشراف ، ص ١ — ١٢ روماني (مقنع جدا) ، وهوار ، الأدب ، ص ١٨٢ — ١٨٣ ، ودي خويه ، مدخل الى ج٨ ، من مجع ، أماكن متفرقة ، وش . بروكلمان ، م١ ، ج٣ ، ص ٤٥٧ — ٤٥٨ ، وتاع ، ج١ ، ص ١٥٠ — ١٥٢ ، والملحق ، ج١ ، ص ٢٢٠ — ٢٢١ ، وبلاشير ، مجع ، ص ٢٠١ — ٢٠٤ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٧١ — ١٨٢ (١٧٧ — ١٨٥) .

أبو دلف الينبوعي (·· / ·· — نحو ٣٩٠ ﻫ / ١٠٠٠ م)

مسعر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي ، أبو دلف . ذهن يحب الاطلاع ورحالة كبير . اقام ردحا من الزمن في البلاط الساماني عند نصر الثاني ابن أحمد . اشتهر برسالتين : الأولى مشكوك بحق في معطياتها ، وتتعلق برحلة في آسية الوسطى وماليزية والهند . نقلها ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤٦ ، س ٣٠ وما يليه ، ص ٣٥٠ ، س ١٥ وما يليه . ولها روايات

أخرى في النسخة الثانية من كوزموغرافية القزويني وعند ياقوت (معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٤٤٠ بآخرها) . وتختص الرسالة الثانية بفارس وارمينية ، وقد صنفت بلا شك بعد عام ٣٤١ هـ / ٩٥٢ – ٩٥٣ م ، وتمثل جهدا مشكورا لاختبار موضوع « العجائب » معاينة . وتحوي مخطوطة مشهد الرسالتين مع رسالة ابن فضلان . انظر الفهرست ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ورينو ، ص ٧٨ – ٧٩ روماني ، وفران ، رحلات ، ج١ ، ص ٨٩ ؛ وماركارت ، Streifzuge ، ص ٧٤ – ٩٥ ، وت ا ع ، ج١ ، ص ٢٦٢ – ٢٦٣ ، والملحق ، ج١ ، ص ٤٠٧ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٨٦ – ١٨٩ (١٨٧ – ١٩٠) ، وف . مينورسكي ، م١ (٢) ، ج١ ، ص ١١٩ (مع مراجع) ، كذلك مدخل الى طبعة الرسالة الثانية ، مشار اليها ، (أساسي) ؛ وس . الدهان مدخل الى رسالة ابن فضلان ، مشار اليه ، في أماكن متفرقة .

النرشخي (٠٠ / ٠٠ – ٣٤٨ هـ / ٩٥٩ م)

محمد بن جعفر النرشخي ، أبو بكر . صنف نحو عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م « تاريخ بخارى » ، وقدمه الى العاهل الساماني ، نوح بن نصر ، ووصلنا في ترجمة فارسية عائدة الى القرن السادس الهجري / الثاني عشر ميلادي . انظر ت ا ع ، الملحق ، ج١ ، ص ٢١١ ؛ وكراتشكوفسكي ، ص ١٦٤ (١٦٨) .

أبو عمر الكندي (٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م – بعد ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م)

محمد بن يوسف بن يعقوب ، من بني كنده . لا يجوز ان يلتبس اسمه مع اسم الفيلسوف والعالم الذي يحمل نفس الأسم ؟ (يعقوب بن

اسحاق بن الصباح الكندي ، أبو يوسف) ، ولا مع اسم الاشعث الكندي (انظر هذا الاسم : الاشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي ، أبو محمد) . صنف أبو عمر الكندي كتاب « الولاة والقضاة » في مصر ، وهو من المصنفات التي دشنت نمط الخطط الطوبغرافي ، الذي خصص له المؤلف ذاته كتابا آخر فقد . انظر ت ا ع ، ج ١ ، ص ١٥٥ — ١٥٦ ، والملحق ، ج ١ ، ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

اسحاق بن الحسين (٠٠ / ٠٠ — ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م)

يرجح جدا ان هذا المؤلف ، الذي لا نعلم شيئا عن حياته ، صنف في الأندلس ، في منتصف القرن الرابع الهجري : العاشر الميلادي ، « كتاب أكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة بكل مكان » ، وهو نوع من الملخص الجغرافي : مستقى من مصادر الجغرافية العربية الكلاسيكية دون ذكرها ، لا سيما من الخوارزمي ، وابن خرداذبه ، واليعقوبي ، وابن رسته . ولا شيء يثبت ان اسحاق الهم الادريسي وابن خلدون ، خلافا لما ظن حتى الآن . انظر ت ا ع ، الملحق ، ج ١ ، ص ٤٠٥ ، وكراتشكوفسكي ، ص ٢٣٣ — ٢٣٤ (٢٢٩ — ٢٣٠) ، و ا . كودازي ، مدخل الى ترجمة الآكام ، مشار اليه ، ص ٣٧٣ — ٣٨١ .

تقويم قرطبة (٣٥٠ هـ / ٩٦١ م)

مصنف كتب حوالي خمسينات القرن الرابع . وهو تقويم يعطي عن الأندلس آنذاك ، معلومات تتناول بصورة رئيسية التنجيم ، والانواء ، والنبات ، والزراعة والأعياد (المسيحية) . انظر دوزي مقدمة طبعة

تقويم قرطبة لعام ١٩٦١ ، لايدن ، ١٨٧٣ ، بيلا (يكمل ج ف . فيرى ، « الصيد بالطير في الأندلس في القرن العاشر من خلال تقويم قرطبة » ، في ارابيكا ، ١٩٦٥ ، ص ٣٠٦ – ٣١٤) . كذلك : « أمثال ، أنواء ، ومنازل القمر » ، في ارابيكا ، ج٢ » ، ١٩٥٥ ، ص ٣٩ – ٤١ .

الاصطخري (٠٠ / ٠٠ – بعد ٣٤٠ ﻫ / بعد ٩٥١ م)

ابراهيم بن محمد الفارسي ، أبو اسحاق الاصطخري ، ويقال له الكرخي . يعتبر أول ممثل حقيقي لنمط المسالك والممالك . اعتمد على أطلس البلخي ، فألف جغرافية شاملة لدار الأسلام ، وقسمها الى اقاليم كبرى . وبقي تنظيم بحثه متأثرا بمخطط الأطلس الهيكلي ، إلا انه وضع الاختيارات الكبرى لكتب المسالك ، لاسيما سرد الخبر الشخصي منهجا ، وجعله أساس طريقته ، والقيام بالرحلات . ونقل مصنف الاصطخري الى اللغة التركية واللغة الفارسية (خصوصا الى اللغة الفارسية ، بعنوان *أشكال العالم* : حول هذا المخطوط ، انظر مينورسكي ، « الجيهاني المزيف » ، في مجلة م م د ش ا ١٣ ﻫ روماني ، ١٩٤٩ – ١٩٥٠ ، ص ١٥٦ – ١٥٩) . انظر المقدسي ، طبعة دي خويه ، ص ٤٧٥ ، ورينو ، ص ٨١ روماني وما يليها ، وم١ ، ج١ ، ص ٥٩٦ (مقالة مجهولة الكاتب) ، وكرامرز ، « قضية البلخي – الاصطخري » ، مشار اليه ، وت ا ع ، الملحق ، ج١ ، ص ٤٠٨ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٩٦ – ١٩٨ (١٩٩ – ٢٠٠) مع احالات اخرى .

*** ابن مردوية (٣٢٣ ﻫ / ٩٣٥ م – ٤١٠ ﻫ / ١٠١٩ م)**

أحمد بن موسى بن مردوية الاصبهاني ، أبو بكر . وهو مجهول .

يحتمل ان يكون قد صنف معجما جغرافيا أسماه معجم البلدان . انظر ، ت١ج ، الملحق ، ج١ ، ص ٤١١ .

اخوان الصفاء وخلان الوفاء

جماعة مغلقة ، اتجاهاتها اسماعيلية ، خلفت في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي (انظر ماسنيون في مجلة در اسلام ، ٤ روماني ، ص ٣٢٤) جملة رسائل ، تؤلف نوعا من الموسوعة الفلسفية ، لا تدخل الجغرافية فيها البتة إلا بشكل المبادىء الكلاسيكية المعروفة في صورة الأرض ، والموضوعات النظرية المتعلقة بعلاقات الانسان بوسطه الطبيعي ولا سيما بالكواكب . انظر التوحيدي ، الامتاع ، ج٢ ، ص ٥ ، وت . ج دي بوير ، م١ ، ج٢ ، ص ٤٨٧ — ٤٨٨ ، وماسينيون ، مجلة در اسلام ، ٤ روماني ، ١٩١٣ ، مشار اليها ، وت١ع ، ج١ ، ص ٢٣٦ — ٢٣٨ ، والملحق ، ج١ ، ص ٣٧٩ — ٣٨١ ، وكراتشكوفسكي ، ص ٢٢٩ — ٢٣٣ (٢٢٦ — ٢٢٩) (مع مراجع) .

*** الوراق ٢٩٢ (ھ / ٩٠٤ م — ٣٦٢ ھ / ٩٧٣ م)**

محمد بن يوسف ، أبو عبد الله الوراق . جغرافي أندلسي . ولد في « وادي الحجارة » وأقام مدة طويلة في القيروان ، ثم عاد الى قرطبة ، وسكن فيها في عهد الحكم الأموي الثاني . صنف كتابا في « مسالك افريقية ومسالكها » ، افاد منه المصنفون المتأخرون على نطاق واسع ، لا سيما البكري الذي اعتبره أحد مصادره الأساسية . انظر بونس بواغ ، رسالة مختصرة عن حياة ومراجع المؤرخين والجغرافيين العرب الأندلسيين مدريد ، ١٨٩٨ ، ص ٨٠ ، حاشية ١ ، و ت١ع ، الملحق ، ج١ ، ص ٢٣٣ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٦٥ (١٦٩) ، ور . برونسويغ ،

« مظهر من مظاهر الأدب التاريخي الجغرافي في الاسلام » ، في منوعات غودفروا دي مونبين ، القاهرة (مفاق) ، ١٩٣٥ – ١٩٤٥ ، ص ١٤٧ – ١٥٨ ، وا . ليفي بروفنسال ، « أبو عبيد البكري » ، في م١ (٢) ، ج١ ، ص ١٦١ .

* **السيرافي (٢٥٤ هـ / ٨٩٧ م – ٣٦٨ هـ / ٩٧٩ م)**

الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي ، أبو سعيد . لغوي شهير . يمثل الاتجاه المعجمي العربي « المتين » لنضر بن شميل (انظر هذا الاسم) . صنف « كتاب جزيرة العرب » ، الذي حفظ لنا ياقوت والبكري بعض المقاطع منه . انظر ف . كرنكو ، م١ ، ج٤ ، ص ٤٦٣ – ٤٦٤ .

المقدسي (٠٠ / ٠٠ – بعد ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م)

مطهر بن طاهر نسبته الى بيت المقدس . تكاد حياته تكون مجهولة تماما . صنف في سجستان ، حوالي عام ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م ، استجابة لطلب وزير ساماني ، موسوعة « كتاب البدء والتاريخ » ، الذي تذكرنا بنيته ببنية مروج الذهب للمسعودي ، لكنها تختلف عن المروج ببعض الصفات الأصيلة جدا ، خصوصا دوام القلق الفلسفي . انظر هوار ، مدخل الى ترجمة أجزاء طبعة « كتاب البدء والتاريخ » ، مشار اليه . وهوار ، الأدب ، ص ٢٨٢ – ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٩ ، وت اع ، الملحق ، ج١ ، ص ٢٢٢ ، وكراتشكوفسكي ، ص ٢٢٦ – ٢٢٩ (٢٢٤ – ٢٢٦) .

* **الطرطوشي (٠٠ / ٠٠ – ٠٠ / ٠٠)**

ابراهيم بن يعقوب الاسرائيلي الطرطوشي . تاجر يهودي أندلسي .

سافر الى أوربة حوالي ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م . خلف أخبار رحلة حفظت بعض مقاطعها عند البكري (عن الصقالبة) والقزويني (عن بعض مدن أوربة الغربية) . انظر ج . جاكوب ، مجلة ستادين ، كراس ١ و١ روماني و٤ ، وت ا ع ، الملحق ، ج١ ، ص ٤١٠ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٩٠ — ١٩٢) (١٩٠ — ١٩٢) ، ٢٧٥ (٢٧٤) ، و١ . ليفي بروفنسال ، « أبو عبيد البكري » ، في م١ (٢) ، ج١ ، ص ١٦١ (١) . وم . كانار ، « ابراهيم بن يعقوب وأخبار رحلته الى أوربة » ، في دش ذ ل ب ، ج٢ ، ص ٥٠٣ — ٥٠٨ ، وت . كوالسكي ، مدخل الى طبعة ابراهيم بن يعقوب حسب البكري ، مشار اليه . وا . ميكيل ، « أوربة الغربية في رحلة ابراهيم بن يعقوب » في حوليات ا م ت ، ٢١ روماني ، رقم ٥ ، أيلول — تشرين الأول ١٩٦٦ .

الخوارزمي (٠٠ / ٠٠ — ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م)

محمد بن أحمد بن يوسف ، أبو عبد الله ، الكاتب البلخي الخوارزمي كاتب لدى السلالة السامانية . صنف حوالي عام ٣٦٥ هـ / — ٣٨١ هـ / ٩٧٦ — ٩٩١ م ، موسوعة « مفاتيح العلوم » للألفاظ التقنية ، تشمل مختلف العلوم . حياته مجهولة . ينبغي الا يحصل في الذهن التباس بين اسمه واسم الفلكي محمد بن موسى الخوارزمي ، أبي عبد الله (بعد ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م) (انظر هذا الاسم ، أو اسم الشاعر وصاحب « الرسائل » ، أبي بكر الخوارزمي ، محمد بن العباس ، المتوفى عام ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م ، (انظر بشأنه ر . بلا شير ، وب . مسنو ، المختار من مجالس الهمداني ، باريس ، ١٩٥٧ . ص ٢٦ ، حاشية ٥) ، أو اسم البيروني ، محمد بن أحمد ، أبي الريحان البيروني الخوارزمي

(انظر هذا الاسم) الذي يدعى أحيانا بالخوارزمي (خصوصا عند ياقوت) . انظر فان فلوتن ، مدخل الى كتاب مفاتيح العلوم ، مشار اليه ، و١ . وايد من ، في م١ ، ج٢ ، ص ٩٦٥ ، وت١ع ، ج١ ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣ ، والملحق ، ج١ ، ص ٤٣٤ — ٤٣٥ ، وكراتشكوفسكي ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ (٢٣٤ — ٢٣٥) ، وسورديل ، الوزارة ، ص ١٧ — ١٨ .

معن بن فريعون (أو فريعين أو فريغون)

تلميذ البلخي ، ومصنف موسوعة مسماة « جوامع العلوم » ، توضح باختصار كبير الاتجاه الذي يمثله الخوارزمي (انظر الفقرة السابقة) : لأنها تسجل الألفاظ التقنية فقط . انظر ت١ع ، الملحق ، ج١ ، ص ٤٣٥ ، وسورديل ، الوزارة ، ص ١٨ ، حاشية ١ .

حدود العالم

مصنف مجهول المؤلف . كتب باللغة الفارسية (٣٧٢ هـ / ٩٨٢ — ٩٨٣ م) وفق تقليد الجغرافية العالمية لصورة الأرض ، واهتم اهتماما بارزا بالمناطق غير العربية في دار الاسلام . انظر مينورسكي وبارتولد ، مدخل وتعليق طبعة حدود العالم ، مشار اليها ، وكراتشكوفسكي ، ص ٢٢٤ — ٢٢٦ (٢٢٣ — ٢٢٤) ، ولازار ، النثر الفارسي ، مشار اليه ، ص ٥٣ — ٥٤ .

*** المهلبي (٠٠ / ٠٠ — ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م)**

الحسن بن أحمد (أو محمد) المهلبي . صنف « كتاب المسالك والممالك » تصنيفا كلاسيكيا جيدا ، حسبما نستطيع الحكم عليه من

المقاطع القصيرة جدا التي حفظها لنا ياقوت وأبو الفداء. يسمى المصنف أيضا « كتاب العزيز أو العزيزي » ، نسبة الى الخليفة الفاطمي العزيز المتوفى عام ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م ، الذي اهدي له . انظر حاجي خليفة ، ج٥ ، ص ٥١٢ ، رقم ١١٨٧٥ ، ورينو ، ص ٩٢ – ٩٣ روماني ، وكراتشكوفسكي ، ص ٢٣٤ – ٢٣٦ (٢٣٠) ، وص . المنجد ، مشار اليه ، ص ٤٣ وما يليها ، وو . جويده ، مشار اليه ، ص ١١ ، حاشية ٩ (مع مراجع ، تكمل من ياقوت ، معجم البلدان ج٢ ، ص ١٤٥ ، وج ٤ ، ص ٣٤٧ ، وج٥ ، ص ٤١٩) .

القاضي التنوخي (٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م – ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م)

المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوخي البصرى ، أبو علي . من كتبه « الفرج بعد الشدة » . وهو كتاب منتخبات أدبية ، يحث على الأخلاق الحميدة ، لا تدخل فيه الموضوعات إلا ذريعة لسرد القصص أو الاستطرادات . انظر ر . باريه ، في م١ ، ج٤ ، ص ٦٨٩ ، وت اع ، ج١ ، ص ١٦١ – ١٦٢ ، والملحق ، ج١ ، ص ٢٥٢ – ٢٥٣ .

ابن النديم (٠٠ / ٠٠ – ٤٣٨ هـ / ١٠٤٧ م)

محمد بن اسحاق بن محمد بن اسحاق ، أبو الفرج بن أبي يعقوب . صاحب كتاب الفهرست الشهير . صنفه عام ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ – ٩٨٨ م . نذكره هنا بسبب مقاطع متنوعة في مصنفه عائدة الى الجغرافية (انظر الفصل ٦) . انظر أيضا ج . فوك في م١ ، ج٣ ، ص ٨٦٣ – ٨٦٥ ، وت اع ، ج١ ، ص ١٥٣ ، والملحق ، ج١ ، ص ٢٢٦ .

* **الدار قطني (٣٠٦ هـ / ٩١٩ م — ٣٥٥ هـ / ٩٩٥ م)**

علي بن عمر بن أحمد بن مهدي ، أبو الحسن الدارقطني . أديب شهير ومحدث صنف على وجه التخصيص معجم عادات الشعوب ، واسماه كتاب « المختلف والمؤتلف » ، راجعه واكمله الطيب البغدادي (انظر هذا الاسم . انظر أيضا ت١ع ، ج١ ، ص ١٧٣ — ١٧٤ ، والملحق ، ج١ ، ص ٢٧٥ ؛ وج . روبسون ، في م١ (٢) ، ج٢ ، ص ١٣٩ — ١٤٠ .

عمر بن محمد الكندي

نجهل كل شيء عن حياته . إلا انه نجل محمد بن يوسف بن يعقوب أبي عمر الكندي . (انظر هذا الاسم) ، المتوفى عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م . صنف كتابا عن « فضائل مصر » . ينبغي إلا يحصل التباس بين اسمه واسم الفيلسوف والعالم يعقوب بن اسحاق الكندي . ولا اسم الاشعث الكندي (انظر هذا الاسم) . ت١ع ، ج١ ، ص ١٥٥ — ١٥٦ ، والملحق ، ج١ ، ص ٢٣٠ .

* **ابن زولاق (٣٠٦ هـ / ٩١٩ م — ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م)**

الحسن بن ابراهيم بن الحسين بن الحسن ، من ولد سليمان ابن زولاق ، أبو محمد . صنف كتاب « خطط مصر » ، ذكر فيه خصائصها وفضائلها . انظر ت١ع ، ج١ ، ص ١٥٦ ؛ والملحق ، ج١ ، ص ٢٣٠

ابن حوقل (٠٠ / ٠٠ — ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م)

محمد بن حوقل البغدادي الموصلي . وريث الاصطخري الروحي . تداول مصنفه وعدله واسماه « كتاب المسالك والممالك ، « وفي بعض

النسخ « كتاب صورة الأرض » . يمثل هو والمقدسي أميز مصنفي كتب المسالك والممالك ، بسعة الوثائق الشخصية ، وبشيء يحتمل ان يكون أفضل ، نعني حرصه على اعطاء آخر المعلومات . ويعتقد ان كتابة مصنفه استغرقت عشرين عاما ، فخرج بصيغته النهائية حتما حوالي ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م ؟ . انظر رينو ، ص ٨١ روماني ومايليها ، وش . فان آرندونك ، في م١ ، ج٢ ، ص ٤٠٧ ، وت١ع ، ج١ ، ص ٢٦٣ ، والملحق ، ج١ ، ص ٤٠٨ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٩٨ — ٢٠٥ (٢٠٠ — ٢٠٥) . ووايت ، مدخل الى ترجمة صورة الأرض ، مشار اليها .

المقدسي (٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م — نحو ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م)

محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء ، المقدسي ، ويقال له البشاري ، شمس الدين أبو عبد الله . أعظم ممثلي نمط المسالك والممالك . اوصل هذا النمط الى حد الكمال ، بجودة الخبر الشخصي ، وبسعة التراث المجموع ، وخصوصا بانجاز منهج تصنيف المعطيات وعرضها . صنف كتاب « أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » ، حوالي ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م — ٣٨٠ هـ / ٩٩٠م . فوجدت به جغرافية دار الاسلام البشرية نهائيا موضوعها ومصطلحاتها ومنهجها . انظر دي خويه ، مدخل الى ج٤ من مجع ، ص ٦ — ٧ روماني ، وج . هـ . كرامرز ، في م١ ، ج٣ ، ص ٧٥٧ ، وت ١ع ، ج١ ، ص ٢٦٤ ، والملحق ، ج١ ، ص ٤١٠ — ٤١١ ، وكراتشكوفسكي ، ص ٢١٠ — ٢١٨ (٢٠٨ — ٢١٥) . . تتمة المراجع في ترجمة ١ . ميكيل ، المدخل ، مشار اليه ، أماكن متعددة .

* **ابن سليم الاسواني (٠٠ / ٠٠ — ٠٠ / ٠٠)**

عبد الله بن أحمد بن سليم الاسواني ، أبو محمد رحالة بعث به القائد الفاطمي جوهر الصقلي ، حوالي ٣٥٩ ﻫ / ٩٦٩ م — ٣٦٣ ﻫ / ٩٩٦ م في سفارة الى ملك النوبة . وقد حفظ لنا المقريزي منه جزئيا جدول البلدان التي زارها بين ٣٦٥ ﻫ / ٩٧٥ م و ٣٨٦ ﻫ / ٩٩٦ م . وانتحل المنوفي وابن اياس (القرن ٩ هجري / ١٥ ميلادي) المقريزي. انظر ت١ع ، الملحق ، ج١ ، ص ٤١٠ ، وكراتشكوفسكي ، ص ١٩٢ — ١٩٣ (١٩٢ — ١٩٣) ، وج ، تروبو ، في ارابيكا ، ١ روماني ، ١٩٥٤ ، ص ٢٧٦ وما يليها .

الشابشتي (٠٠ / ٠٠ — ٣٨٨ / ٩٩٨ م)

علي بن محمد الشابشتي ، أبو الحسن . اسمه غير معروف جيدا ؟ متوفى فيما يظن حوالي ٣٨٨ — ٣٩٩ ﻫ / ٩٩٨ — ١٠٠٨ م ؟ اتصل بالعزيز العبيد الفاطمي (صاحب مصر) فولاه خزانة كتبه . فقدت معظم تصانيفه . لم يبق منها سوى كتاب « الديارات » ، الذي تعالج أقسامه المحفوظة اديرة العراق بصورة أساسية . انظر ياقوت ، معجم الادباء ، ج١٨ ، ص ١٦ — ١٧ (أبو عبد الله محمد بن اسحاق الشابشتي) وابن خلكان ، ج٣ ، ص ٨ — ٩ ، وت١ع ، الملحق ، ج١ ، ص ٤١١ وكراتشكوفسكي ، ص ٢٤٢ (٢٣٥ — ٢٣٦) ، وك . عواد ، مدخل الى طبعة الديارات ، مشار اليه .

أبو الحيان التوحيدي (٠٠ / ٠٠ — نحو ٤٠٠ ﻫ / ١٠١٠ م)

علي بن محمد بن العباس التوحيدي ، أبو حيان . مصنف كتاب « المقابسات » وكتاب « الامتاع والمؤانسة » . لا يورد الموضوعات

الجغرافية أو المتصلة بالجغرافية ، إلا اذا صلحت بتجريدها لأبحاث فلسفية واخلاقية . انظر ت ا ع ، ج ١ ، ص ٢٨٣ ، والملحق ، ج ١ ، ص ٤٣٥ — ٤٣٦ ، وس . م . سترن ، م ١ (٢) ، ج ١ ، ص ١٣٠ — ١٣١ .

ابن وصيف شاه (٠٠ / ٠٠ — ٠٠ / ٠٠)

ابراهيم بن وصيف شاه . صنف حوالي العام الف كتاب « مختصر العجائب والغرائب » ، الذي جاء بعد عجائب الهند ، فدعم قسمه الأول الاسطورة في القصص المتعلقة بالشرق الأقصى . وخص القسم الثاني بتاريخ مصر القديم قبل الاسلام . انظر كارا دي فو ، المدخل الى ترجمة مختصر العجائب مشار اليه ، وش . ف. سيبولد ، تقرير عن هذه الترجمة في مجلة Orien talistischeti titeraturzei tung ١ روماني ، ١٨٩٨ ، ص ١٤٦ — ١٥٠ (ناحية هامة : يصحح بعض تأويلات المترجم ، ويشير الى التمييز بين مؤلف مختصر العجائب وسميه الذي عاصر سليمان العظيم ، ويحدد تاريخ الكتاب : يعاد النظر بقول س . مقبول أحمد في « جغرافية » ، مذكور في ص ٦٠١ (١) « ان ابراهيم كتب عام ٦٠٥ ﻫ / ١٢٠٩ م (تأويل خاطىء لجملة باللغة الألمانية عند سيبولد ، ص ١٤٧ ، أو احالة دقيقة جدا الى ف .. وستنفيلد (ذكر فيما يلي من كتابنا ، الفصل الأول ، حاشية ١) ، علق عليه سيبولد ؛ وسوفاجيه ، أخبار الصين والهند ، ص ٢٦ روماني .

مسكويه (٠٠ / ٠٠ — ٤٢١ ﻫ / ١٠٣٠ م)

أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه ، أبو علي . له « تهذيب الأخلاق

وتطهير الأعراق » . يعنى في المقام الأول بالاهتمامات والأبحاث الفلسفية . بالتالي ، لا تدخل الموضوعات الجغرافية عنده إلا اذا قدمت على مستوى عال من التجريد مادة فلسفية . أما الاستنتاجات عن مسكويه المؤرخ فمماثلة للاستنتاجات الخاصة بالبلاذري . انظر م١ ، ج٣ ، ص ٤٢٩ (مقالة مغفلة) ، وت اع ، ج١ ، ص ٤١٧ — ٤١٨ ، والملحق ، ج١ ، ص ٥٨٢ — ٥٨٤ .

الثعالبي (٣٥٠ ﻫ / ٩٦١ م — ٤٢٩ ﻫ / ١٠٣٨ م)

عبد الملك بن محمد بن اسماعيل . أبو منصور الثعالبي . مكثر شهير . يخصص للجغرافية في منتخباته « لطائف المعارف » فصلا أساسيا يقيم فيه مكانة هذا العلم في ثقافة عصره الجوهرية . انظر ش . بروكلمان ، في م١ ، ج٤ ، ص ٧٦٨ — ٧٦٩ ، وتاع ، ج١ ، ص ٣٣٧ وما يليها ، والملحق ، ج١ ، ص ٤٩٩ وما يليها .

*** الأسود الغندجاني (٠٠ / ٠٠ — ٤٢٨ ﻫ / ١٠٣٧ م)**

الحسن بن أحمد الاعرابي الغندجاني ، أبو محمد ، المعروف بالأسود واصل فيما يبدو تقليد الأصمعي المعجمي (انظر هذا الاسم) في مصنف مفقود عن مياه جزيرة العرب . انظر الاحالات في الفصل السابع ، حاشية ١٠٤٦ .

ابن أبي الهول الربعي (٠٠ / ٠٠ — ٤٤٤ ﻫ / ١٠٥٢ م)

علي بن محمد بن صافي بن شجاع الربعي ، أبو الحسن ، ويعرف بابن أبي الهول . صنف كتاب طوبوغرافية تاريخية عن دمشق والشام : هو كتاب « الاعلام في فضائل الشام ودمشق » . انظر تاع ، ج١ ،

ص ٤٠٣ ، والملحق ، ج١ ، ص ٥٦٦ ، وص . المنجد « مدخل الى طبعة كتاب « الاعلام . . » ، دمشق ١٩٥١ .

البيروني (٣٦٢ ه / ٩٧٣ م — ٤٤٠ ه / ١٠٤٨ م)

محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني ، الخوارزمي . من أعظم واكمل العلماء المسلمين في القرون الوسطى . ولد في خوارزم . لا ريب انه توفي في غزنه بعد عام ٤٤٢ ه / ١٠٥٠ م ؟ . يخرج عن نطاق دراستنا لأسباب شرحناها في الفصل السادس . انظر د . ج . بوالو ، في م١ ، (٢) ، ج١ ، ص ١٢٧٣ — ١٢٧٥ (الذي يوضح وضع المسائل ويعطي المراجع . اضف اليه كراتشكوفسكي ، ص ٢٤٤ — ٢٦٢ (٢٤٥ — ٢٥٨) .

الحصري (٠٠ / ٠٠ — حوالي ٤٥٢ ه / ١٠٦٠ م)

ابراهيم بن علي بن تميم الأنصاري ، أبو اسحاق الحصري . له كتاب « زهر الآداب وثمر الالباب » . يأخذ بعض المواضيع الجغرافية ، ويتذرع بها لتحبير البحوث اللغوية المطولة ، فيبين مدى اندراج معطيات الجغرافية الكلاسيكية في عصره في ثقافة الرجل الشريف . انظر ت١ع ، ج١ ، ص ٣١٤ — ٣١٥ ، والملحق ، ج١ ، ص ٤٧٢ — ٤٧٣

• القضاعي (٠٠ / ٠٠ — ٤٥٤ ه / ١٠٦٢ م)

محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون ، أبو عبد الله ، القضاعي . أحد الأوائل الذين يمثلون نمط الخطط الطوبوغرافي لمصر. انظر ت١ع ، ج١ ، ص ٤١٨ — ٤١٩ ، والملحق ، ج١ ، ص ٥٨٤ — ٥٨٥

الخطيب البغدادي (٣٩٢ ﻫ / ١٠٠٢ م — ٤٦٣ ﻫ / ١٠٧٢ م)

أحمد بن علي بن ثابت البغدادي ، أبو بكر ، المعروف بالخطيب . مؤرخ بغداد . اشتهر بنوع خاص بمدخل مصنفه المخصص لطوبوغرافية مدينة بغداد . صنف ملحقا من هذا النمط كتبه الدار قطني (انظر هذا الاسم) ، معجم عادات اسمه « كتاب المؤتنف في تكملة المؤلف والمختلف انظر و . مارسيه في م١ ، ج٢ ، ص ٩٨١ ، وت ١ ع ، ج١ ، ص ٤٠٠ — ٤٠١ ، والملحق ، ج١ ، ص ٥٦٢ .

* * *

ثانيا ـ ثبت المؤلفين ومصنفاتهم الواجب استغلالها في دراسة الموضوعات الجغرافية

الرمز	اسم المصنف	اسم المؤلف
سط	كتاب المسالك والممالك	ابراهيم بن محمد الفارسي الكرخي الأصطخري ابو اسحاق
ص	مختصر العجائب	ابراهيم بن وصيف شاه
را (١)	رحلة الى اوربة الغربية	ابزاهيم بن يعقوب الاسرائيلي الطرطوشي
را (ص)	رحلة إلى الصقالبة	ابراهيم بن يعقوب الاسرائيلي الطرطوشي
ق	كتاب البلدان	احمد بن اسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي ، أبو العباس
ست	كتاب الاعلاق النفسية	أحمد بن عمر ابن رسته ، أبو علي
ن	رسالة	أحمد بن فضلان بن العباس بن الراشد بن حماد
	كتاب البلدان	أحمد بن محمد بن اسحاق بن ابراهيم الهمداني، ابن الفقيه
ز	صفة الاندلس	أحمد بن محمد الرازي ، أبو بكر .
س	اخبار الصين والهند	مجهـــــول
	رسائل	أخوان الصفاء وخلان الوفاء
ح	كتاب آكمام المرجان	اسحاق بن الحسين
	تقويم قرطبة	مجهـــــو
	حدود والعالم	مجهـــــول
	صفة جزيرة العرب	الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود من بني همدان ، أبو محمد ، ابن الحائك ، أو ابن ذي الدمينة .

الرمز	اسم المصنف	اسم المؤلف
مه (ف)	مقاطع من أبي الفداء	الحسن بن أحمد (محمد) المهلبي
مه (م)	مقاطع من صلاح المنجد	الحسن بن أحمد (محمد) المهلبي
مه (ي)	مقاطع من ياقوت	الحسن بن أحمد (محمد) المهلبي
سر	كتاب عجائب الأقاليم السبعة	سهراب (ابن سرابيون)
اسو	كتاب أخبار النوبة	عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني ، أبو محمد
ثعا	لطائف المعارف	عبد الملك بن محمد بن اسماعيل ، أبو المنصور الثعالبي
خر	كتاب المسالك والممالك	عبيد الله بن أحمد ابن خرداذ به ، أبوالقاسم
عج	عجائب الهند	مجهـــــــول
مس (م)	مروج الذهب	علي بن الحسين بن علي المسعودي ، أبو الحسن
مس (ت)	التنبيه والاشراف	علي بن الحسين بن علي المسعودي ، أبو الحسن
شاب	كتاب الديارات	علي بن محمد الشابشتي ، أبو الحسن
جا (ا)	كتاب الأمصار وعجائب البلدان	عمرو بن بحر بن محبوب ، الكناني بالولاء ، أبو عثمان الشهير بالجاحظ
جا (ح)	كتاب الحيوان	» »
جا (ت)	كتاب التبصر بالتجارة	» »
قد	كتاب الخراج وصناعة الكتابة	قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد ، البغدادي ، أبو الفرج
ماش	كتاب الأسعار	ما شاء الله بن سارية
مقت	احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم	محمدبن أحمد بن أبي البناء الشامي المقدسي البشاري شمس الدين أبو عبد الله
خو (م)	مفاتيح العلوم	محمد بن أحمد بن يوسف ، أبو عبد الله ، الكتاب البلخي الخوارزمي
ند	الفهرست	محمد بن اسحاق بن محمد بن اسحاق ، أبو الفرج بن أبي يعقوب ، ابن النديم

حو	كتاب صورة الأرض	محمد بن حوقل البغدادي الموصلي
حو (ص)	صورة الأرض	محمد بن موسى الخوارزمي ، أبو عبد الله
سيرا	ملحق أخبار الصين والهند	محمد بن يزيد السيرافي ، أبو زيد
ور	كتاب المسالك والممالك	محمد بن يوسف الوراق ، أبو عبد الله
مس (ا)	الطريق إلى آسية	مسعر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي، أبودلف
مس (ب)	الرسالة الثانية	مسعر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي، أبودلف
مقب	كتاب البدء والتاريخ	مطهر بن طاهر المقدسي
مغ	قصة رحلتهم	المغرورون
غز (ق)	رحلة إلى القسطنطينية	يحيى بن الحكم البكري الجياني ، المعروف بالغزال
غز	رحلة إلى بلاد النورمان	يحيى بن الحكم البكري الجياني ، المعروف بالغزال

المراجع

تنبيه : ثلاثة مؤلفات أساسية ، لم تنشر ، أو لم أتمكن من الاطلاع عليها ، إلا بعد ان أصبحت كتابة هذا المصنف وحواشيه متقدمة جدا ، لا تسمح لي بالاحالة اليها احالة منتظمة .

وهي :

— ع .ر. كحالة ، معجم المؤلفين ، دمشق ، ١٣٧٦ — ١٣٨٠ هـ ١٩٥٧ — ١٩٦١ م ؛ ١٥ ج .

— هـ. لاووست ، الانشقاقات في الاسلام ، باريس ، ١٩٦٥ .

— ج. وايت ، المدخل الى الأدب العربي ، باريس ، ١٩٦٦

ابراهيم بن وصيف شاه ، مختصر العجائب ، ترجمة ب . كارادي فو ، باريس ، ١٨٩٨ ، يجب تصحيحها اعتماداً على ملاحظات ك.ف. سيبولد (انظر الاحالات الى ثبت المؤلفين) ، ص ٤٨ وما يليها .

ابراهيم بن يعقوب ، رحلة ابراهيم بن يعقوب الى عند الصقالبة ، على ما رواها البكري . نشرهات . كوالسكي ، كراكوفيا ، ١٩٤٦

ابراهيم بن يعقوب ، نبذ مختلفة عن مدن أو بلدان أوربة الغربية ، عند القزويني ، في آثار البلاد (انظر هذا الاسم) ، مبعثرة هنا وهناك .

ترجمة بعض النبذ عند ج . جاكوب ، برلين ، ١٨٩١ ، الطبعة الثانية (المجلد الأول ، دراسات عن الجغرافية العربية ، لجاكوب أيضا ، انظر هذا الاسم ، (بحث مجددا فيما بعد) ، (مقال عن « آثار البلاد » للقزويني ، برلين ، ١٨٩٦ ، الطبعة الثالثة) ، لكن بصيغة مبهمة . ترجمة ومحاولة تصنيف ، قام بها ا . ميكيل ، « أوروبة الغربية في رحلة ابراهيم بن يعقوب الغربية ، حوليات امت ، ٢١ روماني ، رقم ٥ ، أيلول - تشرين الأول ١٩٦٦ . بدون تدقيق آخر ، تشير احالاتنا الى نص القزويني ، واذا ذكرت الترجمة ، فالى الترجمة المنشورة في الحوليات .

ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، نشره ج . ه . كرامرز ، ج٥ ، من م ج ع ، الطبعة الثانية ، ليدن ، ١٩٣٨ ، ترجمة ج . وايت ، باريس - بيروت ، ١٩٦٤ . بدون تدقيق اضافي ، تشير احالاتنا الى النص العربي .

ابن خرداذبه ، كتاب المسالك والممالك ، ج٦ ، م ج ع ، ليدن ، ١٨٨٩ (نص وترجمة) . بدون تدقيق اضافي ، تشير احالاتنا الى النص العربي . الصفحات ١٧٨ - ١٨٣ (الترجمة ، ص ١٣٨ - ١٤٤) يسبقها في المخطوطة ، بسملة جديدة وأسلوب المقطع (انظر ص ١٨٠ آخرها) لا يتصل مطلقا بأسلوب ابن خرداذبه : انظر الحاشية جـ في الصفحة ١٧٧ . ترجمة جزئية (مع نصوص ابن الفقيه وابن رسته) في م . حاج صادق ، وصف المغرب وأوروبة في القرن الثالث الهجري / القرن التاسع الميلادي ، الجزائر ، ١٩٤٩ .

ابن خلكان ، **وفيات الأعيان** ، القاهرة ، ١٣٦٧ ﻫ / ١٩٤٨ م ، ستة مجلدات .

ابن دحية ، انظر الغزال .

ابن رسته ، كتاب الأعلاق النفيسة ، ج٧ ، مجع ، ليدن ، ١٨٩٢ ، ترجمة ج . وايت ، القاهرة ، ١٩٥٥ . تشير احالاتنا الى النص العربي ، واذا ذكرنا الترجمة فالى ترجمة وايت. وهنالك ترجمات جزئية اخرى : م . حاج صادق ، وصف (انظر ابن خرداذبه) ، ودا . خفولسن ، سان بترسبورغ ، ١٨٦٩ (باسم ابن دسته ، ويعثر على صيغة اخرى من هذه الترجمة في مجلة وزارة التربية الوطنية ، سان بترسبورغ ، مجلد ١٤٠ ، ص ٦٥٧ — ٧٧١) .

ابن سرابيون ، كتاب عجائب الاقاليم السبعة ، مخطوطة المتحف البريطاني ، في ٦٨ ورقة (ملحق ٢٣٣٧٩) . نشره وترجمه جزئيا ج . لوسترانج ، مجع ، ١٨٩٥ ، ص ١ — ٧٦ ، ٢٥٥ — ٣١٥ . ينبغي ان تفهم احالاتنا على الوجه التالي : الرقم البسيط يشير الى طبعة لوسترانج ، الرقم المرفوق بحرف آ الى وجه الورقة المخطوطة ، الرقم مع حرف ب الى ظهرها . أما طبعة ﻫ . فون مزيك (« كتاب عجائب الأقاليم السبعة » لسهراب ، لايبزيغ ، ١٩٣٠) فلم أتمكن من الوصول اليه إلا في آخر عملي ، على ان الاحالات الى الأوراق تظهر فيها بسهولة .

ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، نشره أحمد أمين وع.س. هارون ، ا. الزين ، وا الأبياري ، القاهرة ، ١٣٤٢ ﻫ / ١٩٢٣ م .

ابن فضلان ، رسالة في وصف الرحلة الى بلاد الترك والروس

والصقالبة ، نشرها س . الدهان ، دمشق ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م (على أساس الطبعة الروسية لكوفالفسكي — كراتشكوفسكي لعام ١٩٣٩) ، ترجمة (على أساس الطبعة الثانية لكراتشكوفسكي ، ١٩٥٦) قام بها م . كانار في حمدش ، ١٦ روماني ، ١٩٥٨ ، ص ٤١ — ١٤٦ (جوهري) . بدون تدقيق اضافي ، تشير احالاتنا الى النص العربي في طبعة سامي الدهان .

ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ج٥ ، مجع ، ليدن ، ١٨٨٥ ، ترجمة جزئية م . حاج صادق : انظر ابن خرداذبه .

ابن قتيبة ، كتاب أدب الكاتب ، القاهرة ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م

ابن قتيبة ، كتاب الأنواء ، نشره م . حميد الله وش . بيلا حيدر اباد ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م .

ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م

ابن قتيبة ، كتاب الشعر والشعراء ، نشره مع مدخل وترجمة م . غودفروا ديمومبين .

ابن قتيبة ، كتاب عيون الأخبار ، القاهرة ، ١٩٢٥ — ١٩٣٠ ، أربعة مجلدات .

ابن المقفع: الأدب الصغير، يلحق به الأدب الكبير، بيروت ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م

ابن المقفع ، كليلة ودمنة ، ترجمة ا . ميكيل ، باريس ١٩٥٧ .

ابن المقفع ، رسالة في الصحابة ، ص ١١٧ — ١٣٤ من رسائل البلغاء ، نشرها م . كرد علي (هذا الاسم) .

ابن منظور ، لسان العرب ، بيروت ، ١٣٧٤ — ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٥ — ١٩٥٦ م ، ١٥ مجلدا .

ابن النديم ، الفهرست ، نشره ج. فلوغل ، لايبزيغ ، ١٨٧١ — ١٨٧٢ ، جزءان في مجلد ، تشير احالاتنا الى النص العربي من الجزء الأول .

أبو دلف مسعر ، التعليق على الطريق الآسيوي ، نشرها وترجمها ش . شلوذر (الرسالة الأولى) ، عن النص الوارد عند ياقوت والقزويني (لم أتمكن من الاطلاع على نسخة الرسالة التي طبعها ا . فون روهر — سوير عن مخطوطة مشهد ، لكن ف. مينورسكي يشير في مجلة اوريانس ، ٥ روماني ١٩٥٢ ، ص ٢٣ الى ان النص الجديد يختلف قليلا جدا عن النص الوارد عند ياقوت والقزويني) .

أبو دلف مسعر ، الرسالة الثانية ، نشرها ب . ج. بولغاكوف وا.ب . خالدوف ، موسكو ، ١٩٦٠(هذه الطبعة أفضل ، من ناحية النص ، من طبعة ف. مينورسكي ، بعنوان أسفار أبو دلف مسعر في فارس ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، المشوبة باسقاطات وأغلاط مطبعية : انظر طبعة بولغاكوف — خالدوف ، ص ١٩) .

أبو زيد السيرافي ،ملحق أخبار الصين والهند ، (انظر هذا الاسم). ورد هذا الملحق بعد ترجمة الأخبار السابقة ، عند غ. فران ، رحلة التاجر سليمان العربي الى الهند والصين ، باريس ، ١٩٢٢ (ملحق أبي زيد وارد في الصفحات ٧٤ — ١٤٠ من الكتاب الثاني من الترجمة) .

أبو الفداء ، تقويم البلدان ، نشره م . رينو ، في الجزء الثاني من جغرافية أبي الفداء : الجزء الأول القسم الأول ، ترجمة م . رينو ، باريس ، ١٨٤٨ ، الجزء الثاني (مع فهرس) ، ترجمة س . غيار ، باريس ، ١٨٨٣ .

أبو الفرج الاصفهاني ، كتاب الأغاني ، بولاق ، ١٢٨٥ ، وما يليها ، وليدن ، ١٣٠٥ ؛ ٢١ جزءا في ستة مجلدات ، فهرس ا . غيدي ، ليدن ، ١٨٩٥ — ١٩٠٠ ، مجلدان .

أبو يوسف يعقوب ، كتاب الخراج ، ترجمة ا . فانيان ، باريس ، ١٩٢١

أخبار الصين والهند ، نشره ج . سوفاجيه ، باريس ، ١٩٤٨

اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، رسائل ، بيروت ، ١٣٧٦ — ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م ، أربعة مجلدات .

ارسطو ، في طبائع الحيوان ، ترجمة ج . برتيليمي — سان هيلير ، باريس ، ١٨٨٣ .

ارسطو ، في كون الحيوان ، ترجمة برتيليمي — سان هيلير ، باريس ، ١٨٨٧ .

ارسطو ، في الاعضاء التي فيها الحياة ، نشره ب. لويس ، باريس ، ١٩٥٦ .

اسحاق بن الحسين ، كتاب آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة بكل مكان ، نشرها وترجمها ، ا. كودازي (« المختصر الجغرافي لاسحاق بن الحسين ») في أعمال معهد العلوم الأخلاقية والتاريخية واللغوية ، ٦٢ روماني ، رقم ٥ ، ص ٣٧٣ — ٤٦٣ ، روما ، ١٩٢٩ .

الاسواني ، كتاب أخبار النوبة ، النص العربي عند المقريزي ، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، الجزء الثالث (نشره ج. وايت) ، القاهرة (ممفاق ، ٤٦ روماني) ، ١٩٢٢ ، ص ٣٥٢ —

٢٦٥ (الفصل ٣٠ ، الفقرة ٢ ، الفصل ٣١ ، الفقرة ٢) ، ص ٢٦٧ — ٢٧٨ (الفصل ٣٢ ، الفقرة ١ — ٦) ، ٢٨٥ — ٢٨٦ (الفصل ٣٣ ، الفقرات ١٣ — ١٥) ، ص ٢٨٧ (الفصل ٣٤) ، ص ٢٨٩ — ٢٩٦ (الفصل ٣٦ ، الفقرة ٢) ، وبشأن تحديد هذه النصوص ، انظر ص ٢٥٥ ، حاشية ٣ ، ص ٢٥٦ ، حاشية ١٠ ، ص ٢٥٩ ، حاشية ٢ ، ص ٢٦١ ، حاشية ٣ (ص ٢٦٢) ، ص ٢٦٥ ، حاشية ٦ ، ص ٢٦٧ ، حاشية ٢ ، ص ٢٨٦ ، الحواشي ١ ، ٣، ٧، ص ٢٨٧ ، حاشية١ ، ويذكر المؤلف باسمه في الفصلين ٣٠ف٢ و٣٣ فقرة ١٣ ، وبتعبير مؤرخ النوبة في الفصول ٣١ ، فقرة ٢ ، و٣٢ فقرة ٦ (آخرها) ، و ٣٦ ، وفقرة ٢ (آخرها) . ترجمة جزئية اجراها ج . ترويو في ارابيكا ، ١ روماني ، ١٩٥٤ ، ص ٢٧٦ — ٢٨٨ المقابلة للصفحات ٢٥٢ — ٢٦٤ (ما عدا ص ٢٥٧ ، س : ٩٦ ، وص ٢٦٢ ، س١ ، وص ٢٦٣ ، س٣ ، التي لا يتفق مضمونها مع الضرورة المزدوجة النوبية والجغرافية التي استهدى بها المترجم) . تشير احالاتنا الى النص العربي ، اذا خلت من أي تدقيق اضافي .

الاصطخري ، كتاب المسالك والممالك ، نشره م.ج. عبد العال الحيني ، القاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م ، نشر من قبل في ج١ ، م ج ع ، ليدن ، ١٩٢٧ . احالاتنا تشير الى طبعة الحيني .

الأغاني ، انظر أبا الفرج الاصفهاني .

ألف ليلة وليلة ، القاهرة ، ١٩٥٧ — ١٩٥٩ ، ١٣ مجلدا . ..

ا م ت ح ا : أعمال المؤتمر الدولي لتاريخ الحضارة الاسلامية، باريس ، ١٩٥٧ . .

ا م ع ا ت ل : أعمال معهد العلوم الأخلاقية والتاريخية واللغوية في روما .

أحمد أمين ، ضحى الأسلام ، القاهرة ، ١٣٦٥ ﻫ / ١٩٤٦ م ، ١٣٥٦ ﻫ / ١٩٣٨ م ، ١٢٦٨ ﻫ / ١٩٤٩ ثلاثة مجلدات .

أحمد أمين ، فجر الأسلام ، مع مقدمة لطه حسين ، القاهرة ، ١٣٨٠ ﻫ / ١٩٦١ .

أحمد أمين ، ظهر الأسلام ، القاهرة ، ١٣٧٦ ﻫ / ١٩٥٧ — ١٣٨٠ — ١٩٦١ م ، أربعة مجلدات .

البتاني ، كتاب الزيج الصابيء ، نشره ك.ا. نللينو ، ميلان ، ١٩٠٣ .

البخاري ، الجامع الصحيح ، ترجمة ا . هوداس ، وو . مارسيه (الأحاديث الأسلامية) ، باريس ، ١٩٠٣ — ١٩١٤ ، أربعة أجزاء .

بروكلمان (ش .) ، تاريخ الأدب العربي ، ليدن ، ١٩٤٣ — ١٩٤٩ ، جزءان ، والملحق ، ليدن ، ١٩٣٧ — ١٩٣٩ ، ثلاثة أجزاء .

برونسويغ (ر .) ، « مظهر من الأدب التاريخي الجغرافي في الإسلام » : انظر ثبت المؤلفين بلفظ « وراق » .

بزرك بن شهريار ، انظر عجائب الهند .

بطلميوس ، الجغرافية ، نشرها مولر ، باريس ، ١٨٨٣ — ١٩٠١ .

بفاف (ف .) ، نقد تاريخي ليحيى بن آدم ، برلين ، ١٩١٧ ،

البكري ، وصف افريقية الشمالية ، ترجمة م . جوكين دي سلين ، الجزائر – باريس ، ١٩١٣ .

البلاذري ، كتاب فتوح البلدان ، نشره دي خويه ، ليدن ، ١٨٦٦ .

بلاشير (ر .) ، القرآن ، باريس ، ١٩٤٧ – ١٩٥٠ ، ثلاثة مجلدات .

بلاشير (ر .) ، انظر م ج ع .

بلاشير (ر .) ، تاريخ الأدب العربي من البدء الى آخر القرن الخامس عشر الميلادي ، باريس ، ١٩٥٢ – ١٩٦٦ ، ظهرت منه ثلاثة مجلدات .

البيروني ، الآثار الباقية عن القرون الخالية ، نشره ش.ا. ساشو (أعيد طبعه بطريقة الحفر عن طبعة عام ١٨٧٨) ، لايبزيغ ، ١٩٢٣ ، ترجمه الى الانكليزية ساشو بعنوان (تسلسل احداث الأمم القديمة) ، لندن ، ١٨٧٩ .

البيروني ، الهند ، (كتاب في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل ومرذولة) ، نشرها من .ا. ساشو لندن ، ١٨٨٧ ، ترجمة ساشو الى الانكليزية بعنوان (هند البيروني) ، لندن ، ١٩١٠ ، مجلدان .

بيلا (ش .) ، محاولات احصاء مؤلفات الجاحظ (جاحظيات٣) ، ارابيكا ، ٣٠ ، ١٩٥٦ ، ص ١٤٧ – ١٨٠ .

بيلا (ش .) ، اللغة والأدب العربيان ، باريس ، ١٩٥٢ .

بيلا (ش .) ، الوسط البصري وتثقيف الجاحظ ، باريس ، ١٩٥٣ ،

بيلا (ش .) ، انظر تقويم قرطبة ، الجاحظ والمقدسي .

البيهقي ، كتاب المحاسن والمساوىء ، بيروت ، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .

تانون (ر .) ، (باشراف) ، تاريخ العلوم العام ، ج١ ، العلم في العصور القديمة والوسطى ، باريس ١٩٥٨ .

ث ا ع ، انظر بروكلمان .

تروبو (ج .) ، انظر الأسواني .

تقويم قرطبة ، نشره وطبعه ش. بيلا ، ليدن ، ١٩٦١ .

التنبيه ، انظر المسعودي .

التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، القاهرة — بغداد ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م ، جزءان في مجلد .

التوحيدي (أبو حيان) ، الامتاع والمؤانسة ، **نشره أحمد أمين وا . الزين** ، **القاهرة** ، ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م ، ثلاثة اجزاء .

التوحيدي (أبو حيان) ، المقابسات ، نشرها هـ . السندوبي ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩ م .

الثعالبي ، لطائف المعارف ، نشره ب . دي جونك ، ليدن ، ١٨٦٧ .

الجاحظ ، كتاب الأمصار وعجائب البلدان ، نشره ش . بيلا في المشرق ، آذار — نيسان ١٩٦٦ ، ص ١٦٩ — ٢٠٥ .

الجاحظ ، كتاب البيان والتبيين ، نشره ع.م . هارون ، القاهرة ١٣٦٧ – ١٣٦٨ ﻫ / ١٩٤٨ – ١٩٤٩ م أربعة أجزاء في مجلدين .

الجاحظ ، كتاب البخلاء ، بيروت ، ١٣٨٠ ﻫ / ١٩٦٠ م ، ترجمة ش. بيلا بالعنوان ذاته ، باريس ، ١٩٥١ (التصحيحات المقترحة على طبعة بيروت واردة في ملحق في نهاية الترجمة) .

الجاحظ ، كتاب فخر السودان على البيضان ، نشره ج. فان فلوتن (ص ٥٧ – ٨٥) في ثلاثة كراريس مؤلفها الجاحظ ، ليدن ، ١٩٠٣ .

الجاحظ ، كتاب الحيوان ، نشره ع.م . هارون ، القاهرة ، ١٣٥٦ – ١٣٦٤ ﻫ / ١٩٣٨ – ١٩٤٥ م ، سبعة أجزاء .

الجاحظ ، كتاب القول في البغال ، نشره ش . بيلا ، القاهرة ، ١٣٧٥ ﻫ / ١٩٥٥ م .

الجاحظ (الزائف) ، كتاب التبصر في التجارة ، نشره ح.ح . عبد الوهاب ، مسحوبا عن مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٥١ﻫ/ ١٩٣٢ م ، ترجمة ش . بيلا (جاحظيات ، ١) في ارابيكا . ١ ، ١٩٥٤ ، ص ١٥٣ – ١٦٥ . تشير احالاتنا الى الترجمة .

الجاحظ (الزائف) ، كتاب التاج في أخلاق الملوك ، ترجمة ش . بيلا ، باريس ، ١٩٥٤ .

الجاحظ ، كتاب التربيع والتدوير ، نشره ج. فان فلوتن (ص ٨٦ – ١٥٧) في ثلاثة كراريس مؤلفها الجاحظ ليدن ، ١٩٠٣ ، طبعة جديدة ل ش . بيلا ، دمشق (م ف د) . تشير احالاتنا الى هذا النص الأخير .

الجاحظ ، مجموع رسائل الجاحظ ، نشرها ب . كروس وم . طه الحاجري ، القاهرة ، ١٩٤٣ . يحتوي رسالة المعاد والمعاش ، ص ١٠ — ٣٦ ، كتاب كتمان السر وحفظ اللسان ، ص ٣٧ — ٦٠ ، رسالة في الجد والهزل ، ص ٦١ — ٩٨ ، رسالة فصل ما بين العداوة والحسد ، ص ٩٩ — ١٢٤ . ترجمة غير مطبوعة قام بها ك . فيال .

الجاحظ ، رسالة الى فتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، نشرها ج . فان فلوتن (ص ١ — ٥٦) في ثلاثة كراريس مؤلفها الجاحظ ، ليدن ، ١٩٠٣ .

جاكوب (ج .) ، انظر ابراهيم بن يعقوب ،

: Ein arabisher Berichterstatter

جاكوب (ج .) ، دراسة في الجغرافية العربية ، برلين ، ١٨٩١ — ١٨٩٢ ، مجلد واحد في أربعة كراريس ، (الكراس الأول ، ص ١ — ٣٤ ، يضم : Ein arabisher Berichterstatter : انظر هذا الاسم).

جويده (و) ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

حاجي خليفه ، كشف الظنون ، نشره ج . فلوغل ، لايبزيغ ، ١٨٣٥ — ١٣٥٨ سبعة أجزاء .

حدود العالم ، نشره وترجمه ف. مينورسكي ، اوكسفورد ، ١٩٣٧ (الصفحات ٣ — ٤٤ ، ترجمة المقدمة الروسية اجراها ف. برتولد لطبعة أولى لم يتم انهاؤها) .

الحصري ، زهر الأدب ، نشره ع.م. البجاوي ، القاهرة ، ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م، جزءان في مجلد واحد .

ح م د ش ، حوليات معهد الدراسات الشرقية في كلية الآداب في جامعة الجزائر .

الخوارزمي ، كتاب الزيج ، نشره ا. نوجباور ، كوبنهاغن ، ١٩٦٢ .

الخوارزمي ، كتاب صورة الأرض ، نشره هـ . فون مزيك ، لايبزيغ ، ١٩٢٦ . سحب بالتصوير الملون ، عام ١٩٦٣ .

الخوارزمي ، كتاب مفاتيح العلوم ، نشره ج. فان فلوتن ، ليدن ، ١٨٩٥ (مفضلة على طبعة مغفلة الاسم ، نشرتها « ادارة الطباعة المنيرية » ، القاهرة ، ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م) .

د ا ، دراسات اسلامية ، باريس ، ١٩٥٤ وما يليها .

درمون ، انظر م ج ع .

د ش ذ ل ب ، دراسات شرقية لاحياء ذكرى ليفي بروفنسال، باريس ، ١٩٦٢ ، مجلدان .

دوزي (ر .) ، ملحق المعاجم العربية، ليدن ، باريس ، ١٩٢٧ ، مجلدان .

الدينوري ، كتاب الأخبار الطوال ، نشره ا. كراتشكوفسكي ، ليدن ، ١٩١٢ .

الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، حيدر آباد ، ١٣٧٥ – ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٥ – ١٩٥٨ م .

الرازي ، وصف الأندلس ، ترجمة ا. ليفي بروفنسال ، في مجلة الأندلس ، ١٨ روماني ، ١٩٥٣ ، ص ٥١ — ١٠٨ .

روزنتال (ف .) ، أحمد بن الطيب السرخسي ، نيوهيفن ، ١٩٤٣ .

ريتميير (ا.) ،
Die städtegründungen der Araber im Islam nach den arabischen Historiken und Geographen 6 لايبزيغ ، ١٩١٢ .

رينو (م) ، مدخل عام الى جغرافية الشرقيين ، (مجلد أول من جغرافية أبي الفداء ، انظر أبو الفداء) . باريس ، ١٨٤٨ .

ستينشنايدر (م .) ، Die arabishe Literatnr der Juden , فرانكفورت على المين ، ١٩٠٢ .

سهل بن هارون ، رسالة الى محمد بن زياد والى بني عمه .... ، في الجاحظ ، كتاب البخلاء (انظر هذا الاسم) ص ١٦ — ٢٢ .

سورديل (د .) ، الوزارة العباسية من ٧٤٩ الى ٩٣٦ ، دمشق (مجلدان) ، ١٩٥٩ — ١٩٦٠ .

سوفاجيه (ج .) ، انظر أخبار الصين والهند .

سوفاجيه (ج .) ، مدخل الى دراسة الشرق الاسلامي ، باريس ، ١٩٤٦ ، ثالث طبعة (نشرت بعد وفاته) ، اعاد سبكها وأكملها ش . كاهن ، باريس ، ١٩٦١ .

سوفاجيه (ج .) ، المؤرخون العرب ، باريس ، ١٩٤٦ .

سيبيل (د .) ، انظر الغزال .

الشابشتي ، كتاب الديارات ، نشره ك . عواد ، بغداد ، ١٩٥١ .

الطبري ، الحوليات التي كتبها ... الطبري ، نشرها م.ج. دي خويه ، ليدن ، ١٨٧٩ – ١٩٠١ ، ١٥ جزءا في ثلاثة مجلدات .

عبد الجليل (ج . م .) ، تاريخ الأدب العربي ، باريس ، ١٩٦٠.

عجائب الهند ، نسب خطأ الى بزرك بن شهريار ، نشره ب.ا. فان در ليث ، مع ترجمة ل ل.م. ديفيك ، ليدن ، ١٨٨٣ – ١٨٨٦ ، ترجمة جديدة ل ج. سوفاجيه (مطبوع بعد وفاته) ، ص ١٨٩ – ٣٠٩ من المجلد الأول من إحياء ذكرى سوفاجيه ، دمشق (مفد) ، ١٩٥٤. تشير احالاتنا الى هذه الطبعة الأخيرة .

الغزال ، رحلة الى القسطنطينية ، في المقري : ر. دوزي ، ج. دوغا ، ك . كريهل ، و. ورايت ، مختارات من تاريخ وأدب العرب في الأندلس للمقري ، ج١ ، ليدن ، ١٨٥٥ – ١٨٦٠ ، ص ٢٢٣ ، ٦٣٠ – ٦٣٤ (يحوي نص المقري أيضا بعض التفاصيل التي تحيل الى سفارة جوتلاند) .

الغزال ، رحلة الى بلاد النورمانديين في جوتلاند : نص عربي لابن دحية ، في ا. سيبيل ، نصوص عربية نادرة عن النورمانديين ، اوسلو ، ١٩٢٨ ، جزآن في مجلد واحد (ص ١٣ – ٢٠ من النص العربي ، و ١٠ – ١١ روماني من الحواشي) . طبعة اقدم ، نشرها ر. دوزي ، أبحاث عن تاريخ وأدب الأندلس خلال القرون الوسطى ، ج٢ ، باريس ، ليدن ، ١٨٨١ (ص ٨٦ – ٨٨ روماني و ٢٦٧ – ٢٧٨ من الترجمة) . تشير احالاتنا الى طبعة سيبيل .

غرونبوم (ج . فون) ، الاسلام في القرون الوسطى . تاريخه وحضارته ، باريس ، ١٩٦٢ .

فاسيليف (١٠١٠)، بيزنطية والعرب ، نشره م. كانار وه . غريغوار ، بروكسيل ، ١٩٣٥ ، و ١٩٥٠ .

فران (غ .) ، رحلات ونصوص جغرافية عربية وفارسية وتركية عائدة الى الشرق الأقصى ، من القرن الثامن الى القرن الثامن عشر ، باريس ، ١٩١٣ — ١٩١٤ .

فران (غ .) ، رحلة التاجر العربي سليمان : انظر أبو زيد السيرافي .

الفهرست : انظر ابن النديم .

قدامة بن جعفر ، كتاب الخراج وصناعة الكتابة (مقتطفات) ، ج٦ ، مجع ، ليدن ، ١٨٨٩ . تكملها طبعة ا. مكي ، اطروحة اضافية (مضروبة على الآلة الكاتبة) ، باريس ، ١٩٥٥ (اعتمدت هذه الطبعة على مخطوطة رقم ١٠٧٦ من مكتبة كوبرولو ، وتعطي فقط (انظر ص ١ حاشية ٦) النص المتروك جانبا في طبعة مجع ، دون ان تعيد نشر الفصل التاسع عشر من الكتاب السابع ، مثلما فعلت مجع ، التي تلغي الاسناد وتروي كتاب فتوح البلدان للبلاذري) . يجب فهم احالاتنا كما يلي : يشير الرقم البسيط الى النص العربي مجع والترجمة المذكورة ترجمة مجع ، واذا سبق الرقم بحرف اشار الى طبعة مكي .

القزويني ، آثار البلاد ، نشره ف. وستنفيلد (علم الفلك ، المجلد ٢) غوتنجن ، ١٨٤٨ .

كارادي فو ، (ب) ، « مفكرو الاسلام » ، ج١ ، و٢ ، باريس ، ١٩٢١ .

كانار (م) ، انظر ابن فضلان .

كانار (م .) ، « ابراهيم بن يعقوب ورحلته الى أوربة » ، في دراسات شرقية لاحياء ذكرى ليفي بروفنسال (دش ذلب) ، ج۲ ، ص ٥٠٣ — ٥٠٨ .

كاهن (ك .) ، « الحركات الشعبية والاستقلال الإداري المديني في آسية الاسلامية في القرون الوسطى » . ارابيكا ، ٥ روماني ، ص ٢٢٥ — ٢٥٠ ، و ٦ روماني ١٩٥٩ ، ص ٢٥ — ٥٦ ، و ٢٣٣ — ٢٦٥ .

كتاب الروض المعطار ، نشره ليفي بروفنسال ، ص ١٦ — ١٨ من النص العربي ، و٢٣ — ٢٤ من الترجمة ، ليدن ، ١٩٣٨ . تشير احالاتنا الى هذه الطبعة . احالات أخرى اقدم ، بالنسبة الى نص الادريسي ذاته . عند كراتشكوفسكي ، الترجمة ص ١٥٠ ، حاشية ١١٩ . ورد النص الأدريسي ذاته عند أبي الحامد الغرناطي وابن فضل الله العمري (انظر فانيان ، مختارات غير مطبوعة عائدة الى المغرب ، جغرافية وتاريخ ، ص ٣٠ — ٣١ ، ٩٠ — ٩١ ، الجزائر ، ١٩٢٤) .

كحالة ، ع . ر . ، معجم المؤلفين ، دمشق ، ١٣٧٦ — ١٣٨٠ ه / ١٩٥٧ — ١٩٦١ م ، ١٥ مجلدا .

كراتشكوفسكي (ا . ج .) ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، موسكو لينغراد ، ١٩٥٧ . ترجمة جزئية ، اجراها صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ، ١٩٦٣ . في احالاتنا ، يلحق بذكر الطبعة الأصلية ، اشارة الى الترجمة بين قوسين .

كرامرز (ج . ه .) ، « قضية البلخي – الاصطخري وأطلس الأسلام » ، مجلة الأعمال الشرقية ، ١٠ روماني ، ١٩٣٢ ، ص ٩ – ٣٠ .

كروازيه (ا . و م .) ، تاريخ الأدب اليوناني ، تشير الاحالات الى أرقام الأجزاء في الطبعة الموسعة المؤلفة من خمسة مجلدات ، المجلدان الرابع والخامس طبعا في باريس ، الطبعة الثانية والأولى لكل منهما ، بلا تاريخ ، ولا تشير الى أرقام المجلدات في الطبعة المختصرة بمجلد واحد ، الطبعة العاشرة ، باريس ، بدون تاريخ .

كرد علي (م .) رسالة البلغاء ، القاهرة ، ١٣٦٥ ه / ١٩٤٦ م

كوالسكي (ت .) : انظر ابراهيم بن يعقوب .

كودازي (ا .) ، : انظر اسحاق بن الحسين .

لازار (ج .) ، لغة أقدم آثار النثر اليوناني ، باريس ، ١٩٦٥ .

لاووست (ه .) ، كتاب شرح الابانة على أصول السنة والديانة ، لابن بطهالعكبري ، دمشق (م ف د) ، ١٩٥٨ .

لاووست (ه .) ، الانشقاقات في الاسلام ، باريس ، ١٩٦٥ .

لسان العرب : انظر ابن منظور .

لوكنت (ج .) ، ابن قتيبة ، الرجل ، مصنفاته وأفكاره ، دمشق (م ف د) ، ١٩٦٥ .

لوكنت (ج .) ، « مدخل كتاب أدب الكاتب لابن قتيبه » ، في متفرقات ماسينيون ، المجلد ٣ ، ص ٤٥ – ٦٤ ، دمشق(م ف د) ، ١٩٥٧ .

ليفي بروفنسال (ا .) ، شبه الجزيرة الايبيرية في القرون الوسطى ، حسب « كتاب الروض المعطار » : انظر « المغرورون» .

ليفي بروفنسال (ا .) ، انظر الرازي .

م ا الموسوعة الاسلامية أربعة مجلدات ، وملحق ، ليدن ، ١٩٠٨ — ١٩٣٤ و ١٩٣٨ .

م ا (٢) : الموسوعة الأسلامية ، طبعة جديدة ، قيد الطبع ، ليدن، ١٩٥٤ وما يليها .

م ا س : المجلة الآسيوية

ما شاء الله ، كتاب الأسعار ، مخطوطة اكسفورد ، مارش ٦١٨ ، و ٢٢٤ ظهر — ٢٣٠ وجه .

م ج ا م : مجلة الجمعية الآسيوية الملكية .

م ج ع : مختارات من الجغرافيين العرب الرئيسيين في القرون الوسطى ، نشره ر. بلاشير ، وه . درمون ، باريس ١٩٥٧ .

م ج ع : المكتبة الجغرافية العربية ، نشرها م.ج. دي خويه ، ليدن (يرجع الى المؤلفين المشار اليهم فيما يلي) :

ج١ : الاصطخري .

ج٢ : ابن حوقل .

ج٣ : المقدسي .

ج٤ : فهرس ومعجم الألفاظ .

ج٥ : ابن الفقيه .

ج٦ : ابن خرداذبه وقدامه (طبعة جزئية) .

ج٧ : ابن رسته واليعقوبي .

ج٨ : المسعودي (التنبيه) .

مختصر : **مختصر العجائب** ، انظر ابراهيم بن وصيف شاه .

م د ا : مجلة الدراسات الاسلامية .

م د ش : مجلة الدراسات الشرقية .

م د ش م ف د : مجلة الدراسات الشرقية في المعهد الفرنسي بدمشق .

مركار (ج .) Osteuropaïsche und ostasiatische streibzuge

لا يبزيغ ، ١٩٠٣ .

المروج ، انظر المسعودي .

المسعودي ، كتاب التنبيه والاشراف ، ج٨ ، من م ج ع ، ليدن ، ١٨٩٤ ، ترجمة ب . كارا دي فو ، باريس ١٨٩٦ . تشير احالاتنا الى الترجمة لتسهيل الأمور ، عند الحاجة ، أشرنا الى صفحات النص العربي بين قوسين .

المسعودي ، مروج الذهب ، نشره وترجمه باربيه دي مينار (ش .) وج . بافيه دي كورتيل ، باريس ، ١٨٦١ — ١٨٧٧ ، تسعة مجلدات ، ترجمة جديدة بالعنوان ذاته ، اجراها ش . بيلا ، باريس ، قيد الطبع . تشير احالاتنا الى أجزاء وصفحات الطبعة القديمة ، واذا استعملناالفقرات ، الى طبعة بيلا . (فقرة ١ — ١٤٤٠ ، تقابل المجلد ١ — ٤ من الطبعة القديمة) .

مسكويه ، كتاب تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، ترجمة جزئية اجراها دي خويه (نبذ تاريخية عربية ، ج٢) ، ١٨٧١ .

مسكويه ، كتاب تهذيب الأخلاق ، بيروت ، ١٩٦١ .

المغروون ، مقاطع من أخبار رحلة الى ما ديره وجزر الكناري ، حفظها الادريسي ، ترجمت في كتاب الروض المعطار ، نشره ليفي بروفنسال ، ص ١٦ — ١٨ من النص العربي ، و ٢٣ — ٢٤ من الترجمة. ليدن ، ١٩٣٨ . تشير احالاتنا الى هذه الطبعة . احالات اخرى اقدم ، بالنسبة الى نص الادريسي ، عند كراتشكوفسكي ، الترجمة ، ص ١٥٠ ، حاشية ١١٩ . ورد نص الادريسي ذاته عند أبي الحامد الغرناطي وابن فضل الله العمري (انظر فانيان) مختارات غير مطبوعة عائدة الى المغرب— جغرافية وتاريخ ، ص ٣٠ — ٣١ ، ٩٠ — ٩١ ، الجزائر ، ١٩٢٤) .

م ف ا ق : مجموعات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة .

م ف د : مجموعات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق .

المقدسي ، كتاب البدء والتاريخ ، نشره وترجمه ش . هوار (خطأ تحت اسم أبي زيد البلخي) ، باريس ، ١٨٩٩ — ١٩١٩ ، ستة مجلدات . تشير احالاتنا الى الترجمة ، وعندما نرى ضرورة الاحالة الى النص نضعها بين قوسين بعد الاحالة الى الترجمة .

المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ج٣ ، م ج ع ، ليدن ، ١٩٠٦ ، ترجمة جزئية ، أجراها ا. ميكيل ، دمشق (م ف د) ، ١٩٦٣ (تشير اليها احالاتنا ، عندما نذكر الترجمة) . ترجمات اخرى جزئية ذكرت عند كراتشكوفسكي ، ٢١٣ — ٢١٤ (٢١١ — ٢١٢) ،

يضاف اليها : ج. جلديميستر، في ZDPV، ٧روماني، ١٨٨٤ ، ص ١٤٣ — ١٧٢ ، ٢١٥ — ٢٢٦ ، وج . لوسترانج ، وصف سورية ، لندن ، ١٨٩٠ ، وش . بيلا ، وصف الغرب الاسلامي من القرن الرابع الهجري / القرن العاشر الميلادي ، للمقدسي ، المجلد ٩ من المكتبة العربية الفرنسية لمعهد الدراسات الشرقية في كلية الآداب في جامعة الجزائر ، الجزائر ، ١٩٥٠ . حول طبعة رانكين — آزو ، انظر الترجمة ، ص ٢٦ روماني ، حاشية ١ .

المقريزي : انظر الأسواني .

مكي (أ .) ، قدامة بن جعفر ومؤلفاته ، اطروحة مضروبة على الآلة الكاتبة ، باريس ، ١٩٥٥ .

ملحق : انظر أبو زيد السيرافي .

م م د ش ا : مجلة معهد الدراسات الشرقية والأفريقية ، لندن .

م م ف ا ق : مذكرات نشرها المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة .

م م ع د : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق .

المنجد (ص .) : « قطعة من كتاب مفقود : المسالك والممالك للمهلبي » ، مجلة معهد المخطوطات العربية ٤ روماني ، ص ٤٣ — ٧٢ ، القاهرة ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م .

المهلبي ، كتاب المسالك والممالك (أو كتاب العزيزي) ، مقاطع محفوظة عند ياقوت ، معجم البلدان ، وعند أبي الفداء ، تقويم البلدان (انظر هذا الأسم) . مقاطع اخرى عند ص . المنجد ، مشار اليه .

ميكيل (ا .) ، انظر المقدسي .

مينورسكي (ف .) ، انظر حدود العالم .

نللينو (ك . ا .) ، الأدب العربي من البدء حتى العصر الأموي، جمة ش . بيلا ، باريس ، ١٩٥٠ .

هايد (و .) ، تاريخ التجارة في الشرق في القرون الوسطى ، عة فرنسية لفورسي رينو ، ج١ ، لايبزيغ ، ١٩٢٣ ، اعادة طبع عة عام ١٨٨٥ ، معاد طبعها ، امستردام ، ١٩٥٩ .

الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، نشره د.ه. مولر ، ليدن ، ١٨٧ ، ١٨٩١ ، مجلدان . تشير احالاتنا الى النص العربي من المجلد ول ، ما لم نشر الى خلاف ذلك ، لا بد من الاحتراس ، فشكل هذا ص متردد أحياناً ، أو مغلوط بوضوح .

هوار (ك .) ، الأدب العربي ، ١٩٣٩ .

وايت (ج) ، انظر ابن حوقل ، ابن رسته واليعقوبي .

الوراق ، منتخبات من كتاب المسالك والممالك عند البكري ، مف ، (انظر هذا الأسم) .

الوشاء ، الموشى ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م .

ياقوت ، معجم الأدباء ، نشره ا.ف. رفاعي ، القاهرة ، ١٣٥٥ — ١٣ هـ / ١٩٣٦ — ١٩٣٨ م ، ، ٢٠ جزءاً .

ياقوت ، معجم البلدان ، بيروت ، ١٣٧٤ — ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٥ — ١٩ ، ٢٠ جزءاً في خمسة مجلدات . ترجمة جزئية قام بها و . يدة ، الفصول التمهيدية ، ليدن ، ١٩٥٩ .

يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، نشره ت.و . جينبول ، ١٨٩٦ ، ليدن .

اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ج٧ ، مج ع ، ليدن ، ١٨٩٢ ؛ ترجمة ج . وايت ، القاهرة (م فاق) ، ١٩٣٧ ، اذا لم نعط اشارة اضافية ، تشير احالاتنا الى النص العربي ، واذا ذكرنا الترجمة ، فترجمة وايت المقصودة . نشير أيضا الى نشر وترجمة جزئية لج . مارسيه ، ه . بيريس وج . وايت ، وصف المغرب عام ٢٧٦ ه / ٨٨٩ م ، ج٤ من المكتبة العربية الفرنسية ، سلسلة جديدة ، من معهد الدراسات الشرقية في كلية الآداب في جامعة الجزائر ، الجزائر ، ١٣٨١ ه / ١٩٦٢ م .

اليعقوبي ، تاريخ ، بيروت ، ١٣٧٩ ه / ١٩٦٠ م ، جزآن .

* * *

مدخل

الجغرافية العربية (١) سليلة الخلافة العباسية ، وإن كانت جذور بعض مركّباتها تمتدّ قطعاً الى ما قبل قيام العباسين في العراق . لكنّها لم تكن لتنشأ ، مثلما سوف نرى، كما تدلّ الوقائع ، اذا ما تأمّل الباحثُ في نصوصها الأولى(٢) ، لو لم تتلقّف المواضيعَ القديمة من تراث الشرق الهندي والفارسي ومن تراث الغرب اليوناني . ورأت النور تصانيفُها التي بعثت أصداء أصوات ظُنّ أنّها ضاعت ، في زمن القرون الوسطى الغربية ، زمن أيمان ستّراسبورغ(٣) . لأنّ النهضة العباسيةاستحصلت من الأديرة على منسيّات العلم القديم . وتكوّنت جغرافية ذلك الوقت من التيارات الفكرية الكبرى ، التي ظهرت في عصر الأنوار العربي ، وتأثّرت تأثيراً بالغاً بقلقه وبالتعبير عن قلقه . فاتسمت بسمة أولى جعلتها تتحوّل بسرعة وبآن واحد الى حقل تحرّيات والى نمط أدبي حمل أسماء متعددة . لكن سوف تصبح ، منذ بدايتها ، عرضَ مواقف بشرية في غمرة الجدل الكبير ، الذي اكتنف ولادتها ، وتناول قبل كلّ شيء دور الانسان الجديد الذي خلقه الاسلام والفتح ، وعُنِي أيضاً بمكانة هذا الانسان في العالم . وتضمّنت بعض الفصول النادرة ، ممّا نسمّيه جغرافية طبيعية ، قضايا بشرية(٤) بالدرجة الأولى، حبت الجغرافية ميزتها الثانية . فاذا أخذنا الجغرافية الطبيعية بمعناها

الواسع ، أمكننا القولُ بأن الجغرافية العربية كانت برّمتها ، في الحدّ الأدنى في أوائل عهدها ، جغرافية بشرية ، ما دامت لا تكتفي بجعل البشر موضوعا لدراستها ، بل تأتي بنزعة تعتبر أنّ الوسط الذي يعيش فيه البشر يثير في وجههم قضايا متعددة . أخيراً تنفرد بميزة ثالثة . فقد كتُبتْ جغرافيةُ دار الاسلام هذه ، بأجمعها تقريبا ، باللغة العربية(٥) . ولا يهم أنْ صَدَفَ وحرّرتها يدٌ فارسية(٦) مثلاً : فالعقل الذي تصوّرها ، رغم التباينات المحلّية ، الشديدة أحياناً ، يظلّ يمثّل تمثيلاً رائعاً « هذا الايمان الواضح القوي ، المشترك بين جميع المسلمين في القرون الوسطى ، مهما كان أصلهم ، بانتمائهم الى حضارة عربية تعكس مشيئة الخالق(٧) » : ويحدّد هذا الشعورُ ، بصورة أساسية ، هذه الحضارة ، ويحلّل بعض ما ألّفه الأعاجمُ من روائع الآثار العربيّة مثل آثار البيروني أو معجم ياقوت .

ويُعتَبرُ ر . بلاشير(٨) على حقّ مبين ، عندما يؤكّد أنّ من الخطأ الاعتقاد بأن مختلف المؤثّرات التي واكبت تكوين الجغرافية العربية « لعبت دورها إفراديا وتباعا » . ممّا يجعل الباحث يرجّحُ أنْ يقومَ بالتمييز بين شتّى التيارات ، ليتحاشى كثرة التكرار ، التي تجرّه اليها الدراسة المبنية على التسلسل الزمنيّ الصرف ، على أن يسلّم ليس بندرة الأجيال التي لا تسهم في كثير من هذه الحركات فحسب ، بل بندرة المؤلفين الذين لا يشاركون في العديد منها أيضا . مع ذلك بدا لنا أن تسلسل الأمور على هذا النحو ، يوشكُ أن يؤدّي الى إفسادها أيضا . بالفعل ، لا يجوز ان يُعاد تشكيلُ المنظور الزمني في اوائله ، لا بصورة ثانوية ، ولا في إطار مشتّتٍ كاطار أوائل الخلافة العباسية إجمالا ،

بل أنْ يُعَاد إدراجه جيدا وفي كل لحظة في المنظور الأدبي ، الذي يستطيع وحده إيضاحه . وأن يُجَمَّعَ حول سنين حاسمة تحتضن ولادة الجغرافية العربية . على أننا متأكدون من أمر واحد على الأقل ، في غمرة ما يثيرهُ فينا أحيانا من شكوك ، لغزُ أمثال هذه العهود البعيدة ، وفذلكةُ الرواة ، وتصحيفُ أو فقدانُ مصنّفات أساسية(٩) . ويشهدُ الكتّابُ أنفسهم(١٠) أنّ بحث ابن خرداذبه يجعله أوّل جغرافي(١١) ، وأولَ مؤلّف كتبَ في عصره نمَط دراسة البلدان الجديدَ . فاذا سلّمنا أنّ هذا الحدث الحاسم حصلَ حوالي ٢٣٦ — ٢٦٧ هـ / ٨٥٠ — ٨٨٠ م(١٢) ، وقعنا في عصر بدأت تظهر فيه الحركات الفكرية الكبرى المستقبلة ، وتطرح الخيارات الكبرى . وسوف يؤثّر ثقلُ ثلاثة عوامل حاسمة في ظهور الروح الجغرافية : أولها يجني ثمار أنوار عصر المأمون (١٩٩ — ٢١٨ هـ / ٨١٣ — ٨٣٣ م) ، ويتّمثل بوصول المدرسة الكبرى لتراجمة بغداد الى ذروة تطورها من عام ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م الى عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م(١٣) . والعامل الثاني ازدهار العلوم التقليدية ، لا سيما التاريخ(١٤) . أخيراً العامل الثالث إثارة قضية تكوين النخبة والمفكرّين ، حول اسمين لامعين ، هما الجاحظ وابن قتيبة(١٥) . ولن تتسنّى مقاربةُ دراسة مختلف تيارات الجغرافية حتّى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي(١٦) ، إلاّ بعد استعراض عناصر هذا الإطار الزمني .

الخلافة العباسية في بغداد

التاريخ العام

أول الخـــ ـــــــــ ـــلافـــــة الخامسة البويهيـــة

• تأسيس بغداد

• تأسيس سامراء (الحرس التركي)

ثورة الزنج | ثورة القرامطـة

• التجار العرب في خانفوه

•• انكسار الصين في اسية الوسطى وادخال صنع الورق

• تجار عرب على سواحل افريقية الشرقية

بنــو طاهــر (خراسان)

فارس الشرقية ــ الهند الشمالية

الغزنويون

بنو صفار (خراسان)

بنو سامان

(حلب)

الحمدانيون (مصر)

الطولونيون بنو اخشيد الفاطميون

• تأسيس القاهرة وبناء الازهر

(افريقيـــة)

الاغالبة الفاطميون بنو زيري

• العرب في باليرمو

(الجزائر الغربية)

بنو رستم

(المغرب الاقصى)

• تأسيس فاس بنو ادريس

• جامع قرطبة

(الاندلس)

امارة قرطبة ثم خلافتها

الخلافة الشرق ـ سورية ومصر المغرب الشرقي المغرب الغربي الاندلس

ـ ٤ ـ

الخلافة العباسية في بغداد

الحياة الدينية

أوج الخلافة العباسية : البويهية

٧٥٠ ٨٠٠ ٨٥٠ ٩٠٠ ٩٥٠ ١٠٠٠ ١٠٥٠

أبو حنيفة

مالك بن أنس

الشافعي

المعتزلة الرسمية

ابن حنبل

المحاسبي

البخاري

مسلم

أوج الظاهرية

الدعوة الإسماعيلية

الجنيد

الحلاج

الأشعري

الماتريدي

الدروز

ـ ٤ منزر ـ

الخلافة العباسية في بغداد

العلماء والكتاب

اوج الخلافة العباسية

٧٥٠ — ٨٠٠ — ٨٥٠ — ٩٠٠ — ٩٥٠

ابن المقفع
بشار بن برد
الخليل
المفضل الضبي
سيبويه
الكسائي
ابو نواس
الفراء
تأسيس دار الحكمة ، ترجمات يونانية ، قياس درجة الطول وميل دائرة البروج
ابو العتاهية
ابو تمام
الخوارزمي
الجاحظ
الكندي
ابن قتيبة
البلاذري
ابن الرومي
البحتري
اليعقوبي
ابن المعتز
ابن خرداذبه
ابن الفقيه
ابن رسته
الطبري

-٥-

الخلافـــــــــــــة العباســـــــــية فى بغــــــــداد

العلمـــــاء والكتــــاب (تابع)

اوج الخلافـــــــــــــــــــــة - الحمـــــاية - البويهـــــــية

الرازي
البتاني
ابن عبد ربه
قدامه بن جعفر
الفارابى
المسعودي
المتنبي
القــــالى
ابو اسحاق العرج الاصفهاني
ابن نباته
ابـــن حوقل
التنوخي
المقدسى
ابن النديم
الهمذاني
ابو الحيـــــان التوحيدي
ابن مسكويه
ابن سنا
الثعالبي
البيروني
ابو العلاء المعري
ابن حزم
البكري

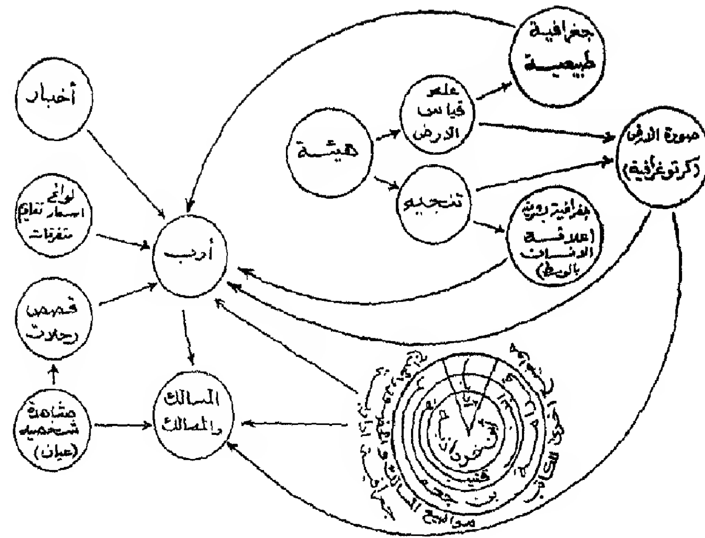

ملاحظة : يرجى قراءة الثغور عوضا عن الحضور في الجغرافية الرياضية.

الفصل الأوّل

أصول الجغرافية العربية

العلوم الجديدة والعلوم التقليديّة

رياضيات الخلق

ثبت ان البحث النظري المجرد احتل مكانة فريدة(١٧) منذ نشوء الجغرافية العربية . لكن ، ايجوز ، مثلما قد يقال ، التغاضي عن تقصي يتعلق بدراسة الانسان أصلا ، والالتفات الى الاهتمامات الاخرى؟ الحقيقة ان الأمور ليست بهذه البساطة في هذا المجال ، لأن جغرافية النجوم هنا تستحق أكثر من ذكر جاف وعابر . فاولا يمكن أن نتساءل ، كما سوف نفعل فيما بعد ، ما اذا كان يسع العرب ان ينظروا الى الأرض ، قبل ان يجدوا في السماء ما يدعوهم الى التأمل فيها . من ناحية اخرى ، لا تتلاءم روح الفرز ونظام التقسيم في عصرنا مع الطموح التجميعي لدى علماء القرون الوسطى ، الذين يعتبرون ان المعرفة لا تتجزأ . أخيراً ، في وقت لاحق متأخر جداً(١٨) ، عندما نساق في المستقبل لننفذ الى الذهنيات ، مثلما تتجلى من خلال كتابات المصنفين ، سوف نرى المكانة التي يحتلها فيها تنظيم الكون وتصور الأرض ضمنه . لجميع هذه الأسباب ، ومنذ نشأة الجغرافية ، لم يغفل جغرافي واحد . بفخر

برزانته ، عن استهلال عرضه بتناول هذا البحث النبيل الذي يحث الانسان على التفكير مليا بمشيئة الخالق من جديد .

ونكتفي هنا بكلمة موجزة ، نعيد بها الى الذاكرة أصول الجغرافية الفلكية عند العرب . فهذه الجغرافية ، بمعناها العلمي الدقيق ، جاءت من مصدر أجنبي(١٩) . فقد اطلعت الترجمات الهندية والفارسية علماء بغداد على نظام السند هند والزيج(٢٠) ، فحفزت علم الهيئة العربي . ولا ريب ان هذه الترجمات ترجع الى الربع الأخير من القرن الثامن الميلادي . مع ذلك ، يبدو ان هذا التأثير ، في الحد الأدنى على مستوى تكوين العلماء ، توقف حتما عن لعب دور أساسي(٢١) ، منذ حل محله التأثير اليوناني الحديث العهد ، بالقوة الشديدة المعروفة . فلا ريب ان أول ترجمة عربية لكتاب المجسطي لبطلميوس ظهرت حوالي عام ٨٠٠ م(٢٢) . وجاءت بعدها بقليل ، على يد تراجمة مشهورين ، مثل حنين بن اسحاق ، وثابت بن قرة ، وقسطا بن لوقا ، وكثيرين غيرهم(٢٣) ، جغرافية بطلميوس ، وجداوله ، وكتاب فرضيات الكواكب ، وكتاب تسطيح الكرة ، وجداول ثاون الاسكندري ، وجغرافية مارينوس الصوري ، وكتب متنوعة عن الكواكب لارسطرخس ، واوطولوقس ، وثاوذوسيوس ، وامونيوس ، وابسقلاوس ، وأشباههم . وساعدت هذه الترجمات على تصنيف مؤلفات الجيل الأول من علماء الهيئة البغداديين ، الذين اشتهر منهم محمد بن موسى الخوارزمي ، (المتوفى عام ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م) والفرغاني (المتوفى بعد عام ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م) ، وأبو معشر (المتوفى عام ٢٧٢ هـ / ٨٨٦ م)(٢٤) . وهذه المصنفات جديدة في اللغة العربية ، لكنها ليست ابتكارا على المستوى النظري(٢٥) .

فالمؤلفون اعادوا صياغة عدد كبير من أفكار المعلمين القدامى ، ولا سيما أفكار علم هيئة بطلميوس ، بما فيه من دوائر داخلية وأفلاك تداوير محيطة بأرض ثابتة في مركز نظام الكون(٢٦) . وسنرى قريبا ان فضل العرب يقع على مستوى غير المستوى النظري المجرد(٢٧) .
لكن قبل ترك هذا المستوى ، لا بد لنا من طرح قضية علاقاته بالجغرافية العربية عند نشوئها . واذا اقتصرنا على النيات ، أمكننا القول ان جغرافية الأرض أرادت ان ترتكز شرعياً على النجوم عن طريق التأمل بنظام الكون الذي يحتل كوكبنا مركزه(٢٨) . فقد كتب ابن رسته مايلي(٢٩) :
لم يترك ذلك (أي دراسة الكواكب) عز وجل مطلقا لظان يظن انه إنما قصد بهذا القول ان ينظر الناس الى السماء وكواكبها ، ويتفكر في أستتارها نهارا وظهورها ليلاً ، وشروق الشارق منها ، وافول الغارب نظرا مطلقا لا يؤدي الى علم علة ولا يبحث عن سبب حتى دل على مراده(٣٠) ... مما يدل ان المنجمين قد سلكوا السبيل التي أرادها الله منهم ... فالعجب لمن انصرف عن الله عز وجل ورغب عن هدايته وارشاده ، ولم يعمل فكره ولا لبه ولا عمله ولا نظره في خلق السموات والأرض » . مع ذلك ، أرادت الجغرافية بمثل هذه الأقوال ، التي تردد صدى الصراعات بين الظمأ الشديد الى المعرفة وبين السنة القلقة(٣١) ، ان تتعاطى أسباب الحياة ، وهذا شيء ضئيل الأهمية ، لكنها وجدت أيضاً في هذا العرض المرقوم عن الخلق ما يدعوها الى نقل مرتسم السماء الدقيق الى الأرض . ولنعتبر الرقم طريقة بسيطة خاصة بالسحر التقليدي(٣٢) ، أو ، لنجار ليفي ستروس ، وننظر اليه كثابتة شبه غريزية في طبيعتنا ، كعلم تصنيف كون ، أشبه « بظل » علم ، ندرك ان الجغرافية العربية ، في أول عهدها ، تنهج ، في تقديمها الأرض(٣٣)

تقديما اجماليا ، نهج التصنيف المرقوم ذاته الذي تتجلى به معرفة الكون ، ويعكس توزيع الأراضي المعمورة أو الأقاليم ، والأرقام التي توضح وصف الكوكب ، عكساً جيداً ، الميزة التوزيعية نفسها التي تظهر في علم النجوم(٣٤) .

بقي ان نشير الى ان دراسة الكرة تذهب الى أبعد مما تدل عليه ألفاظ صلاة الاسكندر(٣٥) ، من تسطيح بسيط يجري على الأرض ، ويختص بـ « التوزيعات المرقومة » و بـ « الحقائق الرياضية » العائدة الى الكون . بالفعل ، في البدء ، خضع تطور المواضيع الجغرافية الى اتجاهين : احدهما خطي وتطوري زمني اذا أردنا ، يمثل الانتقال العادي من الفلك الصرف الى علم رسم الخرائط ، والآخر متزامن ، يذكرنا بما يتعلق بهذا القرن بالذات ، وبأن هذا العلم يحمل طابع العلوم الناشئة ، أو ، أحيانا ، طابع بعض العلوم المزدهرة في زمنه .

علوم الأرض : علم قياس الأرض،وعلم التنجيم ، ونشوء نوع من علم رسم الخرائط يسمى نمط صورة الأرض .

يطيب لورثة العلم اليوناني ، الاعتقاد بأن لكل بحث أساسي ، بمشتقاته أو فروعه ، تطبيقا في الاحداث(٣٦) . وهكذا ينقسم علم الهيئة ، في نظر العلماء العرب في القرون الوسطى ، الى عدة فروع ، بعضها تابع له حصراً ، وبعضها على العكس ، مشترك بينه وبين الهندسة . ويستحسن ادخال « علم الاسطرلاب » في الفئة الثانية ، أي علم قياس الأرض عندنا ، الذي شكل فيما نعلم ، مجداً من أمجاد الفكر العربي في القرون الوسطى قلما ينازع فيه(٣٧) . لكن لم ينفصل تقدير قياسات الأرض وموقعها في الكون تقديراً صحيحاً ، عن الرغبة في ايضاح

مصيرها : فقد نستغرب هنا ان يترافق التنجيم ومنهج تفكير ، نرفض منحه اسم علم في أيامنا الحاضرة ، وبالتالي ، منحه أي حق بادعاء تمثيل أي واقع على الأرض . إلا ان التنجيم كان في العصور القديمة والقرون الوسطى ، فرعا من علم النجوم ، يخضع مثله الى قوانين محددة(٣٨) . ويحتل هذا الاعتبار أهمية رئيسية بالنسبة الى الموضوع الذي يهمنا ، ما دام اندماج الانسان والكائنات الحية في نظام الكون يتم عن طريق التنجيم : فالتنجيم يقيم بين الانسان والكائنات الحية من جهة وبين نظام الكون من جهة اخرى ، مجموعة وثيقة جداً من العلاقات ، ويفسح المجال لظهور موضوع أساسي في علم الجغرافية ، هو موضوع العلاقات بين المخلوقات وبين وسطها . مع ذلك ، في البدء ، ونود ان نبقى في نطاق المنظور الذي حددناه لأنفسنا حتى الآن ، تنتظم هذه العلاقات في اطار تنجيمي دقيق ، يوضحه المسعودي جيدا لا عندما يشير الى معطيات تقليدية ، ويضع كل أقليم من « الأقاليم »(٣٩) السبعة تحت تأثير كوكب ، ويأخذ بعض الأمثلة ليستخلص منها على وجه التقريب قانون تلاؤم الوسط النجمي ، ثم يستنتج(٤٠) ما يلي : « ومن الفلكيين من يرى ان كل جزء من أجزاء الأرض جزء من أجزاء الفلك يغلب عليه طباعه لأن في أجزاء الفلك المضيء والمظلم والفصيح والاخرس وذا الأصوات والمجوف وغير ذلك من نعوت الدرج ، فلذلك يكون كلام أهل الموضع الواحد مختلفا على قدر ما تصلح فيه السعود وتفسد فيه النحوس ثم يختلف أهل اللسان الواحد في المنطق واللهجات(٤١) » . وفي مكان آخر أيضا ، يكرر المسعودي فكرة استغلها الجاحظ مرات عديدة(٤٢) ، تقول بان للون البشرة علاقة بتأثير الشمس أثناء تشكل الجنين(٤٣) ، ويعلن : « فانهم (سكان افريقية تحت خط الاستواء)

بخلاف تلك الحال من التهاب الحرارة وقلة الرطوبة ، فاسودت ألوانهم ، واحمرت أعينهم ، وتوحشت نفوسهم ، وذلك لالتهاب هوائهم وافراط الارحام في نضجهم حتى احترقت ألوانهم ، وتفلفلت شعورهم، لغلبة البخار الحار اليابس ، وكذلك الشعور السبطة اذا قربت من حرارة النار ، دخلها الانقباض ثم الانضمام ثم الانعقاد على قدر قربها من الحرارة وبعدها عنها » .

وعلى هذا النحو ، نشأ شيئا فشيئا ما سمي شكل أو تمثيل الأرض (صورة الأرض) ، وهو نمط لم يعين بدقة ، يجمع بين معطيات الفلك التطبيقي وبين « علم الأقاليم(٤٤) » . أقول نمطاً لم يعين بدقة ، لأن علم الخرائط(٤٥) هذا ، في حدود معارفنا الحالية ، رفض فيما يبدو ، في وقت مبكر جداً ، أن يقتصر على الناحية النظرية المجردة في فرعيه الأساسيين : علم قياس الأرض وتوزيع الأقاليم التنجيمي . ونلاحظ أولا ، فيما يتعلق بعلم قياس الأرض وتوزيع عناصرها المختلفة(٤٦) ، ان هذا العلم يعني ، ولو عناية أولية ، باعتبارات فيزياء طبيعية ، قد لا تؤلف بدورها ، قلما يكون عند نشوئها ، سوى تطبيق موضوعات الميكانيك(٤٧) على المعطيات الجديدة. ومنذ الآن ، تبعا لذلك ، تعينت حدود الرئاية المعنية : فاذا أهملنا التحدث عن مواضيع اخرى كثيرة ، بعيدة جداً عن الفلك الصرف ، ومتوفرة مع ذلك لدى رسامي الخرائط(٤٨) الأول — تبين لنا ان التعرف على العنصر الأجنبي ، أي الميكانيك ، ولو أدى علم الهيئة الى نشوء علم قياس الأرض ، بالمعنى الواسع ، يقودنا الى التأكد ان علم الفلك لن يتفرع عنه وحده علم قياس الأرض الجديد . ويخرج جاهزا مجهزاً من مفكرات العلماء . وتتحتم العودة الى وجهة

النظر المتزامنة ، أي الى اجراء تمحيص ، ولو سريع ، لسائر العلوم التي رافق نشوؤها أو ازدهارها أولى خطوات العلم الجغرافي ، لا سيما ان علم قياس الأرض ، مهما بقي خاضعا للفلك المحض ، لا ينجو من الطابع الخاص بعصره . فاولا فرّع التطور الحاصل علم القياس من علم الهيئة ، وهذا ضمن حدود منطق الأشياء الطبيعي(٤٩) . وتيسر ، حدوثه ، في الحالة التي نعنى بها بالذات ، بسهولة فائقة ، لأن ترجمة المصنفات الفلكية الصرفة ، ترافقت مع ترجمة جغرافيتي بطلميوس ومارينوس الصوري ، اللتين مثلتا تمثيلا جيداً ، في نظر العلماء العرب في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي — السبل التي يمكن ان تسلكها تقنيات تمثيل الأرض(٥٠) . من جهة اخرى ، تستحسن الاشارة الى ان الاهتمام بالفلك التطبيقي ليس شيئا مصطنعا ، يقلّد انتاجات العصر الفكرية ، ويفرض من الخارج على ذهنية المعاصرين : بل على العكس ، يوافق ذوق الواقع والمشاهدة التجريبية للكواكب المشار اليها من قبل(٥١). أخيراً ، نتفهم العناية بعلم القياس على ضوء الاعتبارات الدينية ، مثلما أدركنا انه امتداد طبيعي للفلك المحض : فيهمّ جماعة دينية ، وصل انتشارها الى أماكن بعيدة جداً عن موطنها الأصلي ، ان تعرف معرفة جيدة ، هيئة الكرة العامة ، لتتمكن من ايجاد اتجاه الصلاة(٥٢) في الأوقات الشرعية . بلجميع هذه الأسباب ، وبعد أخذ الدور الاشتقاقي العائد الى الرياضيات الفلكية الصرفة بعين الاعتبار ، يجدر بنا ان نعيد إدراج علم القياس في مجموعة علوم الأرض الكبيرة التي تطورت في الإطار التاريخي ذاته .

وتنطبق الملاحظة نفسها على علم التنجيم ، الذي يشكل العنصر الثاني من نمط صورة الأرض . ويثبت مثال تأثير الشمس جيدا عجز هذا

التقصي عن التقيد بالشروط المثالية : ففي النطاق ذاته ، الى جانب فكرة القران(٥٣) الأساسية ، تتضح فكرة الآثار المترتبة لا على الشمس ككوكب ، بل على ظاهرة الإشعاع اياها . وهكذا ، تقترح فيزياء الأرض على التنجيم شبكة علاقات أقرب الى الوضع الطبيعي ، بين الحياة وبين بيئة تطورها ، مثلما تعدل،في علم القياس ، اعتبارات العصر والمشاهدة الحسية الخاصة بشكل الأرض ، ما يمكن ان يشتمل عليه علم الأفلاك من تعميمات مفرطة : فتسبق العلاقة الملحوظة والمدروسة بين الانسان والطبيعة ، العلاقة النظرية بين الانسان وكوكبه . اذن ، اذا لعب علم خرائط نمط صورة الأرض ، من نواحي علم القياس والتنجيم ، دوراً أساسياً في تكوين الجغرافية العربية ، فلم تسهم أهمية موضوعاته(٥٤) اجمالا في تحقيق ذلك بقدر ما اسهم هو باعتباره محركا واطاراً لتحريات لا بد لنا من التحدث عنها الآن .

علوم الأرض : جغرافية الأرض الطبيعية

تتجاوز دراسة الوسط الطبيعي علم الأقاليم(٥٥) النظري لاصحاب صورة الأرض ، ثم تخلفه وراءها . ولها اسماء شهيرة ومنهج معين . فتصانيف ارسطوطاليس ، وابولونيوس الطياني ، وزوزيم ، ومصنفات عديدة اخرى مفقودة(٥٦) ، تغطي ميادين بحث واسعة جداً ، تمتزج فيها الانواء ، وعلم المياه ، وعلم التضاريس ، وعلم الترب ، وعلم المعادن مع ديناميته صنعة الكيمياء(٥٧) . وقد وضع الجاحظ حوالي ٢٢٧ — ٢٣٠ هـ / ٨٤٢ — ٨٤٥ م ، في كتاب التربيع والتدوير(٥٨) ، منهج التقصي عن الوسط ، ضمن مرامي اخرى تفوقه طموحا ، عندما قال : « مذ كم ظهرت الجبال ، ونضب الماء عن النجف ؟ وأي هذه

الأودية أقدم : أنهر بلخ ، أم النيل ، أم الفرات ... وأين تراب هذه الأودية ؟ وأين طين ما بين سفوح الجبال الى أعاليها ؟ وأي بحر كبست ، وأي هبطة شحنت ؟ وكم نشأ لذلك من أرض وحدث من عين ؟ (٥٩) ... وخبرني كيف كان أصل الماء في ابتدائه ، في أول ما افرغ في انائه : أكان بحراً اجاجا استحال عذبا زلالا أم كان زلالا عذبا استحال اجاجا بحراً ؟(٦٠) » . أما المسعودي ، فيقول : « واهوية هذه المواضع تختلف ، وان اتفقت فيما ذكرنا من العرض وغيره ، لآفات وعوارض . من ذلك ان يكون بخارات باردة في أعماق الأرض ، فتظهر ، فتكون سبيل تلك المواضع من الأرض ان ما يتولاها من الكواكب يوجب تأثير الحرارة فيها فيغلب ما ظهر من البرودة منها عليها وتدفع فعل الكواكب(٦١) » . وعليه « منهم من رأى أن اصناف اختلاف البلدان أربعة ، أولها النواحي ، والثاني الارتفاع والانخفاض ، والثالث مجاورة الجبال والبحار لها ، والرابع طبيعة تربة الأرض(٦٢) » . ويخلص المسعودي الى القول : « فغلب طبع كل أرض على ساكنها(٦٣) » ، اذ « قد تختلف قوى الأرضين وفعلها في الابدان لثلاثة أسباب : كمية المياه التي فيها ، وكمية الأشجار ، ومقدار ارتفاعها وانخفاضها(٦٤) » .

في هذه الشروط ، هل تتوفر دراسة خالية الغرض للظاهرات الطبيعية ، اقصد انها تدرسها بحد ذاتها ؟ يجب الإجابة بالنفي . بالفعل ، احتلت الظاهرات الطبيعية بمجملها ، بفضل الترجمات اليونانية ، مكانها ضمن شبكة كثيفة من العلاقات التي تربط عناصر الكون(٦٥) بعضها ببعض ، في حين بدأ يتشكل ما يمكن ان يسمى الذهنية العلمية الجديدة في الفترة الواقعة في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي . ومثلما

سبق وقلنا في البدء ، لا شيء يشبه هذا العلم في تجزئته ، ولا ديناميته أيضا : فكل كائن ، وكل ظاهرة تنجم فيه عن عمل قوى تدخل فيها تأثيرات الكواكب والجواهر الأربعة الأساسية . بالتالي تصبح دراسة المظهر الخارجي المتحرك في العالم ، في التحليل الأخير ، دراسة الحياة نفسها : فالمعادن التي تتحول ، وهذه العواصف التي تعتبر مرة البحر(٦٦) ، أخيراً هذا الانسان ، تحفة الكون الأكبر المصغرة ، تشترك جميعها في هذا العالم النشيط . وينهي ابن رسته ، وهو احد الجغرافيين المشبعين بهذه الذهنية الجديدة(٦٧) ، احد أجمل مقاطعه المكتوبة ، فيشير الى تناسق قوى ينظمها سر القوة المطلقة التي لا تقبل التقادم(٦٨) : « ومن هذه الجهة علمنا ان لسائر الكواكب شركة مع الشمس في الدلالات على الأهوية وتفضيل الأشخاص والأنواع وتركيب كل شخص وتكوينه على طبائع المدن وحالات أهلها وما يكون فيها من الأشياء . الا ان للشمس غير دلالاتها على الاهوية وتركيب الأشخاص والنفوس الحيوانية وامزاجها من المدن والخلق والأخلاق والديانات والمعادن والنبات والنشوء باذن الله عز وجل » .

علوم الأرض : الكائنات الحية

اذا استثنينا التحفظ السابق(٦٩) ، تبدو دراسة الكائن الحي اعقد الدراسات واضعفها تجريداً(٧٠) : ففي المرتبة الأولى يأتي الطب(٧١) ، الذي أبرزه من قبل التقاء اليونان والشرق في جندي سابور(٧٢) ، وقرن اسمي جالينوس وهيبقراط (بقراط) العظيمين ، واسماء روفي الافسسي ، وايبسيوس ، واوريباس ، وبولس الايجيني ، واسكند الترالي ، وديسقوريدس ، وثاوذو سيوس(٧٣) . وقد هيمن الطب

على الحياة الاخرى بوفرة مواده ، وتفوق موضوعه ، وبعلاقته التضمينية أيضاً . وصحيح انه يقسم الى حقول تقصي عديدة(٧٤) ، لكنه أيضا ، يشبه الانسان في مركز الكون ، ويقع على مفترق طرق : فهو يتصل بما نسميه الاثنولوجية(٧٥) من احدى النواحي ، ويندمج بعلم الحيوان الأوسع الذي يبرز فيه تأثير ارسطوطاليس الأمثل(٧٦) بما يوضحه من مميزات البشريات ، ويمهد السبيل أمام علم النبات(٧٧) عن طريق علم الصيدلة ، مع جالينوس وبقراط ، وخصوصا ديسقوريدس ، ولا تخلو منه بعض الأبحاث الأهلية ، لا سيما الفلاحة(٧٨) ، لأنه كان في ذلك العهد علماً واسعاً جداً يدرس تكيف الانسان مع وسطه .

العلم اليوناني والجغرافية

عند هذا الحد من بحثنا ، نشعر قطعا أننا أصبحنا بعيدين جدا عن اهتمامات الجغرافية المحضة . لكن الا ينطوي فعلا هذا النوع من الخروج عن الموضوع على أبراز ميزة أولية، بطريقة سلبية ، لهذه الجغرافية التي تهمنا وحدها فقط ؟ فاذا اعتمدنا على الظاهرة التاريخية ، المتمثلة في الترجمات اليونانية وفي تطورها اللاحق الى علم عربي ، وفتشنا في حوض الزهور الجديدة عن الزهرة الخاصة بنا ، لما استطعنا أبدا الآن ان نشير صراحة الا الى تلك التي لا نتعرف عليها : فالجغرافية تشتمل فعلا على علم الهيئة ، لكن زيج ابن يونس ، مثلا ، لا يمت الى الجغرافية بصلة . وتفسح المصنفات التي نعتبرها جغرافية ، المجال لذكر تبدلات الانسان الجسدية . إنما ، لا يعني هذا الكلام ان مصنفات الأطباء العرب العظام صارت جغرافية . أخيراً قد نعثر لدى الجغرافيين على بعض الأبحاث المستفيضة عن النبات أو الزراعة ، لكن لا نقصد ان

« كتاب الأدوية المفردة » لابن البيطار ، ولا كتاب « الفلاحة الأندلسية» لابن العوام ، أصبحا مصنفين جغرافيين . وهذا يمكننا ان نقول ان الجغرافية لا تدخل في أحد العلوم المتخصصة ، وهذا القول أول معلم نهتدي به بين معالم تقصينا . مع ذلك ، لا يؤول وضع هذه المقولة الى فرض اشارة سلبية نهائية يتسم بها التعريف الذي نسعى لايجاده ، لأننا نؤدي المعنى ذاته — وسوف تحتاج فرص كثيرة لاثبات هذا الكلام — عندما نقول ان الجغرافية لا تتبع احد العلوم المتخصصة بحد ذاته ، بل ترتبط بالتالي بها جميعا . فلن تحقق زهرة واحدة آمالنا ، بل حوض الزهور بأكمله(٧٩) .

وعلى هذا المنوال ، تتضح صفة أساسية لهذا التقصي : فهو يتفوق كثيرا على جميع فروع المعرفة ، التي تشكلت في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، في تمثيله قلق العصر النفسي ، وما يتميز به من نزوع الى الموسوعية . فاذا « تمت دراسة شتى العلوم بحماس بالغ » ، واذا « تجلى في جميع المعارف ، الفضول العلمي الهائل ، والرغبة الشديدة والعامة في معرفة الأشياء ومعرفة شؤون البشر » ، واذا « كان العلم طابع هذه الحقبة الخاصة » ، فان الجغرافية ، فيما يبدو ، صيغت تعبيراً أمثل عن تلك الأوضاع : « فجاءت لوحة كاملة لجميع البلدان » ، وافسحت المجال « لذكر العادات والأفكار وحتى الأساطير ، ولعرض تاريخ الماضي بسرعة » ، وأعطت مصنفات سمتها موسوعية على العموم ، ترمي أبحاثها الى تلخيص المعارف المتفرقة » على وجه التخصيص . وتنطبق هذه السطور(٨٠) على اشراق العلم اليوناني ، لا سيما الجغرافي ، لبضع قرون خلت ، في العهد الهلنستي والروماني ، ويسعها أيضا ، حرفيا تقريبا ، ان تشيد بمعجزة بعث بهائه .

وهكذا تتضح طرق بحثنا المقبل : الجغرافية حيال موضوعها . فهنالك طرق كثيرة لمعالجة المعطيات الموسوعية ، لكن أيها أفضل من سواها ؟ فهل يصبح العلم الجديد حقا ، في النبات أو في الأفعال ، كليا ، أو منتقى من شتى العلوم ، أو حتى مختارا اختيارا عقلانيا ؟ مع ذلك ، لا يجوز فصل مثل هذه الدراسة عن الدراسة التي تكون قد تناولت من قبل ، على مستوى أعم ، مواقف اجمالية في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، وتتعلق بالعالم الجديد الناشيء عن ازدهار المعارف(٨١). وفي هذا الازدهار ، لا يقحم الفكر اليوناني وحده : ففي حقل الجغرافية الخاص ، لا يستنفد مجال البحث باستقصاء المواد التي درست حتى الآن ، وتعطي أصلا ما نسميه اليوم العلوم النظرية والعلوم الطبيعية : لأن الجغرافية العربية تتضمن أيضا العلوم « الانسانية » أو الأخلاقية ، مثل التاريخ ، أو المعاجم ، أو حتى نمطا من الفلسفة ، التي تكاد اليونان لا تسهم به . واذا لوحظ وجوده مثلا بآن واحد في الجغرافيتين اليونانية والعربية ، فلا شيء يثبت ان الأمر هنا ليس سوى صدفة طارئة(٨٢) . واذا صح ، وكان الوضع على خلاف ما تقدم ، فلن يتعدى كونه مثالا شكليا ، اذ ان مضمون الفكرة ، في هذه الحالة ، يتبع العوامل التقليدية أكثر مما يرتبط باليونان : وسوف ندرس الآن هذه العوامل متقيدين باتجاه تزايد سيطرتها .

العلوم الاخلاقية : علم الأخلاق

لا يجوز البتة الكلام عن علم أخلاق واحد ، ولا بد من التحدث عن علوم أخلاق(٨٣) . ففي الفترة التي نحن بصددها(٨٤) ، أي في الأعوام التي كان الضمير الأسلامي فيها يجمع مواده ويصنفها قبل

ان ينقدها ، لم يكن تكوين علم الأخلاق الأسلامي قد بدأ بعد ، على نحو ما سوف يتم على يد ابن قتيبة(٨٥) ، ثم مسكويه أو الغزالي . وعليه ، فقد توفر علم أخلاق يوناني ، ويعثر الباحث ، في أيدي المترجمين المشار اليهم سابقا ، على اسمي جالينوس وارسطوطاليس ، يضاف اليهما اسما افلاطون وفيثاغورس وسبس وثيمستيس . ففي القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، اعتمد المسلمون بلا شك على اليونان وعلى نظريتهم حول المعرفة ، فاعتبروا فلسفة السلوك البشري التطبيقية « علما(٨٦) » . مع ذلك ، بقيت هذه الأبحاث قضية تهم العلماء ، شأنها شأن التحريات التي أثرناها حتى الآن وعلى خلاف ذلك ، يمثل اسم ابن المقفع العظيم ، المتوفى حوالي ١٣٩ هـ / ٧٥٧ م ، علم أخلاق أوسع انتشاراً بكثير ، يتألف من عناصر شتى ، نصف علمية ونصف شعبية ، يجمع ، في وحدة النثر الحديث ، الذكريات الأدبية للهند وفارس ، الى جانب الأقوال المأثورة الشعبية المعهودة (الحكمة) : عبر العقلاء ، أو الذكريات التوراتية ، أو الأمثال المنقولة من مصدر قديم متوسطي أو من بلاد ما بين النهرين ، قد تروى هنا وهناك على لسان شخص عظيم صاحب نفوذ ، لكن في الحقيقة تعاد صياغتها وصهرها في بوتقة الحكمة التقليدية لدى الأمم(٨٧) .

ولا يتدخل الدين الجديد الا قليلا في علم الأخلاق السابق . ففي البدء ، يمكن القول ان كتابات ابن المقفع تهدف ، في النص ، الى استبدال الزرادشتية الساسانية بالأسلام ، الذي يكتفي بتقديم اطار أو ألفاظ ملائمة ، لا ذهنية معينة حتى الآن(٨٨) . مع ذلك ، اذا كان الاسلام يظهر قليلا في تلك النصوص المكتوبة ، فهو يملأ ، مثلما

يتوقع المرء ، الضمير الجماعي ، بشكل فروض شرعية وشعائرية(٨٩) ، وأخبار دعاة واحاديث شريفة مروية : وهكذا تكوّن علم أخلاق ثالث عربي اسلامي ، يمزج هدى ذكرى النبي والصحابة بفضائل وثنية جدا اختص بها الأسلاف العظام في الجزيرة العربية قبل الأسلام(٩٠) .

ويعثر على الاتجاهات الثلاثة المشار اليها في نصوص الجغرافيين(٩١). في الواقع ، ينصب اهتمامنا عليها هنا بقدر محدود باعتبارها عناصر في جغرافية المستقبل — عناصر ثانوية أصلا — بما تحتله من مكان — وبقدر أعظم لأنها عناصر جوهرية في النقاش الكبير الذي سوف يفتتح اضبارة المعرفة في الثلث الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، ويعرض الخيارات الجوهرية على الجغرافية وعلى غيرها من العلوم . وسوف يتجلى في العلم السياسي القلق الفكري ذاته ومجابهة الذهنية الدخيلة ذاتها أمام متطلبات العالم الاسلامي الجديد ، لكن مع أفضلية بارزة هنا منذ الآن لصالح دار الاسلام .

العلوم السياسية : تقنية السلطة

تبرز ظاهرة ذات مغزى في العلوم السياسية : فقد تغلبت الترجمات في المقام الأول وحلت محلها ، ان لم تكن المصنفات الأصيلة ، فالمصنفات المعدلة . ويستشهد الباحثون برسائل قيل ان ارسطوطاليس بعث بها الى الاسكندر(٩٢) ، وببعض المصنفات اليونانية الاخرى(٩٣) ، أما علم أخلاق الملوك ، والتهذيب ، وأصول معاملة السلطة للرعية أو الجلساء أو الاعداء ، وقدرة السلطان على الفراسة(٩٤) والتحذيرات الالهية(٩٥) ، فمستوحات في جوهرها ، منذ الثلاثينات من القرن الثاني الهجري : ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م ، من شرق تحتل فارس الساسانية فيه مكانة

فريدة ، كما يتضح من رسائل عبد الحميد ، أو كليلة ودمنة لابن المقفع ، أو كتاب التاج المنسوب الى الجاحظ(٩٦) . وجميعها علوم نظرية خالصة ، وتهذيبية ، تعبر تعبيراً ارستقراطيا عن علم الأخلاق(٩٧). وتختلف عنها كلها تقنية السلطة اذا نظرنا اليها لا عند من يجسدها ، لكن عند من يمارسها باسمه : وكان اليونان في القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، قد تولوا إعداد ملاكات الادارة الامبريالية(٩٨) ، على يد أساتذة شهيرين ، خصوصا تيمستيوس وليبانيوس ، وكان يحق لنا ، مبدئيا ، ان نتوقع ، ما عدا الصدف السعيدة في نقل المصنفات ، ان نعثر ، في علم الكاتب الكامل ، على ترداد صدى المدارس الكبرى في أثينا أو القسطنطينية أو انطاكية . على أننا لا نجد البتة ، فيما نعلم ، مصنفات يونانية تختص في معالجة هذه القضايا : ولو فرضنا ان الاطلاع عليها حصل فعلا ، وان ضرورات الساعة استبعدت تأثيرها التقليدي ، لصالح مستلزمات الامبراطورية العباسية ، فان هذه الامبراطورية الأخيرة صممت أصلا ، فيما يبدو ، الا تقع في خطأ أسلافها الأمويين الذين ظنوا أنهم عندما فرضوا الارستقراطية العربيةعلى بلاد لا يعرفونها جيدا ، وظلت في بداية عهدهم على الأقل ، يديرها موظفون ، أخذوا عن بيزنطية وفارس تقاليدهماوطرق تسيير أعمالهما ، ولغتهما ، وحتى ديانتهما أيضا(٩٩) . وتمثل نجاح الخلافة العباسية بالدرجة الأولى في نجاح الادارة الجديدة القائمة على ضرورات الخراج والأمن الداخلي والحدود .

وانتظمت المواضيع الأساسية الثلاثة في الجغرافية السياسية عند أمثال الجيهاني أو قدامة بن جعفر ، نقصد لوائح الخراج ، والمسالك ،

ووصف الثغور ، حول موضوع مركزي ، هو موضوع البريد التقليدي ، بعد تجديده ، وهو أداة هامة في الاستخبارات والمواصلات(١٠٠) . ولا بد أيضا بلا أدنى شك ، من ربط لوائح السلع(١٠١) وطرق الحج(١٠٢) باهتمامات الادارة المركزية . وتسترعي هذه المعارف أصلا اهتمام فئة من الكتاب فقط ، ممن سوف يبتكرون أحد فروع الجغرافية(١٠٣) . إلا أن هنالك أناسا آخرين كثيرين ، سوف يعنون ، حسب الحالات ، بمبادىء الفن العسكري أو الري أو الشرطة مثلا . واذا كانت قضية اعداد الكاتب الفكري ، مثلما سوف نرى في الفصل الثاني التالي ، احدى القضايا التي سوف تهز وجدان القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، فلا نجد بالمقابل تضاربا جوهريا في الآراء ، عندما يتعلق الأمر بتدريبه المهني . فبعد محاولات مقتضبة تمثلت في رسالة في الصحابة(١٠٤) لابن المقفع ، أو كتاب الخراج(١٠٥) لأبي يوسف يعقوب ، رأينا مصنفين مثل الشيباني ، وعبد الله البغدادي ،وابن قتيبة(١٠٦) ، رغم تباين آرائهم حول أدب هذا الانسان الجديد ، يتفقون في الواقع على تدريبه التقني ، واعطائه بضعة علوم متخصصة تتنوع حسب ديوان الكاتب ، مع برنامج أساسي ، مشترك بين جميع فئات الكتاب ، يرمي الى إعداد الكاتب المساح الفقيه(١٠٧) .

التقليد : علوم اللغة ، الجغرافية ، النزعة الفارسية ، اللغة العربية

من ناحية أخرى ، اتفقت جميع الآراء على تخصيص مكان مرموق(١٠٨) لصياغة الشؤون الادارية والتعبير عنها . واصبحت اللغة العربية لغة دواوين الخلافة ، لأن العباسيين حرصوا على « إضفاء الطابع الديني على وظيفتهم ، وعلى التأكيد على الصفة الإسلامية العميقة للمجتمع

الذي يديرون أموره ، كرد فعل ضد أسلافهم(١٠٩) » . ويعلل هذا التحويل في لغة الدواوين أيضا بحيوية التقليد « القومي » المتأصل في مادة اللغة : لأن المجتمع الأسلامي حدد ثقافة أصيلة في هذه الجهة بالذات . وتوفرت لهذه الثقافة أمثلة يحتذى بها في النثر الدنيوي عند عبد الحميد أو ابن المقفع أو المدائني أو سهل بن هارون(١١٠) . ولهذا المذهب عقيدته : أي الاقتداء بالقرآن ــ الذي لا يجارى أصلا ــ وما يقتضيه من تفتيش في الصحراء عن صفاء اللغة . وله مدارسه : خصوصا في البصرة والكوفة(١١١) ، ورجاله المشاهير : كالخليل ، وسيبويه ، والكسائي(١١٢) وكثيرين غيرهم . وتعطي الأبحاث المعجمية والنحوية ، وتسجيل روائع اللغة القديمة ، خصوصا الشعرية منها ، صدى عظيما . دينيا وعاطفيا ، حتى ان جميع العلوم تتناول شيئا منها(١١٣) ، وحتى ان بعض العلوم الدخيلة ، المنقولة عن طريق الترجمة ، أعيدت صياغتها في اطار عربي لصالح الأبحاث اللغوية(١١٤) .

والجغرافيةُ مدينةٌ بوجودها تقريبا الى فقه اللغة ، لا بموضوعاتها فحسب . فابن خرداذبه ، وابن الفقيه ، وابن رسته ، فرس ونحن نكتفي بذكرهم من بين الجغرافيين الأوائل . وقدامة نصراني اسلم(١١٥) . ونشير في الوقت ذاته الى ان هؤلاء الأعاجم لم يقتصروا على كتابة الجغرافية حصرا ونهجا ، بل كان جميعهم مكثرين(١١٦) . وبذا نرى بسهولة ان الانسجام القائم بين العنصر العرقي والاتجاه الأدبي ، يمثل الطابع الذي انفرد به الأسلوب السياسي للموالي الفرس في الخلافة العباسية منذ قيامها . وكانت هذه السياسة انتهازية وصادقة معا(١١٧) ، تتوخى ان تثبت ان بوسع الموالي ان يأخذوا على عاتقهم(١١٨) استمرار وحدة الجماعة

اللغوية والأخلاقية . ويعلل « اقتناعهم الواضح القوي(١١٩) » ، على المستوى الأدبي . تصميم هؤلاء الاغراب عرقيا على جعل اللغة العربية لغة سليمة(١٢٠) وحديثة سواء بسواء لتجاري حاجات العالم الجديد المتعددة . وكان على الجغرافية ان تلعب دورها(١٢١) في هذا التصميم شبه المنهجي ، الذي يرمي الى تكوين لغة متعددة القيم ، شأنها شأن التاريخ أو الأدب العلمي أو نثر الفكاهة . ولعله يجب علينا ، في التحليل الأخير ، ان نفسر بهذه الطريقة نجاح الفن الجديد في أوائل عهده ، لدى النخبة على الأقل . بالفعل يمكن القول ان الجغرافية نجحت ، لا لأنها كانت فنا أدبيا مفضلا ، بل لأنها كانت فنا بين سائر الفنون الأدبية . ولا تناقض في هذا القول إلا ظاهريا : فقد تثبتت فورا على هذا المنوال ، لأن ظهورها خادم في حينه هدف التوحيد العظيم الذي كان الفرس يسعون الى تحقيقه ، ولأنها انطوت هي أيضا على سحر ما هو طريف ، وعلى رسائل لغة نبيلة ، أي باختصار ، انها ساعدت ، مع العلوم الاخرى ، على قيام احتكار لغوي دون قيام احتكار عرقي .

التقليد : العلوم الشرعية

تعتبر خمسينات القرن التاسع الميلادي حاسمة أيضا في تاريخ العلوم الشرعية العربية ، بمعنى انها تدل على انقضاء فترة تكوينها ، قبيل التطورات اللاحقة(١٢٢) . فقد توزعت الجماعة الاسلامية على ثلاثة مذاهب كبرى تمثلت في السنة والشيعة والخوارج . ولن يجمع الحديث فعلا الا في مصنفي البخاري ومسلم(١٢٣) الشهيرين ، وكذلك التفسير القرآني في مصنف الطبري(١٢٤) . على ان مسند ابن حنبل كان قد ظهر ، وهو أحد أمجاد الفكر الديني العربي . وكان الحديث والتفسير حيين في

الضمائر ، رغم الافتقار الى ائمة كبار أخر ، بفضل تعاليم دعاة الدين وتناقل مصنفات انتشرت منذ ذلك التاريخ(١٢٥) . وظهرت مذاهب الفقه الأربعة(١٢٦) ، ولمع اسمان عظيمان في الصوفية ، هما الحسن البصري والمحاسبي(١٢٧) . أخيراً ، بلغ الكلام ذروة نجده مع المعتزلة التي ازدهرت في عهد خلافة المأمون والمعتصم والواثق(١٢٨) .

وسوف تلعب الأبحاث السابقة ، شأنها شأن غيرها ، دورها في جغرافية المستقبل ، لا في منطوق النصوص وحدها فقط(١٢٩) ، بل في الخيارات الروحية أو السياسية الدينية التي تسوقها الى المؤلفين أيضا(١٣٠) . فهي تقودنا في النهاية الى صميم القيم العربية الأصيلة ، التي تلازم جوهر المجتمع بحد ذاته ، أكثر مما تفعل دراسات فقه اللغة ، التي تعتبر امتداداً لها . ويلاحظ أيضاً وجود بعض المؤثرات الاجنبية(١٣١) في بعض النواحي ، إلا ان امعان النظر في حوافز هذا التقصي يوضح بجلاء تام وجوب التحري عنها ، لا في نهضة علم اليونان ، بل في مقتضيات المجتمع ذاته . وفيما يتعلق بالنتائج ، تدهشنا الأصالة العريقة في المفاهيم المكونة ، سواء اختص بها الفكر الاسلامي بحد ذاته(١٣٢) ، أم كانت مفاهيم قديمة أعيد تعديلها ، وحولت تحويلا عميقا : فقدرة التمثل في الاسلام كيفت الايمان نفسه مع الصور الغربية لانبياء التوراة والمسيح ، ونهجت على المنوال ذاته في التراث اليوناني . وعلى هذا الأساس لم يعد اسهام اليونان ، ان وجد ، سوى صبغة : ولا يشك أتباع المعتزلة أنفسهم (١٣٣) بافضلية القيم الاسلامية ، ويعاد استخدام مناهج التفكير اليونانية ببساطة ، مثلما تستعمل مواد المعابد القديمة في المباني الجديدة : فلا بد من التسليم مثلا ان خلق القرآن ، حتى لو وضع في اطار عقلاني ،

لعبت اليونان دورها فيه ، يحتمل معنى ومضمونا عاطفيا اسلاميين محضيين . بالتالي تجد أنفسنا في النهاية على أرض جديدة و«قومية » حقيقية : اذ في حين كانت العلوم الاخرى تعطي النصيب الأكبر الى الأعاجم ، خصوصا الفرس ، في تكوين ثقافة مزيجه في جوهرها ، يبدو العلماء الكبار هنا ، إما عربا اقحاحا ، أو فرسا ، لم يصروا على إبراز فارسيتهم– حتى ولو باحتفاظهم باسم لفظه أجنبي– بل اندمجوا في نواة المجتمع(١٣٤) العربية .

وهكذا استطعنا ان ندرك في مراتب العلوم ، مقدار أصالة وقدرة اللغة والذهنية العربيتين ، ومن خلال العلاقات والتقاليد ، ماقامت به مختلف الفئات العرقية واللغوية ضمن المجتمع الاسلامي الناطق باللغة العربية ، من دور دقيق ومعقد ، ستتاح لنا فرصة العودة اليه(١٣٥) . خلافا لذلك ، يقدم لنا التاريخ ، حتى منتصف القرن التاسع الميلادي ، بناء يمتاز بوحدة متينة لا مثيل لها .

التقليد : التاريخ

يبدو التاريخ في منتصف القرن التاسع الميلادي حقلا محتكرا(١٣٦) ، وبحثا ينبغي وضعه في أعلى مرتبة من مراتب العلوم التقليدية ، من وجهة نظر العروبة المحضة . فهو المجال الوحيد الذي لم تتمكن المؤثرات الأجنبية مطلقا(١٣٧) ان تتدخل فيه . وهذا لا يعني ان التاريخ العربي ، الذي لم يطلع ، فيما يبدو ، على ترجمة المصنفات التاريخية اليونانية الكبرى(١٣٨) لم يستلهم بالتالي من الاعتبارات أو الأساليب الاغريقية : اذ نستطيع مثلا ان نلاحظ ان ذهنية التاريخ ، التي سوف تظهر بعد فترة قصيرة في

النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي(١٣٩) ، لا تبتعد كثيرا ، مع تبديل ما يجب تبديله ، عن ذهنية المؤرخين اليونان . فعند العرب وعند الاغارقة ، يعتبر التصور الشامل لتاريخ العالم مرجعا لما يتعظ به من تجربة الأمم(١٤٠) ، ويقترن بحركة معاكسة ، ترتبط بها المعطيات التاريخية بحدث مركزي تدور حوله — مثل روما عند بوليب ، والاسلام عند الطبري . ولعله يتحتم علينا في هذه المناسبة الا نكتفي بادراك هذا النوع من التوافق الغريب في هذا المجال ، على مدى فاصل زمني يبلغ بضعة قرون ، بل ان نربط قيام التاريخ الجديد(١٤١) بمجيء جيل اختلط كثيراً (١٤٢) عرقيا وثقافيا ، وانفتح على بعض المؤثرات ، لا سيما الأخلاقية اليونانية والفارسية ، المتبعة آنذاك ، والميالة بفطرتها ، كما مر معنا ، الى تدوين دروس الماضي الأخلاقية في سير الملوك المثالية .

واذا كان ظهور الحوليات والموسوعات التاريخية ظل على هذا النحو مرتبطا بـ « الحركة الثقافية الكبرى ، التي حفزت اندفاع جميع الأبحاث العلمية والنشاط الأدبي بالمعنى الصحيح(١٤٣) » ، فان تاريخا آخر رأى النور(١٤٤) في صميم جزيرة العرب ، قبل القرن التاسع بكثير . لكنه لا يشبه بشيء تاريخ اليونان السابق له(١٤٥) ، لأن البون شاسع بين موضوع التاريخ اليوناني وبين موضوع تاريخ أهل المدينة . أقول تاريخ أهل المدينة مجازاً ، لأن جانبا كبيراً من التاريخ العربي نشأ (١٤٦) في مدينة الرسول ، وحتى لو صدر منها(١٤٧)،حرص على الاحتفاظ بذكرياته . ويستجيب فعلا الى « ضرورة داخلية وطبيعية في المجتمع الاسلامي(١٤٨)» ، ويرمي الى صيانة مآثر العرب الكبرى ومآثر النبي ، وابقائها على ماهي عليه . وينقسم ما ينشره من أخبار الى

نوعيث (١٤٩) : من جهة ، التاريخ الشعبي المحض ، أي تاريخ أيام القبائل ومغازي محمد ، وهو ملحمة يمتزج فيها النثر بالشعر ، وتعتمد على تكرار الماضي القومي وتدوينه آليا وشفهيا ، وعلى ما يترتب عليه من الانتقال التاريخي الى اسطورة . لكن ، في وقت مبكر ، أدى الحرص على مقاومة الانحطاط المستمر في اذكار اللحظات أو الاشارات الأساسية ، ولزوم العودة الى الماضي ، بعد وفاة الرسول ، لايجاد الأمثلة والارشادات فيه : الى تدوين الأحداث كتابة ، واتباع نهج استقصاء أدق . فاعتماد الكتابة ، وان كانت مجرد دعامة لحفظ نقلي ، ظل شعبيا ونقليا(١٥٠) في جوهره ، ادخل نهجا علميا يرتكز على سلسلة اسانيد تعتبر أساس الحديث بالذات . وهكذا أصبح التاريخ شبيها بعلم الحديث ، بعد ان ماثله في الأهداف المشتركة البارزة ، علاوة عن وحدة المناهج . بالفعل تحديد الفاصل بينهما غير دقيق ، والتجاوزات كثيرة بين تدوين الحدث التاريخي ، وبين الجمع اللغوي وتسجيل فقه أو عقيدة مبنيين على ماض مثالي(١٥١) : بهذا المعنى ، يصبح التاريخ حقا « احد العلوم المساعدة لعلوم الشريعة » (١٥١م) . إلا ان وحدة الأسلوب الانشائي ، الواضحة في التاريخ الى حد كبير ، لا تنطوي على وحدة وجهات النظر : لأن التاريخ ، وان شابه الحديث في دقة المنهج ، يخضع الى تموجاته : فما يسجله مع الحديث ، وفق اختيارات المؤلفين المشوهة ، إنما هي الانقسامات الداخلية ، قبل الاسلام ، التي تركزت على شرف الأحزاب وخصومات القبائل ، وتحولت ، منذ وفاة الرسول ، الى مجابهات سياسية أوسع تتناول الحق بالخلافة .

وعلى هذا النحو ، نشا نمط الاخبار (القصص المروية) ، بأسلوبه

الانشائي الموحد ، وتنوع مضمونه ، الذي يجمع ويسم بطابع التقليد ذاته ، الانساب وسير محمد والصحابة ، وطبقات مشاهير الرجال ، وتاريخ احدى المدن ، وتلك الفئة العرقية أو المهنية أو الاجتماعية(١٥٢)، أو بكلمة واحدة ، فن الدراسة الاحادية .

التاريخ والجغرافية والأخبار – العلم اليوناني والعلم العربي

يفتقر هذا التاريخ الى استمرار التركيب ، الذي يشكل عنصرا أساسيا يجمع الأحداث في تأريخات كبرى محددة.إلا ان المؤرخين لم يعينوا هذه الأوقات قبل الواقدي(١٥٣) إلا عرضا وتبعيا في النهاية ، لأنهم توخوا بالدرجة الأولى العودة الى ماض أصبح مقررا ، لا تدوين تسلسل الوقائع الزمني . فاتسم التاريخ العربي في أول عهده بنبذه المتقطعة، لأن مقتضيات السياسة أو الفقه أو التفسير ، فرضت عليه ان يسقط في احداث الساعة هذا الجانب أو ذاك من ماض مثالي يحيل اليه . وبذا يتضح ان التاريخ في جوهره ، علم أخبار . ولا نقصد ان وجوده توقف على الأخبار ، بمعناها المألوف ، اذ ان ظهوره ارتبط بتيار الأسلام الفتي حتى الآن ، بل انه نشأ عن الاسلام ، واستهدف ، بالاشتراك مع الحديث وعلوم اللغة ، إبراز ظهور هذا الاسلام في التاريخ وجعله تقليديا . وعلى هذا النحو ، أصبح التاريخ زاخرا بقيم الماضي ، ووقف ، فيما يبدو ، في جهة تعارض فيها مع الجغرافية ، التي نهجت نهجا فكريا يناقض نهجه ، واستجلبت من العالم الخارجي علما قديما جدا ، اتخذ بعثه شكل ثورة في منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي . وسيدفع العراق ، بعد عام ٨٥٠ م ، في جدل كبير ، يتمثل أحد جوانبه في الفاصل الزمني بين المعطى الأسلامي ، الذي لم يكد يمر عليه قرنان ،

لكنه في سبيله الى الثبات ، وبين المعطى اليوناني ، الذي يوغل في القدم ويرجع الى قرون عديدة ، وبلغ آنذاك أوج نهضته النضرة .

وسوف يحتدم النزاع بضراوة بالغة بين العلم العربي والعلم اليوناني ، لا سيما ان مجابهتهما لن تقتصر على وقوفهما على جانبي تخم فاصل مثالي يحدد مجال كل منهما ، بل سيتعداه ويصل الى صراع ينشب بينهما في ميدان كل منهما بالذات . فيقوم الفلك اليوناني مثلا بتعريض مفهوم بنية الأرض والكون المستخلصة من القرآن والحديث ، الى امتحان قاس . وعلى النقيض ، ستصطدم صدفة ممارسات الجزيرة العربية ، المتعارف عليها في رصد النجوم أو معالجة الأمراض أو معرفة النباتات الطبية ، بما يوصي به معلمو اليونان(١٥٤) . على ان الجغرافية ستتثبت بالضبط مثلما رأينا ، وترمز الى النزعة الكلية ، والى رفض التخصص أو التفرد ، في غمرة تشابك تلك الأحداث ، وامتزاج شتى المعارف التي ترجع الى جميع الأصول ، وتميزت بها بغداد ، جامعة الأجناس ، في خمسينات القرن التاسع الميلادي . ولن يستطيع سواها من العلوم ان ينازعها شرف الانفتاح مثلها على جميع المؤثرات بلا استثناء . وستنفرد عن سائر العلوم ، علما علما ، بما قيض لها من دعوة سامية جعلتها تمثل مجمل الحركة العلمية الكبرى في ذلك العصر .

وتبدو علاقتها بالتاريخ ، وهي التي تهمنا الآن ، من هذا النوع بالذات(١٥٥). فالتاريخ ، كسائر العلوم ، يرد ، على نطاق واسع ، في المصنفات الجغرافية ، بمناسبة مكان شهير مثلا : عندئذ يبرز خبر من تلك الأخبار التي تحدثنا عنها ، سواء اعتمد أم لم يعتمد على سلسلة من الأسانيد(١٥٦) . فهذا التاريخ الذي نسميه أخباريا ، لتفرقه عن التاريخ الذي نشأ في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع

الميلادي ، لا يفسد الجغرافية لصالحه مطلقا ، بل على العكس تماما ، يندرج في موضوعها ، وسنعود اليه(١٥٧) . ويلعب التاريخ دوراً رئيسياً عند بعض المؤلفين كابن الفقيه ، لكنه لا ينجح في تحويله مصنفه الى كتاب تاريخ ، لأن استرساله في التوسع في النبذ التاريخية ، في الحالات الغالبة الساحقة ، يرتبط بحديث لا يخص التاريخ ، بل يتعلق بوصف عالم ، لا يغرب عن ناظره في أي مرحلة من مراحل سياق البحث المتعرج ، فيكفي ليضفي عليه وحدة ، يرضخ لها التاريخ والعلوم الاخرى .

وعلى النقيض ، وحتى لو لم يكن بمقدورنا التحدث عن تبعية الجغرافية للتاريخ ، الا يسعنا ، في أضعف الاحتمالات ، ان نعيد نسب أحد هذين العلمين الى الآخر ؟ يبدو لنا ان هذا النسب يمثل معضلة عويصة . فلو زعمنا فعلا(١٥٨) ان الجغرافية وردت في البدء في مصنفات التاريخ ، مثل مصنفات الواقدي ، بشكل دراسات احادية ، لخشينا ان نقع في خطأ تأويلي . اذ لا مجال لاعتبار تلك المقاطع أبحاث جغرافية ، لأننا نعود لا شعوريا ، في حكمنا عليها ، الى الصورة التي تعطيها عن الجغرافية ، النصوص اللاحقة ، أو حتى مفاهيمنا الحديثة . والواقع ان كل ما يحق لنا ان نقطع به ، هو وجود ضروب من وصف المدن أو البلدان يختص بالنمط التاريخي ، من جهة ، ووجوب الالحاح على ظهور مصنفات جديدة النفس والأسلوب الانشائي ، مما يجعلها تختلف اختلافا جذريا عن التاريخ وعن جميع العلوم الاخرى التي تأخذ عنها بعض معطياتها ، من جهة اخرى . اذن ، نقر في النهاية ان طرافة الجغرافية الأساسية لا تكمن في نشأتها من اهتمامات العصر(١٥٩) ، بل في تقديمها نظرة شاملة عنه ، تحبوها ، دون سائر العلوم ، قدرة على اعطاء أفضل صورة عما تميز به من مجابهات ، عالم نشوئها ، الذي يتجاذبه التجديد والتقليد .

الفصل الثاني

الاتجاهات الحاسمة في القرن
الثالث الهجري / التاسع الميلادي

الجغرافية والأدب
عند الجاحظ وابن قتيبة

قضية الأدب (١٦٠)

لا بد لنا ان نثير قضية العلاقات بين شتى العلوم الواردة في الفصل الأول . وهذا يعني في الواقع ان نبحث تكوين الثقافة على مستويين أساسيين . فمن جهة أولى ، يجوز لنا ان نراعي السيطرة العربية أو العجمية التي يظهر تأثيرها في مختلف فروع المعرفة ، وان نعتمد على المقاومات أو التمثلات المحتملة ، فنشيد بوحدة الثقافة أو بتعددها . ويحق لنا أيضا من ناحية اخرى ، ان ننظر الى أهداف الثقافة — كالتعمق بالتساوي في العلوم علما علما ، أو تناولها متداخلة لتأمين الحصول على معرفة تقل التقنية فيها لكن يزيد اتساع افقها — فنختار إما التخصص أو على النقيض تأديب(١٦١) المواضيع ، فنؤثر نوادي العلماء أو ابراز جمهور متوسط . وفي النهاية ، يصل هذا النقاش المزدوج الى جدل يحدد موضوع المعرفة ، ويتسامى الى قضية الأدب .

ويقابل اللفظ الفرنسي « الثقافة : Culture » لفظ الأدب العربي على وجه الاجمال . لكنه لا يؤدي معناه على وجه دقيق جدا(١٦٢). إلا أنه يمتاز بايضاح الاتجاه الذي سار فيه أحد الخيارين المنوه بهما . ويشير انتشار نمط الأدب على نطاق واسع جداً في النثر العربي الى ان هذا النثر قرر مختارا ، لا معالجة قضايا أو نتائج تقنية صرفة ، بل تكوين ذهنية متوسطة ، مع ما ينطوي عليه هذا التصميم من مزالق(١٦٣) . في الواقع ، نشأ في الأدب نهج ، يعلم الناس وهم يلهون ، ويتطرق الى جميع المواضيع ، ويتحدث عن كل شيء ، ولا يلح على ناحية معينة ، ولا يتعمق في فكرة خاصة ، أو على الأقل ، لا يتورط في الاختصاص الآخر ، نعني الفكر النظري المحض . وخلاصة القول ان الذوق الأدبي كان يرتبط بالمعارف لا بالعلم ، وبسعة الاطلاع لا بالتبحر . لذلك جاء هذا الأدب سهلا ، وبالتالي ممتعا ، وطبع طابعه النثر العربي في أول عهده تقريبا ، واتخذ أبعاداً هائلة وهو في مهده . ونشاء في ما سبق وتحدثنا عنه من علم أخلاق هندي ويوناني وخاصة فارسي ، لكنه بادر الى تحويل برنامجه بسرعة كبيرة جداً ، وأدرج هذه الأخلاق في نطاق أوسع(١٦٤) . فقد ابتعد فعلا نوعا ما (١٦٥) عن مجال الجو الصارم ، الذي حدده له ابن المقفع ، وتطلع الى التحول من شرعة أخلاقية الى نظام دراسة ، يتلخص في صيغة واحدة : هي الأخذ من كل علم بطرف ، وبطريقة الفكاهة حصراً . وقدر له على هذا النحو ، من خلال نثر سلس ودقيق . ان يرتفع الى مستوى نمط أدبي ، قبل ان يتجمد — ويتجمد معه النثر العربي — في نوع من المنشأة التي تغطي ، وفي نظر البعض ، تشل بعد الآن ، فن الكتابة ، الذي

أصبح نهائيا مرتع الالهامات النسيئة من استطراد واعتراض وكلام لا صلة فيه .

ويتضح هذا التجمد ، مثلما سوف نرى ، من خلال تطور الجغرافية ، وينجم بالدرجة الأولى عن الحاجة الداخلية الخاصة بنمط يشجع السهولة والتكرار والتجميع والترهات دون البحث الطريف . وتشتد هذه الحاجة طبعا من جراء الدور المهيمن العقيم الذي لعبه رواد أصبحوا في وقت مبكر جداً قدوة يحتذى بهم . ويمثل الجاحظ وابن قيبة أفضل تمثيل(١٦٦) قطبين من أعلام القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، الذين يصنع الأدب لديهم برنامجه ومناهجه . فبهما ، اختار الأدب ان يصبح ثقافة متوسطة ، بألوان متنوعة ، وبهما حدد الخيارات الممكنة بين شتى المؤثرات التقليدية أو العجمية ، وبوسعنا ان نعتبر ان الفارق الزمني البسيط الذي يفصل الجاحظ عن ابن قتيبة(١٦٧) ، على مستوى الذهنية الجماعية ، يرمز الى موقفين متواليين من العلوم الجديدة : موقف الانفتاح وموقف الانطواء .

الجاحظ : أهميته في تكوين الجغرافية العربية

قد يسوغ لنا ان ندخل دراسة الجاحظ الاجمالية في هذا البحث ، لأن الجاحظ عاصر المصنفات الجغرافية الأولى المعروفة(١٦٨) ، ولأن مصنفاته هي ذاتها اتسمت بأهمية بالغة . من جهة اخرى ، اسهم الجاحظ في تكوين الثقافة العربية الاسلامية شخصيا بعبقريته الفذة ، وبمكانته الاسطورية(١٦٩) التي حبته نفوذا دفع بعض الكتاب الى استغلال اسمه ونشر مواضيع وأساليب نسبت اليه شاء أو أبى . على أننا نصرف النظر عن التحدث عما تستلزمه مثل هذه الدراسة من أبعاد(١٧٠) ،

ونفضل ان نتناول مصنفات الجاحظ من زاوية الموضوعات التي تقترب أشد القرب مما نجده عند الجغرافيين . فعلى هذا الأساس ، لا بد ان نخص المقاطع المحفوظة من « كتاب الأمصار وعجائب البلدان » ، بشيء من البحث ، علّه يتيح لنا تقويم نوع من الجغرافية الجاحظية(١٧١). لكن لا يجوز عزل هذه الجغرافية عن اطار الثقافة الجاحظية الشاملة ، اذا راعينا شخصية المؤلف ووحدة مؤلفاته(١٧٢) . ولن نلقى هذه الثقافة في فهرس الموضوعات الواردة في شتى الكتب والكراسات المتخصصة(١٧٣) — ويبقى التفتيش عنها كيفيا ، لأن القارىء يسعى اليها من الخارج وبعديا ، ولأنها تتشوه من جراء فقدان أعمال ضائعة لا يستطيع الباحث ان يتطرق اليها ، فيهملها . لذلك يجب التحري عن مجمل تلك الثقافة في المصنفات ذاتها التي تصور الجاحظ انها جامعة ، إما على مستوى برنامج المعارف والقضايا التي ينبغي التعمق فيها ، أو على مستوى تنفيذ هذا البرنامج ، أي ، بايجاز ، في كتاب التربيع والتدوير وفي كتاب الحيوان(١٧٤) .

كتاب التربيع والتدوير : اهتمام جديد

كتاب التربيع والتدوير(١٧٥) رسالة موجهة الى شخص ، تنسب اليه ، تهكما ، قدرات فكرية فائقة ، ويلح عليه بابداء رأيه السديد في كثير من القضايا ، التي يشكل سردها القسم الأكبر من المصنف ، الذي يتطرق على هذا النحو الى ثلاثة ميادين أساسية من الأبحاث : هي التاريخ العام والدين والعالم . وتتضمن دراسة الموضوع الأول المعطيات التوراتية والخرافية والاخروية ، وتاريخ الأمم وتقاليد الجزيرة العربية قبل الأسلام(١٧٦) ، وتصور بالتالي الإطار العام الذي سوف يظهر فيه

الدين الجديد في حينه . ولا يتعرض هذا التقصي الى تاريخ الدين الجديد بحد ذاته ، بل الى القضايا التي يثيرها(١٧٧) ، مما يؤدي الى رفض تصور العالم ، بما أولي من مكانة واهتمام رئيسيين ، لأن معارف ذلك التصور تشتمل على العلوم الكونية والرياضية ، والفيزياء ، والجغرافية العامة ، وعلم طبقات الأرض ، وعلم الحيوان ، وعلم الأجناس ، والطب ، والسحر (١٧٨) .

مع ذلك لا يسرد كتاب التربيع والتدوير المواضيع سردا بسيطاً ، ولا يعدد بعض المعارف الجامدة التي اختارها بطريقة عشوائية ، بل « يسوق أدق القضايا التي تختلج في ضمير المسلم العقلاني في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي(١٧٩) » . ولا ريب البتة انه أول مصنف يستعيض ، بنهج منظم فعال ، في الحديث عن قضية تشابك اهتمامات العصر ، المشار اليها في بدء هذا الفصل . ويوحي عنوانه الزائف ، من خلال تربيع دائرة نجهلها ، بوجود قلق ذهني جوهري ، فيسترد الأصالة التي تحجبها عنه الدقة التاريخية . والبون شاسع بين هذا القلق وبين تمحيص من نوع آخر ، تقوم به الجارية تودد في ألف ليلة وليلة(١٨٠) : فهنا تبدو المعرفة ، التي توحدت ، أداة نجاح اجتماعي وموضوع مناظرة لا يخلو اخراجها من التذكير ببعض « الاعيب » عصرنا . ولا أثر لشيء من هذا القبيل في كتاب التربيع والتدوير ، الذي يحاول فيه العقل ، لحسابه الخاص ، ان يتجاوز التناقضات المحتملة بين نوعين من الأنظمة : تراث التقليد العربي وعقلانية الفكر اليوناني (١٨١) ، ويعلل الجانب الأعظم من موقف الجاحظ بالمقابلة بين المقتضيات العاطفية التي تربطه بالتراث العربي ، وبين ضرورات العقل ، التي تشده

الى العقلانية اليونانية . وتتجلى هذه المجابهة بدقة فائقة ، لا سيما ان موقف الجاحظ من التراث العربي لا يثبت أبدا على حال ، عندما يتعلق الأمر بالتراث الروحي أو بالتراث العلمي . فالجاحظ يتأثر بعقلانية المعتزلة ، فيشعر بضرورة اصلاح التراث العلمي(١٨٢) . لكن ينبغي طبعا الا يلحق اصلاح المعطيات القديمة من الأساطير العربية ، في نطاق نظام التفكير المتلائم مع الأزمنة الجديدة ، ضررا بالتراث العلمي(١٨٣) . ويرى الجاحظ أن بلاد فارس تمثل خطراً من هذه الزاوية ، لأنها قريبة بلا ريب ، ومتغلغلة في العادات نفسها ، أو في بنية الخلافة أو في الأدب حسب أسلوب ابن المقفع . ويرفض الجاحظ ان يلتقي العرب بفارس . أمام نجاحها وأمام النتائج المترتبة على هذا النجاح ، أولاً على المستوى السياسي وما يرافقه من اعادة النظر بتفضيل العرب على العجم(١٨٤) . وثانيا ، على المستوى الديني وما يصحبه من مقاومة عنيفة للزرادشتية . وأخيراً على المستوى الثقافي مع ما ينطوي عليه من فساد نظام القيم التقليدية(١٨٥) ، ويتجه الى اليونان البعيدة والبائدة . واقصد ان اليونان تتميز بتقديم نظام فكر ومعارف ، دون ان تهدد تهديداً مباشراً وآنيا العروبة في مصادرها الحية ، مثلما تفعل فارس . ويرى الجاحظ أن العقلانية ، التي تلهم نهج التفكير اليوناني والمعتزلي ، تسمح بتجديد الاسلام دون ان تؤثر في أسسه ولا سيما الأساس العربي . اذن يرمي موقف الجاحظ ، أصلا ، الى حماية تقاليد العرب في بنيات مجتمعهم وذهنيتهم ، من التماس بفارس ، والى توسيع حقل معارف هذا المجتمع بالاتصال باليونان : فموقفه توسعي على مستوى المعرفة ودفاعي على مستوى القيم(١٨٦) .

وهذا الموقف واضح جدا في كتاب التربيع والتدوير ، وفي توجيه القضايا المثارة في سياق الحديث . وتنصب فكرته الأساسية على رفض كل تعليل وقائع يعتمد على الخرافة وحدها(١٨٧) ولا ريب ان الجاحظ يقصد من مهاجمة الشخصيات الأسطورية ، مثل كعب الاحبار أو عبيد بن شريه(١٨٨) ، في هذه الأمور ، بدافع وطني ، ان يحرر عالم العرب الفكري من الاقتباسات الأجنبية التي انتشرت منسوبة الى هذه الأسماء الشهيرة(١٨٩) . لكنه يريد أيضا ، برفضه كل شيء : ان يرجع الى تأويل العالم تأويلا سليما مبنيا على ثلاثة مرتكزات : هي العقل ، والعيان والقرآن(١٩٠) .

فالعقل هو بالتالي العقل المقتبس عن اليونان ، كلما كانت معطيات عامه مقبولة في نظر العقيدة الاسلامية(١٩١) ، وكلما أمكن القيام بنوع من النقاش الجدلي المستوحى من الفلسفة اليونانية : ويتساءل الجاحظ (١٩٢) « هل نزعم ان الأفلاك ذات لون ؟ فان كان لها لون فقد احتملت جميع الأشكال ، وهذا خلاف ما يقولون . وان لم تكن ذات لون ، فالسماء اذاً غير الفلك » . والاعتقاد بوجود حياة خاصة للفكر(١٩٣) مذهب يوناني أيضاً : « وكذا الحسن (كالون) اذا كان حراً مرسلا ، وعتيقا مطبقا ، لايتحكم عليه الدهر . ولا يذبله الزمان ، ولا يحتاج الى تعليق التمائم ولا الى الصون والكن ولا الى المناقش والكحل » .

بالفعل ، تتجلى أولوية العقل في رؤية نظام العالم المراد دراسته : لذلك نرى الجاحظ ، على المستوى النظري الصرف الوارد في كتاب التربيع والتدوير ، يفسح المجال لاتخاذ موقف ذهني أساسي : المشاهدة ، أي العيان ، التي سوف ندرك أهميتها في كتاب الحيوان ، ويرسي كتاب

التربيع والتدوير أساسها ، كوسيلة مفضلة للمعرفة . تتمم العقل . . ويكتب الجاحظ (١٩٤) : « وقد رأيت من يعاند الحق إذا كانت المعرفة استنباطا ، ولم أر من يعاند الحق إذا جنيت المعرفة به عيانا » . ويقول أيضا : « وقد علمت . . . أن الخبر إذا صح أصله ، وكان للناس علة في نشره ، كان في الدلالة على الحق كالعيان (١٩٥) » وعليه ، فما يريد الجاحظ تقديمه بهذه « الواقعية العقلانية (١٩٦) ، إنما هو علم إنساني حقا ، خال من جميع الذهنيات الأسطورية والسحرية . أي فعلا ، موضوعية جاء بها قبل ظهور اسمها .

لكن يزعم البعض أن العقل (١٩٧) لايستوعب دراسة العالم ، حتى المنظم ، بكليتها ، بتعبير آخر ، يقصر عن فهم الجانب غير القابل التقادم من السر ، أي الله . مع ذلك حتى هنا ، يحتفظ العقل بمكانته . لأن مفهوم « العجيب (١٩٨) » ، وهو دليل عدم الخضوع لهذا العقل ، يحتمل عدة مقاربات . وتتمثل المقاربة الأولى في اعتبار العجيب في الواقع صفة بارزة خرجت على النظام السائد في العادة ، تخضع قبليا للتمحيص العقلاني . فعندما يشك الجاحظ مثلاً في « أعاجيب (١٩٩) » الخفاش ، وينقصها من سبعين إلى سبع فقط ، فهو لايفعل شيئا سوى أنه يعين نوعا من حقل الطرافة ضمن نظام قسم حيواني ، وإنه يصف الأسرار الظاهرية كظاهرات محدودة يمكن أدراكها وتحليلها . فالعجيب ليس إذن في النهاية سوى مناسبة استقصاء: وهذا الأمر واضح جداً في مقطع من كتاب التربيع والتدوير ، يطرح فيه الجاحظ طرحا منهجيا سبب القلق الذهني أمام بعض ظاهرات يشرحها تقليد كسول بالأسطورة وحدها (٢٠٠) : لم امتنع عمل الذهب والزجاج أعجب منه (٢٠١)

. . . ولم صار (السم) لا يقتل مع العادة ، وقتل قبل العادة ، ؟ وما بال السواد يصبغ ولا ينصبغ ، وما بال البياض ينصبغ ولا يصبغ ؟

اذن هنالك قلق ، لكن ليس قلقا فكريا في نهاية المطاف : لأن حديث الجاحظ (٢٠٢) يتخذ في آخر المصنف مسحة تدين بارزة جداً ، توضح بعديا موقف المفكر أمام الاله الخالق . فقبول الأسطورة بلا امعان فكر ، يؤول بلا ريب الى رفض التساؤل حول السر ، والى تقليد خصوم النبي ، الذين كانوا يسخرون من عجيب نبوءته ،وتبور أذهانهم ، فيتقاعسون أمام جهد التفكير الضروري : لأن « القلوب خاوية قاسية ، وراكدة جامدة ، لا تسمع داعيا ولا تجيب سائلا ، قد أغفلها سوء العادة(٢٠٣) » . اذن يصبح القلق أو التقصي على هذا النحو القاعدة الذهبية : أي تقديم الشكر الأمثل . واذا بدا السر لا يقبل الطعن(٢٠٤) أبدا في بعض النواحي ، فلن يختلق التورع قصة عية لشرحه ، بل يطرح « شكا منهجيا(٢٠٥) » يحتاط على الأقل لاحتمال التقصيات المستقبلة : ففيما يتعلق بروايات أخبار المعمرين في الماضي ، كتب الجاحظ يقول(٢٠٦) : « لم نجد على ذلك شهادة قاطعة ، ولا دلالة قائمة ، ولا قدر على ردها لجواز معناها ، ولا على تثبيتها اذا لم يكن معها دليل يثبتها » . ويستمر الجاحظ في القول : فتغلب حيرة الشك ، لا بمعنى التوقف عن التفكير ، بل بمعنى التمسك بطول الفكرة ، وما يجره من متاعب جسمية ونفسية .

ويعلل اختتام كتاب التربيع بسلسلة من الحكم ، باعادة النظر في تأويل « العجيب » الذي ادى الى اتخاذ موقف ذهني ، وبتحديد التقصي الذي يشكل الادراك ، ذرائع سلوكه . ومن هنا اتى اندراج الأدب التهذيبي الصرف عند رواد النثر العربي في التقصي الشامل الذي يعتبره

الجاحظ أدبا أوسع افقا . وهنا تعتبر اليونان رمزا واطارا بآن واحد : أقول رمزاً ، لأن الجاحظ ، عندما يجد في طلب قواعد السلوك البشري من حكمائهم ومنهم حصراً(٢٠٧) ، يتوخى ان يثبت ان اليونان وحدها نجحت في تنسيق مجمل المعرفة وادراج النهج العلمي في نظام أوسع يقوم بتكوين الذهن . وعلى هذا الأساس ظهرت أهمية الإطار المحدد على هذا المنوال : والواقع ان الحكم الختامية في كتاب التربيع والتدوير ، وان البست لبوسا يونانيا ، تشبه كثيراً حكم ابن المقفع ، ويمكن ان تأتي من فارس أو من الغرب(٢٠٨) على حد سواء . ولا بأس ان لم يرد هنا ذكر فارس ، لأسباب أبناها ، ما دامت ذهنيتها تتجلى في بعض النواحي . ويلاحظ أن ما يحدث فعلا تحت شعار التوفيق اليوناني ، إنما هو ادراج الأدب الأخلاقي في أدب الاستقصاء .

لعلنا وصلنا في النهاية الى تفسير لتطور هذا النمط الأدبي وتوسيعه . فما دامت الجغرافية شأنها شأن جميع الانتاج في الأدب العربي ، تحمل طابع الأدب ، فلن نخرج عن الموضوع الذي يهمنا اذا توقفنا عند هذا الحد بعض الوقت(٢٠٩) . فمن يحاول تعريف هذا المفهوم الغامض والمتعدد الأشكال ، تفرض عليه حقيقتان تتناقضان في الظاهر في هذين القولين : فقد قلنا من جهة أولى ان الأدب عندما يتصوره الجاحظ منهجا وذهنية تفكير ، يختلف كليا ، موضوعيا ، عن الأدب عندما يعتبره ابن المقفع مجموعة حكم . لكن من جهة ثانية ، يبدو في نظر العرب — الذين لم يشعروا أصلا مطلقا بضرورة التمييز اللفظي — ان الأمر يتعلق بشيء واحد متماثل ومبهم حتما ، لأنه يحتمل ترجمات عديدة ، مثل ثقافة ، وتهذيب ، وشرف ، ولباقة ، وأصول خاصة

بهذا النشاط أو ذاك ، لكنه يتوحد كثيراً في التسمية المشتركة « قواعد السلوك » التي تعنى بالجسم أو القلب أو الذهن . اذن ، لا مجال في مفهوم الأدب السابق ، مثلما يشعر به العرب ، لوجود أي انقطاع بين ابن المقفع والجاحظ ، بين الشرعة الأخلاقية ومنهج المعرفة . فجميعه متماسك ، والمعرفة لا تتجزأ .

وينطبق هذا القول على الجاحظ نفسه على نحو ما رأينا : فقد رفض هو شخصيا هذا التمييز ، فحوّل الأخلاق الموضوعة وضعا حتى الآن ، الى تقصي ، ينبغي ان يندرج ، شأنه شأن الأخلاق الاخرى ، — وحتى قبلها ، مثلما مر بنا ، اذ انه يتوج البناء — في برنامج معرفة عام يعتبره الجاحظ اياه الأدب بعينه . ولم يكتف بالنص نظريا عليه في كتاب التربيع والتدوير ، بل دعا اليه بأمثلة تحتذى في بعض مصنفاته التي خصصها لهذا النوع من القضايا(٢١٠) : فالأخلاق وحكم الأدب السابقة ، منتشرة(٢١١) فيها في أماكن متعددة ، إلا ان الذهنية تبدلت . ويكمن الفارق الأساسي في انها لم تعد مقدمة في صيغة قاعدة نهائية ثابتة بمضمونها ونصّها ، بل صارت ذريعة لدراسة تتمثل في بحث حوافز السلوك البشري الحقيقية ، التي تقارن بالأصول المثالية على هذا النحو . بالتالي ننتقل ، بشكل ما ، من الأخلاق الى علم النفس ، ومن قاعدة التعليم الى التأمل الشخصي عند الفيلسوف وحتى عند العالم(٢١٢) .

اذن ، لعل العرب يميلون الى اعتبار الأدب كلا ، بسبب عادة أدبية وضعها رغما عنهم كتاب من أمثال الجاحظ ، الذي لا يجهل أحد نفوذه . أقول بدقة عادة أدبية : ففي مجاراة الكتاب الرواد ، تقبل الحكم أو القصص الأخلاقية ، وتعتبر جزءاً حتميا من متاع المعارف الانسانية ؛

لأن الجاحظ أقدم على هذا العمل بنفسه وكفى ، لا لأنه كان لديه أسباب لذلك . واعتقد انه يجب ان يعزى ادراج الأخلاق نهائيا في أعمال الأدب بعد الجاحظ(٢١٣) ، الى نفوذ الرواد المشار اليهم . مع ذلك هنالك فارق أساسي ، نلح عليه مجدداً ، هو ان روح التصانيف تميل الى الوقوع في طي النسيان ، لصالح بنيتها فقط ، والبناء الداخلي ، لصالح الشكل وحده .

كتاب الحيوان : بداية جغرافية بشرية

يفوق كتاب الحيوان (٢١٤) ، وهو مصنف الجاحظ الرئيسي ، جميع انتاجه ، ويهيمن على حياته ذاتها(٢١٥) بلا شك ، وقد استمده من عدة مصادر(٢١٦) : منها الأساس العربي ، شبه الأسطوري ، الذي يسهل وضع ثبت له بالرجوع الى تصانيف النقاد أو أصحاب المعاجم ، ومنها أيضا حتما ، ما تفرق من العلوم في الكتب ، خصوصا الترجمات اليونانية ، لا سيما كتاب الحيوان لأرسطو . وتثير الاشارة الى هذا الكتاب وحدها مشكلة : لأنها تدفع أيضا الى التفكير في كتابين هما في «الأعضاء التي فيها الحياة» و«في كون الحيوان»(٢١٧) ، وان كانت تحيل ، لأول وهلة ، الى كتاب «في طبائع الحيوان». وهذه القضية هامة لأنها تتعدى مسألة المصادر ذاتها ، لتتصل بقضية تكوين مجمل الذهنية العربية الأسلامية في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي . بالفعل ، يختلف مضمون المؤلفات الثلاثة كثيراً : فيبدو كتابا في «الأعضاء التي فيها الحياة» و«في كون الحيوان» المتواليان أصلا(٢١٨) ، مصنفين نظريين ، وضعا بانتظام بصيغتهما لنخبة مثقفة غير متخصصة ، في حين يتألف كتاب «في طبائع الحيوان» من مجموعة نبذ ، متناثرة ومجزأة ، لا ريب ان أرسطو دونها بيده ، ليوزعها على

تلامذته كموضوعات عمل أو بحث ، بالتالي ، كتبها رجل تقني في نثر لم يهذبه(٢١٩) . على ان مطالعة أرسطو والجاحظ ، ومقارنة كتابيهما ، تثبتان اثباتا جيداً ان كتاب تاريخ الحيوان ، لا المصنفين الآخرين(٢٢٠) ، انتقل الى كتاب حيوان الجاحظ ، شكلا وموضوعا . وعليه يقدم الجاحظ الى جمهور عصره من المثقفين ، غذاء الاخصائيين القديم — مستخلصا من مجموعة بطاقات الأبحاث ، باستثناء النثر — لا هذين المؤلفين المنظمين والعامين اللذين كان أرسطو يخص بهما في عصره جمهورا من المستوى ذاته ، أي أولئك الطلاب المعتبرين ، في مقدمة كتاب أعضاء الحيوان ، خاضعين الى آخر منهج من منهجي التفكير المعروضين على النحو التالي : « يحتمل اتخاذ موقفين في جميع أنماط التفكير النظري والتقصي ، من اسخفها الى أرقاها ، : يلائم أحدهما اسم علم الشيء ، والآخر اسم نوع من الثقافة .

اذن طرأ تبدل على مفهوم الثقافة . فلم تعد ذلك التنسيق الأرسطوطاليسي في العرض النظري ، الحريص على التركيب والتنظيم ، بل أصبحت من الآن فصاعدا تكمن في تمجيد حب الاطلاع الذي يترتب عليه ، ان لم نقل انعدام النظام الداخلي ، فانعدام التصميم الاجمالي(٢٢١) ، أو قل العجز عن تنظيمه بوضوح كامل ، وعن تجميع الحديث حوله ، والاتجاه الى ترك الكتابة تنساق حسب اغراءات اللحظة الآنية . لكن ماذا يعلل هذا الوضع القائم؟ هل هو جهل النصوص ، الذي حال دون اطلاع الجاحظ على ترجمتي كتاب «في الأعضاء التي فيها الحياة» و«في كون الحيوان» ، واقتصاره على ترجمة كتاب «في طبائع الحيوان»؟ أم هو ميل خاص يتميز به الجاحظ ؟ يصعب جدا البت بتا قاطعا بهذا الشأن . وأقصى ما يمكن

قوله ، في هذه الحالة الخاصة ، ان الاختيار الحاصل تاريخيا بين مصنفات أرسطو الثلاثة ، قد تم تلبية لنوع من نزوع الذهنية العربية في ذلك الزمن . وقد ابان الجاحظ نفسه هذا النزوع في أحد المقاطع الذي تناول فيه بنجاح نفسية الشعوب : عندما أشار الى موهبة الارتجال والكلام ، وغلبة العفوية الطبيعية (الفطرة) ، التي لا تنصب لا على الاسباب ولا على الرؤى الاجمالية ، بل تتبسط في تفصيل دقيق يطاق الابتكار والحركة : فهذا يدل ، بالمعنى الأصلي ، على عبقرية تائهة(٢٢٢) .

مع ذلك ، اذا طرحنا الموضوع على هذا الوجه ، تصبح اعادة هذا الموقف الى ذهنية موروثة عن اليونان ناحية نظرية مجردة تماما ، يمتنع علينا ، على ضوء الوقائع ، تعليل الظاهرة التاريخية المعنية التي تتمثل في « انعدام تأثير التراث اليوناني نسبيا(٢٢٣) » . وفي رأينا ان هذا الانعدام لا يرتبط بانعدام العرف الجدلي عند العرب آنذاك ، بقدر ما يتصل باعتقاد فطري بفضائل هذا الانعدام . ونعني بهذا الكلام ان العرب ، في البدء ، لم يكونوا ، طبعا ، مؤهلين أقل من غيرهم ليتلقوا تركة اليونان ، بل لم يريدوا ذلك أصلا ، لأنهم كانوا مقتنعين بتفوق بنيات شعبهم الاجتماعية والذهنية ، وبالتالي ، قرروا مقاربة اليونان لا بروح تلقي الدروس(٢٢٤) المفعمة بالتواضع ، لكن في منظور نفعي يرمي قبل كل شيء الى استخدام الفكر اليوناني(٢٢٥) لصالح الحضارة العربية والاسلامية التي اعتبرت قيمها الموضوعة قبليا متفوقة على غيرها ، فلا يمكن إقحامها في النقاش . ويحسم موقف الجاحظ الأمر كليا ، من هذه الناحية ، مع ان موقفه هامشي ، ويمثل الحد الأقصى من التنازلات المقبولة ، ما دامت الغاية المتوخاة من الاقتباسات اليونانية(٢٢٦) :

مثلما رأينا ، ليست سوى المحافظة بدقة على التراث العربي وعلى بنيات الحضارة الاسلامية وتطهيرها .

وكان بامكان ذهنية العصر ، بأساليبها ووسائلها الخاصة ، ان تنفتح على المعارف الواردة من الخارج ، في حدود الاطار المرسوم على هذا النحو ، التي نستطيع ان نقول عنها ، على وجه التعميم ، انها الحدود أياها التي يفرضها رد فعل الدفاع الذاتي ، والامتناع الواضح عن مجاراة مقتضيات المنطق الاستدلالي حتى النهاية ، مثلما فعلت اليونان . ويعود الفضل الى الجاحظ أصلا في دراك هذه الناحية . فاذا علمنا ان الأدب العربي قبل الجاحظ ، باستثناء الشعر منه ، لم يقدم لنا ، في وضعه المعروف ، إلا نصوصا تقتصر على التحدث عن الأمور الدينية ، والحكم الأخلاقية ، والأبحاث الفقهية اللغوية ، وذكر الأخبار ، أدركنا فوراً ما أسهم به هذا المؤلف بصورة رئيسية ، لا سيما في كتاب الحيوان : فقد فتح عالم الحياة لأبحاث الانسان الجديدة . بالتالي أصبح الموضوع الثوري موضوع الخليقة ، لا التي تقتصر عليه الاعتبارات النظرية كما في علم التنجيم ، بل التي يدقق في واقعها الحسي المنظور من جهة ، وفي كليتها من جهة أخرى ، ضمن شبكة من العلاقات والمضامين ، ترتبط بها شتى عناصرها(٢٢٧) ارتباطا وثيقا ديناميكيا . ولنقرأ مجدداً ، بهذا الشأن ، اللمحة التي يخص بها كتاب الحيوان مدينة الأهواز(٢٢٨) : « فاما قصبة الأهواز ، فإنها قلبت كل من نزلها من بني هاشم الى كثير من طباعهم وشمائلهم . ولا بد للهاشمي ، قبيح الوجه كان أو حسنا ، دميما كان أو بارعا رائعا ، من ان يكون لوجهه وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش ، وجميع العرب(٢٢٩) . فلقد

كادت البلدة ان تنقل ذلك ، فتبدله ولقد تخفيه . وادخلت الضيم عليه ؛ وبينت أثرها فيه . فما ظنك بصنيعها في سائر الأجناس ؟ ولفساد عقولهم ، ولؤم طبع بلادهم ، لا تراهم ، مع تلك الأموال الكثيرة ، والضياع الفاشية ، يحبون من البنين والبنات ، ما يحبه أوساط أهل الأمصار ، على الثروة واليسار ، وان طال ذلك . والمال منبهة ، كما تعلمون . وقد يكتسب الرجل من غيرهم المويل اليسير ، فلا يرضى لولده حتى يفرض له المؤدبين ، ولا يرضى لنسائه بمثل الذي كان يرضاه قبل ذلك . وليس في الأرض صناعة مذكورة ، ولا أدب شريف ، ولا مذهب محمود ، لهم في شيء منه نصيب ، وان حسن . ولم أر بها وجنة حمراء لصبي ولا صبية ، ولا دما ظاهرا ، ولا قريبا من ذلك . وهي قتالة للغرباء . على ان حماها خاصة ليست للغريب بأسرع منها الى القريب . ووباها وحماها في وقت انكشاف الوباء ، ونزوع الحمى من جميع البلدان . وكل محموم في الأرض ، فان حماه لا تنزع عنه ، ولا تفارقه ، وفي بدنه منها بقية . فاذا نزعت عنه ، فقد أخذ منها على نفسه البراءة ، الى ان يعود الى الخلط ، وان يجمع في جوفه الفساد . وليست كذلك حمى الاهواز ؛ لأنها تعاود من نزعت عنه من غير حدث ، كما تعاود أصحاب الحدث . لأنهم ليسوا يؤتون من قبل النهم ، ومن قبل الخلط والإكثار ، وإنما يؤتون من عين البلدة . وكذلك جمعت سوق الأهواز الأفاعي في جبلها ، الطاعن في منازلها ، المطل عليها ، والجرارات في بيوتها ومقابرها ومنابرها . ولو كان في العالم شيء هو شر من الأفعى والجرارة ، لما قصرت قصبة الأهواز عن توليده وتلقيحه . وبليتها انها من ورائها سباخ ومناقع مياه غليظة ، وفيها أنهار تسقيها مسايل منفهم ، ومياه أمطارهم ، ومتوضاتهم . فاذا طلعت الشمس ، فطال

مقامها ، وطالت مقابلها لذلك الجبل ، قبل بالصخرية التي فيه تلك الجرارات . فاذا امتلأت يبسا وحرارة ، وعادت جمرة واحدة ، قذفت ما قبلت من ذلك عليهم . وقد تحدث تلك السباخ وتلك الأنهار بخاراً فاسداً . فاذا التقى عليهم ما تحدث تلك السباخ ، وما قذفه ذلك الجبل ، فسد الهواء ، وبفساد الهواء ، يفسد كل شيء يشتمل عليه ذلك الهواء » .

واجرى جغرافيون ، من امزجة متباينة جدا(٢٣٠) ، دراسات أحادية مماثلة لدراسة الأهواز . فتسنى لهم ان يسهموا بنشوء نوع من الذهنية في الجغرافية العربية ، مثلما سوف نرى فيما بعد . وشرعوا قبل كل شيء ينهجون تصنيف المشاهدات ، ويرسون دراسة العالم على أساس تمحيص الظاهرات البشرية ، فمهدوا السبيل لقيام تحريات لاحقة ، ورسموا ، اعتمادا على الوقائع ، الخطوط الأولى لشتى عناصر الجغرافية البشرية : نقصد العلاقة –المدروسة تجريبيا بعد الآن – بين الانسان ووسطه (توزيع الأجناس البشرية ، الجغرافية الطبية ، جغرافية الأنظمة الغذائية والهندام) من جهة ، ومن جهة أخرى ، جغرافية البنيات الاجتماعية ، في ميدان منفصل ، لا يسع التصور المسبق ، المبني على التحليل الماركسي لتلك الفترة ، حتى لو تم من بعيد ، ان يربطها بالمعطيات المنوه بها : كحركة الأملاك والأشخاص ، والتنظيمات السياسية ، والطبقات الاجتماعية والطوائف الدينية والعادات ، والمناطق اللغوية والثقافية(٢٣١) .

وهكذا استطاعت مصنفات الجاحظ ان تصف نشاطات ومواقف الانسان الحيوان ، بين الخلائق عامة(٢٣٢) ، وعلاقاته بها . اذن لدينا

ما يتجاوز اكتشاف الموضوعات ، ويصل الى ذهنية سوف يستفيد منها الأدب الجغرافي ، ويستمد وحيه بعد الجاحظ . وحتى لو افترضنا اننا شططنا ، وتحدثنا عن النزعة الانسانية الجاحظية ، بالمعنى المعاصر لهذا اللفظ ، لا بد لنا في الحد الأدنى ، ان نعترف ، في حدود معارفنا الحالية ، ان الجاحظ أول من طرح قضية الانسان في العالم ، لا سيما في كتاب الحيوان ، الذي يمثل مختارات تاريخ طبيعي واستعراض الخلق ، في صيغة نوادر أدبية : فهو يقول(٢٣٣) : « أعلم ان الجبل ليس بأدل على الله من الحصارة ، ولا الفلك المشتمل على عالمنا هذا بأدل على الله من بدن الانسان ، وان صغير ذلك ودقيقهُ كعظيمه وجليله . ولم تفترق الأمور في حقائقها ، وإنما افترق المفكرون فيها » . ثم يسهب في موضوع يتلخص بان الاستدلالات البشرية بالجمال والمنفعة ، والخير والشر ، لا تنطبق على الدراسات الحيوانية ، ويلح فيما بعد بقوله : « وما الضفدع بأدل على الله من الفراش(٢٣٤) » . وعلى هذا النحو ، أصبحت دراسة الواقع بعد الآن وبلا استثناء تمتلك أساسا يبرر أجراءها . فمثلما كانت الجغرافية الفلكية تتذرع بالتدابير الآلهية لتبرر حتمية وجودها ، كذلك ، تم اعلاء شأن الأشياء والكائنات في الأدب ، بفضل الجاحظ واستناداً الى المبدأ ذاته . فضمن هذا الخلق الكلي ، الذي يشمل البائع المتجول والملاك . ، يجد الانسان حده ومجده . نقول حده ، لأنه عاد واندرج في مراتب الكون ، وحل تحت الملائكة ، واعتبر نوعا من الحيوانات الاخرى ، المشعرة ، وشبه بالقرد ، وقورن صوته بصوت القط . ونقول مجد هذا « الحيوان الانساني » ، ليس لأنه يقع ، بحكم طبيعته ، في منتصف سلم الخليقة ، فصار مركزها ، وعلى هذا الأساس ، ممثلها المستشهد به في معظم الأحيان ، بل لأنه أيضا يتميز عن سائر

الحيوانات ، بصفاته الطبيعية ، وخصوصا بمجمل مزايا عقله التي تجعل منه انسانا : ومن هذه المزايا حس الاجتماع ، والبيان ، واستعمال اليد ، والحساب ، والكتابة ، ولا سيما استطاعة العمل — وهذه اشارة الى معطيات المعتزلة الأساسية — التي وهبت أيضا الى الكائنات الراقية ، أي الجن والملائكة ، وحددت دور الانسان الحيوان المفكر ، وعينت مكانه على ملتقى الدورين البيولوجي والسماوي(٢٣٥) .

وطغى التجديد ذاته على المناهج : فالحديث يتميز بابراز لوحات المعاينة الشخصية : ولا يفتاء الجاحظ يردد « رأيت عندنا في البصرة » ، مستبقا بهذا النهج سرد النادرة الشخصية التي سوف تتخلل أجمل صفحات اليعقوبي أو المقدسي . ويقول أحد أبطال البخلاء(٢٣٦) : « اني قد لابست السلاطين والمساكين ، وخدمت الخلفاء والمكدين ، وخالطت النساك والفتاك ، وعمرت السجون كما عمرت مجالس الذكر ، وحلبت الدهر اشطره ، وصادفت دهراً كثير الأعاجيب». وكتب المقدسي في الموضوع ذاته بعد قرن ونيف(٢٣٧) : فقد تفقهت وتأدبت ، وتزهدت وتعبدت وفقهت وأدبت ، وخطبت على المنابر ، واذنت على المنائر ، وأممت في المساجد ، وذكرت في الجوامع ، واختلفت الى المدارس ، ودعوت في المحافل ، وتكلمت في المجالس ، وأكلت مع الصوفية الهرائس ، ومع الخانقائيين الثرائد ، ومع النواتي العصائد ، وطردت في الليالي من المساجد ، وسحت في البراري ، وتهت في الصحاري ، وصدقت في الورع زمانا ، وأكلت الحرام عيانا ، وصحبت عباد جبل لبنان ، وخالطت حينا السلطان ، وملكت العبيد ، وحملت على رأسي بالزبيل ، واشرفت مرارا على الغرق ، وقطع على قوافلنا الطرق ،

وخدمت القضاة والكبراء ، وخاطبت السلاطين والوزراء ، وصاحبت في الطرق الفساق ، وبعت البضائع في الأسواق ، وسجنت في الحبوس ، وأخذت على اني جاسوس » . وهكذا ، بدا ان ما يرفد الأدب العربي بعد الجاحظ ، حتى في تقليد النموذج ، إنما هو المشاهدة التجريبية ، المبنية على الشرع في كتاب التربيع والتدوير ، وعلى الواقع في كتاب الحيوان وفي جميع مصنفات الجاحظ ، وإنما هو المغامرة الشخصية ، بجميع ما فيها من سحر اللحظة المعاشة ، لحظة هذا العيان(٢٣٨) ، الذي سوف يجعل منه المقدسي احدى ركائز طريقته . ونضيف الى هذا القول اننا عندما نجمع جملة المقاطع التي يعود فيها كاتب كالمقدسي الى تجربته الشخصية ، أمكننا الجزم ، في نواحي عديدة ، بان موقف الجغرافية العربية الفضلى ، ليس سوى تنهيج الرواية الشخصية التي أرسى الجاحظ أسسها حوالي منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، مع أجراء تحفظ جوهري ، يتلخص بأن تجربة الواقع تصبح موضع التحقيق ذاته ، وليس اطارا أو ايضاحا ، كما هي الحال عند الجاحظ ، مما يستلزم في النوايا أحيانا ، وفي الواقع دائما تقريبا ، إجراء عرض موجز ، أو قل جاف ، قد لا يفسح المجال لذكر الاعتبارات الأخلاقية وللعناية بالانشاء ، مما يبرز التباين الأساسي مع طريقة الجاحظ(٢٣٩) .

مع ذلك ، حذار من التنميق في الكتابة ، والتلاعب بالألفاظ ، باختصار ، مما اتفق على تسميته كالسابق ، الأسلوب ، الذي يعبر عن الفكرة . فقد يلتبس بتكوين العقل الذي يبدعه ، مع ان الأسلوب لا يستهدف التعبير عن هذا التكوين ، إلا في بعض الحالات الشاذة النادرة ، وان كان لا يسعه ان يمتنع عن اظهاره . بالتالي ، اذا رغبنا

بدراسة الفكر ، لا في مضمونه ، مثلما رأينا منذ برهة ، بل في شكله ، ينبغي الا نقتصر على نطاق التعبير عنه ، الذي لا يمثل سوى ظاهرة عارضة له ، تظل مبهمة ومستعصية على التمحيص – لأن وجوده ضروري للفكر ، دون نوعيته – وان نعنى بما وجد قبله ، أي بمناهج التفكير ذاتها ، والبنيات والمواقف الذهنية ، كما تستشف ، خلسة تقريبا ، من محسنات التعبير اللفظية . فماذا نلاحظ في هذا المجال اذن ، عندما نتحرى نقاط المقارنة المحتملة ؟ سار ، فيما نرى ، على غرار الجاحظ بعض المصنفين الذين يمثلون اتجاهات جغرافية متنوعة ، كابن خرداذبه ، أو ابن رسته ، أو اليعقوبي أو المقدسي ، عندما استطاعوا ان يتحرروا من اطار المشاهدة الجزئية والدراسة الأحادية . فحاولوا الارتقاء الى مستوى التأملات العامة ، وطبقوا طريقة الجداول الكلاسيكية التي تعتبر الاحجية أو لوائح الخصائص أو التعداد نماذج عنها(٢٤٠) . وارى الأعراض ذاتها والنزوع الطبيعي ذاته الى التنهيج البدائي ، حتى في الوصف التفصيلي : فنبذة مثل نبذة الأهواز تستبق ، اذا تركنا جانبا اعتبارات كاتب الأخلاق ، منهجي تفكير أساسيين عند الجغرافيين : نقصد من جهة منهج دقة المشاهدة المتوافقة مع القدرة ، المتلاقية والمتزامنة ، على رسم اللوحة الاجمالية(٢٤١) ، ومن جهة اخرى – وهنا نعثر على الاتجاه المشار اليه – وفي هذا المجال ، تنهيج المعارضة التقليدية في الموضوعات العربية المألوفة المتمثلة في الهجاء والمدح ، والمفاخر والمثالب ، التي تطبق ، إما على موضوع واحد تصدر عنه التناقضات ، وإما على عدة مواضيع تخضع الى أحكام بصيغة مقابلات أو مراتب أو مقارنات(٢٤٢) .

ولا يشكل هذا الولع بكل ما هو مقارنة ، ومقولات ، وتصنيف ، وسلم قيم ، سمة تميز الجاحظ وحده . فهو نفسه يرد صراحة بعض هذه الحكم الى الأمثال أو الى الرأي العام . وقد تخللت الأدب العربي قبله أمثلة كثيرة(٢٤٣) عن ذلك ، لا سيما عند ابن المقفع . ولا يدخل في نطاق بحثنا ان نحدد مدى اسهام المؤثرات العربية أو اليونانية أو الشرقية في تكوين مثل هذه الأشكال من الأساليب الفكرية(٢٤٤) . ونكتفي بأن نشير الى ان الجاحظ اعطاها نهائيا ، على المستوى الأدبي براءة شرف . وهكذا ، دعم نفوذ الجاحظ عرضها وفق مناهج تقليدية ، بعد ان ادخل نهجا جديداً في تقصي الحقائق ، مثلما مر بنا . وأفضل برهان على ذلك ، ان ابن خرداذبه ، لم يتأثر بعد بالجاحظ الى المدى الذي تأثرت به الأجيال اللاحقة ، لا بسبب طريقته الخاصة بل لأنه عاصر الجاحظ أو كاد ، ويأنف كثيراً جداً ، لا ان ينهج هذا النهج في التفكير — من يدري ؟ — لكن ان يكتب بمثل هذه العقلية ، واكاد أقول : ان يكتب فقط ، ما دامت الكتابة التي تحرره من الاصطلاحات التقنية وشبه الحسابية التي اراد الاقتصار عليها ، كانت ستدفعه الى كشف نفسه أو فضحها ، بسبب مجيئه ، مثل آخرين ، بعد بضعة عقود . بتعبير آخر ، كان يكفي ان يمر بعض الزمن على صياغة مصنف أدبي ، لكي يصبح كلاسيكيا ، ويندرج في الوقائع ، حتى نراه فيما بعد يطبق بصورة طبيعية على ميادين ، مثل عرض المسالك ، يحتمل إلا يدور بخلد أحد ، عند تكوينه ، أنه قد يجد متسعا له(٢٤٥) في ذلك المجال في يوم من الأيام .

لم تصلنا إلا بعض المقاطع من المصنفات التي خصصها الجاحظ للقضايا الجغرافية المحضة . ولا يسعنا اغفالها : فاهمالها لا يجوز لنا ، والواقع يفرضها علينا . واسقاطها من حسابنا غير جائز ، لأن كتاب الأمصار وعجائب البلدان أثر تأثيراً بينا في المصنفين الجغرافيين في القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين(٢٤٦) . ويضطرنا الواقع ، وان كان يستحسن الاحتياط ببعض الحذر في اعطاء الحكم على مصنف مبتور على هذا النحو ، الى اتخاذ هذا الموقف ، لأن حجم المقاطع الكبير يحد من الوقوع في الزلل ، لا سيما ان كتاب الأمصار لم يكن قطعا من المصنفات الضخمة(٢٤٧) ، وبالتالي تجيء نسبة الأثر المتبقي منه الى مجمل التصنيف مرضية .

ونعجب عند قراءته الأولى ، لاتساع المكان المخصص للأخبار ، خاصة الأخبار العربية(٢٤٨) ونرى عندئذ في هذا الكتاب المتأخر ، المصنف في السنوات الأخيرة من حياة الجاحظ(٢٤٩) ، دليل انطواء . تتوارى خلفه ضروب قلق الشباب واهتمامات سن النضوج أمام الاستسلام ومقتضيات الحذر(٢٥٠) ؛ وربما رغبة الشيخ الصادقة أيضا بلقاء ربه في صفاء القيم التقليدية(٢٥١) . ولعلنا نسلم ، والحالة هذه ، ان موضوع المصنف المعلن عنه ، وهو علاقة الانسان بوسطة المكاني والزماني ، يتنافى بعض الشيء مع سياقه الذي يؤول الى حد بعيد الى قبول مواضيع تقليدية في الأدب .

ويمكن ان نفهم انطواء الجاحظ على مستوى آخر . أما ان يأخذ عليه المسعودي(٢٥٢) التحدث عن الجغرافية دون ان يسافر ، أو

المقدسي(٢٥٣) ان يكتب كراسا يفتقر الى المعارف الدقيقة ، فمعناه ان علم كتاب الأمصار علم دواوين ، نظري ، عام ومجرد ، ونقيض علم نادى به ، بعد مرور مائة عام ، مؤلفان من المع المدافعين عن الجغرافية الميدانية . ويوضح تجريح الجاحظ و « كراسه » على هذا النحو ، حقيقة مآلها ان الجاحظ لم يترخ كغيره ، اعطاء مجموعة من المعارف التقنية ، بل استخلاصات امعان الفكر الشامل في الظاهرة البشرية فقط : وبالتالي اعطاء جغرافية « عامة » ، تعتمد على بيانات توضيحية ، وردت من قبل في مصنفات ضخمة(٢٥٤) ، لتجمل ما فُصِّل ، وتقتصر على تقديم شروح بعض الآليات الأساسية في ارتباطات الانسان بوسطة الطبيعي أو الاجتماعي . وهكذا تظل ، رغم الظواهر ، ضمن خط كتاب التربيع والتدوير ، لأن التقليد لا يتدخل ابدا بوزنه الخاص ، بل حسب مقتضيات الحال : فهو معروض ، لا بحد ذاته لأنه لا غنى عنه في الثقافة ، بل في الإطار العام لتوضيح ظاهرة تعتبر بالتالي جوهرية ، لا على أساس معطاها ، بل على أساس قدرتها ، الاثباتية(٢٥٥) .

اذن ، اذا نظرنا الى مصنفات الجاحظ من زاوية الجغرافية البشرية ، رأيناها وكأن نظاما داخليا دائما يحولها من خلال التفنن بأساليب التعبير(٢٥٦) . ويرتبط هذا النظام باستمرار التأمل في وضع الانسان في العالم ، وبمنهج يبني على المعاينة والتحليل سن قوانين تسير الآليات العامة والمواقف الأساسية عند الكائن البشري . بالتالي تبدو مصنفات الجاحظ أساسية لأنها تقدم للجغرافية ، ان لم يكن معطاها — الذي لا يتدخل هنا إلا عرضا وفي شكل المثال — فذهنيتها وبرنامجها في أضعف

الاحتمالات . فكيف نعلل عندئذ تحفظات المسعودي والمقدسي ؟ نعللها بلا ريب ، في رأينا ، بالظاهرة المشار اليها سابقا ذاتها(٢٥٧) . فموقفهما يتبرر ، لا ازاء الجاحظ الذي اعاده لنا النقد المعاصر على مستوى التاريخ ، لكن ازاء شخص الجاحظ الذي صورته لهما الأسطورة من قبل . فقد فاتت دقة التأمل في الجاحظ وفي الثابتات العميقة من مصنفاته ، فيما يبدو ، معاصريه ومن جاء بعده ممن قلدوه بلا شك ، من زاوية النظام الظاهري(٢٥٨) السطحي طبعا : فأصبح التقليد ثقافة بحد ذاته . وانضم العجيب الى جملة المواضيع المبتذلة ، فضخمها بالتكرار والانتحال ، بعد ان كان حافزا على التأمل . اذن عندما يحتج المسعودي والمقدسي ، باسم مبادىء قيمة جدا أصلاً ، ضد جغرافية الجاحظ ، فهما يثبتان انهما عندما يقرآن نصوصه يظلان حبيسي اسطورة تمنعهما من ادراك معنى ما كتب على الوجه الصحيح . لكن اذا كان الموقف الذهني يعلل هذه الظاهرة ، فهو لا يفسرها بحد ذاتها . فهنالك ظاهرات اخرى ، دقيقة جداً ، لعبت دورها في نشوء هذه الذهنية ، وتستمر في لعب دورها ، كلما تدخل هذا الموقف حتى لا شعوريا . فمنذ عصر الجاحظ ، اشار التاريخ الى ميل ، سياسي وديني ، الى تقييد حركة التوسع في الاستقصاء والتفكير المجرد الاسلاميين ، أو بالاحرى ، في الأدب ، كما كان الجاحظ يفهمه ، لتشويهه لصالح السنة الحريصة جداً . ولعل الجاحظ لم يكن ليصبح في الأسطورة صاحب الطرف المستحبة ، ولا شيء سواه ، لولا ظهور حركة اخرى يمثلها ابن قتيبة في المقام الأول ، مقابل الحركة التي نعرفها نحن ويمثلها الجاحظ تاريخيا .

ابن قتيبة : مستلزمات السنة

يعزو النقد المعاصر الى ابن قتيبة دورا أساسيا في انحطاط الثقافة العربية الاسلامية في أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي(٢٥٩)، ويقابل قلق الجاحظ وتحقيقه بعقيدة ابن قتيبة الأصغر منه سنا(٢٦٠) . والواقع ان ابن قتيبة يستهدي بهدف محدد بدقة يرمي الى اعداد كتّاب دواوين الخلافة اعدادا يحرص على تنمية فعاليتهم ، ودفعهم الى احترام دعوة الاسلام العربية دون غيرها . فكان اهتمامه الأول ينصب على العناية بالناحية التقنية : فهو يريد ان يمتلك الكاتب في احد دواوين الخلافة القدرة على القيام بمهام وظيفته بنوع من التخصص الملائم . وقد استعين بمفهوم الأدب القديم في تسمية هذا التخصص ، مما يدل ، مثلما مر بنا ، على حدوث تغيير حاسم في الذهنيات . فلم يعد الأمر يتعلق بالبحث المطلق على طريقة الجاحظ ، بل بمعرفة تقنية نسبية ، تبرر ذاتها ، لا بذاتها ، بل بصلتها بموضوعها . وهذا التقييد مقصود، ولنا عودة اليه ، ويرتبط باهتمامات سياسية : فقد صنف كتاب أدب الكاتب(٢٦١) في عهد المتوكل ، في زمن « تقلصت فيه أعمال الدولة ، الخاضعة فعلا للادارة المركزية ، حتى اقتصرت على الولايات المتصلة مباشرة بالعراق(٢٦٢) » ، فصار لا بد ، بالتالي ، من مقاومة النزعات اللامركزية والأقليمية ، باسم السنة المنتصرة في بغداد ، وتذكير الناس بحقيقة امعنوا في نسيانها ، وهي « ان للعرب الحكمة وفصل الخطاب(٢٦٣)»

وهكذا يتضح لنا أولا لماذا يرتكز صرح هذا الأدب الجديد حصرا تقريبا على معرفة عميقة باللغة : فالعربية ، بما تنطوي عليه من قيم ، على المستويين السياسي والديني ، تستوفي تقريبا نطاق بحث كتاب أدب الكاتب.

أما الموضوعات النادرة ، كالهندسة التطبيقية ، ومبادىء الفقه ، التي تتخلله على أساس « ملحق(٢٦٤) » ، فتكمل قطعا صورة الكاتب المساح والفقيه(٢٦٥) ، لكنها تظل هامشية فيه . ويتوفر لنا اثبات قاطع على هذه الناحية في العودة الى ادخال الشعر فيه ، لا باعتباره حقلاً مفضلا لدراسة اللغة ، بل لأنه مصدر معارف متنوعة(٢٦٦) : فالشعر اعرق فنون العلوم العربية ، ومحور أدب الكاتب ، ويؤدي ما يرد فيه من معرفة ، مدونة نظما ، وراسخة في التقليد ، الى تعزيز حالة من الانفعالية الحدسية المباشرة عند القارىء أو السامع ، عوضا عن تقوية ملكة التفكير لديه .

وتتجلى أهمية الآلية المحركة السابقة بوضوح بالغ ، عندما نضع ابن قتيبة في الأطار العام لأدب الكاتب(٢٦٧) . وتتباعد فروق دقيقة بين المختصين في هذه المادة ، تنجم عما يعطونه من نصيب الى مزدوجتين من الميول المتعارضة : الغريب والعروبة من جهة ، والتخصص والمعرفة الشاملة من جهة ثانية . فعبد الله البغدادي(٢٦٨) يرى في الكاتب ممثلا ساميا لثقافة واسعة جدا ، فارسية الالهام في جوهرها ، وتتعدى اهتمامات الكاتب اليومية ، لتصبح مرجع الرجل الشريف . أما الجاحظ(٢٦٩) ، فينكر في البدء ، خلافا له ، على الحكام ادعاءهم الطرافة ، ويلح نقده اللاذع جدا على ما تجره التقاليد الفارسية على اللغة العربية والإسلام(٢٧٠) . بالتالي ، تبدي فكرة الجاحظ الحرص ذاته ، المشار اليه من قبل ، على التراث القومي : فاذا كان الرجل المثقف يستطيع ، حسب الدرس الملقى أصلا ، ان يوفق بين هذا التراث السليم ، وحتى النقي ، وبين المعارف المنقولة عن اليونان ، فان الكاتب نفسه يبقى خارج هذا النطاق. :

فهو جزء من السلطة العربية الإسلامية ، يجسد فيها ، على مستواه ، التقليد المقدس ، ولم يوضع في مكانه ليفكر ، بل ليطيع ، ولتكون طاعته عمياء(٢٧١) .

أما ابن قتيبة ، فيبدء في الظاهر مثل الجاحظ : فينتقد بألفاظ قريبة جدا من ألفاظ الجاحظ(٢٧٢) غرور الكتاب وقصورهم ومروقهم وعبثهم ، ويحدد لهم برنامجا دقيقا جدا . على ان وجه الشبه بالجاحظ ظاهري ، لأن الكاتب هنا ، وان كان مقيدا جدا ، ليس اخصائيا بكل ما في هذا اللفظ من معنى ، بل ممثل ثقافة اريد لها ان تبقى ضيقة جداً ، أو اذا أردنا ، ممثل نوع من هذه الثقافة في نطاق الادارة . ولم يستهل كتاب أدب الكاتب عبثا بنقد المعرفة الناقصة ، التي يمثل الكاتب نقيضها السعيد . في الواقع ، اذا تركنا جانبا معارف المساحة التقنية ، ليس الأدب المقصود سوى تطبيق لبرنامج اعم ، حدده كتاب عيون الأخبار وكتاب المعارف ، واقتصر فعلا على معرفة اللغة والتقليد(٢٧٣) .

قد يقال ان هذا التعريف العام يناقض التعريف السابق الذي جعل الأدب نهجا فعالا في نشاط معين . مع ذلك ، الا تخدعنا الألفاظ هنا ؟ لقد جرت العادة ان يذكر لفظ « تركيب » أو « انتقاء(٢٧٤) » في سياق الحديث عن هذه الثقافة العامة المزعومة الواردة في كتابي عيون الأخبار والمعارف . لكن أين تلك النظرات الواسعة اذا قورنت بنظرات البغدادي أو الجاحظ ؟ يؤول انتقاء ابن قتيبة في الواقع الى تحديد أضيق ثقافة ممكنة في جميع الحالات ، ويصبح منهجه مناقضا تماما لمنهج الجاحظ : فهو ينزع الى تحديد ثقافة متوسطة ، وبالتالي ضيقة ، استنادا الى تطبيقاتها المحتملة بالدرجة الأولى ، عوضا عن ان يفتش ، منذ البدء ، عن

التركيب الصحيح — حتّى لو كان في نطاق عربي اسلامي ثابت — وان يطرح مبدأ تعارض ممارسة المهنة مع هذه الرؤية الواسعة ، كما هي الحال بالنسبة الى الكاتب . وهكذا تصبح ميزة التخصص ، التي يبدو ان الأدب يتصف بها هنا وهناك ، ليست سوى تقليص الثقافة ، وجعلها قواعد تنطبق على جميع الحالات .

اذن ينحصر أساس النجاح في الكلام القويم الصحيح وفي احترام الدين والتقليد العربيين ، بالنسبة الى الناشيء والنديم والصديق والوزير(٢٧٥) والشاعر أيضا(٢٧٦) . وسوف يقال لنا حتما بأن فارس أدرجت مجددا في هذا « التركيب » ، وحتى اليونان ذاتها : لكن هل يمكن اعتبار ظهور هذه الأخيرة المتردد وجودا حقيقيا ، وهو الذي يحدث شواذا ، ويبدو وكأنه يغفل أصوله ، أو عندما يصرح بها ، يثبت أنها انتقلت الينا ، لا بالاتصال المباشر بالمصنفات ، بل بالخبر الشفهي الذي يبقى عربيا في جوهره(٢٧٧) . وتعامل فارس معاملة مفضلة من الناحية الكمية ، إلا ان الذهنية تظل على حالها : فماذا سجل ابن قتيبة من تراثه ، وهو الفارسي الأصل ؟ شيئا من التاريخ ، وشيئا من الأدب الشعبي . فبالنسبة الى التاريخ ، اقصد ان فارس ، شأنها شأن الأمم الاخرى لا تدخل ابدا من أجل ذاتها ، بل في نطاق دقيق جدا من ظهور الاسلام . ولابأس في هذه الظاهرة حتى الآن ، لأن وجهة النظر هذه ، المألوفة لدى المؤرخ العربي ، لا تمنعه ان يفرد ، حتى في هذا الإطار ، مكانا هاما لدراسة الأمم الأجنبية . ويؤدي اجراء المقارنة بين المسعودي واليعقوبي من جهة ، وبين ابن قتيبة من جهة اخرى ، الى توضيح تلك الناحية(٢٧٨) ، اذ تبين لنا ان الحدث الفارسي يلعب دورا شبه معلوم

في كتاب المعارف . أما كتاب عيون لأخبار ، فلا يأتي على ذكره إلا في علاقته بالأخلاق العربية الأسلامية ، موضوع المصنف(٢٧٩) الأساسي الوحيد . والواقع اننا نلاقي هنا معالجة التاريخ بالأدب الشعبي ، اذ ان الغاية ترمي الى ادماج الحكمة التقليدية لدى الأمم في نطاق الديانة الجديدة . مع ذلك ، لا بد من الاشارة الى ان الحكم والأمثال المنسوبة الى فارس (٢٨٠) ، لا يمكن ان يضاهي عددها الكمية الهائلة من الأشعار والفولكلور والأخبار العربية ، التي تبقى المصادر الأساسية(٢٨١) الى حد بعيد جدا .

وترمي محاولة ابن قتيبة الى تكوين رجل العصر الشريف ، بل المسلم الصالح ، فاستحق ثناء السنة ، واعتبر حامل لوائها ، مثلما كان الجاحظ حامل لواء المعتزلة(٢٨٢) . وتحدد هذه الصيغة ذهنية هذه المعرفة ومناهجها معا وتلخصها ، اضافة الى ايضاح موقف ابن قتيبة من فارس واليونان والجاحظ . وقد اعطى ابن قتيبة المسلمين ثبتا بما يجب عليهم اكتسابه من المعارف ، فآثروا الموسوعة على البحث ، واختاروا تسجيل الماضي دون المجهول ، وعقلنوا وصنفوا وشرعوا تقريبا : فهل جاء كشف الستار ، أثناء اسداله على حقل المعرفة — لعله واسع لكنه مغلق بعد الآن — عن حقل التشريع والفقه ، القريب ، وليد الصدفة(٢٨٣) ؟ . وهكذا اتجه تكوين الذهن نحو نوع من المعرفة « موحى به » ، يعتبر ، على المستوى الدنيوي ، نظير المعرفة الدينية وثمرتها في الجانب الأعظم منه أصلا . بالتالي ، اقلعت الثقافة عن مستوى التفكير ، وانتقلت الى الجدل ، وأصبحت الوسائل مدرسية(٢٨٤) : فلم يعد الشعر والحكم والأخبار والنوادر والأنساب(٢٨٥) ، مفاتيح

المعرفة فقط ، بل تحولت جميعها ، باشراك الذاكرة والتقليد واللاارادية نحو طرق جديدة نزعت فيها آلية التعبير الى احتلال مكان متزايد الأهمية على حساب الفكر (٢٨٦) .

وعلى غرار ما يتحتم على الشعر ان يتقيد به من أحكام قديمة ، أو أن يرجع اليها ، سوف يكتفي فكر المحدثين ، هو أيضا ، بالمعارف الموجودة قبله ، على ان يعاد دمج الإسهام الأجنبي ، المقتصر على الحد الأدنى ، في نظام معارف ، إلهامُهُ عربي اسلامي ، اعتبر وحده العلم الظاهر للعيان ، الصادق عند الامتحان(٢٨٧) . وهكذا يمثل ابن قتيبة فترة حاسمة من تاريخ مفهوم الأدب ، فيكثفه ويجمده في مظاهرة الثلاثة . واذا كان الجاحظ ، كما مربنا ، اجرى دمجا ، بين الأدب الأخلاقي وأدب البحث ، فابن قتيبة وسم هذه الثقافة بطابع عربي واضح ، وأعلن انغلاقها بعد الآن في وجه الاستقصاءات المستقبلة ، فثبتها في صيغة شبه مقدسة ، سوف تحتفظ بها عند كثيرين ممن جاؤوا بعده : نعني صيغة الأدب المرجع الذي يستنير من التقليد الأسلامي الديني أو الدنيوي . فمبدأ « كل شيء قد قيل ، ونحن جئنا متأخرين » ، لا يتضمن معنى اليأس ، بل معنى الانتصار .

وذهب الجاحظ وما يمثله من ذهنية ، ضحية هذا الاجراء طبعا ، . وتشير طريقة تهجم ابن قتيبة على خصمه الى احتدام الصراع بشدة . فاحيانا ، يدور ابن قتيبة حول العقبة ، ويقتبس عن الرجل العظيم . لكنه يحمل لواء غير لوائه : فعندما يعلن(٢٨٩) ان « الله لم يخص لا العلم ولا الشعر ولا الفصاحة بعصر دون سواه» ، وانه لم يهب منها شعبا دون آخر » ، بل « قسم جميع ذلك على جميع عبادة ، في جميع العصور»..،

كرر حديثا مألوفا عند الجاحظ (٢٩٠) ، إلا انه يعكس معناه ومرماه بالمي والانساني ، ليسمح بمهاجمة الأجنبي أيا كان ، على أساس ان برب لا يجدون شيئا يحسدون « البرابرة » عليه ، وليبرز العرب ، مثلما ل في مكان آخر (٢٩١) ، كأصحاب « الحكمة وفصل الخطاب» حدهم . وكان في بعض الأحيان يفضل الهجوم عليه وجها لوجه : يتوخى عندئذ القضاء على المستمعين اليه ، ويتمسك بمظاهر الرجل خارجية ، فيفضح عقائده المفسدة ، وواضعها المبتذل (٢٩٢) .

بقي ان نشرح لماذا استطاعت أسطورة الجاحظ المهرج ان تنتشر ثل تلك السرعة . فذوق الجمهور لا يعلل كل شيء ، ولا بد ان ضيف الى الأسباب المستند اليها (٢٩٣) عادة ، أسبابا اخرى ترتبط لظروف التاريخية التي احاطت بمصنفاته . فقد استطاع ابن قتيبة ان رض نفسه رجلا رصينا حيال بهلوان كاريكاتوري ، شارك هو بنشر ذه الصورة عنه ، لأنه جابه ، في واقع الأحداث ، قلق البحث جاحظي وحيرته ، ببناء فكري منظم تماما ، يلائم جزع الوجدان سلم الذي أضاع رشده ازاء اماثر الاخفاق الدنيوي ومشهد التشتت روحي : ففي مثل هذه الظروف ، اتضحت أهمية وعظمة مصنفات ن قتيبة التي تتضمن برنامجا دينيا وسياسيا وأخلاقيا وثقافيا . ولا ترجع ذه العظمة مثلما يعتقد تقليد راسخ جدا ، الى تشددها في اتساع المعرفة ، ، الى ما يخالف الاتساع تقريبا من بناء فكري يتضمن معنى التآزر الاكراه ، الذي يحتجز فيه ابن قتيبة الانسان الجديد .

اذن يمكن ان تعالج قضية الثقافة وجمهورها ، المثارة في مطلع هذا عمل ، بحدين اثنين : فالجاحظ المعنى بحقوق العقل ، يطرح ضرورة

البحث بحد ذاته ، ويراعي مقتضيات الاسلام في حين تلح فكرة ابن قتيبة المناضلة ، بحرصها التشديد على التطبيق العملي ، على تضارب هذه الضرورات مع حرية البحث . ويوفق الجاحظ بين معرفة اليونان العقلانية وبين التراث الروحي في الاسلام . ويقلل من تأثير فارس ، بينما يدرج ابن قتيبة هذا التقليد في نظام يدور حول رسالة الاسلام ، ويترك خارجه نظريات « الفلاسفة » ، أي اليونان . واذا كان كلاهما يختار في النهاية المعرفة غير المتخصصة ،وبالتالي الجمهور الواسع جهد المستطاع ، فان « الاتساع » يختلف معناه عندهما : فابن قتيبة يريد ان يوحد المعارف والذهنيات ، وينشر صورة مثالية عن المسلم الصالح ، لا بد لها ان تكون صورة أكثر المسلمين ، أما محاولة الجاحظ ، فتطرح قبليا في اطار اعتزاله ، ان لدى كل انسان وسائل بحث ، لامتلاكه قدرة التفكير ، لكنها تعتبر ان البحث شاق(٢٩٤) ، وان للمعرفة ، كالمال أو النبالة ، نخبتها(٢٩٥) . لذلك يقابل في النهاية ، تحت قاسم الثقافة العامة غير المتخصصة المشترك ، بين مفهومي معرفة متباينين جوهريا : معرفة مغلقة ، خصت سلفا بجمهور معين ، ومعرفة منفتحة ، يتحدد جمهورها بموهبته قبل أي شيء آخر .

ابن قتيبة والجغرافية

ستخضع الجغرافية مثلما سوف نرى للاتجاهين السابقين ، وسيلعب ابن قتيبة كالجاحظ ، سواء بسواء ، دوراً أساسياً في ظهور النمط الجديد . فقد عاصر ، هو أيضا ، ظهور المصنفات الجغرافية الأولى المعروفة(٢٩٦) فتأثرت به مباشرة الموضوعات المتنوعة والمناهج أو الطرق التي تطورت فورا تقريبا : فعندما يعطي ابن رسته مثلا ، في ختام كتاب الأعلاق

النفيسة ، المكتوب بين أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي والقرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، أي بعد عشرين سنة من وفاة ابن قتيبة ، لوائح المشهورين بصفة من الصفات ، فهو يستلهم مباشرة من كتاب المعارف(٢٩٧) ، ولا سيما من روح التصنيف التي ادخلت في الآداب الطبقات الموروثة ، عبر التاريخ ، عن العلم وعن الحديث(٢٩٨) ، ويرى أيضا تأديب الموضوعات ، المتروكة حتى الآن للمختصين في علم التنجيم والفقه ، وان كان على نطاق أضيق . فيعطي التنجيم ، في كتاب الانواء(٢٩٩) ، الجمهور العريض لائحة أساسية بالمعارف العربية(٣٠٠) العائدة الى هذه المادة ، ويخفف فيه جفاف التعداد التقني باستشهادات وشروح أبيات الشعر والأمثال . على ان مثال الفقه أكثر اقناعا . فموضوع كموضوع الأمصار (المدن الكبرى والحواضر) ، مثلا ، موضوع شرعي في البدء من جوانب عديدة : فالمقصود منه معرفة المدن التي يوجد فيها حكم اقامته السلطات العليا ، وتطبق فيه الحدود(٣٠١) . لكن سرعان ما طغى على هذا المفهوم الشرعي في حاضرتي البصرة والكوفة ، عرف أدبي قوي بشكل أخبار وموازنة بين المفاخر والمثالب(٣٠٢) . وهكذا حصل ، بالنسبة الى مفهوم تقني كمفهوم المصر ، من خلال مثالين مختارين ، تأديب سوف يتطور بالنسبة الى مجمل الأمصار الاخرى عند جغرافيي المستقبل(٣٠٣) .

ولم يتحقق تأقلم هذه الموضوعات بفضل ابن قتيبة وحده قطعا ، بل على العكس ، اشترك به ، بروح عصره كالجاحظ تماما(٣٠٤) . ويطبق هذان المؤلفان ما ورثاه من عادات عصرهما على المعطيات ، بذهنية متغايرة كليا . فعند الجاحظ ، لا يستبعد التأديب الأساليب

الاخرى ، ويظل طريقة كتابة ، ولا يؤثر مباشرة على موضوعات البحث. أما عند ابن قتيبة ، فالتأديب أكثر من طريقة كتابة : فهو المصنف ذاته تقريبا ، لشدة ما له من أثر على محاولة تتجه كليا نحو التدوين التعليمي لعالم مغلق . وسوف يؤلف هذا التأديب ، مع ما يتضمنه من موضوعات — بما فيها موضوعات الجاحظ التي يعزلها عن نصها ، ويعطيها خاما ، وهي معرفة أيضا بحد ذاتها — جوهر تيار جغرافية عربية هامة جدا : يتجسد في ابن قتيبة بنوع خاص ، الممثل الفذ في هذا الفن لهذا « الأدب القومي(٣٠٥) » الذي ينفرد بانتظام بتكرار موضوعات أدب تسجل الآن ، وتعرب على نطاق واسع : فهذه النزعة ناشطة ، وكاسحة أحياناً ، وستظل قائمة على أي حال طيلة هذه الفترة الأولى من الجغرافية العربية(٣٠٦) ، إما وحدها ، أو مقرونة باهتمامات أكثر واقعية أو تقنية ، في نمط المسالك والممالك .

* * *

الفصل الثالث

الاهتمامات التقنية

علم الخرائط في صورة الأرض وتطوره

الأدب الإداري وتطوره - التحقيقات التجارية

نشأ علم خرائط صورة الأرض من علم الفلك التطبيقي ، كما أبنا في الفصل الأول(٣٠٧) . وتوسع بسرعة كبيرة ، بعد ان أدرج بعض ابحاث فيزياء الأرض ودراسة الوسط في عنصريه الأساسيين علم قياس الأرض والتنجيم . وسوف يؤدي توسعه الى احداث جغرافية بشرية خاصة . لكن يبدو الاستقصاء المباشر فيه عسيرا بعض الشيء . مع ذلك ، يتسنى فهمه ، اذا طبق الباحث فيه ، هنا أيضا ، قرينة تفريق تميزه عن بعض العلوم التي تعتبر مماثلة له لأول وهلة . فصورة الأرض تختلف ، بمستواها التقني الضعيف ، عن علم الهيئة أو عن علم قياس الأرض الذي جاءت منه ، وتمثل نوعا من تيسير المعطيات التقنية ، أو قل ، انتقالا من المصنف المختص الى كتاب الأدب . ويهتم بهذا الانتقال نمط الجغرافية الادارية القريب الشبه بالصورة ، والخاص بالكتاب(٣٠٨) . وبقيت التقنية على حالها تقريبا في علم خرائط صورة الأرض الموسع ، الذي احتفظ مدة طويلة باصالته المرتبطة بقرائه

وبالمعارف التي يحتاجونها وخصت معطيات هذا العلم بالعقول النيرة الميالة الى الاطلاع ، فانفرد في عرضه وتقسيمه وحتى في طبيعته ، بسمة من خلو الغرض والتنويع الاصطفائي ، جعلته يتمايز عن اهتمامات الكتاب الضيقة جدا .

وقد جمعت معطيات صورة الأرض المنوه بها منذ بدايتها ، المذاهب اليونانية والهندية الفارسية والعربية . ويعتمد المذهب اليوناني على الخط والرقم والانسان ، مع مارينوس الصوري وبطلميوس . وجغرافيته خطية ، احدثت الأقاليم(٣٠٩) ، ومثلت كرة الأرض تمثيلا حدد الأمكنة بدرجات عرضها وطولها وارتفاعها(٣١٠) . وتكتمل صورة الأرض الحاصلة على هذا المنوال ، بذكر أرقام أساسية تتعلق بالكرة : كأبعاد البر والبحار ، وسكان الأرض وعدد الجزر(٣١١) . وترتسم فيها صورة الانسان ، أو بالاحرى مشهده ، في مجموعة الأرقام السابقة عن الخليقة : ومهما كان تعداد الأسماء البطلميوسي جافا ، فهو لا يضعف تمسكه حصراً بأرض البشر ، أي المعمورة ، لا بالأرض كعنصر في النظام الفلكي أو الطبيعي . ونشير على وجه التخصيص الى ان هذا التعداد مهد الطريق لنوعين من الأبحاث ، أو أيضا لطريقتين في دراسة البشر في وسطهم : هما طريقة « وصف البلدان » أو دراسة البلدان الفردية (نقول الآن : دراسة أحادية) ، والجغرافية ، أو دراسة الأرض العامة(٣١٢) . ويحتل البشر حيزهم في النهجين . فتدون أماكن وجودهم تدوينا على الأرض المرسومة ، حسب انتشار تجمعاتهم وشعوبهم على سطحها الحقيقي . وبذا يبدأ ظهور نوع من الجغرافية البشرية ، يقتصر على معطى مرسوم في أساسه ، ويحددموقع البشر(٣١٣) قبل ان يصفهم .

وسبق المذهب الهندي الفارسي المذهب اليوناني(٣١٤) ، وتلقاه ، فلعب حتما دوراً حاسماً في توطين المواضيع اليونانية ، التي لولاه لبقيت ، فيما نظن ، في مصنفات الاخصائيين على غرار مواضيع الهيئة النظرية الصرفة . بالفعل ، اعدت فارس لهذه المواضيع الجديدة اطاراً جاهزاً تماما وجمهوراً ، وعبقريتها(٣١٥) الخاصة التي لا تفصل التأمل في العالم عن التأمل في الانسان . وعارض العالم الهندي الفارسي بناء الكون الرياضي ببناء آخر يعبر فيه دوران الأفلاك تعبيراً نجميا عن ازدواجية الكائن الدينامية ، وتنازع الخير والشر له ، وكذلك النور والظلام(٣١٦). ويتناقض أيضا تمثيل بطلميوس للأرض تمثيلا خطياً وهندسياً مع عرف رسم ، تنال فيه حيوانات دنيا البشر وأشياؤها النصيب الأساسي(٣١٧) . أخيراً وعلى وجه التخصيص ، يخالف تقسيم الكشورات الجغرافي السياسي الذي سوف يلعب دوراً رئيساً في الجغرافية العربية ، مفهوم الأقاليم الجيوديزي : فقد ظهرت النزعة الانسانية في الجغرافية ، بالمعنى الصحيح ، لأن الكشورات عكست عناصر تمثيل المعمورة . ففي حين طرح اليونان منذ البداية توزيع « الأقاليم » توزيعا رياضيا ، تحتل فيه المجموعات البشرية الكبرى مكانا خاصا بها ، افترضت فارس سلفا ، وتمتلك هي أيضاً بناء رياضيا للعالم ، ان هذا النظام يراعي قبل أي شيء آخر ، التوزيع النجمي لتلك المجموعات حول الكشوار المركزي ، أي كشوار فارس والعراق(٣١٨) . فجعلت الانسان محور العالم بموقعه وخصائصه وأجناسه . في الوقت ذاته ، وفي نطاق التعبير ، أدى هذا المفهوم الى الانتقال من نماذج رياضية محضة الى نماذج اقرب الى الأدب ، وذاب نمط التعداد الحسابي بالدرجات ، أو حتّى تلاشى في عرض الأرض عرضا منمقا وحيا ، تسود فيه في هذه المرة مواضيع

مفصلة تتناول ملوك العالم ، أو المدن الكبرى في الخليقة ، أو ميزات الشعوب الأساسية(٣١٩) . وجملة القول ان نمط صورة الأرض يحمل في طياته بشيء من الأبهام ، أصول الجغرافية البشرية وأصول التعبير الأدبي عنها .

واذا نظرنا الى ما استعرضناه من التراث العربي ، وجدنا انه يأتي بنوعين من المعطيات ، أو بالاحرى ، بطريقتين لتسخير الأطر ، المنقولة عن اليونان وفارس ، لاغراض عربية . فقد أدرجت في تعداد الأقاليم ، أشهر أسماء أماكن جزيرة العرب ، المحفوظة في التراث الشعري والمعجمي(٣٢٠) . واستبدل التوزيع النجمي للمعمورة ، الذي خرج من فارس ، وفرض في بعض الحالات انزلاق طفيف ، نقل قلب المعمورة من أنحاء ميدية القديمة الى المدن المقدسة في الجزيرة العربية . ويدل استهلال استعراض الأرض ، بذكر مكة والمدينة(٣٢١) ، كما هي الحال عند ابن رسته وابن الفقيه والمقدسي وكثيرين غيرهم(٣٢٢) ، على ادخال ظاهرة بشرية جديدة في علم خرائط صورة الأرض ، ليست ظاهرة الجغرافية السياسية ، كما في الكشوارات ، بل ظاهرة الايمان . وعلى هذا النحو ، تحولت جغرافية الأرض الى جغرافية اسلامية ، وعارضت قطبي كوكب الأرض الشمالي والجنوبي التقليديين ، بقطب جديد ، خاص بالأرض المسكونة (٣٢٣) .

وكانت حصيلة هذا العمل صورة أرض مترددة ، ومعقدة وفوضوية الى أقصى حد . وجمع المؤلفون في مصنفاتهم كافة المواضيع ، بدافع من تحقيق رغبة العصر في الحصول على علم شامل ، ومراعاة لاتجاهات الأسلام التمثلية والتأليفية ، ولمقاومة التقليد السابقة . فهم يريدون توطيد

أقدامهم في جميع المجالات ، فيقدمون الأرض الكلية مثل علماء الهيئة ، ويوفون وصف الأرض حقه كالجغرافيين ، ويتحدثون عن البشرية جمعاء بتعمق بنوع خاص في ميدان الاسلام على نحو ما يدعو اليه الايمان الجديد ، ويرسمون الأرض حسب التقسيم التربيعي على طريقة اليونان ، ويوزعونها حول مركز معين وفق المذهب المأخوذ عن الشرق ، ويعززون مركز جزيرة العرب الوسطى ، لكن دون تضحية شيء من المواضيع القديمة ، التي حددت هذا المركز في بابل وفارس ، ان لم يكن في القدس أو سيلان(٣٢٤) ولا ريب ان غموض المعطيات ذاتها ، والتأديب الناجم عنها ، مسؤولان الى حد كبير عن تدهور المفاهيم الرياضية(٣٢٥) التدريجي . وفي رأينا انهم سهلوا تفجير صورة الأرض ، واندماج مواضيعها في مجموعات أوسع ، ويبدو أصلا ان هذا الانزلاق حصل لأول مرة في أوساط لم تنصرف كليا الى البحث الرياضي .

مدرسة الكندي وتطورات صورة الأرض : السرخسي ، ابن سرابيون ، البلخي

وضع منجمو أبحاث بيت الحكمة في عهد المأمون (٨١٣ – ٨٣٣ م) أطلسا ، اعتبر أشهر مصوّر مثّل الأرض . وأصبح شبه مؤكد أيضاً ان هذه الصورة المأمونية اعتمدت اعتماداً أساسياً على معطيات مارينوس وبطلميوس . وتكامل اخراجها على هذا الوجه ، بتضمين المصور اسماء أماكن أخذت من التراث العربي الاسلامي : بهذا المعنى ، ينبغي ان نفهم ما ذهب اليه المسعودي(٣٢٦) من ان الصورة الجديدة أحسن مما تقدمها من صور المعلمين اليونان ، لأنها تكيفت مع المقتضيات

المستجدة(٣٢٧) . وفي الوقت ذاته ، قامت مصنفات تقنية ، أشهرها ، وأقدمها أيضاً ، فيما يبدو ، كتاب صورة الأرض (٣٢٨) ، لمحمد بن موسى الخوارزمي ، بعرض نظرية علم الخرائط ، بعد انجازها على النحو المنوه به . إلا ان مصنف الخوارزمي ، على ما فيه من تقنية ، افسح المجال ، ولو عرضا لاقحام المواضيع الأدبية فيه(٣٢٩) . فنحن نعلم ، ونستشهد بالمسعودي(٣٣٠) ، ان الخوارزمي عني بالتاريخ. مع ذلك ظل طابع العالم ، العالي التخصص ، ميزته البارزة . فاشتهر بالجبر والهيئة . ولا شك انه لم ير في اشتراكه في وضع الصورة المأمونية إلا امتدادا لبحث أساسي آخر . بالتالي ، ما دامت المواضيع المعالجة في الأدب ، شرعت في تلك الفينة ، تنال قسطا ، ولو على نطاق محدود جداً ، من اهتمام عالم أصيل عاصر ظهور نمط صورة الأرض ، يحق لنا ان نتصور ان علم الخرائط مقدم مع الزمن على مزيد من التوسع الاضافي عند مصنفين ميالين الى مزيد من الاصطفاء ، ونزاعين الى مزيد من التصدي الى الأدب والعلم معا .

ويذكر المسعودي (٣٣١) الخلاف القائم بشأن تقدير أبعاد المعمورة ، بين أصحاب الزيجات وبين تلامذة الكندي . وأشهر هؤلاء أحمد بن الطيب السرخسي ، الذي يستشهد المسعودي به كثيراً دون سواه . فما هي هذه الاهتمامات الخاصة التي تنفرد بها مدرسة الكندي ؟ ان الكندي ذاته معلم نافذ الكلام جداً وفريد عصره . ويفترض به ، لنسبه العربي ، ان يكون ضليعا باعراف الجزيرة العربية . وقد ولد بالكوفة ، ونشأ في البصرة ، وتعلم في بغداد ، فتمرس على العلم اليوناني أيضا(٣٣٢) واتسم انتاجه بطابع تربيته : فضم مصنفات موسيقى وفلك أو تنجيم ،

وهندسة وطب ، وخصوصا ضوء ، وانواء وفلسفة(٣٣٣) . لكنه كتب أيضا(٣٣٤) مصنفين يتصلان بالعلوم الجغرافية : أحدهما رسالة في البحار والمد والجزر ، والآخر – استلهمه من بطلميوس(٣٣٥) مباشرة – في رسم المعمور من الأرض . وعلى الرغم من ضياع هذين المصنفين(٣٣٦) ، فان شهادة المسعودي تكفي لوصف ميزتيهما الأساسيتين ، نعني ، مثلما سوف نرى بعد قليل ، ادخال البينة الشخصية ، وتعريب المعطيات .

وقد يقال ان الكندي ، المتوفى بعد عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م ، ينسجم مع ذهنية عصره ، الحريص على تجريب معطيات علم قياس الأرض(٣٣٧) على الأرض ، وعلى ادخال أسماء الأماكن العربية في المضمون المأخوذ عن صورة الأرض . على ان أصالة الكندي ، بقدر ما نستطيع الحكم عليها ، تكمن ، فيما يبدو ، في التمسك بالتجريب وتطبيقه على المنطوق العربي ذاته ، أو على الأصح ، في تحويل التجريب الى شعار عند تعريب المعطيات المنقولة عن اليونان . وأود ان أوضح فكرتي بمثال : يمتد « البحر الحبشي » حتى الشرق الأقصى ، ويخرج معظمه عن نطاق مياه العالم العربي ، فلا يتردد الكندي ومدرسته بقبول أرقام بطلميوس(٣٣٨) بشأنه . على النقيض ، يعتبر البحر الرومي ، في سواحله الجنوبية في أضعف الاحتمالات ، عربيا ، فيبادر الكندي الى تصحيح أرقام التراث اليوناني . ونقول مرة اخرى(٣٣٩) لا تهمنا النتيجة بقدر ما تهمنا الذهنية التي تحفز النهج الفكري : فتصحيح الأرقام الموروثة عن اليونان أو عن منظرين ينتمون اليهم ، لا يمكن ان يتم ، فيما يبدو ، إلا باسم التجربة المباشرة . ولا تستطيع هذه التجربة بدورها ، في هذه

الحالة ، ان تعتد إلا بالرغبة بمعارضة معطيات الأجنبي النظرية ومقابلتها بشهادة شاغل الأماكن ومالكها(٣٤٠) . فالتصحيح المشار اليه دليل حيازة وتملك ، باسم المجتمع الجديد . وهنا تتضح معالم مفهوم الامبراطورية أي مفهوم مملكة الاسلام ، التي تعتبر هي الشيء المملوك والمحتاز بذاته : ولا نرى بأسا في توسع هذا المفهوم في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي(٣٤١) بنوع خاص ، بعد ان عززته الجغرافية الادارية ، مثلما سوف نرى قريبا . فقد ظهرت أصوله منذ الآن في تقدم نمط صورة الأرض التي لم تكتف بادماج المواضيع العربية بمواضيع عالم العصور القديمة التقليدي ، بل أخذت هذا العالم القديم على عاتقها ، وتملكته ، واعترفت به .

اذن ، تم اضفاء الطابع الانساني على جغرافية بطلميوس عن طريق استبطان المعطى العلمي اليوناني في البدء . ونزعت دراسة المعمورة الى الالتزام بشعور الحرص على امتلاك الجانب الأعظم منها ، الذي يؤول الى الإسلام « بقسمة » من لدن الله(٣٤٢) . فترتب عليها طبعا استكشاف أرض الإسلام هذه ، ودراستها دراسة تطبيقية وطريفة ، كادت تصل الى حد الولع بها : فهل شاءت الصدف ، في هذه الحالة ، ان يعود الى السرخسي ، أحد تلامذة الكندي ، فضل التطرق الى موضوع المسالك والممالك في احدى الاشارات الأولى اليه ، بما يدل عليه من رغبة برسم خريطة دار الاسلام ، في نطاق المعمورة ، بمسالكها ، وأراضيها الممتلكة باسم الاسلام (الممالك)(٣٤٣) ؟ أجل ، أطلق الأسم ذاته على كتاب ابن خرداذبه ، معاصر السرخسي ، وممثل الجغرافية الادارية . لكن يبدو لنا ان الرغبة بوصف امبراطورية الاسلام ، أي

مملكة الاسلام ، كان يمكن ان تنشأ من اتجاه آخر ، بعيد عن اهتمامات الكتاب الشخصية : نقصد النزعة ، النابعة من شتى العلوم ، العربية أو الأجنبية ، التي يعنى بها المتأدبون والفلاسفة(٣٤٤) ، الذين جمعت مصنفاتهم التراث التقني لأطلس عالم اليونان ، ودققت به بمعنى اسلامي .

ويعتبر السرخسي ، المتوفى عام ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م ، على وجه العموم ، لسان حال الكندي(٣٤٥) ووريثه . لكن لم يصل الى الخلف من انتاجه إلا سلسلة من العناوين(٣٤٦) ، تتوزع على العلوم التطبيقية(٣٤٧) والتجريبية . فقد عالج في العلوم التجريبية « منفعة البحار والجبال والأنهار(٣٤٨) » ، وكرر في هذا الموضوع آراء معلمه(٣٤٩) الكندي . إلا ان الذهنية السائدة في عرض المعطيات أهم الى حد بعيد جدا : ففي كتاب المسالك والممالك ، ينفتح السرخسي في صورة الأرض على العلوم الاخرى ، ويحرز بهذا النهج تقدماً حاسماً اذا ما قورن بعمل الكندي(٣٥٠) . وفي أضعف الاحتمالات ، نمتلك اثباتا واحدا واضحاً جداً(٣٥١) على صحة هذا الحدث . فعندما تحدث المسعودي عن مصنف المسالك والممالك ، وصفه بانه كتاب(٣٥٢(« في المسالك والممالك والبحار والأنهار وأخبار البلدان وغيرها » : يتضح اذن جيدا ، على الرغم من ضآلة وثائقنا ، أننا هنا أمام قرينة تدل على اضفاء سمة انسانية تدريجية على نمط صورة الأرض ، وعلى تطوره نحو تأليفية يدمغها الأدب بطابعه ، ونحو عرض يحرص حرصا شديداً على ادماج تقديم الانسان المرتبط بأوساطه وماضيه ، في عرض الأرض ببياناته المرقومة ، وضعف كلامه القاطع ، وتأديبه المفرط .

ويستوحي نهج ابن سرابيون والبلخي من الذهنية ذاتها ، بطرق متباينة . فابن سرابيون(٣٥٣) يستهدف وصف الأرض(٣٥٤) وصفاً كلاسيكياً في كتابه عجائب الأقاليم السبعة ، لكنه يدخل في صورتها تجديدين اثنين ــ اذا صرفنا النظر هنا عن بعض الاستطرادات الأدبية(٣٥٥). فقد علق على هامش جداول العروض والأطوال ، شرحاً جاء نصه ضعيفا وعلى وتيرة واحدة(٣٥٦) ، يمثل بلا شك وضع المعطيات الحسابية في صيغة أدبية . وتتجلى عنده أحياناً عناية خاصة بمشهد معين ، يبرز في سياق تدوينات أدق ، كجبال سورية وفلسطين ، ودلتا النيل ، ولا سيما ريف جزيرة العراق ، الذي تخترقه أنهار وأقنية ، يدخل ذكرها بلا ريب في صلب موضوع المصنف(٣٥٧) . أقول جيداً ذكرها ، لأن العرض يتجاوز مراراً عديدة الإطار التخطيطي لجريان الماء ، لينصب على الأشياء المشاهدة ، وعلى الملاحظة المباشرة ، أي العيان ، الذي يبدو على هذا النحو لأول مرة ، مع ما يحيط به من مناخ شعري ، في صورة أرض يجددها . فلم يعد النهر ، كالجبال أو الجزر ، ذريعة لتدوين الإحداثيات على الخريطة ، بل أصبح العنصر الأول في مشهد يحصل منه على معناه ، وصار اتباع مجراه يوصل الى القرى والجسور والمراكب والمزروعات ، والى جميع ما يجعل العالم حيا(٣٥٨) .

وأبو زيد البلخي (نحو ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م ــ ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) مؤلف عظيم الشأن في تاريخ تطور الجغرافية البشرية ، لأننا نعلم ، بعد ان قام دي خويه(٣٥٩) بأعماله ، ان كتابه « صور الأقاليم الأسلامية (٣٦٠) » مرجع مصنفات الاصطخري وابن حوقل ، وهما وجهان مشرقان في جغرافية المسالك والممالك البشرية ، كما سوف تظهر في

صيغتها النهائية في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . ويمثل البلخي نفسه مرحلة حاسمة في تطور صورة الأرض ، أي نهاية الاتجاهين الأساسيين المشار اليهما من قبل . فهو يمتلك ذهنا دقيقاً يميل بفطرته الى التعميم الميسر(٣٦١) ، وينهج مع ذلك نهج ابن سرابيون في الاصقاع التي يعرفها ، إلا انه يركز في المصنف على خراسان عوضاً عن العراق ، وكان قد شغل فيها منصب كاتب في خدمة السلالة السامانية(٣٦٢) . ويعترف له المقدسي مرارا عديدة بصراحة(٣٦٣) باتقان وصف خراسان ، وخصوصا وصف تنظيمها الاداري والمالي(٣٦٤) ، وهذه ظاهرة سنعود اليها .

وتطورت صورة الأرض تطوراً آخر ، لعله أهم من تطورها السابق ، عندما برز فيها نهائيا مفهوم المملكة ، التي يعالجها البلخي بروح مدرسة الكندي بعد ان انتسب اليها(٣٦٥) ردحاً من الزمن . وبلغت الصورة المأمونية هنا نهاية تطورها ، باسم ما عرضناه من قبل(٣٦٦) من مبدأ تكيفها مع مقتضيات دار الإسلام الجديدة . وظل تمييز الأقاليم البطلميوسي القديم حيا ، لكنه حصر في مدخل المصنف(٣٦٧) ، أو في خرائط عالمية تقليدية(٣٦٨) ، تزايدت صعوبة فهمها(٣٦٩) . وحل محل هذه الأقاليم مفهوم مملكة الاسلام ، التي انطلقت من مركزها ، وملأتها تدريجيا ، ودفع توسعها الأقاليم البطلميوسية نحو الأطراف (٣٧٠) فاستحدث توزيعا جديداً للاقاليم . وكان البلخي أول من تخلى عن أقاليم بطلميوس السبعة الموزعة على العروض ، وأخذ بتقسيم دار الأسلام الى عشرين جزءا . واذا صدف وأطلق عليها اسم أقليم ، جاء مدلول هذا اللفظ مغايرا لمعناه الأصلي ، وقصد به كيانات أرضية اسلامية(٣٧١) ،

أي كيانات غير نظرية ، موجودة فعلا ، يعيشها الناس تقريبا ، أو قل ، يتحسسونها ، ويطرح استعمالها قضية ظهور مؤثرات جديدة تفعل فعلها في نمط صورة الأرض .

ولعل الرقم عشرين جزءا يكفي وحده ليبرهن ان هذا التقسيم لا صلة له بالأقاليم اليونانية ، ولا بالكشوارات الفارسية ، وعددها في الحالتين سبعة(٣٧٢) . والواقع ان ذهنية فارس تغلبت قطعا بأشكال مختلفة على ذهنية اليونان(٣٧٣) ، أي ان تصور العالم الجغرافي السياسي انتصر على تصوره الرياضي . على ان مركز العالم انتقل ، مثلما قلنا ، من ميدية الى جزيرة العرب(٣٧٤) ، وتبدل عدد الكيانات السياسية . ويثبت تبدله بقاء الالهام على حاله : فمثلما أريد لعدد الكشوارات القديم ان يطغى على عدد الامبراطوريات القديمة ، البيزنطية ، والتركية ، والصينية ، والساسانية . . . على المنوال ذاته ، انطبق العدد الجديد على المعطيات السياسية في أوائل(٣٧٥) القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . اذن في التحليل الأخير ، دخل التاريخ ، بتقلباته ، في ميدان صورة الأرض(٣٧٦) .

أما دوام عقلية فارس(٣٧٧) الجغرافية السياسية ذاتها ، في هذه الحالة ، فيعلل بتأثير الوسط الذي رعاها : نعني محيط ادارة يعرف افرادها ان التقاليد الفارسية بقيت قوية جداً . وبذا نثير قضايا اخرى ، تهم علاقات صورة الأرض بالجغرافية الادارية . بالفعل ، مر معنا ان البلخي كان على صلة بالادارة السامانية ، وانه قصد أيضا بغداد ، التي تسنى له فيها ان يتعرف على مدرسة الكندي وعلى أوساط اخرى ، لا سيما أوساط الادارة المركزية . من ناحية اخرى ، بدا تعميره عاملاً هاماً

جداً : فقد صنف عام ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م أو بعدها ، واطلع بالتالي حتما على مصنفات ابن خرداذبه واليعقوبي والجيهاني وقدامة بن جعفر(٣٧٨) ذاته ، الذين يصادفون أثناء ممارساتهم الادارية ، الولايات الكبرى نفسها الواردة في جغرافية العصر السياسية(٣٧٩) . اذن لا يجوز لنا ان نعجب اذا رأينا صورة الأرض ، في مرحلة التطور الدقيق الذي بلغته مع البلخي ، تبدي في موضوعاتها ، ولو بطريقة متواضعة(٣٨٠) ، نوعا من التلاقي مع الجغرافية الادارية .

ويسهم هذا الاهتمام ، المنصب على كيان الولاية ، في تيار فكر صورة الأرض ، الذي يقتصر في رؤيته العالم على دار الاسلام كلياً أو جزئيا ، فيرفض أو يعدل المفاهيم النظرية والمفرطة التعميم ، المأخوذة عن الأجنبي ، باسم ضرورة المعاينة المباشرة . من ناحية اخرى ، مر بنا ان تيار فكر معاكسا دفع صورة الأرض ، منذ نشوئها ، الى رفض الاكتفاء بمواضيع الأدب وحدها . وتبدو صورة الأرض على هذا النحو معرضة الى تناقض ظاهري بين اتجاهين متضادين ، لأنها تعكس نزعات معروفة ، تقوم خارج موضوعها ، وتحاول هي ان تدرجها فيه ، فيتفاوت نجاحها ، وتضحي بوحدتها . لكن لا بد من معرفة الطرق التي لجأت اليها المؤثرات لتفرض نفسها ، فتبقى المشكلة مطروحة . نعم نستطيع ان نفترض ان مفهومي المملكة والأدب كانا فكرتين قوتين ، تشبعت صورة الأرض بهما تلقائيا ، كأنها تتنفس هواء العصر . مع ذلك ، حذار ، فلم تكن أبدا وحدها — وهذا منذ نشأتها — تتعهد مصير الجغرافية : فالجغرافية الادارية ، التي رأينا ان صورة الأرض تلتقي واياها حول موضوع ولايات الامبراطورية الأساسي ، حوالي الأعوام

٩٢٠ — ٩٣٠ م ، قديمة قدم صورة الأرض(٣٨١) . بالتالي ، يحتمل ألا يكون النمطان قد سارا متوازيين ، بل تبادلا التأثير . لكن الى أي مدى ؟ أميل الى الاعتقاد بان صورة الأرض أخذت من الجغرافية الادارية أكثر بكثير مما أعطتها ، وان ظهور مفهوم الولاية فيها ، ليس إلا مثالا ايضاحيا بين أمثلة تتميز بتلاقي اعم جداً وأقدم . وسنرى ان الجغرافية الادارية اعتمدت ، ليس فقط على تقليد محترم مثل صورة الأرض ، في أضعف الاحتمالات ، بل أيضا على عدد المصنفين ، وخصوصا على نفوذهم : ويعبق بها عبير السلطة والرسميات والعاصمة ، ومتى ذكرنا جميع هذه الأمور ، نكون قد عينا طراز العصر(٣٨٢) وذوقه . اذن اذا اكتشفنا في هذا الأدب الجغرافي الناشيء حول الخلافة ، النزعات ذاتها الموجودة في صورة الأرض ، حق لنا ، فيما يبدو ، ان نستخلص ان انفتاحها على المواضيع الكبرى المنوه بها ، قد تم عبر مصنفات الكتاب العظام .

نشوء الجغرافية الادارية

ابنا فيما تقدم(٣٨٣) ظروف وأسباب قيام الادارة العباسية بتطوير أدب تقني ، يمكن تسميته لأول وهلة انتاجا في وعاء مغلق ، لأنه انبثق عن السياسة المطبقة في الدواوين ، ويرشد سياسة الدواوين سواء بسواء : فقد حرره كتاب هذا الأدب ، وخصوا به كتاب الدواوين ، فشمل مبدئيا جميع المواد التي يمكن ان يقود العمل في الدواوين الى معرفتها . ويهمنا طبعا في برنامج أعداد « الكاتب — المساح — الفقيه(٣٨٤) » ، بالدرجة الأولى اللفظ الثاني ، أي المساح ، بمعناه الواسع ، لأنه يتعلق بمعرفة الأرض وبعلاقات السلطة بالقاطنين على هذه الأرض : وقد رأينا

ان مؤسسات الخراج ، والمسالك ، والدفاع عن الثغور ، تستقطب كلها — وما هو صحيح على مستوى المؤسسات ، صحيح أيضا في الأدب الاداري — حول ديوان البريد ، الموروث عن تقليد عريق في القدم(٣٨٥). نواجه اذن تجربة حسية مبنية على المعلومات المباشرة : ولم يأت وليد الصدفة وضع البريد عند ابن قدامة في مكان أساسي من سياق مصنفه ، نعني في نهاية وصف دواوين الخلافة التي يتوجها ، وفي مدخل المنزلة السادسة ، منزلة معرفة الأرض الحسية المسموح بها(٣٨٦) .

فمتى حدد الباحث مواضيعه ، يبقى عليه ان يعرف الطرق التي سلكتها لتصل الى الجغرافية البشرية ، أو تسترعي اهتمام مفهوم الأرض المعمورة أو تطوره ، على وجه أعقل وأوسع . قطعا لا يتسنى حصول مثل هذا التوسع ، من الناحية المبدئية ، إلا اذا تخلى المصنف عن التقنية المحضة ، إما بنقل اللائحة والأرقام على علاتها دفعة واحدة الى مجموعات أكبر ، وأما بتغيير معناها وتجاوزها ذكر الأحداث البسيط ، وجعلها بداية التأمل في هذه الأحداث وقوامها . وفي هذه الحالة الأخيرة ، نتوقع حتما ان يتحول تدوين واردات الخراج ، من غاية بحد ذاته ، الى ذريعة لعرض ثروة الولايات المقارنة ، وحركات التجارة والأسعار ، وايضاحها جميعا ، وان تزدان لوائح منازل المراحل تدريجيا بوصف الأشياء والكائنات المصادفة على الطريق ، وان يتجاوز تعداد الثغور أخيراً ، على غرار البصر ، المملكة ، ويمتد الطرف الى الأراضي غير المسلمة والى أسرارها .

والواقع ان العودة الى النصوص تثبت ان مجمل مخطط هذا التطور المزدوج يبقى مثاليا ، بمعنى أننا نضع أنفسنا فوراً ، مهما عدنا الى الوراء ،

ازاء نهايتها ، أي ، بتعبير آخر ، انها تبرهن ان الأدب الاداري ومواضيعه في بداية عهدها ، لم تقتصر البتة على التقنية الصرفة ما عدا ما ندر(٣٨٧) من الحالات الاستثنائية . ونشير ، قبل إيضاح أسباب هذه الظاهرة ، الى انها تعلل ، الى حد كبير ، تقصير المعايير والتصانيف التقليدية في هذه المادة ويلقى مؤرخو الأدب العربي صعوبات جمة متى ارادوا التدقيق في مفهوم معين من الجغرافية الادارية ، لتعذر ادراكه ولأنه في الواقع يكاد لا يشمل شيئا لاكتفائه بمعيار المصنفات وحده : فكتاب المسالك والممالك لابن خرّداذبه ، وسنعود اليه ، مصنف مؤلف هاو يحرص على الثقافة والمهنة سواء بسواء ، ويعتبر كتاب الخراج لقدامة موسوعة ، وتتجاوز رؤية اليعقوبي (٣٨٨) الإطار الاداري تجاوزا كبيراً حتى صار(٣٨٩) رائد النزعة التأليفية التي سوف تزدهر مع المقدسي(٣٩٠) . اذن النهج الوحيد الصحيح هو الحكم على المصنفات ، لا بحد ذاتها ، وعلى الأطلاق ، بل بالرجوع الى أغراض المصنفين والى مكانتهم .

ويسوغ لنا هذا النهج وحده مواجهة القضية المطروحة من قبل بوضوح ، ويحررنا من الأحكام الأدبية المحضة المشبوهة ، لأن مفاهيمنا الخاصة عن الأنماط والأساليب الانشائية ، شوهتها دوماً تشويها متفاوتا ، وتدفعنا الى اجراء تقييم تاريخي لها . اذن سوف نتحدث عن أدب التقنيين بمعنى انه يصدر عن كتاب دواوين ، ويخص به أيضا كتاب الدواوين المكلفون بمهام دقيقة . ونؤكد في الوقت ذاته ان هذا الأدب يرفض ان يقتصر على الاهتمامات التقنية المحصورة الافادة منها بأولئك الكتاب . وقد يقال لنا بأننا نقع مجدداً بالتناقض ، المثار من قبل ، والقائم بين وسط الاخصائيين الذين نشأ الأدب عندهم ،

وبين المظهر الانتقائي الذي يتخذه أدبهم . على أننا أبرزنا تاريخيا أثناء بحثنا ، عنصرين أساسيين : هما شخص الكاتب من جهة ، والحرص على ثقافة واسعة غير متخصصة ، أي الأدب بعينه من جهة ثانية . اذن نواجه ، في التحليل الأخير ، قضية أساسية تتعلق بثقافة الكاتب ، كما حصل لنا في الفصل السابق ، لكننا نمحصها هنا من زاوية بعض المواضيع الجغرافية البشرية ، الناشئة عن ممارسة الكاتب مهامه عمليا . بالتالي ، سوف ندرس العلاقات القائمة في معادلة تشتمل على ثلاثة حدود ، بين الأدب والمعرفة (مواضيع الجغرافية الادارية الأساسية الثلاثة) والمهنة (مهنة الكاتب) : وقد تنشأ هذه العلاقات أصلا بعلم المصنفين أو خارج نطاقهم ودون علمهم .

رائد الجغرافية الادارية : ابن خرداذبه

ابانت العودة الى الشروط التاريخية ، التي نشأت فيها وظيفة الكاتب ، ان مصنفات التقنيين لا تستوعب الأمور التقنية وحدها ، ولا عجب في ذلك . فمنذ البداية ، اقتضى إحداث الدواوين عند العباسيين ، مثلما مر معنا(٣٩١) ايجاد لغة دواوين ، فلازمت المبادرة السياسية المبادرة اللغوية ، واقترنت المبادرة اللغوية بمبادهة أدبية وثقافية ، تبعا لمدى ما كان الفرس ، مبدعو اللغة العربية الجديدة ، يقومون به ، عن طريقها ، من نقل أخلاق فارس ومفاهيمها ، وما يثيرونه على هذا النحو من ردود فعل الهلنستية الجديدة والعروبة(٣٩٢) ، على المستوى العام ، وفي قضية اعداد الكاتب الدقيقة ، سواء بسواء : بالتالي ، ما دامت ممارسة المهنة لا تنفصل أبدا عن مجمل الإطار الثقافي ، ولا عن الاتجاهات المقررة في نطاقه ، فلن تظهر أصالة كتاب البريد في هذه الناحية ، بل سوف يسهمون فقط في

النزعة القوية التي تهم مجمل الأدب الاداري في أوائل عهده(٣٩٣) ، وتستهدف تحقيق ما نسميه بالالتزام في أيامنا الحاضرة ، متجاوزة اعتبارات الثقافة العامة المحضة والانتقائية .

ويتضح الغرض السياسي بجلاء كاف عند أول أولئك الجغرافيين الكتاب زمنيا ، نقصد عند ابن خرداذبه . فهو فارسي ، اعتنق الاسلام ، وكاتب ، ولعله صاحب البريد ، وقد اهدى مصنفه الى أحد رجالات السلطة(٣٩٤) . وهو يتستر وراء حديث وصف الأرض العام ، ووراء حرصه الدقيق على تقليد المتقدمين وبطلميوس(٣٩٥) ، لكن يتناول معظم مصنفه ، في واقع الحال ، دار الأسلام ، ويسوق القارىء الى اكتساب معرفة مفصلة عن هذه الامبراطورية . وهكذا تصبح الغاية المحققة ، أو المعلنة ، في المصنف ، اسلامية في جوهرها . أقول اسلامية لا عربية : لأن ابن خرداذبه يلعب بأمانة ، هو ومن يمثلهم أحسن تمثيل من موالي الفرس ، لعبة وحدة اللغة(٣٩٦) . ومع ذلك لا يهب جزيرة العرب في وصفه أراضي دار الاسلام ، إلا مكانة جزء بين سائر الأجزاء(٣٩٧) . ويعارض في مجمل مصنفه بين قبلة مكة الدينية ، المشار اليها باختصار(٣٩٨) وبين المركز السياسي لجزيرة العراق والسواد أي ايرانشهر(٣٩٩) القديمة ، مقر السلطة ، والملتقى المشترك لجميع المسالك . كذلك تطغى ذكريات فارس(٤٠٠) على نطاق واسع على ذكريات اليمن .

اذن آثر ابن خرداذبه اسلاما تعبر عنه اللغة العربية ، وتغذيه الذكريات الفارسية ، وهذا أول الخيارين المتاحين لكل كاتب(٤٠٢) . أما الخيار الآخر ، فيهم التخصص التقني أو المعرفة الموسعة : وقد عرفنا

من قبل اتجاهه ، وبقي علينا ان نكشف كيفياته . ويمكن تقسيم المواضيع المعالجة في كتاب المسالك والممالك الى ثلاثة أقسام : أهمها الى حد كبير القسم الأول ، الذي يشمل التدوينات التقنية ، والمسالك والخراج ، ويليه القسم الثاني ، الذي يرتبط مباشرة بالادب ، ويعادل ما يقرب من نصف البحث المخصص للقسم الأول(٤٠٣) ، وأخيراً القسم الثالث ، ويتضمن مجمل المواضيع التاريخية والجغرافية ، غير التقنية بالتالي ، خلافا للقسمين السابقين ، والممكن ان تهم الكاتب في ممارسة مهنته : وتفوق أهميته أهمية القسم الثاني(٤٠٤) ، لكنه لا يضعف سيطرة التدوينات التقنية المحضة . لذلك يدفعنا طابع المصنف العام ، مع ما فيه من أدب ، حقيقي وضئيل بآن واحد ، الى اعطاء ابن خرداذبه مكانة مرموقة جدا في تطور المواضيع التقنية وفي انفتاحها على مفاهيم متنوعة جدا . وقد اعتقدنا ان بامكاننا فيما تقدم من هذا الكتاب(٤٠٥) ان نحصر بوجود الأدب بالذات ، الفارق الأساسي بين نسختي كتاب المسالك والممالك ، العائدتين الى عام ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م و ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ — ٨٨٦م . بالفعل ، اذا كان الاخراج التاريخي الصرف لا يلعب في النسخة الثانية إلا دوراً ضعيفاً(٤٠٦) ، فالأمر يختلف تماماً بشأن مواضيع ثقافة العصر العامة آنذاك : لأننا نستطيع بوضوح ان نؤرخ من النسخة الثانية بعض المقاطع المأخوذة عن الجاحظ ، مثل أعاجيب مختلف البلدان(٤٠٧) ، ورواية استكشاف هرم من الأهرام الصغار(٤٠٨(، وأخيراً على الأرجح ، مواضيع متفرقة تختص بالمشرق وبالوصول اليه بحرا(٤٠٩) ، ومثل مقاطع عديدة مدسوسة ، ومستوحاة من الذهنية نفسها(٤١٠) . واذا أمكن اعادة بعض مواضيع الأدب الأخرى الى النسخة الأولى ،

فتصبح غير مدسوسة (٤١١) ، فلا شك ان الاضافات الى النسخة الأولى الأصلية تتجه بثبات نحو تقوية الأدب في النسخة الثانية .

اذن ابن خرداذبه هاو ورجل مثقف (أديب)(٤١٢) ، يبدي في مصنفه نصف المنفتح على ثقافة عصره العامة ، حرصا طارئا(٤١٣) على عدم فصل المهنة عن الثقافة والتسلية ، وعلى عدم اعتبار الكاتب والأديب شخصين متميزين ، بل دمجهما في شخصية واحدة : وهذا تأويل نموذجي لنزعة يشجعها هؤلاء الفرس ، الذين يتكلمون اللغة العربية ، لكن يتثقفون بثقافة تقليدية انتقائية ، ويحرصون على نشر ماضي بلدهم عبر هذه الاصطفائية . والتأويل نموذجي أيضاً على مستوى اعداد الكاتب ، والبرنامج الذي ينادي به عبد الله البغدادي(٤١٤) ، معاصر ابن خرداذبه . وهنا يصبح الأدب أكثر من وسيلة لتعليم الكتاب المواد التقنية عن طريق ادخال مفاهيم أقل صرامة منها ، تشبه نوعاً ما ما نتنفسه من هواء الطقس : والواقع ان الأمر يتعلق بمادة ضرورية في معارف الرجل الشريف الذي يجسده الكاتب(٤١٥) : وهكذا ، يتعدى المصنف ، عن سابق تصميم ، أو على الأرجح ، دون علمه ، وسط الكتاب ليصل الى جمهور اعرض ، فتتلاشى الحدود بين المختصين وبين المثقفين .

وهكذا ، شرعت الجغرافية البشرية تظهر شيئاً فشيئاً ، وبقيت تتعثر حتى الآن ، لكنها كونت واقعا حقيقيا : اذ ان التصنيف انفتح ، لصالح الأدب ، على مواضيع كلاسيكية ، أوضحها الجاحظ من قبل — كعلاقات البشر بموقع أوطانهم(٤١٥) (مكرر) ، ومقارنة خصائص المدن(٤١٦) — أو انفتح على مواضيع أخذت عن فارس ، البلد الحريص على التقاليد والتاريخ ، وربطت الانسان على الأرض بماضيه ومحيطه

الثقافي(٤١٧) . على ان هذه الجغرافية البشرية التقليدية تقترن بجغرافية اخرى ، أقرب الى الواقعية ومعاشة نوعا ما : وتمثل المواضيع التقنية العائدة الى المسالك والخراج ، الخطوط العامة الأولى لهذه الجغرافية ، ما دامت تعطي نبذة عن استيطان البشر وموقع المدن والحقول . ويسلم بطيبة خاطر ان هذه الجغرافية الأخيرة لا تزال ، في معظم الأحيان ، في مرحلة النبذة . مع ذلك ، يكفي ان تثبت وجودها ، وتنتظر الحافز الذي سيدفعها الى التطور من النبذة الى دراسة الأرض الحسية . ولعل ابن خرداذبه لا يزال يجهل ان لا شيء يضاهي الرؤية الشخصية المباشرة ، لكنه يتحسسها بشيء من الغموض(٤١٨) . ثم يتحرر هنا وهناك من الإطار الضيق للائحة المراحل ، ويتوقف على الطريق . ويكتب فيقول : « وفي يدي ولد إدريس بن إدريس . . . (تلمسين) . ومن تاهرت اليها (مسيرة) . . . عمران كلها . وطنجه وفاس ، وبها منزلة(٤١٩) » . وعلى هذا النحو ، ترتسم شيئا فشيئا صورة دار الاسلام ، حسبما ترى من داخلها ، مع القاء نظرات عابرة الى خارجها ، نحو البلدان المجاورة ، من خلال التقليد الأسطوري بدرجات متفاوتة . وسوف يحالف الحظ الكبير بسرعة هذا الإطار المحدد في خطوطه العريضة على الوجه السابق .

الجيهاني خلف ابن خرداذبه

يزعم المصنفون العرب ان ابن خرداذبه صاحب مدرسة ويعتبرونه أول من كتب في الجغرافية . وينتقدونه(٤٢٠) . ومع ذلك يستشهدون به ، وينتحلون أقواله(٤٢١) . لكنهم يقرون بموضوعيته فيما هم مدينون به اليه(٤٢٢) . ولا ريب ان الجيهاني ، بحرفية نصه(٤٢٣) ، أقرب اليه من جميع الذين تلقوا تركته ، وتصرفوا بها عمدا أو بلا قصد .

وقد فقد مصنف الجيهاني بكامله تقريبا(٤٢٤) ، لكننا نعرف خطوطه العريضة . وكان هو (الربع الأخير من القرن التاسع الى الربع الأول من القرن العاشر) وزيراً لدى السلالة السامانية في خراسان . وهذا يعني ان الإهتمامات السياسية كانت من جملة الدوافع الأساسية التي حثته على كتابة مصنفه : فمعرفة البلدان الحسية — لا سيما من خلال موضوعي الخراج والمسالك الرئيسيين(٤٢٥) — لا تنفصل عن أطماع الفتح والدخل(٤٢٦) . وتكرر هذه الأقوال ما ورد عند ابن خرداذبه ، لكنها تعالجه بذهنية مغايرة ، لأنها تتجاوز نطاق العمل السياسي لتنصب على العلم ذاته ، من خلال التجريب الحسي في الكوزموغرافيه . ووردت الكوزموغرافية عند ابن خرداذبه ، لكنها وضعت جنبا الى جنب ، هي والمواضيع الأخرى الداخلة في صميم الأدب(٤٢٧) ، مع معارف الكاتب التقنية . أما الجيهاني ، فيخالف في ذلك ، ويدمج الجغرافية النظرية في سياق كلامه عن الجغرافية الادارية ، التي تستهدف عنده تحقيق غاية عملية مباشرة وتجريب مواضيع الجغرافية النظرية تجريبا حسيا . وقد قال المقدسي(٤٢٨) : « أما أبو عبد الله الجيهاني ، فانه كان وزير أمير خراسان ، وكان صاحب فلسفة ، ونجوم ، وهيئة ، فجمع الغرباء ، وسألهم عن الممالك ودخلها ، وكيف المسالك اليها ، وارتفاع الخنس منها ، وقيام الظل فيها ، ليتوصل بذلك الى فتوح البلدان ، ويعرف دخلها ، ويستقيم له علم النجوم ودوران الفلك » . وهذا النص أساسي ، لأنه يلقي ضوءاً على نية المصنف الأساسية ، ما دام الكتاب الأصلي ذاته مفقوداً : فالجيهاني يقوم بدمج الجغرافية الادارية في مجموع أوسع ، تصبح فيه مصدر علم ، لا غاية بحد ذاتها ،

فهو يحقق ، اذا فضلنا ، تجريبا حسيا على معطيات صورة الأرض(٤٢٩) من خلال معطيات الكتاب التقنية .

ثم ان الجيهاني كاتب ساماني ، لا تقبل حياته(٤٣٠) ومهامه ، فيما يبدو ، الانفصال عن خراسان حيث أمضى عمره . فهو رجل ، تخرجه أقليميته عن التعريف الوسطي للكاتب ، أو بالاحرى ، تدعم هذا التعريف في اتجاه نزعة فارسية ، أبطالها السامانيون أنفسهم كما نعلم ، مما يعلل بلا ريب الحاح الجيهاني الخاص ، كالحاح معاصره البلخي ، على العناية بوصف الولايات الشرقية(٤٣١) ، ويفسر التوسع الهائل في مواضيع الأدب ، التي أطلع عن طريقها المصنفون المتأخرون(٤٣٢) على كتاب الجيهاني ، وأفادوا منه ، لا سيما ان العمل يعرض عرضا منهجيا موضوعا أساسياً يؤثر في مستقبل الجغرافية العربية : نعني موضوع الرحلة الى بلد أجنبي ، الذي يقع على الحد الفاصل بين الأدب وبين اهتمامات الدفاع والفتح السياسية ، فيصبح بلا شك أطرف اسهام أتى به الجيهاني من ناحية أهميته . ويعلل موقع الممتلكات السامانية الستراتيجي ، وروح الفضول الثابتة ببراهين عديدة ، حرص الجيهاني البارز على معرفة ما يجري في خارج المملكة ، في البلدان المجاورة : فهو ، كما رأينا ، يأخذ المبادهة في التحقيقات ، أو ينتهز الفرص السانحة(٤٣٣) ليزود الخلف بثروة من الأخبار عن الصين والهند والترك وشعوب روسية الجنوبية . وتدخل هذه الأخبار في الأدب طبعا ، لأنها نوادر فكاهية ، مستقاة ، وهذه ميزتها الأساسية ، في مجملها ، من المشاهدة المباشرة ، وتعطي جغرافية دار الأسلام البشرية ، على نحو ما تبدو ، خطوطها العريضة ، من الدراسة الحسية لأراضيها ، اطار ارتكاز لا غنى عنه .

فالمقصود وصف دار الاسلام معاينة ، ودار الاسلام الموضوعة في مكانها : وهكذا جاء الجيهاني بحرص لا ينكر على التجريب ، وعلى اعادة تمحيص المعطيات النظرية أو التقليدية ، أي بايجاز ، على الرؤية الشخصية (العيان). وتعرض هذا التجديد ، شأنه شأن كل تجديد ، الى ضروب من التفريط : ففات هذه الجغرافية ، كي تستحق تماما نعت البشرية ، الشعور بارتباط الأشياء المعاينة بالكائنات التي تلازمها(٤٣٤) . مع ذلك ، تظل الطريق مفتوحة مثلما قلنا من قبل(٤٣٥) ، أمام تطور فردي وحسي لمواضيع الجغرافية الادارية الثلاثة الأساسية .

وخطا اليعقوبي خطوة حاسمة ، عندما كان الجيهاني يكتب . وجاءت أصالته باهرة ومبكرة(٤٣٦) ، فمثل ظاهرة فريدة ، تخرج على التصنيفات المفرطة التعميم في خطوطها العريضة ، ولا بد من معالجتها على حدة . أما قدامة ، فهو على نقيضه ، يندرج بلا تحفظ في عداد خلف أدب خرداذبه(٤٣٧) .

قدامة بن جعفر أو العلم الاداري الشامل

يثير مصنف قدامة بن جعفر المذهل(٤٣٨) ، باقصى الوضوح ، قضيتي مكانة الكاتب ومكانة الجغرافية في الثقافة العربية الإسلامية في القرنين الثالث والرابع الهجريين : / التاسع والعاشر الميلاديين وقدامة نصراني اعتنق الاسلام ، وهو ينتمي الى أسرة مسيحية(٤٣٩) ، يظن أنها مارست الوظائف العامة تقليديا(٤٤٠) . وتولى قدامه نفسه ، في نهاية مهنة طويلة بعض الشيء ، فيما يبدو ، منصب صاحب البريد(٤٤١). وتلقى ثقافة جيدة وواسعة جدا ، وعرف ابن خرداذبه(٤٤٢) ، مما

يفسر لأول وهلة ، منظوره الواسع جدا في مصنفه الرئيسي ، نعني كتاب الخراج وصناعة الكتابة(٤٤٣) .

ولا غرو ، فلديوان الخراج مكانة متوسطة بين سائر دواوين الخلافة . ويحتاج موظفوه الى معرفة الأرض المملوكة ، والشرع المطبق عليها وعلى من يقطنها من الناس ، وأخيراً الى اتقان ما ينبغي ان يعرفه جميع الكتاب لصياغة القرارات الادارية . ويمثلون بوضوح تام ما سبق تحديده من عناصر شخصية الكاتب المساح الفقيه : مما دفع قدامه(٤٤٤) الى القول بأن لا مجال الى معرفة نشاطات ديوان الخراج معرفة جيدة اذا لم تربط بنشاطات الدواوين الاخرى ، التي يحتل وصفها وحده كافة المنزلة الخامسة من المصنف . اذن يدعونا كتاب الخراج ، بعنوانه المتواضع ، الى توضيح صناعة الكتابة بأجمعها . لكن لا يقتصر الشمول على الحرص على تقنية الفعالية ، بل يتجاوزه كثيراً الى عرض موسع جدا فعلا للثقافة المأخوذة بأوسع معنى لها . فهل نعجب اذا تبين لنا ان ذوق قدامة ، شأنه شأن معتنقي الاسلام الآخرين العديدين ، يكمن في التعبير باللغة العربية عن ثقافة ليست عربية محضة ، أو هي أكثر من عربية ؟ ويبدو ان مشكلات الكتابة احتلت حيزاً عريضاً جداً في القسم المفقود من المصنف مع الأسف ، اذ ان قدامة(٤٤٥) يحيل اجمالا الى المنزلة الرابعة لتعلم النثر التقني ، والى المنزلة الثالثة لتعلم البلاغة ، التي نؤديها بلفظ براعة الأسلوب(٤٤٦) لعدم توفر كلمة اخرى (باللغة الفرنسية) . وتقترن معرفة اللغة الفصحى طبعا بمعرفة الأحاديث الاسلامية ، لكن ، حذار ، فقط بقدر ما تفيد في تفسير أصول القانون العقاري : وقد اختصت بها المنزلة السابعة التي تعلن صراحة انها تحرص

على الدوام على التقيد بالشريعة الاسلامية (٤٤٧) ، الموضحة ، عند الضرورة ، باستشهادات من الفقه أو الأحاديث ، لكونها تشبه مجموعة حقوق واقعية (وتطبيقية) ، مختلفة جدا عن المصنف النظري الفقهي ، المكتوب على طريقة أبي يوسف يعقوب ، وعن مجموعة أحاديث محضة مثل مجموعة آدم(٤٤٨) . ويمكن ابداء ملاحظات مماثلة على مكانة علم آخر حددناه سابقا بأنه عربي ، ونعني به التاريخ(٤٤٩) ، الذي يعلل تدخله ، في نهاية المنزلة السابعة ، وبشأن نص يكرر نصا من البلاذري ، بالحرص على عرض الإطار التاريخي والعرفي لإشغال الأرض(٤٥٠) . بالمقابل يحتل الأدب في ثقافة الكاتب مكانة مختارة ، بفضل المنزلة الثامنة بنوع خاص ، المفردة لعرض تأملات في العلاقات البشرية ، ولا سيما العلاقات التي تربط العاهل والرعية : وهذه فرصة مثالية لاعادة معالجة المواضيع الكلاسيكية لاخلاق الملوك ، في صيغ أدبية مختبرة(٤٥١) أصلا ، برعاية فارس واليونان(٤٥٢) .

وقد يقال ، على حق ، ان قدامة استكمل على هذا النحو ، تطور ، وضع ابن خرداذبه خطوطه الأولى ، وواصله الجيهاني (٤٥٣) . مع ذلك ، يتميز كتاب الخراج عن المصنفات السابقة ببنية قوية ودقيقة تربط جميع المواضيع المعالجة بلا استثناء بهذا الكاتب الذي أعدت كلها له . وبهذا المعنى ، يمكن ان نتحدث عن العلم الاداري الشامل . فقد أبنا مثلا ان الشرع الذي عرضه قدامة ينحصر قطعا في الشرع الذي قد يضطر الكاتب الى تطبيقه . ونرى الرأي نفسه في ممارسة الوظيفة الادارية : فمصنفه بعيد الى أقصى حد عن مصنفات النظرية السياسة ، مثل مصنف « الاحكام السلطانية (٤٥٤) » ، مع اهتمامه الدائم ، لا بالتجريبية

المحضة ، بل بالاحرى ، بتوضيح النظرية الدائم ، فلا يكفي مثلا ان يشرح أسلوب صياغة الوثيقة الرسمية ، بل يفضل ايراد نماذج عن الكتب جاهزة(٤٥٥) . ويتضح كلام قدامه بجلاء تام ، عندما يتحدث عن الأخلاق : فلا يحول عرضها في الصيغ التقليدية البتة دون بروز ضعفها الشديد في جوهرها من الناحية التقليدية ، لأنها تتصل ، هي أيضا ، اتصالا وثيقا بممارسة مهنة الكاتب : فلم يعد الأمر يتعلق ، مثلما كان عند ابن المقفع ، بصف جوامع الكلام عن تصرف الملوك والرعية ؛ بل أصبح يتناول بدقة معرفة الخصال الواجب ان يتحلى بها الموظفون في شتى مراتب الادارة لكي تسير أعمال الدولة على الوجه الصحيح . وهذا يعلل قبل كل شيء تحول الأخلاق ، كما كانت عند الجاحظ ، الى تأمل سيكولوجي في التصرفات البشرية(٤٥٦) ، ويعلل معالجة المنزلة الثامنة بنوع خاص ، لهذه القضايا ، وهذه المنزلة تتويج للمصنف ، ورسمها لوحة متماسكة جدا لمجمل الهيئة الاجتماعية ، انطلاقا من تحاليل العلاقات البشرية .

وهكذا ، يتخذ عرض قدامة لنظرية السلطة في المنزلة الثامنة أهمية أساسية : فهذه النظرية ضرورية للكاتب ، لأنها تزوده ، باعتباره موظفا ، بتعليل آليات السلطة ، وباعتباره انسانا ، بتفسير تصرفات بني جنسه ، فتوسع العلم الاداري — دون ان تتخلى عن تبرير ذاتها ازاء العلم الاداري — وتجعله تأملاً عاماً في المجتمع . وأورد قدامه عرضا رائعاً ، تتخلله دائما وجهة نظر تاريخية ، فجعل السلطة ومراتبها نهاية تطور بدأ انطلاقا من التمييز الأساسي بين الانسان والبهيمة ، واستمر خلال سلسلة من المراحل تتدخل فيها شيئاً فشيئاً عناصرالمجتمع

البشري الكبرى : كالغذاء ، واللباس ، وانتشار النوع أو الظاهرة المدينية والعملة(٤٥٧) . وننطلق من هذا الحد الذي وصل اليه التحليل ، ومن مواضيع الجغرافية البشرية التي اكتشفها ، فنتساءل عن حقيقة وجود جغرافية بشرية في واقع الحال .

ومتى تم تعريف الجغرافية البشرية بأنها دراسة موقع الانسان على الأرض ، يسلم مع قدامة بأن طرفي العلاقة طرحا طرحاً نهائياً ، لأن الأرض لا يستغنى عن معرفتها ، مثلما لا غنى عن معرفة البشر . وتعرض المنزلة السادسة من كتاب الخراج المعطيات الكلاسيكية لصورة الأرض(٤٥٨) ، ثم المعطيات التي تهم دار الاسلام في بابيها السادس والسابع (٤٥٩) : كالضرائب ، والثغور والشعوب المجاورة . وهذا يعني ان دار أو مملكة الأسلام ، كما سماها قدامة لأول مرة(٤٦٠) فيما نعلم ، أدرجت نهائيا في المعمورة ، وبالتالي استكملت مع قدامة السيرورة التي بدأت في صورة الأرض وفي الأدب الاداري(٤٦١) معا . وبما ان علاقة أراضي الإسلام بسائر المعمورة تبرز موقعها الممتاز ، فلا بد ان يخصها البشر بالجانب الأكبر من حب اطلاعهم ، لأنها أفضل نصيب حصلوا عليه على وجه الأرض .

اذن لماذا نلاحظ لدى قدامة ، رغم وعوده العديدة بدراسة الأرض والبشر انعدام وجود العلاقة الحية بينهما ؟ الواقع انه لم يقم في كتابه بمحاولة وضع تركيب المعطيات المتوفرة في هذين المجالين ، في المنزلتين السادسة والثامنة(٤٦٢) . ويعود ذلك الى ان الأدب عند قدامة ، وهو محور هذا النظام الثقافي ، بلغ الحد الأقصى من امكاناته ، وكشف عن ضروب قصوره . فباسم الأدب الذي نتصوره ونتعمق به ونجعله أخلاقاً ،

نتوصل بتأملنا في الظاهرة البشرية الى استخلاص قوانين المجتمع العامة ، وباسم الأدب الذي نتصوره برنامج معارف ، ندخل في الثقافة مفاهيم أساسية تزودنا بها صورة الأرض . ونقر بفضل قدامة العظيم ، عندما أسبغ نهائيا طابع الشرعية على مختلف جوانب الجغرافية(٤٦٣) ، باسم الفكرة القوة ، الخاصة بعصره . ويحتمل أيضا ان تبذ هذا الفضل ، سعة رؤاه التي توفق ، في سبيل اعداد الكاتب ، بين الحاجة الى التقنية ، مثلما صاغها الجاحظ وابن قتيبة ، وبين الحاجة الى ثقافة واسعة ، فتتجاوز على هذا النحو الجاحظ ، الذي يطرح استحالة التوفيق بين الطرفين ، وابن قتيبة ، الذي لا يوفق بينهما ، الا بفضل حشو ، بجعله الكاتب محور هذه الثقافة ، وجعله الثقافة معرفة التقليد العربي الاسلامي المتخصصة ، المعتبرة بالضبط محور مهنة الكاتب(٤٦٤) . وهذا الموقف ، يناقض تماما ، مثلما نرى ، موقف قدامة ، الذي يفرض على الكاتب ثقافة تتجاوز تجاوزا هائلا ممارسة مهنته(٤٦٥) . لكن ، حتى لو توسعنا في مفهوم الأدب الى الحد الأقصى ، وحتى لو اعتمدنا موضوعات جديدة استناداً الى نفوذ النماذج الأدبية ، لا يجتني شيء من الثقافة المفهومة على هذا النحو : لأن الأدب الذي يستطيع احتواء أي موضوع ، شريطة وجوده أولا ، ليس سوى طريقة تسجيل ، ووسيلة تقليد أحيانا ، لا وسيلة ابداع أبداً فيشبه تلك الوحوش التي تتكشف أحشاؤها المفتوحة عما ابتلعته من أجسام(٤٦٦) بقيت سليمة : ان الأدب يستفيد من كل شيء ، لكنه لا يفيد شيئاً . ويتسم أدب التقصي بهذا الموقف ، مثلما تحدد عند الجاحظ(٤٦٧) : فبعد مرور خمسين عاماً على وفاة الجاحظ ، دونت الموضوعات الأصيلة التي عرضها تدوينا

نهائيا ، لا سيما ما كان منها يمكن ان ينصب على الجغرافية البشرية ، لكنها لم تتقدم البتة(٤٦٨) . زد على ذلك ان عمل الفكر أو المشاهدة الشخصية (العيان) ، ظلا ، من جراء القدرة على اعقام النماذج بلا ريب ، على حالهما في الوضع الذي تركهما فيه الجاحظ ، وكانا عنده ، مثلما قلنا(٤٦٩) اطار حديث أو توضيحاً له ، لا حديثا بحد ذاتهما . وقد اتبع هذا التقليد قدامة المفكر المستنير الى حد كبير ، لكنه لم يضعف تمسكه بالعلم الحضري في أساسه ، الذي يمكنه بالتأكيد ان يفسح المجال لذكر شيء من سيطرة الانسان على الأحداث والكائنات ، متى حصل عليها ، وصارت في متناول يده ، عندما يتطلبها سياق الكلام . بالتالي ، لا يستبق هذا العلم الأشياء ، وسوف يتمثل المتممون الحقيقيون لروح أدب التقصي ، على نحو ما بدأ به الجاحظ ، في جميع الذين تفهموا ، هنا دائما ، ان الفكرة لا تظل فعالة وقائمة ، إلا اذا سارت قدما . واعادت صقل ذاتها ، وان العيان بالتالي كان عليه ، ليحافظ على نضارته تامة ، ان يخطو خطوة حاسمة ، فيذهب البصر الى الأشياء وتأتي الأشياء اليه أيضا . ويحتاج هذا الأمر الى ثورة : سوف تقوم بها الرحلة(٤٧٠) . فقد وصلت صورة الأرض والجغرافية الادارية الى أقصى منتهاهما عن طريق الأدب ومعرفة المعمورة أو أراضي دار الاسلام ، معرفة أصبحت كلاسيكية ، ولا بد لهما في المستقبل ان تعملا مستقلتين وتحدثا ثورة سوف يحققها الاصطخري(٤٧١) لصورة الأرض ، واليعقوبي للجغرافية الادارية ، اللذان انشآ على هذا النحو نمط المسالك والممالك الذي اندمج فيه التقليدان بعد ان جددتهما الرحلة . وجاء التطوير أكمل عند الاصطخري قطعا ، لأنه كتب بعد مرور حوالي

بصف قرن على وفاة اليعقوبي(٤٧٢) . لكن فهم اليعقوبي وحده ان الأدب والرحلة لا يشكلان عالمين مغلقين . ويتعذر تحويل احدهما الى الآخر (٤٧٢ م) .

اليعقوبي والأدب الاداري

يبدو تأثير اليعقوبي حاسماً في تطور الجغرافية المستقبلي على مستويين اثنين . فعلى المستوى التاريخي المحض ، المعنا(٤٧٣) الى ان انفتاح صورة الأرض على موضوع مملكة الاسلام والأدب ، كرر حركة انعاش الأدب الاداري ، الذي يلعب بلا ريب دوراً فاصلاً في الأساليب والمؤثرات : فاليعقوبي من أشهر المصنفين الرسميين الدائرين في فلك السلطة ، لأنه يتمتع بنفوذ شخصي نابع من قيامه بمهام الكاتب(٤٧٤) ، ويضيف اليه نفوذ آله ممن تولوا أرفع المناصب ، وكانوا من أنصار الخلفاء العباسيين(٤٧٥) ، ومن حاشيتهم المقربه . فله اذن نفوذ ، سياسي(٤٧٦) وأدبي ، تثبته كثرة استشهاد من جاء بعده من ، المصنفين(٤٧٧) بكتاب البلدان ويؤثر تأثيراً كبيراً يتفق مع مجيء اليعقوبي في فترة حرجة : فقد صنف عام ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م ، فظهر اذا عدنا الى ممثلي صورة الأرض ، بين الكندي والسرخسي ، وبين ابن سرابيون والبلخي من جهة ثانية(٤٧٨) .

وعلى الرغم من ظهور اليعقوبي التأريخي والاجتماعي البالغ الأهمية ، وعلى الرغم من احتمال لعب ظهوره دوراً في توطين مواضيع الأدب ومملكة الإسلام(٤٧٩) ، فالمكانة الأولى تعود الى ما أدخله هذا المؤلف من تغيير حاسم في نطاق الفكر الجغرافي ذاته ، وفي نمط من الثقافة

العربية الاسلامية في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي : فثورة الرحلة ، وما ضمنت الأدب الجغرافي من مواضيع بشرية ، سوف يؤولان ، مثلما قلنا من قبل ، الى نمط مسالك وممالك جديد ، تجاوزت فيه الجغرافية البشرية ، لأول مرة ، منعطف الصياغة اللاواعية ، والكتبية والمجزاءة ، لتتحدد تحديداً ارادياً وحسياً وشاملاً ، وتدرك نفسها على النحو ذاته . وفي هذه الناحية بالذات ، لا مجال لفصل اليعقوبي عن جغرافية أعوام ٩٥٠ — ١٠٠٠ م التي تجلت عند الاصطخري وابن حوقل والمقدسي . ونحن نذكره هنا مرة أولى ، لا لضرورات التسلسل الزمني فحسب ، وقد أشرنا من قبل الى أهميته ، بل أيضاً وعلى وجه التخصيص ، لأن موضوع التصنيف يستهدف التجمع حول بعض المواضيع الجوهرية ، المستوحاة من بعض الإهتمامات السياسية أو الادارية : ويبدو لي ، نظرا لضخامته ، ان اهتمامه بالخراج والمسالك ، والسوابق التاريخية ، وموقع الولايات(٤٨٠) الاداري ، يؤيد انتماء اليعقوبي الى الجغرافية الادارية ، على الأقل من الناحية الشكلية ، أكثر من حرصه على توزيع العرض بدأ من بغداد(٤٨١) . ولا تخلو الرحلة عند اليعقوبي من تلك الاهتمامات ، وتنم عن حب اطلاع فطري(٤٨٢) تقريبا ، انبثق بلا ريب في نطاق المهمات الرسمية(٤٨٣) الدقيق . وهكذا يتضح بقاء ضروب الوصف ، البعيدة عن التقيد بخطة المصنف الفكرية المحددة من قبل ، خاضعة للممالك(٤٨٤) ، وتوجيه اليعقوبي جل اهتمامه الى ما يتحكم في تركيز السلطة(٤٨٥) المحلي من التفاصيل الاجتماعية التاريخية ، والى المعطيات الاقتصادية التي يبنى عليها فرض الضرائب : كالزراعات والأعمال الحرفية والتجارة . فمن هذه الزاوية ، يحق لنا ان نعتبر ان انصباب الأهتمام على مقاطعة معينة يتناسب طرداً مع

ثروتها(٤٨٦) . وقد استخلص ج . وايت ان عرض اليعقوبي إنما هو « جغرافية سياسية » ، لأنه اعاد الى هذا المنظور كامل المعلومات الواردة في كتاب البلدان(٤٨٧) . ولا شك في هذا الأمر ، لكن اليعقوبي جدد هذه الجغرافية بالتحقيق الشخصي ، فحطم الأطر : لأنه أرشد صورة الأرض والأدب الاداري الى الصراط المستقيم ، فمهد الطريق لظهور جغرافية بشرية حقيقية ، قبل مجيء الاصطخري بنصف قرن : وعلى وجه الاجمال ، يشبه برنامج تقصياته ، المعروض في مقدمته(٤٨٨) برنامج المقدسي . فلا ينقص هذا العلم الجغرافي إلا وعي دعويته ، إلا أنه ، على ما هو عليه عند اليعقوبي ، يشكل جغرافية بشرية ، لكن مصاغة نصف صياغة فقط .

الموضوعات الادارية في غير الأدب الاداري

لم تتطور موضوعات الأدب الاداري في الجغرافية وحدها ، سواء تناولت الإنتقال من المسالك الى الوصف الشخصي ، أو من جداول الضرائب الى جداول أعم تضم المحاصيل والثروات ، أو من تعداد الثغور الى حب اطلاع ينزع الى التعمق كثيراً في معرفة البلدان الغريبة . فمتى تم تدوين هذه الموضوعات خطيا ، يجري إدراجها في لائحة عامة ، تشتمل على المعارف المألوفة ، أي في الأدب . وقد يجوز لنا أن نتساءل ما اذا كانت فعلاً موجودة خارج الأدب ، في بدايتها على الأقل . ولعل ما قلناه من قبل في سياق حديثنا عن الشرق عند ابن خرداذبه(٤٨٩) ، يحثنا على التمسك بشكنا : فحب الأطلاع على بلدان ما وراء الحدود ، لا يتسم البتة بالأصالة ، بل يتقيد بالعادة الدارجة ، ويحتمل ان يفترض الأدب مسبقا وجوده أيضاً ، على نحو معين . ويمكن ابداء الملاحظات

ذاتها على موضوع البريد الرئيسي ، الذي أبرز ابن الفقيه جيداً أصوله القديمة(٤٩٠) ، واوضحه الجاحظ قبل ابن الفقيه في كتاب القول في البغال ، الذي أسهب فيه باطناب في استخدام تلك الحيوانات في ديوان البريد(٤٩١) . ويرتبط الخراج ذاته بتلك المقولات ، ويقترن ، في مثال شهير ، بموضوع الهومين التقليدي — ويعثر عليه في فسيفساء كنيسة القديس مرقس في البندقية — المحولين الى اهراء على يد يوسف(٤٩٢) . بالتالي ، لعل ميزة الجغرافية الاداوية تعود ، في جميع هذه الموضوعات وفي كثير غيرها ، لا الى اكتشافها ، بل الى اعادة التفكير فيها ، وضبطها ، وتطويرها على ضوء المقتضيات الواقعية في الممارسة الادارية ، قبل ان يتناولها حس المشاهدة الشخصية وحب الرحلة بدورهما ، لاعطائها امتدادات جديدة . ويعتقد على هذا النحو ، على غرار تطورها المتوازي النهائي في نمط المسالك والممالك ، ان تلك الموضوعات اتبعت في الأدب نوعا من المصير الطبيعي ، لم يتدخل فيه اطلاقا دور الاداريين ، المولعين بالواقعية ، إلا على سبيل الصدفة .

وبذا نطرح طرحاً عاماً قضية تطور هذه الموضوعات ، أو أيضاً ، قضية التداخلات المتبادلة بين التجديد وبين الأدب(٤٩٣) : فيتحتم علينا القيام بدراستها دراسة تطورية لغوية لا يسعنا أجراؤها مع الأسف إلا ابتداء من العقد الأول من القرن العاشر ، بعد ان تيسر لنا تحديد مكانة هذا الموضوع أو ذاك في كتب الأدب ، مثلا عند ابن الفقيه فيما يخص الأدب الجغرافي . على ان أمثال هذه التحققات لا تجيب على التقصي الجوهري ، الذي يتناول زمن الاكتشافات الأساسي ، وقبولها قبل القرن العاشر بالذات : فاذا كان ايجاد حل لقضية الأصول

ميسوراً ، في حالات كثيرة ، بمقارنة(٤٩٤) الموضوعات ، فان مسألة السبل التي تثبتت فيها الموضوعات في الميدان العربي الإسلامي –الفولكلور أو الرحلة أو الأدب المكتوب – تظل بلا جواب مع الأسف : فالمواضيع المفقودة بلغت ، قطعاً ، حداً كبيراً جداً ، وتناولت بآن واحد جانبا عظيماً من الترجمات اليونانية ، وكثيراً من النصوص الرئيسية في الأدب العربي العائدة الى السنوات الحاسمة ٧٥٠ – ٩٠٠ م ، وأخيراً الموضوعات الشعبية المحرومة من تقليد التسجيل الكتابي المنهجي .

وتتعقد القضية ، لأن اخصائيي الأدب الاداري ، مثلما رأينا ، على مستوى التعبير الأدبي ، ليسوا سوى تقنيين ، لم يبتعدوا في مصنفاتهم عن موضوعات الأدب ، بل قاموا بأنفسهم بنقل تلك الثقافة ، التي تبدو بعيدة جداً عن الضرورات الواقعية لوظائفهم . إلا ان موضوعات الجغرافية الادارية ، سواء نشأت من الاقتداء أو المهنة ، تدين بلا أدنى شك ، بناحية واحدة في الحد الأدنى ، لابن خرداذبه وخلفه : فقد عرفت بفضلهم الى جانب صيغتها الأسطورية – حتى في مصنفات الجغرافية الادارية المحضة – تعبيراً حسياً ومرقوماً . ومنذ السنوات الأولى من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، طرح اختيار ، نستطيع أن ندرس نتائجه تاريخيا : فإما ان تستمر مواضيع الجغرافية الادارية ، مثلما رأينا في سلوك الطريق الواقعية ، فتتطور الى نمط المسالك والممالك ، وإما أن يأخذها الأدب على عاتقه ، فيثبت فيما يتعلق بها ، مرة أخرى ، قدرته على التمثل : اذ إننا نعثر عليها فيه لا بصيغتها الأسطورية فقط – التي يحتمل ان تنشاء منها في التحليل الأخير – بل أيضاً بمظهرها التجريبي الذي تنقله عن الجغرافية الادارية : أقول جيداً

مظهرها ، لأن الأدب ليس ، هنا أيضاً ، سوى طلاء منقول عن الواقع . وهو ، في الحالة الحاضرة ، يسبغ على المعطى المسجل ، مظهراًمتناقضاً بما فيه من واقع وسكون ، لأنه يكتفي ، كطريقة تدوين ، بتثبيت المفاهيم التي يستملكها ، على حالها وعلى الوضع الذي عثر عليها فيه : وهكذا نرى ان التنهيج يبتعد فيه الرقم عن واقع العلاقة المتبدل ، لكي يصبح موضوع عرض بسيط(٤٩٥) .

دوام الجغرافية الادارية وصورة الأرض

دعيت الجغرافية الادارية ، بعد قدامة ، الى ايجاد مخلفات أدبية في الأدب ، والى ضمان دوامها الحقيقي بحد ذاتها في كتب المسالك والممالك : أما الأدب فمهيأ لتوسيع ميدانه ، وأما نمط المسالك والممالك ، فمجهز لتأمين البديل . وما دام يمكن تطبيق مخطط واحد على صورة الأرض بعد البلخي(٤٩٦) ، نعتبر بحق ان تطور الموضوعات بعد خمسينات القرن العاشر ، قد أدى الى ربط مصائر الجغرافية العربية بالنمطين الأساسيين ، النمط الاداري ونمط المسالك . بالفعل يجوز لنا ان نرى في هذين النمطين شكلي الجغرافية البشرية الجوهريين السائدين في تلك الحقبة وحتى منتصف القرن الحادي عشر . لكن لا بد من ابداء ملاحظة ، تتعلق بما يتميز به نمط المسالك والممالك والأدب من صفات متعاكسة تماما ، على مستوى النظام اللغوي المتزامن والتطورية اللغوية . فالمسالك والممالك ، كنمط أدبي ، محددة بدقة ، ويمكن تحليلها في النصف الثاني من القرن العاشر(٤٩٧) ، إلا ان هذا النمط لا يمثل إلا مرحلة من مراحل تطور مجمل الجغرافية ، ولحظة جدلية تتهيأ وتتحقق وتزول . أما الأدب ، فعلى النقيض ، تتعذر اعادته الى نمط محدد ،

وحتى الى قرينة أدبية محضة ، اذا أخذ في زمن معين ، لأنه يؤلف في التحليل الأخير مجموعة مواقف وأشكال ، تهم جميع الهيئة الاجتماعية(٤٩٨) . ويدفع مكانه في بنيات المجتمع ذاتها ، وقوة آلياته ، وقدم أصوله الى إدراج تاريخه عمليا في تاريخ المجتمع المقصود ، وفي تاريخ الأدب المعبر عن هذا المجتمع . ويفسر خلود الأدب ، الذي وجد قبل الجغرافية ويدوم بعدها ، قدرته على صهر شتى موضوعات الجغرافية(٤٩٩) ، كلما ظهرت الى حيز الوجود ، ويوضح لنا بجلاء إننا لا نستطيع ان نميز في دراستنا ، بين المصنفات التي تقدم على أنها جغرافية ، وبين المصنفات التي يبدو انها جغرافية وتنطوي على الجغرافية .

أما وقد أصبح وضع نمط المسالك والممالك واضحاً ، فكيف نصنف المؤلفات التي تعالج الجغرافية بصيغة الأدب ؟ هنا أيضاً ، تكمن القرينة . الوحيدة الصحيحة ، في حديث المؤلفين وفي الفاصل الزمني الذي يحتمل ان يقوم بين هذا البحث وبين الكتاب كما نعرفه . بالتالي ، سوف نميز ثلاثة مناهج في ما يمكن ان نسميه الأدب الجغرافي : ففي الفئة الأولى من المصنفات ، يأتي البحث موسوعيا ، وتعرض فيه الجغرافية بصورة طبيعية جداً ، مع سائر فروع المعرفة ، وفي الفئة الثانية ينفرد التقصي بالتخصص ، لكن في مجال غير مجال الجغرافية ، كالتاريخ مثلا ، وعندئذ تدخل فيه الجغرافية تتمة أو استطرادا ، أخيراً قد تصير الجغرافية في الفئة الثالثة موضوع الكتاب الوحيد في النية وفي الواقع على حد سواء .
ويوضح هذا التصنيف ، الذي يحدد على هذا النحو أقسام أبحاثنا الثلاثة في الأدب الجغرافي ، العقبات التي تعترض أداء لفظ هذا الأدب معنى واحداً ، لأن الأدب يتدخل على التوالي كمبدأ معرفة (رغبة بالشمول

أو بالأصطفاء) ، وكتعليل لاواعي (نزعة الى التفصيل الغريب أو الثانوي) ، وأخيراً كطريقة ، بتطبيق منهجي لبعض الأساليب على البحث الجغرافي . وهذا النهج الثالث واضح في كتاب البلدان لابن الفقيه ، ويتيح للباحث فرصا مثلى ، ينفذ بها عبر آليات الأدب . الى معنى الجغرافية المفهومة على هذا النحو ، ويكتشف بها مدى كونها جغرافية بشرية — وهذا المدى واسع جداً ، مثلما سوف نرى ، لكن اعتماداً على قرائن تغاير قرائتنا .

مع ذلك يتحتم علينا أيضاً ان نضيف نوعين من المعارف ، الى جملة ما يؤلف الأدب الجغرافي قبل الشروع بالتحقيقات المقترحة : أحدهما تقني ، يجد على هذا الأساس مكانه في هذا الفصل ، ويتعلق بأسعار السلع ، والآخر ، أهم من الأول الى أقصى حد ، نظرا لحجم مصنفاته ، ويأتي من أصحاب الرحلات ، الذين ستخصص لهم الفصل التالي .

قوائم الأسعار والسلع

هل نحن بصدد أدب تقني ، أم في صدد أدب لا غير ؟ نعود الى طرح هذا السؤال بشأن الموضوعات التجارية ، التي وردت في البدء في نصوص لا تقتصر على بحثها ، كما هي الحال في كثير من النصوص الاخرى . فقد صنف اليهودي ما شاء الله (٧٧٠ — ٨٢٠ م (٥٠٠)) كتاب الأسعار ، في السنوات الأولى من القرن التاسع ، بالتالي ، قبل ، الحركة العلمية الكبرى في عصر المأمون ذاتها . وعرض فيه نظرية تنجيمية محضة لآلياتها ، واعتبر ان حركات الأسعار ، كالمد والجزر ، أو الرياح أو المجتمعات البشرية(٥٠١) ، ترتبط باقتران النجوم أو بموقعها . وصمم كتابه كالمصنف العلمي ، فجعله سلسلة من النظريات(٥٠٢) ،

تحمل حدودها اسم الزهرة أو الشمس أو المشتري . لكن حذار من الحكم عليه على أساس هذا التذكر ، والأفضل ارجاعه الى التقليد الأسلامي . فقد جابه هذا التقليد الوسط التجاري الذي نشأ فيه ، واعتبر دوماً ان النجاح التجاري من صنع الله وحده ، وان الربح يقتضي ان يقف المستفيد منه موقف المؤمن : فعلى المستوى الأخلاقي ، يتمثل التحفظ هنا ، المستحسن دائماً في السعادة ، في الاكتفاء بكسب عادل أو بسعر عادل . وعلى المستوى الفكري ، يقبل الربح كما هو ، ولا يحاول أحد النفوذ الى أسراره . وتعتبر السنة العربية الاسلامية ان الذين يتدخلون في آليات الأسعار ، يرتكبون إثما فظيعا ، لأنها « بيد الله(٥٠٣) » . ويقف جميع الذين يريدون تحري هذه الأحداث علميا ، من الغرباء والمتشربين التقاليد الخارجية — الهندية أو الفارسية أو اليونانية — ضد هذا النوع من النواهي ، في هذا المجال وفي ميادين أخرى من المعرفة الدنيوية .

وما هو رأي الجاحظ ؟ يقول في كتاب الأمصار : « ان طول المقام من أسباب الفقر ، كما أن الحركة من أسباب اليسر (٥٠٤) » .

ثم يدعم أقواله بآيات قرآنية ويقول : «ألا ترى أن الله لم يجعل إلف الوطن عليهم مفترضا وقيداً ، صمتا ، ولم يجعل كفاياتهم مقصورة عليهم محتبسة لهم في أوطانهم ؟ (٥٠٥) » .

وبذا يعيدنا الى ثوابته الدائمة . فالجاحظ يحترم الاسلام احتراما كلياً ومستنيراً ، ويدافع عن الإكتشاف في هذا الاطار . فيضع نفسه في منتصف الطريق بين التقليد والتعصير ، ويتجاوز تقصيات ما شاء الله الخطرة ، لكنه يحتفظ للتجارة والسفر ، وهما مصدرا المعرفة ، بجميع حقوقهما : وهذا رد فعل يناوىء الفرس هنا أيضاً ، ويقاوم الأخلاق التي تحط من قدر التاجر لتعلي من شأن الكاتب(٥٠٦) . ثم يقبل التجارة

والسفر في هذا النموذج ، في عداد الموضوعات الأدبية، فيفتح مجال بحث موضوعات اخرى ، واجراء التحقيقات التقنية وادخال تحريات اخرى في الأدب .

ونمتلك وثيقة رائعة ، فريدة عصرها ، فيما نعلم ، عن التحقيقات التقنية . نقصد كتاب التبصر بالتجارة . ونرى ان نسبته الى الجاحظ واهية جداً . لكن يبدو تاريخ تصنيفه صحيحاً ، ولا ريب انه يعود الى ذروة ازدهار الحركة التجارية في العراق ، أي ٨٥٠ – ٩٠٠ م (٥٠٧) ، استنادا الى السلع الواردة فيه والى ذكر البلدان المجلوبة منها . ويعالج هذا المصنف نوعين من الموضوعات معظمه لوائح تقنية للسلع ، ويعين البلدان المنتجة لها ، ويحدد أسعارها أحياناً . وينطوي على اهتمام يماثل اهتمام مصنفات الجغرافية الادارية(٥٠٨) ، بصيغة متقطعة . فلعله حرر أيضاً لا حد كتاب الدواوين ، الحريص على الحصول على لائحة تجارية أساسية من أحد الخبراء(٥٠٩)) . على ان علاقات هذا المصنف بموضوعات الأدب ، تبذ الناحية السابقة : فبنيته محكمة بدقة ، وفي بدايته ونهايته مقطعان يتجلى فيهما الهام الأخلاق الفارسية(٥١٠(وتقنياتها. وتلقى فيه بعض تبسيطات الأصناف النفيسة أو التصنيفات التقليدية للسلع مكانة مرموقة(٥١١) لأنه نمط أدبي : اقصد أولا التمييز بين شتى الأصناف ، الذي يتم دائما تقريبا على أساس قيمتها(٥١٢) ، ويندرج بالتالي في نمط المقابلة (مقارنة أو تضاد) ، وقد ابنا من قبل أهميته(٥١٣) : فثياب مرو ، ومسك التبت ، وتفاح لبنان(٥١٤) ، تؤلف على هذا النحو ، مع نماذج وافرة ومصنفة ، نوعا من العرض العالمي ، تنقل فيه جميع بلدان الدنيا عادة مناظراتها الخطابية الكلاسيكية ،

أمام معروضات لا تتبدل . وفي الوقت ذاته ، ستخصص مطولات جديدة للتفريق بين أنواع الصنف الواحد هذه المرة ، الذي سوف يتناوله الجغرافيون(٥١٥) أيضاً . وسوف يدعم فقه اللغة هذه المطولات ، وتساعدها التركيبات الأدبية . وهذا الوضع مثالي عند ابن الفقيه ، الذي يجمع نظام التسميات الجغرافية ، متى تعلق الأمر بأراضي مفتوحة أو اعجمية ، الى النظام التقليدي المعجمي في جوهره ، عندما يعالج جزيرة العرب(٥١٦) .

ونوجز الآن الاستنتاجات التي يقودنا اليها عرض الموضوعات المتقدمة ، لأنها تلتقي بما توصلنا اليه في حديثنا عن الجغرافية الادارية والأدب . فهنا أيضاً ، يصهر الأدب المعطيات التقنية ، إما بتجميدها على حالها ، وإما بسبكها في قوالبه الخاصة . كذلك ، تستوعب الجغرافية الادارية الموضوعات الاقتصادية بطبيعتها ، فتأخذها تارة بصيغتها الأدبية الثابتة ، أو ترى فيها أحيانا ، خصوصا عند اليعقوبي ، حقلا جديداً مفتوحاً أمام فصول الجغرافي ،لا العرض النظري لبعض الموضوعات المفضلة ، بل التقصي المنهجي لناحية من نشاط البشر في البلدان المدروسه . فقد حول اليعقوبي الموضوع الاقتصادي من غاية بحد ذاته ، مثلما كان(٥١٧) ، الى عنصر بين سائر العناصر ، عائد الى معرفة العالم الحسية ، فثبت دوره الرائد في نمط المسالك والممالك المقبل .

بقي علينا ان ندرس الآن عنصرا آخر من المعرفة الجغرافية ، أي الرحلة ، تجارية كانت أم غير تجارية ، وان نحدد بدقة دوره في تكوين شتى موضوعات الجغرافية البشرية في تلك الآونة بشكليها الأساسيين : المسالك والممالك وجغرافية الأدب .

الفصل الرابع
الرحالة

« الاسفار رائعة ياصديقي . لابد ان يكون الانسان قد فقد اباه ، أو أمه ، أو خلانه ، أو حرم أصلا منهم ، لكي يهيم على وجه الارض ، ويتنقل من بلد الى بلد » .

(ديديرو ، ندوة عام ١٧٦٧)

الموهوبون

طار السندباد نحو السماء في رحلته السابعة والأخيرة . وهي قطعا أجمل رحلاته . فاكتشف العالم من على أجنحة طيور بشرية ، لكن ليس العالم الذي لم تكد قدماه تطآنه ، بل الكون برمته مباشرة . واغراه فعال بروميته ، وأطلق صيحاته في عنان السماء مع أقرانه الملائكة ، فجنى على نفسه ، وانطبق عليه القول المأثور : « لا تجرب الرب الهك » . فالانسان الطير لم يكن سوى ابليس ، ولا يفوز المرء البتة بالعودة الى الأرض ، وبالحصول على السعادة الوحيدة الممكنة ، بقرب عقيلة عفيفة جداً ، إلا بمعارفه(٥١٨) . ولم تنل المدينة النائية رومية العجائب ، حظاً أسعد . فجميع ما فيها من ألوان الجمال ، وجميع ما حظيت به من علم العالم ، تنكر للجمال الوحيد ، والمعرفة الفريدة . فقد كتب ابن الفقيه يقول : « لولا وجبة أهل رومية لسمع الناس تسبيح الملائكة ، ووقع غروب الشمس وشروقها(٥١٩) » .

مع ذلك ، لا يقلل وجود الرحلة واقعية عن فشلها . وقد صمد موضوع الاغتراب ، العزيز على قلب الجاحظ(٥٢٠) ، مثلما رأينا ، لا سيما انه يقترن ، في الوجدان الشعبي ، بنقيضه الحنين الى الأوطان(٥٢١) ونحن نقر بالحاجة الى السفر ، ونعترف بكرامته . وضرورته بديهية لما في العالم من خيرات . فالسفر يتيح فرصة الإثراء السريع وتوسيع الأفكار. ويمثل قصر سندباد انتصار روح المغامرة بالدرجة الأولى . وتردد نتائج الرحلة السابعة الحكم القديمة ، على طريقة ابن المقفع ، لكنها تحورها لتراعي منظور القرن التاسع التجاري(٥٢٢) . ولا يقتصر الربح على الناحية المادية وحدها ، بل تتوارى خلف التشرد أخلاق معينة ومعارف خاصة . فقد سمع السندباد الثري حمالا تعيسا يحمل اسمه يقول(٥٢٣) : « أردت ان تعرف السعادة لأنك تألمت ، وما الراحة لأنك تاضلت : فأنت رجل حقيقة . « وأجمل ابن قتيبة جميع هذه الأفكار فيما يلي : » « قالوا لا توحشك الغربة اذا آنست الكفاية ، ولا تجزع لفراق الأهل مع لقاء اليسار . وقالوا : الفقر أوحش من الغربة ، والغنى آنس من الوطن . . . وقال : الفقر في أوطاننا غربة ، والمال في الغربة أوطان » . ويخلص الى القول : « اغتربوا لتكسبوا . . . فان الغربة تخرج العمر(٥٢٤) » .

وقال ليفي ستروس : « تبرز طرافة المناطق المدارية رغم الإعراض عنها » ، ويمثل السفر اغترابا على ثلاثة مستويات « في الزمان والمكان والمراتب الاجتماعية (٥٢٥) » . فكيف يرى الرحالة العرب الاغتراب في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ؟ أرى الجواب واضحاً : تحقق أسفارهم الشروط الثلاثة السابقة ، لأنها تجري في أراضي غريبة عن

دار الأسلام ، وبالتالي في مجتمعات وأنماط حياة تنتمي الى عصور اخرى. وهذا لا يعني انعدام الاغتراب في دار الاسلام . فالواقع خلاف ذلك . الا ان الأدب الحضري شيء والرحلة شيء آخر . ولن يظهر ، وهذا مر معنا ، لا دمجهما في وصف واقعي وشخصي لمملكة الاسلام ، ولا الصياغة الخطية النهائية لرحلة في دار الاسلام ، كموضوع أدبي ، إلا عند الاصطخري وفي مصنفات المسالك والممالك ، في منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، ولا يستثنى إلا اليعقوبي وحده . ففي هذا العصر كتبت تصانيف كثيرة عن العالم غير الاسلامي ، كما لو ان الشعور بالوحدة الداخلية التي لا تتجزأ ، قد نقل حب الاطلاع الى الحدود ، فأمضت دار الاسلام ثلاثة قرون ، من منتصف القرن السابع الميلادي حتى منتصف القرن العاشر الميلادي ، لكي تكتشف تنوع البشر تحت شعار وحدة رسالتها .

ويمكننا توزيع المدعويين الى القيام برحلات ، مهما كان غرضهم ، على أربع فئات ، كما فعل ابن رستة(٥٢٦) : الفئة الأولى السابلة والتجار ، وهم كثر ونشيطون ، ثم الفيوج وأصحاب البريد ، وهم أشخاص مكلفون رسميا بتقصي الأخبار في بلد غريب أو بنقل رسالة الايمان الحق اليه ، ثم الحجاج والدعاة ، ويؤلفون فئة هامشية من عدة نواحي ، وأخيراً ، مثلما يقول ابن رسته ، « الآخرون » ، أي كل من يسافر ، لا لسبب سوى النهزة أو المتعة الشخصية . ويأتي هذا التصنيف عريض الخطوط بداهة : فيفصل ما يتداخل أحيانا ، كالتجارة ومهمة الاستخبارات مثلا ، أو حب الاطلاع الشخصي والسفارة . وعلى النقيض ، لا يشير أبداً الى فئة المجمعين الذين « صنفوا كتبهم في

الرفاهية(٥٢٧) » ووصفوا على السماع . أخيراً يحل هذا التصنيف نفسه كيفيا ، فيما يبدو ، محل تصنيف مبرر مثله ، يوزع المصنفات على المناطق المعالجة : كالشرق الأقصى (الطريق البحرية الى الهند والصين) ، وروسية الجنوبية وآسية الوسطى (الترك ، الخزر ، الروس ، البلغار) وامبراطورية بيزنطية (الروم) واروفي ، وأخيراً المناطق الجنوبية (النوبة وسواحل المحيط الهندي الافريقية) . مع ذلك لهذا التصنيف المتبع على علاته ، فضل إبراز بعض منظورات السفر الأساسية ، ويلتقي في أهمها بالتوزيع على المناطق الجغرافية : فاذا كانت التجارة ، في ما وصلنا من قصص ، قضية مرتبطة بالرياح الشرقية خاصة ، وبالرياح الجنوبية ثانويا ، فان السياسة توجه أنظارنا بالأولوية ، بأشكال السفارة أو التجسس أو الحرب ، الى المناطق الشمالية من تركستان الى أوربة المتوسطية . ونستطيع على وجه الدقة ، في كل حالة ، متى بقيت في ذهننا العلاقة المتبادلة بين التجار والسياسة ، ان نقدر من خلال نمط أدبي معين — قصص البحارة أو تقارير السفارات — وبالعودة الى الإطار الجغرافي ذاته ، تطور الذهنيات ، وحدوث التغييرات الطارئة على علاقات المؤلف بموضوعه ، ونصيب الواقعية والأسطورة ، على نحو ما يحتمل ان تظهر جميعها في دراسة اجمالية ، يحتل فيها المجمعون هذه المرة مكانتهم احتلالا طبيعيا .

التجارة والطرق البحرية في بحر الهند : أخبار الصين والهند

نعرف أهمية التجارة البحرية مع الهند والصين وافريقية الشرقية(٥٢٨) في القرن التاسع الميلادي . وحفظ لنا الأدب ذكر التجار والبحارة والنواخذة ، وأحيانا أسماءهم(٥٢٩) . ويعتبر كتاب أخبار الصين

والهند ، المجهول المؤلف ، المصنف عام ٢٣٧ ه / ٨٥١ م(٥٣٠) قصة من أقدم وأعظم القصص الواردة على لسان السفار . ويفتقر سردها الى الأصالة ، ويطبق تقنية الأخبار الممتحنة في موضوع كان لا يزال في أوج نضارته . ويتألف من مجموعة قصص متقطعة وجزئية ، رابطتها الوحيدة ، الخارجة عن المصنف ، هي الاحالة الى جغرافية الشرق الأقصى ، ولا يستخدم ، على المستوى الأدبي ، سوى التدوين الكتابي لقصص شفهية ، ينقلها بكلام عفوي متدفق . وينقص هذه « المجموعة من المواد الخام(٥٣١) » ، بجلاء الافصاح عن اسماء الأخباريين(٥٣٢). على ان هذا الاغفال لا يبدل شيئا ، لا من الذهنية ولا من المناهج .

ويفسر تقطعها ، من ناحية المبدأ والتأثير ، جانبين متناقضين ظاهريا(٥٣٣) منها . فمن جهة أولى ، لم يسم « أخباريوها باسمائهم ، وصيغت بأبعاد خاصة ، وبأسلوب شيق أيضاً ، فجاءت عينات أخبارها مهيأة بلجامعي الأدب . وهنا أيضاً ، تعرض كتاب أخبار الصين والهند الى الانتحال(٥٣٤) على نطاق واسع ، فاشبه مصيره مصير « الأخبار » المشترك . وتروى نبذة شهيرة دور هذه الأخبار هي والقصص والأمثال ، في أدب الترفيه المتعدد العناصر ، الذي كانت تطرب له الطبقات المثقفة(٥٣٥) . لكن لا يعني دخول معطيات أخبار الصين والهند في الأدب في وقت لاحق ان هذا المصنف أدبي بحد ذاته . فلا ريب اننا نفرط في الميل الى الحكم عليه على أساس التطورية اللغوية : وعندئذ لا يسعنا قطعا ان نفصله لا عن مصيره ، الذي تمثل ، منذ ظهوره ، في انتشار موضوعاته في الأدب ، ولا عن تواليه : لأن المصنفات المستلهمة مباشرة من هذه الأخبار ، مثلما سوف نرى — في ملحق أخبار الهند

والصين وعجائب الهند(٥٣٦) — برزت الى حيز الوجود بعد مرور مائة وخمسين عاما على أخبار الصين والهند . بتعبير آخر ، جاءت في جو طغى عليه الأدب نهائيا ، فيسر لنا قياس تأثيرات الأدب في المصنفات البحرية . لكن في عام ٤٣٧ هـ / ٨٥٠ م ، لم تكن تلك التأثيرات قد بدأت تفعل فعلها ويوضح لنا النظام اللغوي المتزامن الدقيق ان أخبار الصين والهند عفوية ، ولا مثيل لنضارة مواضيعها ، وانها مجموعة تقع على نقيض الأدب ذاته ، إما بسبب تاريخها ، وإما لأن جدتها تزدري بهدوء الأعراف والأساليب .

بالفعل ، لا شيء يفصم وحدة مصنف أخبار الصين والهند ، المخصص حصراً لموضوعات البحر والهند والصين . ولم تتبع كتابته ، كما قلنا ، عرضا أصوليا : فظروف جمع الأخبار ، وصفتها العفوية الساذجة ، جعلتاه سلسلة من الحكايات والصور . لكن لا تخرج العفوية الشاملة عن كونها فوضى أو استطرادا . ويسير سياقه بنظام داخلي يميزه تمييزاً جذرياً عن تقنية الأدب ، المبنية على دوام الانتقال من موضوع معين الى الموضوع التالي المشابه أو المعاكس له . ذلك ان الكاتب لا يظهر فيه ، فنتساءل ما اذا كانت دعوة الأدب الاجتماعية السامية سببا من أسباب تشتته . فقد كانت مهنة الكتابة في ذلك العصر ، بالنسبة الى كاتب منصرف اليها ، تختلف كلياً عن مهنة الكتابة كما نتصورها نحن في أيامنا الحاضرة ، وترمي لا الى تثبيت المؤلف كشخص منعزل ، بل كعضو في فئة اجتماعية بحقوقه كاملة . ومن هنا توضحت رغبة الكاتب الحقيقية ، أمام اللعبة المفروضة عليه ، لا بأن يتقن دوره ، بل بأن يقوم به تماما مثلما يفعل غيره ، أو أفضل مما يفعل سواه ، وبأن يدفع الناس

الى تقدير موهبته بمقدار ما يكتب . ويجعل هذا المنظور في النهاية الكاتب جامعاً ، والتصنيف ذريعة للتباهي . خلافا لذلك ، ينصرف الكاتب ، في أخبار الصين والهند ، الى دور المدون ، فيتلاشى أمام موضوعه . ولا يتجه اهتمامه الى المعيار الاجتماعي ، بل الى الحقيقة المجردة . ويتخلل التدوين المكتوب ذكر أصحاب الأخبار أنفسهم بأمانة ، وورود بعض الأقوال ، مثل « كنت هنالك » ، و « حدث لي كذا » ، باختصار ، المشاهدة العينية المباشرة (العيان) ، التي طغت على النثر العربي(٥٣٧) في منتصف القرن التاسع الميلادي .

ونلقى برهاناً آخر على اهتمام أخبار الصين والهند بالسرد الموضوعي ، ولو على حساب العجيب المستظرف : فالاخبار تؤخذ من التجار لا من البحارة . بالفعل ، يعرف الملاحون البحر معرفة جيدة بالدرجة الأولى طبعا ، ثم الساحل بشواطئه ومرافئه — حسبما يرونه من جهة البحر على الدوام . خلافا لذلك ، يرى التجار داخل البلدان التي يقيمون فيها سنوات طوالا أحياناً ، بعد اجتيازهم البحر وواجهة القارات(٥٣٨) المينائية . وبذا تصبح تدويناتهم رصينة ومفهومة . على هذا المنوال ، يلاحظ ان التجار ، كلما ازداد طغيان الأدب ، يتخلون عن دورهم الأدبي الى النوتيين ، الذين عرفوا بتبجحهم ، وخبرتهم في ميدان خصوا به ، وترويج القصص التي يصعب التحقق من صحتها(٥٣٩) .

فما هي الرؤية ، التي يحصل عليها التجار من البلدان التي يقيمون فيها ، ولو عرضا ؟ ان أنظارهم تتجه في البدء عادة الى المحاصيل المحلية والعملات(٥٤٠) . مع ذلك ، تقتضي ضرورات اقامتهم الطويلة وعلاقاتهم بزبائنهم ، في معظم الأحيان ، ان يوسعوا اهتمامهم حتى

يشمل وصف المجتمع الهندي أو الصيني بأجمعه . وهكذا أصبحت أخبار الصين والهند على نطاق واسع(٥٤١) ، مصدر معلومات عن التنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، القائم في البلدان المجتازة . ولا يجوز اطلاق اسم العلوم الحديثة من اتنوغرافية أو انتروبولوجية أو جغرافية بشرية ، على تلك المعلومات ، إلا اذا سلمنا انها تنطوي على مناهج وذهنية مختلفة عن مناهجنا وذهنيتنا في الغالب . على اننا نستطيع ان نجد في أخبار الصين والهند كثيراً من التصورات المسبقة لذهنية علمية حقيقية ؛ حريصة على عرض الوقائع وحدها : أمثال ذكر نظام الطبقات أو الصراعات السياسية في الصين(٥٤٢) ، وعدد الصين كالنمل)٥٤٣(، وتسترعي هذه الأمور انتباهنا ، كما تسترعيه بطاقة الاخصائي ، بموضوعية الخبر ، وبالايجاز الأساسي في الأسلوب . ففي الحديث عن الثياب الصينية ، أو في ايراد نبذة جغرافية بيولوجية ، نعثر على الفكرة القوة لعلاقة موقع البلاد بالظاهرات الطبيعية أو البشرية فيها(٥٤٤) . وتضللنا هذه الموضوعية ، لأنها لا تتعدى ممارسة القدرة على الرؤية أو التدوين فحسب . فمتى ارتفعنا الى معايير الحكم ذاتها ، اكتشفنا دائما الرجوع ، صراحة أو تلميحا ، الى الاسلام . ويفسر الاهتمام بالمجتمعات الغريبة في جميع أخبار الصين والهند ، بقدرة هذه المجتمعات السامية ، بشكل تماثل أو تناقض ، على التذكير بالمجتمع الذي ينتمي اليه المصنف : فالاحالة الى المجتمع الأسلامي تأتي أحياناً صارخة ، كما هي الحال في الحديث عن العادات الغذائية(٥٤٥) ؛ أو تجيء أحياناً أخرى مصاغة بألفاظ تنم ، دون علم الكاتب ، عن ذهنيته(٥٤٦) ، إلا انها تستتر في وصف الصين والهند الاجمالي(٥٤٧) .

لذلك ، لا يجوز التحدث عن الموضوعية في أخبار الصين والهند ، بل عن التسامح ، لأن الحكم ، عن عمد أو عن غير قصد ، يعاد الى معايير قيمية . ولا يشك أحد ان هذه الجغرافية البشرية أو هذه الانتولوجية صادقة ومفهومة ، لكنهما لا تتناولان مطلقا نوع معرفة الحقيقة ، المفروضة مسبقا(٥٤٩) . وتتجلى رؤية العالم الانوية هذه أيضاً في المجال الاقتصادي ، لتناقض تسجيل الأحداث التجارية جزئيا مع واقعها : لأن العلاقة التجارية ، هنا وفي كل مكان ، وان كانت المراكز العراقية في القرن التاسع الميلادي ، المحرك الأول للتجارة مع الشرق الأقصى ، تنطوي على تبادل متقابل ، ونعلم نحن مثلا ، حتى لو أهملنا التحدث عن مقايضات التجار العرب(٥٥٠) في الخارج ، ان التجارة الصينية وصلت من جهتها حتى غرب بحر الهند ، وبلغت سيراف ، أقصى مرسى ملاحة وشحن دخلته سفن مدينة كانتون(٥٥١) . وفي العهد ذاته ، الذي كانت فيه هذه الحركة التجارية كثيفة في الاتجاهين(٥٥٢) ، لا يرد في أخبار الصين والهند ، ولا في كتاب التبصر بالتجارة ، المعاصر لها ، إلا ذكر المواد المجلوبة الى العراق — كالعنبر ، والكافور ، والحجارة الكريمة ، والمعادن ، والخشب الثمين — دون غيرها من المواد(٥٥٣) : بالتالي تستغني هذه الرؤية عن فكرة التبادل الاقتصادية وتحل محلها مفهوم الحاجة الوحيدة الاتجاه .

وتنطوي أقوالنا على نتيجتين . فمن ناحية أولى ، اذا اختلفت الجغرافية البشرية التي تحيل دوماً الى مجتمعها ، في هذه النقطة بالذات ، عن صورة المعرفة التي نتخيلها في أيامنا الحاضرة ، أجاز لنا هذا الانحياز ان نعتبر ان دراسة دار الاسلام امتدت طبيعيا حتى شملت دراسة

المجتمعات الغريبة ، اذ ان الاسلام يستشف دائما فيها من بين السطور ، وسوف نحاول في الوقت المناسب ان نبرز صراحة درجات هذه العلاقة . من ناحية ثانية ، اذا بقينا في منظور عودة الجغرافية الى ذاتها ، وفهمنا الغريب بما يقربه وما يميزه عن دار الاسلام ، من لا يدرك ان حركة الفضول الطبيعية البسيطة ، سوف تتجه حتما أولا الى الاختلافات الشاذة ، الى كل ما يجعل البعيد مثيل القريب ؟ بالأولى ، لا بد ان يحدث الشيء ذاته في المجتمع الذي يكيفه ذوق معرفة مرفهة ، يجعل العجيب أساساً من أسس الأدب . وهكذا سوف تحبو الظروف التاريخية والوسط الاجتماعي والثقافي « أخبار الصين والهند » تتمة منطقية تتمثل في جغرافية العجائب(٥٥٤) .

أبو زيد السيرافي : اعادة النظر في أخبار الصين والهند واكمالها

كتب أبو زيد السيرافي ، وهو أحد أخباريي المسعودي ، في أوائل القرن العاشر الميلادي ، ملحقا لأخبار الصين والهند(٥٥٤) ، تبرز فيه فروق أساسية تجعله مختلفا عن المصنف الأصلي . فالمؤلف ، على حد قول فران ، « ليس رحالة ولا بحاراً ، بل عالما فقط يهتم بالجغرافية » . وهذا صحيح . لكن تنطبق هذه الصفات أيضاً على كاتب أخبار الصين والهند ، ولم يتغير النهج في المصنفين ، بل تبدل اتجاه « الجغرافية » ذاتها . بالفعل ، لأول وهلة ، يثير الانتباه عند قراءة الملحق ، تزايد أهمية قصص البحارة . ويصعب أحيانا التفريق بين النوتيين والتجار(٥٥٦) وتستغل بعض قصصهم ، كالتي تصف البال ، حقلاً مطروقاً من قبل(٥٥٧) ، لكن تظهر في الملحق معطيات تهم الملاحين ، ان لم يكن بالدرجة الأولى ، فحصرا ، لا سيما المعطيات المتعلقة بشروط الملاحة

أو بتقنيات بناء السفن(٥٥٨) . ويظل البحارة وراء مقاطع كبيرة من المصنف ، وان كانوا لا يبالون صراحة إلا في سياق ورود التدوينات . ويجب ان نعزو اليهم تزايد العجائب في الملحق ، رغم ان أبا زيد يؤكد في خاتمة كتابه تأكيداً رائعاً انه يرتاب بهم ويحرص على الخبر الموضوعي(٥٥٩) وحده .

وسواء اعتبر البحريون مصدر العجائب المباشر ، أو على النقيض ، جعلت قصصهم انعكاس ميل منهجي الى الغريب تميزت به ثقافة العصر ، فان العجائب أصبحت تروى عن البحر منذ تلك اللحظة . وارتبط هذا الاتجاه أولاً بالظروف التاريخية : فقد قلنا سابقا(٥٦٠) ان ازدهار التجارة مع الشرق الأقصى بلغ أوجه في القرن التاسع ، ثم تطور نظام المبادلات تطوراً حاسماً . وعندما يقول أبو زيد(٥٦١) « ان مدينة قلة سوق الصبر والكافور والصندل والعاج والقصدير والابنوس والعود والتوابل والعطور » ، فهو يدون حدثاً تاريخيا ، أي تراجع وصول الملاحة العربية من خانفوه الى مضيق ملاقة ، واحلال شبكة مراكز تجارية في المرافىء ، عوضت عن العملاء التجاريين العرب في داخل البلدان المقصودة(٥٦٢) بعيدا عن الساحل . وهكذا ، انتهى ، فيما يبدو ، عصر التجار المقيمين العظيم ، فكيف نعجب لأن نصاً مثل الملحق شرع في مطلع القرن العاشر يستبدل التجار بأشخاص جدد ، بحريين كانوا أم منولين ، ممن يمضون حياتهم في تجوال مستمر ، ويحفظون من أسفارهم الى البلدان غير الأسلامية أسماء البحار التي وصلوا اليها على وجه التخصيص .

وما وجه الغرابة اذا أفادت العجائب كثيراً من التغيير ؟ فأعمال الحضر اليومية ، لا تهيمن على أذهان الناس ، بل يتسلط عليها الرحالة

الدائم التنقل والتاجر التائه : ومهما كان عصر ولادة السندباد ، فسوف يخلد بأسفاره وبرحلاته البحرية . وقد انفتح أمام عشاق البلدان الغريبة طريقان ، منذ ظهور الملحق : أولهما اضافة الرحلة تلو الرحلة ، والسعي وراء المجهول في أنحاء عروض أخرى : فبعد ان اختفى ذكر الشرق الأقصى تدريجيا من الخريطة(٥٦٣) ، حلت محله(٥٦٤) سقطرة وبحر القلزم ، وسواحل المحيط الهندي الافريقية . لكن يمكن ثانيا البقاء في جهة معينة من العالم ، والاغتباط في الحديث عنها ، وسرد الأسطورة تلو الأسطورة ، بقوة تتناسب مع تنائي الماضي البعيد ، وضآلة معرفة البلد . أما الملحق فقد زاد مواضيع قليلة(٥٦٥) الى ما ورد في أخبار الصين والهند عن الشرق الأقصى ، لكنه تبسط فيها بالمقابل ، في اتجاه الأوهام الخيالية . فبالغ أولاً ببساطة تامة في معطيات المصنف الأصلي . فاذا تعاطى الصينيون أكل اللحوم البشرية في ظروف ترتبط بالسحر السياسي ، أصبح هذا الحدث خاصة من خصائص بلادهم ، التي تعتبر هذه الممارسة فيها عقابا ، في حالة الزنا مثلاً ، وتحول الى نص نافذ من أحكام قانون العقوبات(٥٦٦) . واذا عودت أخبار الصين والهند الأذهان على فكرة قداسة العباد الهنود ، تنطلق سيرورة مماثلة : فلا يكفي ان يبقر الانسان بطنه ، قبل ان يلقي بنفسه في اتون النار ، ويقتطع كبده ، بل ينبغي ان يقوم بجميع ذلك ، وهو مستمر في الحديث العادي مع من يحيط به(٥٦٧) من البشر . ونحن نرى من خلال هذين المثالين المختارين من بين أمثلة كثيرة اخرى ، كيف يتم في مجال الرحلة تنهيج أدب العجائب الذي سوف تكرس عناوين مصنفاته ظهوره نهائيا في وقت مبكر ، أمثال عجائب الهند ، ومختصر العجائب(٥٦٨) .

وظهر في الوقت ذاته اختلاق اسطوري بشكل أدبي متطرّف ، أعني الاختلاق الذي يستغنى فيه دوماً عن تقنية التكوين الصرف ، ويستعاض عنها بالسرد المتواصل . مثلا اكتفت أخبار الصين والهند لكي توضح موضوع توزيع الخصائص المتوازن بين شتى الأمم وهو موضوع كلاسيكي في الأدب ، خصوصا عند الجاحظ(٥٦٩) ، بأن تقول : « وأما الصين فاهل ملاه » و « لهم الغضار الجيد » و « لهم علم بالنجوم ، وذلك بالهند اكثر » أو أيضاً « الطب بالهند والفلسفة »(٥٧٠) . أما في الملحق ، خلافا لذلك ، فترى في الصين ظهور قصة حرفي انتقده رجل من الشعب ، لأنه صور ساق شتلة قمح مستقيمة ، لا تميل تحت ثقل الطير الواقف عليها(٥٧١) . ورب قائل يقول ان الموضوع أدبي يتكيف مع أمثال هذه القصص المسهبة . لكن يعثر على الظاهرة ذاتها في جميع الأماكن فيما يتعلق بالظاهرات الطبيعية أو المؤسسات : فاسطورة الثعلب والصدفة(٥٧٢) تتخلى عن حكمتها الشائعة لتوضح هنا ملاحظة تتمثل في ان « المحارة تحتضن اللؤلؤة بعناية قصوى ، مثلما تحتضن الأم طفلها(٥٧٣) ، في حين تحتل القصة الأخلاقية حيزاً أعظم أيضاً : فأبو زيد يحكي مثلا(٥٧٤) قصة ملك حمير الشاب ، الطائش والمغرور ، الذي أراد يوماً من الأيام ، ان يجلب له على صينية رأس جاره القوى « مهراجا جافاغا ، الملك المستنير والحازم ، الذي استاء من حديث ملك حمير ، فسير حملة ضده ، وعاقبه بما كان يحلم ان يصنعه بغيره ، وعاد أدراجه الى بلده بعد ان ترك مملكة حمير ورعاياها على حالهم ، وهنأ الوزير الحميري لأنه حاول في الوقت المناسب ان يردع الملك الفتي الطائش . فلا شيء ينقص القصة لا ذهنية كليلة ودمنة ، ولا اللهجة الأخلاقية ، ولا الصيغ ، ولا الميل الى العدالة التوزيعية أو أخلاق

الملوك ، باستثناء ان أخلاق الملوك بدلت هنا البلد ، وتركت فارس أو الهند ، لتذهب نحو الشرق . أخيراً ، وخصوصا . يقول أبو زيد في منتصف حملة المهراجا : اتجه الملك نحو مملكة حمير . ويستاك الملك وصحبه ، ويتسوكون عدة مرات في اليوم الواحد . ويحمل كل منهم سواكه ، ولا يفارقه أو يعهد به الى عبده ليحفظه له . ولم تخطر هذه الأمور بخلد ملك حمير إلا عندما . . . » . ويرينا هذا المثال كيف يتم تأديب الموضوعات بالانتقال الى القصة المتصلة . وهنا يندرج سواك ، يشير اليه نص قديم من أخبار الصين والهند(٥٧٥) ، بسبب مايوحيه من أوجه الشبه بعادات دار الاسلام في قصة معينة ، ويشترك في اظهار العجيب في القصة .

إنما في الأمر ما يزيد عن هذه الناحية ، فالقناعةوالحكمة والسعادة والنجاح ، تلازم جميعها جانب الذين يتقيدون ، بأقرب قدر ، بأعراف شبيهة باعراف دار الأسلام . وقد مر معنا ان أخبار الصين والهند لم تخل من هذه المقاربة ، لكنها كانت تصاغ عادة بطريقة موضوعية تترك للقارىء ذاته استخلاص الحكم القيمي صراحة . أما في الملحق ، فعلى النقيض ، تصبح اللهجة قارصة جداً ، ويظهر الاتهام والحكم القاطع . باحتقار ، يمليه شعور الانتماء الى الايمان الصحيح وحده ، أناس يشوهون أنفسهم بدافع التبجح ، أو يقامرون بالنرد على أصابعهم المقطوعة ، وملوك يعهرون بناتهم ، وممارسات يتصور الانسان فيها بوقاحة أنه وجد وسيلة الاتصال المباشر بالله(٥٧٦) . ويقول أبو زيد : « نحمد الله لأنه طهرّنا من هذه المعاصي » ، التي يعتقد « الاغراب » انهم يجزون عليها(٥٧٧) . ويتجاهل أدب الرحلات الإطار المحلي ، الذي

يجري تقييمه لا معاينته ، فينطوي على ذاته ، ويتحول الى اسلامي محض : ولعله يعبر بهذه الطريقة على مستواه ، عن سيطرة التجار المسلمين أنفسهم على البحر ، مثلما مر معنا ، عوضا عن الصينيين الذين شلت حركتهم صراعاتهم الداخلية . ويردد حدث هذه السيطرة التاريخي ، أو بالاحرى هذا الانفراد الاسلامي بالبحار ، في النصوص ، صدى الحماس الديني والقومي ، فيحافظ هنا في جوهره على تقليد ناشىء من الأدب . وثابر الأدب في وقت مبكر على ايضاح الدور الهام الذي لعبه العرب فعلا في الملاحة ، ليس فقط في عصر التجارة البحرية العظمى ، بل حتى في القرن التاسع الميلادي ، الذي اعتبر العرب روادا فيه(٥٧٨) . فبهذا المعنى ، يجب ان نفهم قول الجاحظ الجازم وقول ابن رسته الذي نقل عنه(٥٧٩) ، ان الحجاج والي العراق الأموي الشهير ، المتوفى عام ٩٥ هـ / ٧١٤ م ، أول من اجرى في البحر السفن ، لا المخروزة ، بل المسمرة والمقيرة .

وهكذا دفعت الظروف التاريخية ، ودعمها نفوذ النماذج الثقافية ، الأدب الى تغيير وجهة نظره الأولى مدة من الزمن والتطلع الى الشرق : ففي حين انزلت أخبار الصين والهند البحار الى المرتبة الثانية ، واهتمت بالاراضي وما عليها من بشر ، حرصت المصنفات اللاحقة ، التي انغلقت بعض القارات في وجهها ، على الغريب ، وتمسكت بالبحر ، ولم تعد ترى في البلدان المجاورة لليم — فقدت أم لم تفقد — إلا شيئا ثانويا ، وذريعة لسد أقوال مكررة وقصص وعجائب(٥٨٠) . وهنا ، كما هي الحال في الجغرافية الادارية(٥٨١) ، يجب التفريق بين بقاء المصنفات الروحي وبين بقائها الأدبي . ولا يرتبط حب الاطلاع ،

الموضوعي أو المتساهل ، في أخبار الصين والهند ، بالميل المنهجي الى الغريب الذي يوضحه الملحق وعجائب الهند ، ويضحيان فيه بالواقع (٥٨٢) في معظم الأحيان . أما الورثة الحقيقيون لأخبار الصين والهند ، فقد جاوزوا بعد ذلك بكثير ويتمثلون في ضروب وصف الرحلات الى الشرق الأقصى ، التي كتبها مثلا ابن بطوطه ، أو لم لا ؟ ماركوبولو قبله : فهذه النهضة ليست تلقائية ، لأننا أصبحنا في عهد ، امتد فيه السلم المنغولي حتى الصين ، وفتح مجدداً أمام حب الاطلاع البشري البلدان التي كان يستحيل الوصول اليها أو أهملت منذ القرن العاشر (٥٨٣)

كتاب عجائب الهند

صنف كتاب عجائب الهند بعد انقضاء قرن كامل على ظهور أخبار الصين والهند . ولا يعرف أحد بالضبط عنوانه ، ولا اسم مؤلفه (٥٨٤) . وهو يتناول من جديد مواضيع أخبار الصين والهند وملحقها ، ويضخمها تضخيما اسطوريا . وقد جاء في مقدمته ان الله جعل تسعة أجزاء عجائب العالم من أصل عشرة في ركن الشرق ، فأصبح الشرق جديرا بشتى الاهتمامات . واتضح على الفور الانحياز الى جانب العجيب ، فبرزت عمليا سيطرة الخوارق على الهام الكتاب ، واحتجب البر وراء البحر ، والانسان أمام الحيوان ، والبلاد الأجنبية أمام ظفر دار الأسلام .

ولم يقيض البقاء إلا للجزر ولافريقية الشرقية والهند دون غيرها ، وتوارت الصين في الظلمة فلم تعد تخرج منها إلا لتسلط أضواء متقطعة على بلدان ، تحييها الأسطورة وحدها في ذاكرة البشر (٥٨٥) . على ان جواً اسطوريا اكتشف هذه البلدان ذاتها ، لا على التمييز ، في معظم

الأحيان . فتوضع على مستوى واحد الهند وبلاد الواقواق(٥٨٦) ، وسرنديب وجزيرة الحيوانات البحرية(٥٨٧) ، لأن الأراضي المقصودة أو المحكي عنها ، أصبحت ترتبط من الآن فصاعداً بالبحر وبما يتناقله من أحلام . فالبحر يسيطر هنا بلا منازع ، ولا ينفصل في عجائب الهند ، الهواء الذي نتنفسه ، المشبع بالملح ، عن ملح الأسطورة الآخر الذي تنشره السفن والبحارة وراءها في جميع بلدان العالم ، على انه أمر ثابت يفضل جميع سلع شحناتهم . وتتألف لوحة البحر من صوره المتناسقة ، وألفاظه وتقنياته ومناظره ، والواجبات الأدبية المفروضة فيه أيضا(٥٨٨). فالبحر عالم آخر ، تقيم « دوابه » في كهوف جباله ، وفي غابات وشعاري ، وأشجار هائلة ، أهول وأعظم من شجرنا فوق الأرض(٥٨٩) » . فجميع الذين يتوقعون ، مثل أوليس ، « ان يتمرغوا على الأرض » المكتشفة من جديد ، « شوقا اليها بعدما قاسوه من أهوال(٥٩٠) » ، عاشوا في رهبة ظلال هائلة لامواج رفعتهم الى السحاب ، وخفضتهم الى التراب ، وفي « اتصال قيار البحر مع ضباب الجو » ، وفي هدير الرياح في القلوع والحبال(٥٩١) ، وكان المركب في النهاية قد دخل تحت سهيل ، وحكمت البحار والرياح عليه حتى لم يعد له رجعة ، على نحو ما جرى لسفينة ارثور غوردون بيم ، فبلغ منطقة تشتد حرارتها ، وتتناقص ظلمة بحرها مع نار تملأ الأفق ، « ترى من بلد الأندلس»(٥٩٢). فعالم البحر هنا ، القائم بحد ذاته ، البعيد جداً عن عالمنا ، يطبع بطابعه في جميع الأماكن ، كل من يكتشفه من بحارة تجار ، تنم قصصهم عن التبجح ، والعنف ، وحب الخداع والمال : فهم يتحدثون بأعلى صوتهم عن أخطار تحف بمهنتهم ، ويبالغون في سرد مآثرهم(٥٩٣) ، ويعاملون

وكابهم بصلف(٥٩٤) ، ويغتصبون البنات ، ويخربون الديار(٥٩٥) ، ويجهرون بثرائهم ولا يكفون عن الشكوى من طرق جباية العشور(٥٩٦).

من ناحية اخرى ، يلقى البحريون التجار ، أثناء أسفارهم الطويلة ، كائنات غريبة ، تكسبهم مخالطتها تصرفا يقع على هامش المجتمع . ويشاهدون « دواب » البحر قبل غيرها : فيقدمون عالم البحر ، ويسيطر فيه البال ، والسرطان ، والسلحفاة ، وأسماك متمايزة الى حد كبير (٥٩٧) تقديما طريفا جداً ، يفرقه عن عالم البر ، الذي لا يشار فيه إلا الى حيوانات يمكن مقارنة خصائصها بخصائص حيوانات البحر : كالأفاعي ، والنمل ، والقردة ، والفيلة ، والتماسيح ، والطيور الأسطورية(٥٩٨) . وتحوم هذه الطيور فوق العناصر الأربعة(٥٩٩) ، فترمي جسراً فوق مجمل العوالم ، يتخذ قيمة رمز . واذا كانت أحاسيسنا تشعرنا باختلاف المشاهد الطبيعية في هذه العوالم ، فلا انقسام أساسي بين الكائنات القاطنة فيها ، ويؤول دوام العجيب ، اذا تعمقنا فيه ، الى انعدام الانقطاع بين الممالك أو الأجناس أو العناصر : فمثلما ينقدح النار من اضطراب الأمواج وتكسرها(٦٠٠) ، يصبح « كل طائر في الهواء ، وعلى وجه الأرض ، في البحر ، من السمك مثله أو ما يشبهه(٦٠١) » . وتمثل الحيوانات الوارد ذكرها في عجائب الهند ، كائنات مركبة في جوهرها : كالسمندل ، والتنين ، والسمك الطيار ، والعقارب الطيارة والدابة ، التي تصير الذكور منها مرة أنثى ومرة ذكرا ، والأنثى كذلك(٦٠٢) ، يدين بمركزه هذا لاتحاده بأجناس أخرى كثيرة ، ان لم يكن لأنه يطبع النباتات ذاتها(٦٠٤) بطابعه الخاص : وهذا موضوع شائع عن التسافد البيولوجي ، إلا انه معروض في منظور يغلب فيه الحرص على العجيب

مرة أخرى ، بعد تضحية الرصانة التي كانت تتصف بها مصنفات الأدب الأولى(٦٠٥) .

وعلى هذا النحو ، يتخذ كتاب عجائب الهند ، بصوره ، وبما يستثمره من مواضيع ، شكل مجموعة قصص ، لا تدوين وقائع فقط . فالخدعة ، والمغامرة ، على طريقة السندباد ، تسودان فيه على نطاق واسع ، ويتراءى فيه(٦٠٦) خيال بوليفيم وبنات البحر . وكانت أخبار الصين والهند قد بدأت بارساء نوع من الذهنية العلمية ، تعرضت هنا الى تشويه بالغ ، قبل ان تزول تماما ، إما في مجموعات من القصص المحضة ، كألف ليلة وليلة ، أو في موسوعات حقيقية عن الغرائب ، أو في مختصر العجائب(٦٠٧) . ولا ريب ان هذا التطور مألوف ، اذا قارناه بتطور مصنفات الأدب ، لأنه يندفع دائما قدما في البحث عن الغريب . مع ذلك ، نجد فيه نواحي اضافية : ففي عصر كتابة عجائب الهند ، في منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، كانت الأخلاق الإسلامية قد تجاوزت نهائيا مرحلة تكوينها . فنجاح ابن قتيبة ، المتوفى منذ خمسين عاما ، حبا الفكرة الإسلامية ، شرعة واجبات ، تؤلف « مبادىء أخلاق السنة » ، التي يدعمها في الأذهان ، الاعتياد الديني والاجتماعي على اسلام مضى عليه ثلاثة قرون(٦٠٨) في تلك الآونة . ولم يأت قط ظهور الأخلاق الإسلامية ، أو قل وعيها ، غريبا مطلقا عن اعطاء الحكم القيمي ، وعن تضخيم المسافة بين المراقب وموضوعه ، فجميعها ظاهرات توضحت من قبل في أخبار الصين والهند ، مثلما مر معنا ، لكنها ازدادت جلاء بظهور المصنفات . وهكذا نلقى الموقف الإسلامي ، شئنا أم أبينا ، تراث علم النفس الكلاسيكي ، الذي يعارض

نظام العقل والفضيلة المشترك ، بنظام الغريب والشرير . وتفرض رسالة الإسلام نفسها على جميع الأمم ، ويذكر المرء بمبادئه باستمرار(٦٠٩) ، فيشعر انه التعبير الوحيد عن حقيقة الانسان ، الذي يتسامى به ؛ ولا يخلو من الاعتزاز قول أحد الافارقة : « عرفوا المسلمين ان يأتونا ، فإنا نحن قد صرنا إخوانا لهم مسلمون مثلهم(٦١٠) » .

وهكذا تبين لماذا يمثل الشرق والبحر مواضيع مفضلة(٦١١) : فهما يجمعان ، في غرائبهما ، مشاعر متناقضة من الجذب والرفض ، يحس الانسان بهما دائما نحو عالم يعتبر نفسه انه يقع خارج نطاق الشريعة الإسلامية . وعلى هذا الأساس ، تتضح الازدواجية — أو الرياء والمداهنة — الأساسية في عجائب الهند : فمقابل الحرص على تحديد موقع الأحداث في الزمان والمكان(٦١٢) ، تبرز الاستعانة بالله ، الذي يسير الأحداث ، لا سيما ان هذه الأحداث المقبولة ، مثلما قلنا منذ قليل ، تتجاوز مقاييس التصديق والعقل(٦١٣) . على هذا المنوال ، يزداد الابتعاد عن الحقيقة قبليا ، وتغلب الرغبة بتصديقها ، كلما تضخمت الأسطورة(٦١٤) . اذن تجري الأمور ، كما لو قصد اجتذاب القارىء الى غرابة الموضوعات ، واقناعه بصحتها بدقة المنهج ، وصرفه ، باسم المقتضيات الدينية ، عن التمتع بها أو عن الاستلهام منها في أضعف الاحتمالات . وهكذا ، استبدل الأدب ، على مر الأيام ، ذهنية البحث بذوق العجيب ، ولعله توخى في النهاية ان يحقق ما يفوق نوعا من فن الكتابة أو المعرفة : فهو ينسب الى « عالم

آخر » التعطش الى الغريب واللاعقلاني والخطيئة التي يحملها الانسان في طياته ، فيفترض مسبقا ، ويحفظ بآن واحد ، تجانس دار الاسلام من التصدع . ولعل هذا الحرص الكامن على الدفاع عن الدين جعل البحار والأراضي تدين له ، في التحليل الأخير ، مثلما قلنا سابقا(٦١٥) ، بظهورها المبكر في أدب الرحلة .

الطريق الشمالية والرحالة الرسميون : ابن فضلان

لا تغيب الاهتمامات التجارية لا عن الواقع ولا عن المصنفات(٦١٦) اذا اتجهنا الى الشمال . لكنها تندمج في اطار عام تحتل فيه الأغراض السياسية مكانة كبرى . وكان الحرص على الدفاع عن جبل القبق وخراسان(٦١٧) ، ونشر الإيمان أيضاً ، منذ العصر الأموي(٦١٨) ، واجبا ملقى على عاتق الخلافة أو امارات الثغور(٦١٩) . وتفسر الحاجة الى معرفة الخصم أو الإقطاعي المحتمل ، ومعرفة عاداته وأراضيه ، كثرة الرحلات أو البعثات الموفدة ، وتعلل تمكن الأدب العربي من حفظ ذكرى التقارير المدونة في تلك المناسبات ، وأحياناً نصها : واذا كنا لا نعرف محمد بن موسى ، والجرمي ، وسلام الترجمان ، في أفضل الاحتمالات ، إلا من خلال مقاطع من مصنفاتهم ، نقلها كتاب آخرون(٦٢٠) ، فان التاريخ أبقى لنا ثلاثة نصوص أساسية أحدها لابن فضلان ، والاخران لأبي دلف مسعر .

وتحمل جميع تلك النصوص عنوان « رسالة » الكلاسيكي ، الذي ينبئنا بما فيه الكفاية بمرامي مصنفيها ، ويحدد نطاق حديثهم(٦٢١) : فالمقصود تقديم معلومات ، استجابة لطلب مفروض أو حقيقي ، عن موضوع معين ، دقيق ومبين ، لا تتوضح صفته بعنوانه بقدر ما تتجلى

في ما يؤول اليه تفصيله من أبعاد متواضعة دائماً . وكانت « الرسالة » منتشرة من قبل على نطاق واسع في الأدب(٦٢٢) العربي ، ترد في الأدب الاداري ، وتعد عنصرا منه وامتداداً له في موضوع الثغور الأساسي . فهي عنصر منه ، لأن معطياتها أدرجت في مصنفات الكتاب ، حسب ذهنية أشرنا اليها سابقا(٦٢٣) : فابن خرداذبه ينقل عن سلام(٦٢٤) في حين ينهج الجيهاني طريقته ، فيأخذ عن كثير من السفار ، وربما عن ابن فضلان(٦٢٥) نفسه . وهي امتداد له أيضا ، لأنها تحيا أيضاً ، من الناحية الأدبية ، حياتها الخاصة ، وتستخدمها الجغرافية الادارية في الوقت ذاته : بالتالي تستعيض الرسالة عن بقائها محصورة في اطر يحددها لها تعريفها الأول — وثائق دواوين أو مصنفات انبثقت عنها — باحتفاظها بصيغتها الأصلية أيضاً ، لأنها تستجيب الى ما يزيد عن الإهتمامات الرسمية : نعني الى ميل معروف من قبل الى الغريب ، الذي يعرض هنا على جماعة الأدب بشكل جدار الصين بعد ان تحول عند سلام الى سد ياجوج وماجوج ، أو أيضاً بشكل خصائص أقوام الفولغا التي زارها ابن فضلان . وعلى وجه الإجمال ، لا تختلف الرسالة عن القصص البحرية ، إلا بحدوث تبدل جغرافي في حقل الغريب ، وبذا نفهم أنها مصير جميع تلك المواضيع ، وانتقلت هي أيضاً الى مصنفات الأدب(٦٢٦) .

اذن لن تنجو الرسالة من الجغرافية الادارية إلا لتقع في لائحة معارف العصر العامة : وهذه سيرورة كلاسيكية ، اذا كان الاداريون ، مثلما مر معنا«٦٢٧» ، ليسوا أنفسهم سوى نتاج هذه الثقافة وممثليها ، واذا كانت مصنفاتهم ، بالتالي ، لا تشكل تشكيكا أساسيا في التحول العام الذي يسوق كل موضوع جديد ، حتى لو كان تقنيا في بدايته ، الى الانسراج

في جدول المعارف الأدبي في جوهره . وعليه ، نستطيع ، منذ الآن ، ان نفترض مبدئيا ان الرسالة انتقلت الى الادب بالطرق التي بيناها آنفا ، لاسيما بتنهيج العجيب ، وتلاشي الاكتشاف تدريجيا أمام التكرار . في الوقت ذاته ، ومثلما حصل لجميع صيغ التعبير الاخرى التي استعرضناها من قبل ، نفترض ، ولا نخشى كثيراً الوقوع في الزلل ، ان النمط الحقيقي الناشيء عن الرسالة ليس في المعطيات التي يضعها الأدب فيها قطعاً ، وان طرافة هذا النمط العميقة لا تنفصل عن تطوره الحتمي ، هنا أيضاً . فقد كان تجديد الرسالة الكبير ينحصر في تدوين الأشياء المعاينة حسب تواليها على الطريق المسلوكة ، وفي تنهيج العلاقة بين الزمن المعاش وبين المسافة المقطوعة . على هذا النحو ، نشأت منها كتب المسالك والممالك في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ثم الرحلات التي تتجاوز فترة دراستنا ، على طريقة ابن جبير أو ابن بطوطة في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي والقرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي .

في النهاية ، لا تختلف رحلة ابن فضلان مطلقا ، فيما يبدو ، عن رحلات خلفه العظام الابصفة موضوعها النفعية . فموضوعها يستجيب لحرص خارجي ، ولا يبرر نفسه بنفسه ، فينحصر رأسا وسلفا في مشاهد طبيعية محددة ، عوضا عن ان يظل دائما مهيأ لآفاق جديدة . وفيما عدا هذه التحفظات ، تتماثل تقنية تدوين الأحداث في جميع الأنماط : فابن فضلان أول من وضع العلاقة الأساسية بين المكان والزمان التي سوف تصبح في وقت لاحق صفة من الصفات التي تميز الرحلة : فرحلته اذن نمط متوسط بين الجغرافية والتاريخ ، لأنها كالجغرافية تعبر عن

نفسها في مكان معين ، لكنها تعيد تنظيمه على معايير زمنية يختص بها التاريخ(٦٢٨) .

ويبرز تاريخان أساسيان في رسالة ابن فضلان ، هما الرحيل من بغداد لاحدى عشرة ليلة خلت من صفر عام ٣٠٩ هـ / ٢١ حزيران عام ٩٢١ م ، والوصول الى بلد البلغار لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ٣١٠ هـ / ١٢ أيار سنة ٩٢٢ م . وبين هذين التاريخين يصف المؤلف على طريقه الخوارزميين ، والترك والبجناك ، والباشغره(٦٢٩) . ولا تشكل هذه الأقوام مواضيع ملاحظة فحسب ، بل تلعب أدوارها أيضاً في قصة معاشة ، لأن موقفها الودي ، أو اللا مبالي ، أو المعادي ، يتحكم مباشرة في مصير البعثة ، ويثير لدى الكاتب ردود فعل من الفرح أو اليأس أو الخوف أو الاطمئنان ، مما يسبغ على الرسالة صبغة صدق خارقة .

ومن هنا نستطيع ان نرى ان أمثال هذه الرسالة يجب ان تخضع مبدئيا الى نوعين مختلفين من الإهتمامات ، حسب تدخل المصنف كمراقب أو كشخص : ففي الحالة الأولى ، يورد حقيقة علمية ، مبنية على المشاهدة الشخصية (العيان) ، يرتبط التعبير عنها بتقنيات الوصف أو التعليق أو وصف الصورة ، في حين يشير ، في الحالة الثانية ، الى حقيقة فريدة وديناميكية ، معاشة لا مشاهدة ، يستوحي تقديمها عفويا ، هذه المرة ، من تقنيات القصة . وقد دفعت هذه الناحية الأخيرة بعض النقاد ، ممن يعتبرون حجم الرسالة مفرطا في الكبر بالنسبة الى تقرير رسمي عن البعثة ، الى الشك في كونه تقريراً حقيقياً كتبه ابن فضلان في نهاية رحلته(٦٣٠) . ولا يقول لنا النص الحالي شيئاً عن الإياب ،

مع ان قصة العودة وجدت في الأصل ، حسب شهادة ياقوت(٦٣١) . فيصبح هذا النص بالتالي جزءاً اقتطع من النسخة الرسمية ، ولم يحتفظ إلا بتفاصيلها القادرة على اثارة الفضول عند جمهور العصر المثقف . لكن اذا تصورنا ان المصنف الأصلي يتفق تماما مع التقرير الرسمي ، هل نثق كل الثقة اننا لا نستند ، ونحن نحكم عليه ، الى معايير تعود الى أيامنا الحاضرة ، وتتباين مع معايير القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ؟ ألا نرسم بين المثقفين والموظفين ، بين الأدب والادارة ، حداً رأينا انه يوشك ان يكون خيالياً ؟ وحتى لو افترضنا ان الاعتبارات السياسية الصرفة ازيلت من نص ابن فضلان أثناء نقله الى الجمهور ، يمكننا ان نتصور ان هذه التبدلات لم تغير تغييراً عميقا وضع المصنف ، على نحو ما رسمناه سابقا . في جميع الأحوال ، لا شيء يثبت ان جميع ما يتنافى مع صفة التقرير الرسمي ، فيما يبدو لنا ، لم يكن جزءاً من النص الأصلي ، ثم اضيف الى صيغة موضوعة خصيصا لجمهور أوسع .

بالفعل ، لا يعقل ان يحذف من الرسالة ، لاقناع الخليفة بصحتها(٦٣٢) ، ما يضفي عليها لهجة صدق لا مثيل لها ، نعني تدخل المغامرة الفردية ، والعناية بالأسلوب الانشائي أيضاً ، ما دام يرمي الى ابراز ناحية معاشة من تلك المغامرة . إلا اننا نلاحظ بحق ان ابن فضلان تقيد في كتابه بقواعد نثر العصر الأدبي آنذاك ، لا بتقنية بعض الجغرافيين(٦٣٣) ، الخالية من التنميق ، فنسلم ضمنا ان أفضل وسيلة لاجتذاب انتباه القارىء ، هي ان يقدم له تقرير تتوافق فيه ضرورات الأخبار مع طرافة المطالعة ، وباختصار ، ان تراعى حقوق الأدب ، هنا أيضاً . فالعناية بالأسلوب الانشائي ، وهي واجب احترام تجاه

الخليفة ، الذي يفترض قبلياً انه مثقف من المثقفين ، عمل ضروري في حالة ابن فضلان ، لا سيما ان قارىء الرسالة الحقيقي والمستفيد منها ، سوف يكون ، متى تجاوزنا مظاهر السلطة ، التي تتمثل في الخليفة أو الوزير الثانوي ، حامد بن العباس ، الكاتب الشهير ، الوزير القديم والوزير العتيد نفسه ، علي بن عيسى الذي اشتهرت مواهبه الأدبية(٦٣٤).

بقي علينا ان نناقش مسألة العجيب ، التي طاب لنا ان نجد آثارها هنا وهناك في الرسالة(٦٣٥) . ونحذف بداهة من هذا العجيب المقاطع التي تتخذ أصالتها ، إما من المواضيع ذاتها ، مثلا القصة الغريبة لدفن رجل جليل روسي(٦٣٦) ، وإما من نثر ابن فضلان : فهو يتحدث عن أحد الأتراك ، فيقول : « وقد نتف لحيته ، وترك شيئاً منها تحت ذقنه ، وعليه البوستين . فاذا رآه انسان من بعد ، لم يشك انه تيس(٦٣٧) » ويتخلل جميع هذه الأمور اغتراب صرف أو تنميق أدبي ، لكن كله صحيح بدقة . بالمقابل ، عندما يزخرف ابن فضلان قصته ببعض النوادر العجيبة فعلا ، لا يبقى أمام المرء إلا الاختيار بين رأيين : فإما ان قارىء الرسالة ، المعتبر ممثلا ساميا للأوساط المثقفة ، وشخصا قائما بمهام رسمية ، كان بمقدوره ان يميز بين الخبر الحقيقي وبين بعض الصفات الأسطورية ، النادرة أصلاً ، المقصود منها جعل الخبر أجذب ، وإما ان هذا العجيب ، ببساطة ، أقل غرابة مما يبدو في عرضه أو في واقعه . وسرعان ما نقتنع من تحليل بعض مقاطع الرسالة المطعون بها . فابن فضلان لا يسند أبداً لنفسه القصص الخارقة : بل يتقيد بمبادىء بعثته فيما يتعلق بياجوج وماجوج ، فيدون جميع ما يقال عن أمة يزعم أنها قريبة من الأماكن التي وصل اليها ، ويسمي مصادره ، دون ان

يلزم نفسه بشيء . ونسلم ان العجيب المعروض بهذه الطريقة ، يفقد كثيراً من احتمال تصديقه(٦٣٨) . وقد جرى وصف وحيد القرن على هذا الأساس ، لكنه تلاقى موضوعيا مع بعض الوقائع الواردة في التقاليد المحلية(٦٣٩) . أخيراً ، وصف ظاهرة الفجر القطبي(٦٤٠) وصفاً ملحميا لا يزيل شيئاً من واقعها . مع ذلك ، لا بد ان يشار الى ان ابن فضلان رغم خوفه من جدّتها ، لا يرى في ما يلوح في أفق السماء من أشكال غريبة ، سوى « أمثال » الناس والدواب ، و « أشباح » شبه خيالية(٦٤١) . واذا تحدث عن اقتتال الجن ، فالتقليد المحلي يوحي له بكلامه . ويقيم ظاهرات مماثلة(٦٤٢) في أماكن أخرى تقييمات سديدة ، على ما عهدناه منه(٦٤٣) .

وعلى وجه الاجمال ، يتحتم ان نتحدث في هذه الرسالة ، لا عن العجيب ، بل عن الدهشة : ريميز هذا الفرق الأساسي بين العرف الأدبي وبين ما ينطوي عليه من رجوع الى القواعد الثقافية الخاصة بجماعة معينة ، ومن تدخل الفرد المباشر . بالفعل تنتمي بعض الموضوعات ، بصفتها الغريبة الى ميدان الأدب ، لكنها لم تعالج مطلقا في الرسالة على نحو ما درج عليه الأدب في معالجتها : فلم تعرض بعض المواد الخام الشبيهة ببنود معرفة يتناقلها المثقف عن المثقف ، حسب الأصول المعهودة ، بل حافظت دائماً على حقوق الذي يقدمها ، إما لأنها جيء بها باعتبارها مغامرات ، في غمرة انفعال من عاشها باحساسه الفريد ، وإما لأنها نقلت عن شخص آخر ، وتنم عن انعدام اليقين لدى الكاتب ، أو عن نقده أو شكاه . ولا يجوز التحدث عن الأدب في هذه الرسالة ، إلا على مستوى صياغتها والحرص على الأسلوب الانشائي الواضح عند المؤلف الذي يدرك ان لفيفا من العارفين سيقراءه حتما . وفيما عدا

هذه الناحية ، تحتل الرسالة ، في رأينا ، بما فيها من طابع الرحلة الشخصي والحقيقة الثابتة ، محلا فريداً في الآداب العربية . ويبرز هذا الموضوع بروزاً بالغاً لا سيما ان موضوعات الشمال في عهد ابن فضلان أصبحت مقبولة في الأدب(٦٤٤) على نطاق واسع : فلا يسعنا اذن ان نتوقع لمثل هذه القصة ، التي ظهرت في أعقاب مصنفات خصصت للبلدان السابقة ، مثل مصنفات سلام والجرمي ، ان تصبح خيال هذه المؤلفات مثلما أصبح ملحق أبي زيد السيرافي ازاء أخبار الصين والهند ، أي ان يتم تنهيج المعطيات باتجاه العجيب . وتصح هذه المقارنة الى حد بعيد لا سيما ان التواريخ متماثلة تماما في الحالتين(٦٤٥) وان المصنفات النموذجية على وجه التخصيص – في موضوع ياجوج وما جوج عند سلام مثلاً – منفتحة على العجيب على نطاق واسع ، وفي جميع الأحوال أكثر الى أقصى حد من أخبار الصين والهند ، التي رأينا ميزاتها من قبل . فَلِمَ نعزو ميزات ابن فضلان ؟ ألِى الصفة الرسمية لتقرير البعثة ؟ لكن لسنا بحاجة الى التذكير بضعف هذه الحجة . فلماذا لا نفكر ، مثلما فعلنا في بحث اليعقوبي والأدب الاداري ، بتدخل الشخصيات التي تشعر هنا وفي جميع بلدان العالم ، بضرورة الابتعاد عن الأبحاث المطروقة ، والاتجاه الى النظر والتفكير الذاتيين ؟ ويتمسك اليعقوبي وابن فضلان ، وابن جبير بعدهما ، وغيرهم كثيرون(٦٤٦) ممن يطول تعدادهم ، بحقوق العفوية : فقد عادت مصنفات المسالك والممالك في أفضل عهد انتاجها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، الى الاخذ بتقليد المشاهدة المباشرة والمعاشة ، النشيط جداً في جوتا ليفية ، تقتبس من الأنماط الممتحنة في جغرافية تلك الفترة .

الطريق الشمالية : أبو دلف مسعر ، الرحلة الحقيقية والرحلة الخيالية

أبو دلف مسعر(٦٤٧) بطل رواية : فهو شاعر شهير ، وخبير بالمعادن أيضاً ، عاش بين عام ٣٣٠ هـ / ٩٤٠ م وعام ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، في بلاط السامانيين ببخارى(٦٤٨) ، وعند أتباعهم الأمراء الصفاريين بسجستان(٦٤٩) ، وعند الصاحب بن عباد الشهير ، وزير البويهيين بالري . لكنه عاشر الشطار والأمراء على حد سواء ، وانتسب الى جمعية بني ساسان الذائعة الصيت . وعمر طويلا حتى كاد يقرب من التسعين(٦٥٠) ، ويبدو ان اقامته في المدن تخللتها أسفار عديدة قطعتها ، حتى ان ابن النديم ، الذي عرف أبا دلف شخصياً ، سماه «الجوالة(٦٥١)»

وجاءت أعماله طريفة : فقد صنف بآن واحد تقريبا رسالتين متباينتين الى أبعد حد يمكن تصوره ، احداهما عن الترك ، وثانوياً عن الهند والماليزية ، والاخرى عن فارس وأرمينية . وهو رصين وأصيل في رسالته الثانية ، ومنتحل ومشتبه به في الأولى ، فيحار على هذا النحو من مصنف الى مصنف ، في الاختيار بين أساليب الأدب والمشاهدة المباشرة ، كما لو كان يجهد نفسه ، حتى في كتاباته ، لترسيخ صورة مزدوجة عن شخصه . ولا ريب ان هذا العربي القح ، الناشيء في وسط فارسي ، وهذا الرجل المعروف بشغفه بالجواهر ، وبنظمه قصيدة شهيرة بلغة الشطار ، أكثر من كاتب قطعا : فهو وجه من أعظم الوجوه التي توضح حياة التشرد في الشرق وأدبه قبل وجود هذه التسمية(٦٥٣) ، لأن الصفة الأساسية لأدب التشرد تتمثل في صدوره عن مصنفين ، يمتلكون الثقافة المطلوبة في فئتهم ، لكنهم حرموا ضمن هذه الفئة من المركز الاجتماعي الذي تحبوهم إياه ثقافتهم ، أو انهم رفضوا هذا

المركز ، أو أيضاً احتلوه مبدين ازاءه التململ والتجرد . ويتميز هؤلاء المؤلفون بحياة متشردة أو روح متشردة ، فيدخلون في مصنفاتهم الانفصام بين ما هم عليه وبين ما يمكن أو يجب ان يكونوا : وهكذا ، لا يتميز انتاجهم بتأليف مصنفات تتمرد على قواعد عصرهم الثقافية — هنا باللغة المختارة ، وهناك بالموضوع ، وهنالك أيضاً باقام المؤلف في كتابه — بقدر ما تتصف بوضع تلك المصنفات الى جانب مصنفات اخرى تحترم تلك القواعد : فهذه بادرة تحدى أو اعتزاز يثبتون بها مقدرتهم على التقيد بأصول الشعر وعلى الشعور باللذة عند مخالفتها(٤٦٥) .

وينطبق هذا الوضع على أبي دلف . فهو لا يتأبّه اذا اقتضى الأمر ، عن التحدث عن الترك أو عن الهند ، من أجل حام أو نصير أدب(٦٥٥). فما دام متمرسا على أذواق الجمهور المثقف ، سوف يصف في مسلك كيفي ، البلدان الرئيسية أو القبائل التي يدعي انه زارها ، مع شيء من ذكريات حفظها فعلا عن أماكن مر بها — وعددها قليل أو بعيد الى أقصى حد عما يقال — ومع كثير من الانتحال من مصنفات الأسلاف(٦٥٦) فالاختلاق يلامس الوقاحة ، اذ ان ضمير المتكلم ، الذي يتدخّل بانتظام في الرسالة الأولى ، لا يدلّ مطلقاً على المشاهدة المباشرة ، ويصبح مجرد تمرين انشائي لا جزاء عليه . من هنا ترد عنده مشاهد طبيعية خيالية ، تتصلب فيها أشجار الفلفل بتأثير الرياح ، وتقتل فيها الحيات المحصورة في جبل سحري ، جميع من يقترب منها (٦٥٧) متى نظرت اليه . على ان هذه النوادر عن الغريب المفرط قليلة جداً (٦٥٨) . ويحتفظ أبو دلف في هذه اللعبة — لأنها لعبة على أي حال — بمهارة تتعدي الحدود المفروضة ، ليبقى ضمن نوع من الاغتراب المتوسط ،

يخاطر اذا تجاوزه بان يعتبر مختلق قصص اسطورية . فقاعدة العجيب تتلخص عنده ، لا في اختلاقه اختلاقاً كلياً لا عطائه أقصى حد من القوة والجذب ، بل في جعله معقولا بوضعه في اطار متفاوت الصحة يتعهده ، لذلك لا بد من معايرة آثاره في كل مرة . وما دامت قيمة القاعدة في التطبيق تزداد كلما اقتربنا من الميادين المعروفة فنحن نفهم لماذا يمثل الترك جيداً عند أبي دلف هذا الخليط المثالي من الغريب والحوادث اليومية ، الذي يمكن الفنان من « تصويرهم » ، على حد التعبير الشهير . وعليه ، لا لزوم لمجاراة ف . مينورسكي في قوله(٦٥٩) ، عند ادراكه التقطيع في تلك الطرق ، ان الشخص الموجهة اليه الرسالة يقطن حتماً بعيداً عن بخارى . وحتى لو سلمنا ان موقع القبائل التركية كان معروفا بدقة آنذاك ، فلا شيء يثبت ان حامي أبي دلف كان يتمتع بالمؤهلات الذهنية التي ننسبها له ، في حرصنا على الخبر الموضوعي والدقيق . وكما يسعنا ان نفترض ، على النقيض ، ان أبا دلف كيف رسالته على النحو المطلوب من قبل شخصية السائل(٦٦٠) ، لا نرى حاجة لأن نفتش ، مع هذا البعد الجغرافي ، عن سبب خارجي يفسر لنا هذه الفوضى الكبيرة الهادئة والمستحبة . فالرسالة لا تمثل دراسة أصولية ، بل مفكرة فكاهية ، وهي تهتم بالمواضيع المستساغة أكثر من اهتمامها بالحقيقة ، والتفسير البسيط لما هي عليه ، هو ان المرسل اليه أرادها ان تكون كما جاءت . وهكذا نجد برهانا آخر يثبت ، اذا دعت الضرورة ، ان البلدان الشمالية كالبحار الشرقية ، أصبحت مواضيع عادية في لائحة الأدب ، حوالي منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

وتختلف الرسالة الثانية ، التي تتناول فارس وأرمينية اختلافا تاما عن الرسالة الأولى . ففيها تصبح المواضيع قضية شخصية تتعلق بالمؤلف ،

لا ذريعة يعرض فيها ثقافته أمام الناس ويختبر معرفته في المجتمع . ويمكننا القول ان أبا دلف ، بعد اجتيازه هذا الأمتحان ، يعود الى ما يحب ، الى الصخور والنبات والمداواة . . . وهنا لا يلجأ مطلقا الى الانتحالات الأدبية ، بل يعتمد على ذاكرته ، ويتقيد بملاحظاته المدونة أثناء رحلته ، التي اتبع فيها طريقاً واضحة كل الوضوح(٦٦١) . فيسير على نهج أصيل ، لا يخلو من التذكير بالنهج الذي سوف يلقى نجاحاً عظيماً في مصنفات المسالك والممالك . لكن ، هل أتت القرابة بين هذين النمطين وليدة الصدفة ؟ فعندما كان أبو دلف يكتب ، كان نمط المسالك والممالك يعرف مع الاصطخري أول نموذج يميزه حقاً . ويستحيل علينا تحديد مسار تدخل المؤثرات المحتملة(٦٦٢) ، فنكتفي في الحد الأدنى بالقول ان منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي اوحى الى الكتاب أن يضيفوا الى النماذج الثقافية التي يجسدها الأدب نموذجاً آخر من الإنسان والمعرفة والأسلوب الانشائي . فالإنسان هو الرحالة ، الذي يجوب العالم لمتعته ، أو في الحد الأدنى ، الذي يجد لذة فيما تفرضه عليه أسفاره من واجبات ، ويحيا كما يتسنى له ، حياة سيئة جداً ، أحياناً ، حسب مقتضيات الجوع أو الأخلاق ، ويخضع كل شيء الى امكانية رؤيته بعينه أكبر عدد من الأشياء . وقد أوضح مصنفو المسالك والممالك توضيحاً نموذجيا هذه الحياة ، وخلّف لنا المقدسي لوحة مأثورة ، لا شيء يمنعنا بعدها ان نتصور ان أبا دلف مر قبله بأوضاع مماثلة ، « فارتدى ثياب العز » و « عرف جمهوريات المعوزين(٦٦٣) » . فالمعرفةاذن ، هي مانحصل عليه أثناء الحياة والمغامرة ، وعلى الطرقات : كالمشاهد الطبيعية ، والمباني ، أو « العجائب » .

والمدن ، ومحاصيل الأرض أو منتجات صناعة البشر ، والعشور التجارية ، ولوحات العادات ، والمشاهير أو الخصائص المحلية(٦٦٤) . ولا تجري الأمور بلا معاكسات : لأن الميل الى الواقع الحسي يتناقض مع ما يشعر به أبو دلف ، الأديب البارع ، من ولع بالأعاجيب ؛ التي تعود كل الأمثلة عنها تقريبا ، إما الى ذكريات أثرية عن فارس ، وإما الى الظاهرات الطبيعية . مع ذلك ، حذار ، فلوجود الذكريات الاثرية ما يبررها في شخصية من بعث الرسالة له : فاذا حق لنا ان نتصور ، اعتمادا على المناطق المرصوفة في المصنف ، وعلى العلاقات التي تأثرت بها حياة أبي دلف ، ان الرسالة موجهة الى شخص على صلة مباشرة نوعا ما بالأمراء السامانيين أو البويهيين(٦٦٥) ، عندئذ نسلم ان الكاتب الذي يحميه هؤلاء الأمراء لا يخرج عن المألوف عندما يورد في كتابه مباني وأساطير بلاد كان يزعم أخذ تقاليدها(٦٦٦) على عاتقه مجدداً : وهكذا يصبح الميل الى ذكر البنيان تنميقا رفيعا يخص أسباب الحياة ، التي تثير الشفقة وتربط المصنف بنصيره . ويختلف الأمر كليا في الظاهرات الطبيعية : ففيها يكرر أبو دلف كل ما يقال ، من واقعي وغريب ، لكن يفرض عليه اهتمامه الشخصي وما يكاد يشبه شرف الاختصاصي ، عندما يتسنى له ان يتحقق بنفسه من ظروف الظاهرة المروية . ويثبت مثالان شهيران من أمثلة كثيرة أخرى ، حرصه على اخضاع المعطيات التقليدية العائدة الى العجيب ، الى مراقبة التقصي الشخصي(٦٦٧) (العيان) : فأبو دلف ، فيما أعلم ، أول مؤلف عربي يصف منابع النفط في باكو(٦٦٨) ، وكان دائما يدرك الطابع الأسطوري الخاص بالقصص المتناقلة عن جبل داموند ، فتسلقه

« مخاطراً بحياته » حتى منتصف علوه ، وكان هذا الارتفاع كافيا لكي يتأكد ان لابخرة الجبل أسباباً طبيعية فقط (٦٦٩) .

ولا تحتمل مثل هذه الأشياء الكثيرة ، الواجب قولها ، عندما يرتجل المرء على الطريق أو من ذاكرته ، إلا أسلوباً انشائيا عفويا يجاري ، جهد المستطاع ، ما يسترعي انتباه البصر والبصيرة . « فتفاح اصبهان يظل طازجا طيلة سبع سنوات . ولا تصيب السوسيات القمح فيها . وترى فيها خرائب عظيمة(٦٧٠) . ولعل الحصاد وفير ، اذا كان لا بد من ابراز التدوينات المماثلة ، التي يتسم بها تعبير فوضوي ، غني بالاستطرادات ، تتميز به مقاطع كثيرة من مصنفات المسالك والممالك(٦٧١) . اذن ماذا ينقص أبا دلف ليصير جغرافيا ، بمعنى معاصره الاصطخري على الرغم مما يعرضه من نمط حياة ومعرفة وأسلوب ؟ ينقصه بالضبط ان يدرك هذه الدعوة ، التي كان يترتب عليها ان تدفعه من جهة الى توسيع حقل رؤيته الضيق جداً في الرسالة ، ومن جهة ثانية الى تجميع معطياته حول بضعة عناوين كبيرة ، أرضية كانت أم غير أرضية : وينقصه الوصول ، على نحو ما جرى في المسالك والممالك ، الى الحد الوسط المتوقع بين تقسيم العالم على طريقة صورة الأرض ، وهي مفرطة في الايجاز ونظرية ، وبين مشاهدة العالم الحسية ، التي تقود الى اكتشاف الحقيقة ، بلا شك ، لكن بتعبير خال من التنظيم .

ولا يسعنا طبعا ان نتهم أبا دلف بأنه ليس جغرافيا ، اذ إنه لم يقصد ان يصبح جغرافيا على أي حال . ويكمن فضله في ناحية اخرى ، نعني في شخصيته المبهمة ، القائمة على مواقف متناقضة ، تعارض صيغ العرف الراهن بالتزامات الفرد الحرة . وعلى وجه الاجمال ، ينحصر

فضله في المنازعة ، التي يعبر عنها بأشكال يستمدها ، كما رأينا ، من عقلية التشرد . فقيمة أمثال هذه الاعتراضات لا تتجلى في الصورة التي تعطيها عن نوع من العقلية فقط ، اذ ان ضروب قلق أبي دلف تدل ، متى قورنت بضروب القلق البادية في الفترة ذاتها في مسالك وممالك الاصطخري(٦٧٢) ، على ان حب الأطلاع عند بعض الأدباء ، في منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، تطور تطوراً حاسماً ، وتظهر ان بعض النماذج أصبحت بالية . فقد تعفى تقرير السفارة(٦٧٣) ، المعالج بخفة ، وحتى باسفاف ، وصارت لذة السفر ذاتها تعارضه ، وتعفت الرحلة الخيالية في مصنفات وأقوال الغير ، لأن عصر المغامرة الشخصية دنا ، أخيراً تعفى ما وراء الثغور ، وحل محله استكشاف أرض دار الإسلام . واذا كنا لا نستطيع ايجاد صلة شكلية بين أبي دلف والاصطخري ، فان وجود ظاهرة أسلوب انشائي جديد في مصنفاتها يثبت حدوث تغييرات حاسمة في الأدب الجغرافي في تلك الفترة .

الطرق الشمالية الغربية والجنوبية : أوربة وافريقية

ونلاقي اهتماما بطرق أوربة وافريقية ، يشبه الأهتمام بالطريق الشمالية . وتلعب السفارات وعملاء الاستخبارات دوراً أساسياً هنا أيضاً : وتستقطب مطامع دار الإسلام الخارجية بيزنطية ، الداخلة معها في مركب دقيق من الحروب والمبادلات(٦٧٤) : فقد زارها عماره بن حمزة وكثيرون سواه(٦٧٥) باسم الخليفة ، وذهب اليها الغزال باسم أمير قرطبة . لكن لم تستنفد بيزنطية على أهميتها النشاط الدبلوماسي : فالغزال نفسه ذهب بعد فترة قصيرة الى جتلاند ، لايجاد تسوية مرضية

بين غزاة الأندلس النورمان وبين الأمير عبد الرحمان الثاني ، في حين كان الأسواني ، حوالي عام ٣٥٩ ﻫ / ٩٦٩ م — ٣٦٣ ﻫ / ٩٧٣ م ، يقوم بنشاط في النوبة ، وعند قبائل البجه ، كمبعوث القائد الفاطمي جوهر(٦٧٦) . مع ذلك ، لم تكن تلك الشخصيات الرسمية إلا معالم بارزة في عداد لفيف غفير من المشاة الذين يحبون مغامرة الفتح ، أو المال أو حب الأطلاع ، بجميع أشكالها : كالجنود أو الاسرى(٦٧٧) أو التجار الذين يمرون بين خطوط النار أو جميع الذين ينزعون الى الاستكشاف . فقد لقينا من قبل محمد بن موسى على الطرق الشمالية(٦٧٨) ، ويتجول هو نفسه في آسية الصغرى ، حوالي عام ٨٤٥ م في منطقة كهف الرقيم . وكتب الجرمي أسير الروم مصنفا عن امبراطوريتهم وعن الشعوب المجاورة لهم(٦٧٩) . وزار هارون بن يحيى ، الذي فاجاءه القراصنة على شواطئ فلسطين ، في نهاية القرن التاسع بلا ريب ، على طريق أسره ، القسطنطينية ، وسلانيك ، وبلدان الصقالبة الشمالية والبندقية ، وبافي ، وروميه ، حيث جمع معلومات عن فرنسة ، وبرغنده ، وبريطانية العظمى . وقام اليهودي الأندلسي ابراهيم بن يعقوب ، لأسباب تجارية أو دينية(٦٨٠) ، حوالي ٣٥٤ ﻫ / ٩٦٥ م ، برحلة طويلة جدا في أوربة ، قادته من بريطانية — وربما من ايرلنده أو حتى من اسلنده — الى بولونية ، ومن شليسويغ الى صقيلية ، ومر بهولندة وألمانية الامبراطور أوتون الأكبر ، الذي استقبله في بلاطه . أخيراً في أقصى الغرب ، رأى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، ثمانية شباب ، سماهم التاريخ « المغرورين » ، يبحرون من لشبونه ، ويستكشفون نواحي ما ديره (جزيرة الغنم) والكناري .

وقد يواتينا الحظ ، ونلقي ظلال الشك أحياناً على ما يقال عن النتائج المزعومة لهذه الرحلات(٦٨١) . ونكاد نقطع بحدوث تلك الرحلات وبصحة قصصها المدونة ، لكننا نشك بصيغة قصصها وبمضمونها الأصليين ، لأن مقاطعها الباقية ضئيلة الى حد كبير ، ولأن الفارق الزمني كبير بين تلك الأصول وبين النصوص التي نقراءها بها في أيامنا الحاضرة(٦٨٢) اذن لدينا كميا بضع صفحات أو بضعة أسطر ، نكاد لا نستطيع بها ان نتحدث عن مصنفات بالمعنى المألوف لهذا اللفظ . ثم ان قصة المغرورين ، أو على الأصح ، ما تبقى منها ، ضئيل جدا ، يقتصر فيه على ذكر اسم ، لا يمكننا ان نتحقق به ان كان يشير في عصره الى قصة رحلة كتبت تحريراً(٦٨٣) . لكن في النهاية يبدو الحكم على صحة المقاطع الباقية وبذل الجهد لاستغلالها صعبين جدا على هذا النحو . ولا ترتبط هذه الصعوبة بطابع النصوص الواصلة الينا ، المتقطع والمتجزىء ، بقدر ما تعود الى الأشكال التي تناولها بها الأدب العربي من جديد ، والى قيام كتاب معظمهم متأخر جداً ، بصياغتها من وقت كتابتها الى وقت تدوينها . ووسمت أنماط الأدب وسعيه وراء العجيب ، وأحياناً أيضاً ، اعراف شعرية عربية معينة ، النصوص المحفوظة بطابعها بشدة في أكثر من ناحية ، حتى أصبح لا بد من الحكم على كل مؤلف ، لا بحد ذاته ، بل دائما في علاقته بسلفه ، وحسب معيارين اثنين : هما البعد الزمني الفاصل بين الناقل ومصادره ، وميله المتفاوت البروز الى الصيغ المتماثلة في فن الكتابة . لذلك يمكن ان نميز ، فيما يبدو ، أربع درجات في تقدير أمانة التقيد بالنصوص القديمة . ولا ريب أن أصح صورة تنشأ من العلاقة بين كاتب مشهور برصانته وبين نموذجه القريب جداً منه زمنيا : وينطبق هذا الكلام على محمد بن موسى وعلى الجرمي ، اللذين

انتحلهما ابن خرداذبه وذكرهما ، أو على هارون بن يحيى عند ابن رسته(٦٨٤) . ويضعف التقيد بالنصوص القديمة ، عندما يطول الفاصل الزمني بين المؤلفين ، حتى لو سلمنا بأنهم يميلون الى التقصي الموضوعي ، كما في وضع المغرورين(٦٨٥) والأدريسي ، أو في وضع الأسواني(٦٨٦) والمقريزي . ولا نحصل في هذه الحالة من النص الأصلي إلا على بضع فقرات . وقد تظهر أوجه النقص فيها(٦٨٧) ، عندما يرد ذكر النص الأصلي على لسان كاتب قريب منه زمنيا ، لكن نعرف ميله الثابت الى الصيغ الأدبية السائدة في عصره : ولا تختلف النتائج ، سواء شوه ابن الفقيه عمارة بن حمزة ليأتي بالعجيب ، أو احال اليه لأنه يعتبره نموذجا نظرا لميوله هو الخاصة : فالعجيب(٦٨٨) يجتاح القصة دوماً . أخيراً تبلغ تشويهات الأصل حدها الأقصى عندما يقترن استخدام الصيغ الأدبية التقليدية بالبعد الزمني : فماذا يبقى من مصنف ابراهيم بن يعقوب ، المبتور ، الممزوج بمصنفات اخرى ، والموزع على جميع أقسام كتاب القزويني ، الذي يبسط المعارف ، ويندر ان ينفصل عنده حب الأطلاع عن اللذة التي ترافق العجيب ؟ والغزال ، المعروض علينا ، بعد مرور أربعة أو ثمانية قرون ، في صيغ موحدة متماثلة من الحب العذرى والشرف(٦٨٩) ، هل تصرف فعلا على هذا النحو في مثل هذه القضايا الرصينة مبدئيا ، أو في سفارته وكتابة التقارير عنها(٦٩٠) ؟ لا بد ان نحكم على البعد الزمني في هذه الحالات على مستويين : فعلى مستوى المعرفة التاريخية يتحتم اجراء تحفظات خطيرة متصلة بصحة المصنف المنقول ، وتثبت ضخامة التشويه التاريخي الطارىء على النصوص الأصلية اثباتا اجتماعيا هذه المرة إعادةَ صقلها على أساس النظام الثقافي

السائد في تلك الضمائر . ويعبر عرب القرون الوسطى ، لا نحن ، عن إعادة الصقل هذه ، مرة أخرى ، بلفظ الأدب إياه .

بداية « جغرافية شفاعات روحية »

عرفتنا بعض ملاحظات غولد زيهر ، ودراسات أخرى أحدث منها (٦٩١) بنمط من الأدب نشأ من مواضيع الزيارات أو طقوسها أو أماكنها . واذا كان نمط مناسك الحج أو مصنفات الشعائر الدينية(٦٩١) لا يهم بحثنا ، فالأمر يختلف فيما يخص مصنفات Pilgerfuhrer « على أساس طوبوغرافي » . فلهذه المؤلفات التي ظهرت في وقت متأخر بعض الشيء(٦٩٣) فيما يبدو ، وجهان في الواقع : احدهما يمكن تسميته الطوبوغرافية الدنيوية التي تبحث الأماكن ، وتراقب ، بهذه المناسبة ، خصائصها أو انتاجاتها ، ويستهدف الآخر ، الذي يدفعنا الى الرجوع الى المصطلحات المستعملة في الحديث عن ماسينيون(٦٩٤) ، عرض « جغرافية شفاعات روحية » ، « تصبح فيها « الأماكن الموصوفة» « لا مواضع تلفت الأنظار » ، بل محال معينة تجمعها ، رغم تباين موقعها على الكرة ، ذكرى شائعة وحية ، تتعلق باولياء ترددوا عليها .

وندرك جيداً حقا حرص هذه الكتب الأدبية على وصف البلدان والمدن ، وارتباطها بالمصنفات الجغرافية : فهي تختص بمنطقة اقليمية ، وتندرج في تقليد الأبحاث الأحادية (٦٩٥) ، وهي عامة ، كما هي الحال عند الهروي (المتوفى عام ٦١١ ﻫ / ١٢١٥ م) ، تعتمد على نمط المسالك والممالك(٦٩٦) ، الراسخ أيضاً آنذاك . لكن يصعب جداً ايجاد سوابق لتلك المصنفات في العصر الذي يهمنا ، باعتبارها جغرافية روحية . ففيما أعلم ، تدخل في نطاق منظور مختلف تماما ، الكتب الوحيدة ،

التي تبدو قبل العام ألف قوائم منهجية لأماكن مقدسة : فكتاب ديارات الشابشتي ، وهو المصنف الوحيد الذي حفظه التاريخ لنا ، مصنف دنيوي تماما ، شأنه شأن المصنفات السابقة أو المعاصرة له ، التي ألفها في الموضوع ذاته بعض أعظم مشاهير كتاب الأدب العربي : مثل هشام بن محمد الكلبي ، وأبو الفرج الأصفهاني على سبيل المثال(٦٩٧) .
وهو مصنف دنيوي ، مثلما قلنا ، في أكثر من ناحية : في نظر الدين الإسلامي أولا ، لأن الاديرة التي يتحدث عنها هؤلاء المسلمون ، مسيحية صرفة ، ثم على أساس المعنى المطلق أيضاً ، لانعدام الشعور الديني مهما تضاءل انعداما كليا في هذه التقارير . فما هو الدير بالنسبة الى الشابشتي ؟ هو أولا مصدر بعض الأخبار التاريخية ، التي ينغمس فيها الدير ، بما شهد من تقلبات سياسية ، أو استقبل من شخصيات شهيرة ، أو الهم من قصائد . وتمهد بعض السطور المتشابهة لتلك الأخبار التي تشغل الجانب الأعظم من المصنف ، عند الحديث عن كل دير ، فتقدمه على أنه محل وظيفته الأساسية اللذة : لذة الناظرين ، اللذين يحدقان بمشهد الخضرة الطبيعية الواحد ، وبالعيون ومجاري الماء ، ثم الملذات التي يوفرها لسكان المدن المسيحيين والمسلمين ، لا سيما يوم عيد قديس الدير السنوي ، من شرب خمرة مأخوذة من معاصر الدير ، ومحتساة في أقبية حانات لا تخلو من الغواني . فاذا نظر الأديب المسلم الى نظام الاديرة من هذه الزاوية ، خصوصا في جزيرة العراق ، اعتبر انه يرادف التصوف ، ويصيب جدا ناشر كتاب الديارات ، عندما يلجأ الى الأدب أيضاً ، ليبرز صفات أدب اللذة(٦٩٨) ، في موضوعاته وصيغه وروحه .

مع ذلك ، حصل في هذا المجال الخاص ، انقلاب في الاتجاه منذ بداية القرن الحادي عشر : اذ تخلى المسلمون عن تاريخ الاديرة المسيحية وطوبوغرافيتها*، على الأقل كما عرفناه في صيغته المنهجية ، وتعهده المسيحيون ، بذهنية مختلفة كليا(٦٩٩) ، مثلما يتوقع المرء ، في حين أعد الكتاب المسلمون عدتهم . ودرسوا أماكنهم المقدسة الخاصة ، وازدهر تكريم الأولياء عندهم ، وشرعوا فعلاً بكتابة جغرافية روحية تتعلق بهم حصراً . ولا غرابة في هذا الاتجاه المزدوج : ويجوز ان يعتبره الباحث حصيلة الظروف السياسية والدينية الجديدة العائدة الى المعتقدين . فعند المسيحيين يستوحي أدب الاديرة ، بلا أدنى شك ، من حرص النصارى على تقريظ الاديرة والدفاع عنها والتعريف بها ، بعد ان أصبحت تهددها نهضة السنة ، وخاصة تصلب موقف دار الأسلام العام في أعقاب الحروب الصليبية . وتعلل أسباب مماثلة تتبسط في التفاصيل . رغبة المسلمين بتشجيع سير الأولياء المسلمين . ، إما لأن المذاهب تسعى ، مستقلة ولتأمين مصلحة فردية ، الى ايجاد مرتكزات لها في هذه الفئة أو تلك من الأماكن المقدسة أو في هذا الشخص أو ذاك ممن يتحزبون له . وإما لأن الناس يدركون من خلال تفضيل المؤلفين ، نشوء تصميم على وضع قاسم اسلامي مشترك بين جميع الأماكن المقدسة ، ضمن تأليفية شاملة ؛ والحرص على إعادة بناء وحدة الإسلام القديمة عن طريق التوفيق بين السنة والشيعة(٧٠٠) .

وقد ذهبت سدى ، فيما يبدو ، الجهود التي يحتمل انها بذلت منذ القرن الحادي عشر ، للتوفيق بين الإسلام والنصرانية ، على المستوى الاجتماعي والسياسي(٧٠١) . ومال كل معتقد ، على المستوى الديني ،

الى تقوية ذاته ، وبيان اختلافه عن المعتقد الآخر . فلا غروان تنفصم ، على المستوى الأدبي ، التأليفية الاخرى ، التي تجلت في بحث موضوع الاديرة المسيحية ، وفق القواعد المألوفة في الأدب العربي الإسلامي في القرن العاشر . فاذا اقتصرنا على الحدود التاريخية المفروضة على هذه الدراسة ، أصبح الشابشتي مصنفا هامشيا(٧٠٢) ، لكنه ليس كذلك ، عندما نصفه في نطاق التطور الاجمالي لهذا النمط الذي اسميناه الجغرافية الروحية . فهو يمثل ، اذا قورن بمسالك الهروي الدينية أو قصة حج ابن جبير ، ما تمثله الجغرافية النظرية ، بصيغتها الادارية أو الكارتوغرافية بالمقارنة بنمط المسالك والممالك . وهنا أيضاً ، يعاد النظر بموضوعات الكتب ، وتبعث الحياة فيها على ضوء التجربة العيانية المباشرة ، مع فارق يتلخص في ان الظاهرة سوف تأتي ، فيما يتعلق بهذه الجغرافية الروحية ، متأخرة بضعة قرون ، وانها لن تنشأ من أسباب شخصية بسيطة كحب الإطلاع ، بل عن أسباب أعمق ترتبط ، مثلما رأينا ، بظروف تاريخية جديدة . مع ذلك ، يظل مسار التطور على حاله ، ويستعيض عن خبرة الكتب ، وهذه ناحية يجب التأكيد عليها ، بمواجهة أماكن تجربةشخصية ، هي تجربة الإيمان .

خاتمة

طرحنا في بحث جغرافية الرحلة عنصرين أساسيين ، متضاربين ، ومتلازمين بآن واحد : نعني المشاهدة المباشرة (العيان) ، ومعطيات الثقافة (الأدب) . وتتجاور هاتان الثابتتان دائما ، وتتجابهان دائما أو تتكيف احداهما مع الأخرى ، إما عند الكاتب الواحد ، وإما على مستوى الحكم الاجمالي على كافة المصنفات(٧٠٣) . ولأول

وهلة ، يبدو طبيعيا في ختام دراسة الرحلات ، ان نحاول تدقيق معنى فعل الرؤية في نظر المسلم في ذلك العصر . إلا ان هذا الفعل لا يمكن أبدا تعريفه تعريفاً مطلقاً ، والحكم عليه بحد ذاته ؛ بتعبير آخر ، خارج علاقته بمعطيات ثقافة الرحالة . بالتالي ، يهمنا ان نوجه جهودنا الآن إلى دراسة موضوعات الأدب وروحه وآلياته ، محددين علاقاته بالتجربة الشخصية . ومثلما سبق وقلنا(٧٠٤) ؛ سوف نطلب من ابن الفقيه ان يوضح لنا هذا التقصي .

الفصل الخامس

ابن الفقيه

أو الجغرافية من وجهة نظر الأدب

مصنف ابن الفقيه ومشكلة انتقاله

بعد البسملة مباشرة وبعد دعاء قصير الى أقصى حد ، يستهل ابن الفقيه كتابه ، ويقول : « قال الفضل بن يحيى(٧٠٥) : الناس أربع طبقات : ملوك قدمهم الاستحقاق ووزراء فضلهم الفطنة والرأي ، وعلية انهضهم اليسار ، وأوساط الحقهم بهم التأدب . والناس بعدهم زبد جفاء ، وسيل غثاء ، لكع ولكاع ، وربيطة اتضاع ، هم احدهم طعمه ونومه . وقال معاوية للاحنف(٧٠٦) : صف لي الناس . فقال : رؤوس رفعهم الحظ ، واكتاف عظمهم التدبير ، واعجاز شهرهم المال ، وأدباء الحقهم بهم التأديب ، ثم الناس بعدهم أشباه البهائم ،ان جاعوا ساموا ، وان شبعوا ناموا . وقال بزرجمهر(٧٠٧) لرجل : ان أردت ان تبلغ أحظى درجة الآداب وأهلها ، فاصحب ملكا أو وزيراً ، فانهما ، برغبتهما في معرفة أيام الملوك(٧٠٨) وأخبارهم ، والآداب وأهلها . . . ، يبعثانك على طلب ذلك . قال فما وسيلتي اليهما . قال : انتحال ذلك رسم الادراك ، والطلب مادة الوجود ، والآداب عند الهمة » .

ثم أورد ابن الفقيه بعض الاستشهادات المماثلة ، فلم يبق عليه بعدها إلا ان يطلب من القارىء ان يرحب بمصنفه ، الذي استوحاه من مثل هذا القصد النبيل ، اذ انه « يشتمل على ضروب من أخبار البلدان ، وعجائب الكور والبنيان(٧٠٩) » . ويقول أخيراً : « فاني إنما الحقت في هذا الكتاب ما أدركه حفظي ، وحضره سماعي من الأخبار والأشعار والشواهد والأمثال » .

يبدو لنا هذا الاستهلال الصاخب جدا قيم في نواحي عديدة ، لأن تعيين ابن الفقيه منحنيات القوة في مصنفه لا يفيد فحسب ، بل يتدخل بالقدر ذاته ، اذا أثيرت قضية تقيد النص بالأصل . فكتاب البلدان صنف ، عندما ألف حوالي ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م ، موسوعة عن دار الاسلام اشتملت على خمسة أجزاء ، في حين لا نعرفه الآن إلا في مختصر لخصه المسمى علي الشيزري(٧١٠) . ويستوجب هذا المصنف الذي وصلنا على هذا النحو ، تحفظات وجيهه مبدئيا . لكن يختلف اختصار الأصل الكمي(٧١١) — الثابت مع الأسف — عن الذهنية التي جرى فيها تلخيصه . ويحق لنا ، فيما نظن ، ان ندرس مصنف ابن الفقيه بتقريب كاف ، اذا وثقنا بنوعين من الأمانة : ترتبط احداهما باحترام أغراض المصنف الأصلي ، فيمكن بالتالي ، على هذا الأساس ، الحكم عليها حكما مطلقا ، وتتعلق الاخرى بالمادة المعالجة ، فيحكم عليها على العكس ، حكما نسبياً ، استناداً الى المحافظة ، عند الانتقال الى المختصر ، لا على حجم شتى الموضوعات الخام طبعا ، بل على مقارنة مقاديرها فيما بينها وبمجمل الكتاب .

ولا تثير النقطة الأولى صعابا ، فيما يبدو : فنحن على يقين أولا

من ترابط المصنف ، لأن متنه يتفق تماما ، وسنعود الى هذه الناحيه ، مع أهداف المقدمة . ومتى سلمنا بهذا الترابط ، وجب علينا ان نستخلص منه وحدة الالهام ، إما لأن الشيزري أعاد كليا سبك الكتاب ، وإما لأن الناقل ، الحريص بدقة على دوره ، تصرف بشرف ، فامحى وراء معلمه ، وحافظ على لهجة المصنف الأصلي وروحه . وعند هذا الحد من النقاش ، لا بد لنا من العودة الى الذين انفردوا ، خلافا لنا ، بمعرفة كتاب البلدان ، بصيغته الكاملة ، حتى اذا اتفق تعريفهم به مع النص المتوفر لنا ، خلصنا الى تحديد انتساب المختصر الى الأصل . والواقع ان تعريفهم المتوقع حاسم : فالمقدسي يقول : « وأما ابن الفقيه الهمداني ، فانه سلك طريقة أخرى(٧١٢) . ولم يذكر إلا المدائن العظمى ، ولم يرتب الكور والأجناد ، وأدخل في كتابه ما لا يليق من العلوم ، مرة يزهد في الدنيا ، وتارة يرغب فيها ودفعة يبكي ، وحينا يضحك ويلهي . ويقول المؤلف نفسه في مكان آخر(٧١٣) : « واذا نظرت في كتاب ابن الفقيه ، كأنما أنت ناظر في كتاب الجاحظ » . وهذه الخطوط الكبرى أساسية في بحثنا ، لأنها تسم المصنف الأصلي في عصره بصفات ، لا تزال تنطبق على الصفات التي تعرف القراء الحاليين بمختصر الشيزري . بالتالي يمكننا اعتبار المختصر أمينا(٧١٤) : فالتلميذ والمعلم كلاهما يثابران على البقاء في نهج ثقافة متوسطة تتفق المقدمة المذكورة ، وحرفية نص المختصر إياها ، وكلام المقدسي ، على تحليها بانعدام التقنية ، والرغبة بالاختيار ، والحرص على اثارة اهتمام القارىء بجميع الوسائل . وجميع هذه الصفات مميزات خاصة بالأدب ، أوردناها سابقا في سياق بحثنا . وهكذا لا بد ان نتقصى السبب الأساسي لتقيد المختصر بالأصل ، ولا عجب في ذلك ، في التحليل الأخير ، على المستوى

الأعم لتقيدهما المشترك بمعايير ثقافة يرعاها الجاحظ ، الذي الصقت به الأسطورة نهائيا دور الهاء الناس(٧١٥) .

بقي علينا ان نقدر تقيد المختصر بمختلف الموضوعات الأصلية ، أو مثلما قلنا ، ان نقوم « أهمية المواضيع وأحجامها النسبية ، بعد مقارنة بعضها ببعض . ويمكن ان نحصل على تقريب أولي من دراسة الخصائص الغالبة : فاعتماداً على ما نعرفه عن شخصية ابن الفقيه ، وأحيانا عن المصنف الأصلي ، سوف نعين قبليا الموضوعات الرئيسية ، الواجب وجودها في الأصل ، ثم نتسأل اذا كانت لا تزال سائدة في المختصر . والواقع ان الأجيال اللاحقة حفظت لنا عن كاتبنا ثلاث صور أساسية : فهو فارسي ، مثلما يستدل من اسمه الكامل : أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحاق بن ابراهيم ابن الفقيه الهمذاني ، أصله من احدى أشهر المدن الفارسية ، أي اكبتان القديمة . وكانت أسرته معروفة فيها جيداً ، فيما يبدو ، خصوصا محمد بن اسحاق ، الذي أدخله اسم ابنه في التاريخ فقيها . بالتالي ، لا شك ان التقليد العائلي في الفقه ومعرفة الحديث ، يؤلف الصفة البارزة الثانية في ثقافة مؤلفنا : فياقوت(٧١٦) يذكره محدثا ، بعد أبيه ، ويورد ، في نهج قديم ، أساتذته وتلامذته . مع ذلك ، هنالك نقطة أساسية : يبدو ان اختصاص الأسرة في هذه المواد كان دنيويا قبل كل شيء ، ومبنيا على الأخبار أكثر منه على الحديث ، وهذا ما يفسر صفة ابن الفقيه الثانية : أي الاخباري (عارف بالأخبار) ، وعدم ورود اسمه في القوائم المألوفة التي يدون فيها اسماء المحدثين(٧١٧) الاتقياء . بالمقابل ، يخصه الفهرست وياقوت بشرف ذكر اسمه في عناوينهما ، لأنه با ضبط عالم في الثقافة الدنيوية ، اذا ان لفظ أديب(٧١٨ يحبوه بلا نزاع صفته الثالثة الرفيعة .

ولم يسع ابن الفقيه ، الفارسي الأصل ، في المنطق السليم ، إلا أن يخص فارس بجانب أساسي من مصنفه . ولم يكذب المختصر هذا التوقع ، اذ ان الصفات العائدة الى مسقط رأسه حسبما نأخذ هذا التعبير بالمعنى الضيق أو بالمعنى الواسع ، تحتل ما يقل قليلاً عن ربع حجم المصنف الكامل(٧١٩) أو ثلثه . وابن الفقيه مولع بالأخبار المتناقلة ، فالتزم بتحرير كتاب يستلهم منها : فظل مختصره أمينا لمخططه المرسوم في مقدمته ؛ ويصعب التفكير ، هنا أيضاً ، أنه يختلف عن الأصل ، فجاء مبنيا بكامله تقريبا على علم منقول عن الأخبار والأمثال والشواهد الشعرية(٧٢٠) أخيراً يستقي المصنف الأصلي ، طبعا أيضاً ، بشهادة المقدسي ذاته ، من روح الأدب ، فمن الطبيعي ان نقدر ان جميع هذه المواضيع ، الناشئة عن الميل الى الغريب والاصطفاء والأدب ، لم تكن لتحتل في النسخة الأصلية مكانا أصغر من مكانها في المختصر ، الذي تسود فيه بلا منازعة تقريبا . وبما ان هذه الغلبة ينبغي ان تكون موضع دراستنا بالذات ، نود لو يسمح لنا ، كي لا نسترسل بلا فائدة في هذا النقاش عن صحة المختصر ، بأن نكتفي هنا باجراء نوع من الاختبار المضاد ، نعتبره هاماً لمعرفة الأصل . وهنالك موضوع نعلم علم اليقين انه ضحي به أثناء الانتقال من الأصل الى المختصر . فكلام المقدسي ، المشار اليه من قبل ، يتعلق في الواقع بصيغته الكاملة : « واذا نظرت في كتاب ابن الفقيه ، فكأنما أنت ناظر في كتاب الجاحظ والزيج الأعظم(٧٢١) ». ويستغرب هذا القول لأول وهلة لأنه يجمع على هذا النحو ناثراً بارعاً ، والجغرافية الفلكية ، ويبدو وكأنه يدحض ما قلناه عن صفة الأصل المفترضة . لكنه يثير أيضاً مشكلة أخرى : فنحن ندرك بصعوبة كيف استطاع الشيزري ، بعد مرور مائة عام على ظهور كتاب البلدان ،

وفي حين كان كتاب البلدان لا يزال متداولا(٧٢٢) بصيغته الأصلية ، ان يدخل عليه مثل ذلك التغيير الحاسم ، دون ان يلقى معارضة . والواقع ان السؤالين المطروحين منذ برهة يتلقيان جوابين متماثلين . فما دام الشيزري تمكن ان يتصرف على نحو ما فعل ، دون ان يرتفع صوت ليحاسبه على موقفه من مصنف حائز مع ذلك على رضى واسع لدى المثقفين (٧٢٣) ، فإما ان المختصر ، في عصر ياقوت ، أي بعد مرور قرنين على تأليفه ، كان لا يزال غير معروف ، وهذا افتراض يكاد لا يقبل الاحتمال ، وإما ان ياقوت وجد في متناول يده المصنف الأصلي ، ففضل طبعا ان يستند اليه دون المختصر ، وان المختصر بالتالي نظر اليه على انه مختصر فقط : فاعتبر موجزاً لا أكثر — وإلا لكان ياقوت أشار إليه وأثنى عليه بلا شك ، واستغله — على الأقل — وإلا لما كان فات ياقوت اياه ان يحذر قراءة من طابع المصنف المشوه وغير الأمين . اذن ، ما دام المختصر اعتبر ، حتى على تفاهته ، مطابقاً للأصل ، فمعنى ذلك ان الأقسام المحذوفة عمداً من كتاب البلدان أثناء الانتقال الى المختصر ، لم يشعر أحد أنها داخلة في صميم المصنف الحقيقي . وفي النهاية ، ينبغي ان نعجب لورود مواضيع جغرافية فلكية في الأصل ، لا لأن الأسلوب الغالب آنذاك أعطى الأصل ما فاته من وحدة على يد الشيزري ، وخصه نهائيا بالأدب . لكن لا يجوز لنا ان نعجب أيضاً : فاذا لم نعتبر كلام المقدسي نزوة عابرة(٧٢٤) ، أمكننا ان نفكر ان الرقم هو أيضاً صالح للدمج في الأدب : بالفعل ، لا يتنافى العدد مع مجمل بحث الأدب ، في جوهره ، ما دام ، مثلما قلنا (٧٢٥) ، لا يدل على تقصي متحرك تعريفاً ، بل ، شأنه شأن سائر الموضوعات الأدبية ، على واقع ثابت بعد الآن ، و « معروض على الناس » . وبذا

يسعنا ان نستنتج ان الأدب ، متى اكتفينا ، كما فعل المختصر ، بخطوطه الأساسية ، وببلورته ، اذا جازت لنا هذه الصورة ، يرفض التساهل حتى في المظاهر التقنيةالبسيطة ، وحتى في أدنى نقاش يتناول الطابع الأدبي العائدالى مجموع يتصل بالرياضيات(٧٢٦)من قريب أو بعيد.

ورأت الأجيال اللاحقة ان الجداول الفلكية ومعرفة البلدان العامة تندرج معاً في كتاب البلدان ، في صيغة موحدة كنا أشرنا اليها ، فمالت الى الظن بأن الجداول تؤلف موضوعات هامشية ، وحتى مروية ، لا يتأثر المصنف الأصلي بحذفها منه ، بل يفيد من الاستغناء عنها . فاذا صح هذا التفكير ، وصح معه ان مقاطع كاملة اسقطت من كتاب البلدان أثناء تحويله الى مختصر ، وجدنا في هذا الوضع ما يحملنا على الركون الى الموضوعات الاخرى ، التي يجوز الاعتقاد ، بعد التحقق منها ومقارنتها بالحجم الإجمالي المحدد في البداية ، بأن حجم ما بتر منها سوف يتضاءل كلما ازدادت أحجام ما أسقط من الموضوعات الفلكية ، أي ، بتعبير آخر ، وحسبما يمكن توقعه ، ان التقيد بأسلوب الأدب يتناسب عكساً مع التقيد بالجغرافية الفلكية ، وانه في المرحلة النهائية ، لا بد ان يبرز ويتعاظم بروزه كلما ابتعد عن تدوين ذكريات الأدب التقني . ويتحتم علينا ان نضع ثبتا يجب ، ان كان مقنعا ، ان يتمم في نظرنا تحليل الصفات الغالبة ، حسب منهج عكسي : ففي حين كان تحليلنا ، على نحو ما وجهناه حتى الآن ، يؤول الى طرح امكانات توافق المصنف الأصلي مع معطيات المختصر ، سوف نركز الآن على موضوعات ، نعرف من رجوعنا الى نص ياقوت ، انها وردت في النسخة الأصلية ، وسوف نستعملها روائز ، نقوم بها هذه المرة توافق المختصر مع أصل كتاب البلدان ، ونذهب فيها حتى حرفية النصوص .

وقد أشار دي خويه منهجيا ، في طبعة المختصر ، الى المقاطع المذكورة عند ياقوت ، إما حرفياً أو باسهاب ، وفي جميع الأحوال ، بطريقة لا يمكن ان يرقى الى أصلها أي شك . وارتفع عدد التوافقات الاجمالي بين الأصل ، الذي أغفل ذكره ياقوت ، وبين المختصر ، الى حد جعل دي خويه يتخلى عن وضع قائمة بها في مقدمة طبعته ، في حين استطاع ، على النقيض ، ان ينجز العملية ذاتها لمقاطع الأصل الوارد عند ياقوت ، والساقطة في المختصر(٧٢٧) . وعدنا نحن مجدداً الى تعليقات وحواشي دي خويه ، وأردنا تكوين فكرة عن الحد الأدنى من التوافقات المنوه بها : فاهملنا كل نقل بدا لنا حجمه ضئيلاً جداً ، أي ما لا يتعدى كلمة أو سطراً ، ولم نحتفظ إلا بما زاد عن ذلك ، أي بالمقاطع الحقيقية(٧٢٨) . فاعطانا التعداد حداً أدنى بلغ ١٣٢ مقطعا بالضبط ، ولا يستطيع دي خويه ان يقابل هذا المجموع إلا بـ ٣١ عنواناً ذكرها ياقوت ، أسقطت جميعها في المختصر(٧٢٩) : وهكذا تسوغ نسبة الرقمين تحديد نسبة دنيا لامانة المختصر للأصل(٧٣٠) ، تصل الى حوالي ٠٠/٠٨١ ولا ريب ان هذه الأمانة نسبية ، اذ ان المختصر لا يمكنه ، تعريفاً ، ان يبقي حجم المواضيع في المختصر على وضعه في الأصل ، فلا بد ان نأخذ بعين الاعتبار ، لا استحالة الاحتفاظ بها في حجم مطلق ، بل وجودها في المختصر . فضمن هذه الحدود المعينة على هذا النحو ، ينبغي ان يطمئننا نهائيا ارتفاع نسبة الاحتفاظ بالموضوعات يضاف اليه دوام ذهنية النسخة الأصلية وان يخولنا اجراء دراسة مقبولة عن ابن الفقيه انطلاقا من معطيات المختصر .

خصائص مصنف ابن الفقيه العامة

تستهدف جغرافية « البلدان » أو علم البلدان ، على ما جاء في مقدمة مصنف ابن الفقيه ، الى تجميع كل ما قيل أو كتب عن البلدان . فتلزم نتيجتان واضحتان عن هذا التعريف الشامل . النتيجة الأولى ان هذا العلم سوف يستقي مضمونه من الكتب ، لأن التجميع لا يتم إلا بالمطالعة ، لا بالمشاهدة الحسية . واذا كان لا بد من الرؤية ، فلتنصب على معاينة ما كتبه الآخرون(٧٣١) . فابن الفقيه لا يعتبر الالهام ظاهرة شخصية ، بل صفة وراثية ، كسائر الصفات ، تجف ، لا متى انقطع وحي الأفكار ، بل عندما ينتهي اذكار الأشياء التي قيلت . فبحث ولاية اذربيجان مثلا قصير في كتاب البلدان ، لندرة الأخبار عنها . لذلك اقتصر على شيء من التاريخ ، وأسماء بعض المدن ، وبيانات شحيحة عن الخراج ، وكفى(٧٣٢) . على النقيض يطول الحديث عن بعض البلدان ، مثل جزيرة العرب ، والشام وفلسطين مع دمشق وبيت المقدس وطبعا العراق(٧٣٣) لأن الأخبار كثيرة جداً عنها . ويمضي ابن الفقيه في هذا النهج ، عمداً أو عن غير قصد ، ويذهب به الى أقصى مداه . وعلى ضوء هذا التفكير ، يمكن ان يتخذ الانسان موقفا أدق ، فيستغني عن الإصرار على رفض العيان والتمسك بالاستشهاد ، ويرى في المشاهدة الشخصية عنصراً من المعارف المنقولة ، ويعتبر ميدان المعرفة وحيداً ، لا ثاني له ، موروثا عن السلف . في هذا المنظور ، لا يأنف ابن الفقيه ، متى اتيحت له الفرصة ، من التحدث عن المشاهدة ، شريطة ألا تكون مشاهدته هو ، وان يتمكن من دعمها بالشاهد الكتابي ، أي الاسناد الخطي : فعندما يتحدث عن أرمينية ويذكر تجربة اليعقوبي(٧٣٤) الشخصية ، يعتمد على التعليلات نفسها التي درسناها عند الجاحظ(٧٣٥) :

فالرواد الذين يتجرأون على الخروج على القاعدة ، ويستشهدون بأنفسهم ، يتعرضون فوراً تقريباً(٧٣٦) — تفصل ثلاثة عشر عاماً كتاب بلدان اليعقوبي عن كتاب بلدان ابن الفقيه — الى تأثير قدرة ثقافة العصر الهائلة على التمثل ، ويصبحون نماذج ، قد تستغل ، وتقلد بحد ذاتها ، في معزل عن النطاق الحي والشخصي الذي تم فيه تأليف كتبهم . فلا يستشهد باليعقوبي ، لأنه رأى أرمينية بعينيه ، بل لأنه اليعقوبي ، أي كاتب ، وكبير الكتاب تقريبا ، وبالتالي صاحب نفوذ محتمل . مع ذلك ، يعتبر اليعقوبي كاتبا هامشيا ، وسنعود الى هذه النقطة فيما بعد . فماذا نتوقع عندئذ بالنسبة الى الجاحظ ، الذي يكفي نفوذه سواء ذكر صراحة أم لم يذكر ، لاثبات حقيقة الأحداث الحسية(٧٣٧) ؟ وفي جميع هذه الأمور ، لا يكفي الرجوع الى مصنفات الغير ، بل ينبغي أيضاً النظر الى العالم بأعين الآخرين ، ولا يؤخذ أساس اكتساب المعرفة معياراً ، بل يعتبر معيارها الحصول المسبق عليها فقط ، أو اعتبارها اكتسبت من قبل .

والنتيجة الثانية هي الشمول : فالمقصود سرد جميع الأخبار التي يثيرها ذكر بلد معين ، لذلك يتضح بجلاء ان دراسة البلد بحد ذاته ، أو جغرافيته اذا فضلنا ، تتخلى في معظم الأحيان عن مكانتها الى علوم أخرى ، تختلف جداً عنها ، مبدئيا ، مثلما يختلف عنها التاريخ ، أو المعجمية ، أو الأخلاق أو الشعر . ولا شيء هنا يمت الى الجغرافية بصلة ، في الحقيقة ، سوى الحجة المختارة ، وبالتالي نظام تصنيف الأخبار المروية . وفيما عدا ذلك يتضاءل الفرق بين « كتاب البلدان » وبين الموسوعة الدنيوية حسب مفهوم العصر ، لا سيما ان الحجة ذاتها تتوارى

عن الأنظار في النهاية غالباً جداً : فتشبه الدير عند الشابشتي ، ولا تعود تشير الى الصلة بالعرض ، المدركة بوضوح ، ويحولها الاستطراد ، أو تداعي الأفكار أو آليات الكتابة ، الى مناسبة بعيدة تكاد تكون منسية ، تتيح فرصة كتابة الجمل الرنانة . في النهاية ، لا يقصد الأسهاب في الحديث عن بلد معين ، بل رمي الكلام على عواهنه عند ورود اسم هذا البلد ، الذي لا يبرر وحده اجراء تقصي خاص ولا يستقطب سياق البحث ، بل يصبح في أفضل الاحتمالات ذريعة لسرد الأخبار . فبعد ان كانت الأرض غاية بحد ذاتها ، صارت وسيلة وحتى حجة مصطنعة . واذا كان لا بد من وجود جغرافية هنا ، فوجودها صدفة خالصة .

ويتزايد طابع الجغرافية الثانوي أيضاً ، على نحو ما نتصور نحن ، بالمقارنة بعلم « البلدان » ، بالمعنى الذي يفهمه ابن الفقيه ، من جراء التباين الذي يباعد بين ذهنيتي العلمين . وتتناول الجغرافية في أيامنا الحاضرة ، شأنها شأن كل بحث تقصي ، الظاهرات الغالبة خاصة ، وتحاول تحديد أسبابها . أما ابن الفقيه ، فعلى النقيض ، يعطي الأولوية الى الظاهرات التي تشذ عن النظام العام ، فلا تقبل بالتالي ظاهريا تفسيراً معيناً ، اذ ان كلا من العلمين يعتبر هامشيا جميع ما له أولوية في العلم الآخر . وقد ظهرت معرفة العجائب ، المستوحاة بلا ريب من أقدم الأخبار(٧٣٨) ، في وقت مبكر جداً في الأدب العربي ، وحتى في صميم الأدب التقني(٧٣٩) ، مثلما رأينا . فلماذا يستغرب العثور عليها مجدداً هنا ، عند كاتب تتلاءم العجائب مع ميوله الى حد بعيد جداً ، اذ انها ترتدي لديه صبغة قصوى تختص بها جغرافية العجيب ، التي لا يرد فيها إلا ما يخرج عن المشهد اليومي المألوف ، ولا تدون منهجيا

إلا ما يقبل التنهيج . وذهب ابن الفقيه بطريقته الى مدى بعيد جداً ، حتى أصبح الفاصل بين نظام المألوف ونظام العجيب مبهما أحياناً ، لأن العجيب طغى على المألوف ، ودفعه الى مواقعه القصوى ، إما لأن الأشياء والكائنات في العالم الراهن لم تعد ترى إلا اذا اشتركت بشكل أو آخر في عالم العجيب(٧٤٠) ، وإما لأن العجيب يفهم ، مثلما سوف نرى ، بمعنى الشيء الواسع ، فيتسنى عندئذ للباحث ان يدخل تحت هذا العنوان جميع المواضيع ، شريطة ان تتعلق بمكان واحد ، أو ببلد واحد دون سواه . ويعلل هذا التوسع المنهجي بمفهوم العجيب ، بالصاق صفة العجيب بمواضيع متباينة ، كالصناعات الصينية ، والخيول الرومية ، وحيوانات النيل ، ومنتجات اليمن وبغداد ، ونخيل البصرة ، وثياب أصبهان ، وحرائر قزوين ، وفنار الاسكندرية أو كنيسة الرها(٧٤١) ، وأحيانا ، بالنسبة الى مصر مثلا ، نبات النسيج (الدقس) أو الشجرة المنيرة (الومقس) ، أو الحجر الذي يطفو (الشب) والخشب الذي يرسب (الابنوس) . والظاهرات المغناطيسية ، والجفاف ، واسم مصر ذاتها(٧٤٢) .

ولا يمثل تراكم الغرائب السابق مظهراً من التقصي ، بل يستجيب أيضاً لاغراض أدبية واجتماعية . فلا يمكن فصل المصنف عن جمهوره ، ولا عمل الكتابة ، مثلما قلنا(٧٤٣) ، عن طريقة عرضه . لذلك يتفق العجيب ، فيما يبدو ، مع ذوق ووظيفة اجتماعيين يشدان الجمهور الى المصنف ويكيفانه مع توقع الجمهور ، حسب مبدأ فعالية بالغ البساطة ، يتلخص في ان حب الاطلاع يحب الغرائب . وفي اطار هذا التفكير ، لا يسعنا ان نتصور معرفة تعرض عرضا علميا دقيقا حسب

القاعدة الذهبية لتناسق الأسلوب . فهنا يبدو المصنف حتما تأليفا أدبيا . وتدفع ضرورة مزج الجد بالهزل وظهور اغراض الكاتب التي تتجلى بوضوح في مقدمة مصنفه وفي متنه(٧٤٤) الى اعتبار ابن الفقيه أحد كتاب النثر الاقحاح في القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين . ولا يجوز طبعا مقارنة فنه بفن الجاحظ مثلا ، على ضوء النتائج المرئية . لكن لم يواته الحظ مثل الجاحظ . مع ذلك ، اهتم بالأسلوب اهتماما واضحاً جداً يتجلى في مبنى نصه ، وعبر عن هذا الأهتمام بنواياه المعلنة الخاصة . ولم ينشد كتاب البلدان عبثاً رعاية الجاحظ ، ويثن على صفات أعماله(٧٤٥) الانشائية ، ولم يتطلع الى رعاية غيره من مشاهير الكتاب عرضا ، ولم يربط ابن الفقيه تصور مصنفه وغايته ربطا ضئيلا بالاهتمامات الفردية التي ظل تقليدنا نحن مدة طويلة جدا يقرنها بمهنة الكاتب : فهنا استعمل لفظ التأليف بمعناه الأصلي ، لأن الموضوع يتعلق في الحقيقة بتركيب كل من اجزاء ، لا يمكن الحصول عليها إلا من عند الآخرين . اذن يرادف فن النثر الانتحال ، لأن الكاتب ينقل ، مثلما يقول ابن الفقيه صراحة في بعض صفحاته(٧٤٦) : حرفيا أحياناً ، عن مصنفات أسلافه ، فيضمن لكتابه النجاح الذي لقيته مصنفاتهم . فالمصنف يستقي من الوسط الاجتماعي ، ويعود اليه ، متأثراً بالعلم المأخوذ عن الآخرين وبالأسلوب الذي يتقيد بالقواعد . « وللكتب محل في القلوب . . . فعلى قدر نقاء الكلام وعذوبة ألفاظه وجودة معانيه يجذب القلوب اليه(٧٤٧) » .

وينجم نهائيا تفضيل المطالعة على المشاهدة ، والنفور البارز من التخصص والتقنية والميل الواضح بالقدر نفسه الى العجيب ، والاعتناء

بالأسلوب ، والأخبار التي تستجيب الى اغراءات العفوية ، وصيغة المصنف الأدبية اجمالا ، وجميع ما أشرنا اليه من صفات ،عن الأغراض الرئيسية الثلاثة الخاصة بمعرفة ، شاعت ان تكون اصطفائية ونظرية واجتماعية : وتميز هذه الأهداف تمييزاً أساسياً ابن الفقيه ، ونمط الأدب الذي يعتبر ابن الفقيه أحد ممثليه الافذاذ . بالتالي ، تدعونا قراءة « كتاب البلدان » ، في التحليل الأخير ، الى دراسة هذا النوع من التفكير والثقافة . ونقول فوراً ان هذه الدراسة لا يمكن ان تكون إلا جزئية وموقتة . فهي جزئية ، حتى لو اجتاح الأدب ، في نزوعه الجشع ، جميع ميادين الآداب العربية تقريبا ، وفرض عليها قناعا موحدا بتنازله كل مرة عن حد أدنى من التساهلات الضرورية للنمط المقصود(٧٤٨) ، لأن التبدلات ، مهما تضاءت ، تظل ألواناً لا بد من دراستها ، وبالتالي لا نتناول إلا لوناً واحداً منها من بين ألوان أخرى ، في حالة ابن الفقيه . وهي موقتة ، لأن دراسة مجمل كتب الأدب وموضوعاتها المنهجية والكاملة وحدها ، وهي دراسة ينبغي اجراؤها في يوم من الأيام ، قد تسمح ، اذا قمنا بها بنوع خاص بوسائل كتابية آلية ، يشق الطريق لعلم اجتماع حقيقي ينصب على العالم العربي الاسلامي في القرون الوسطى .

بعد هذه الملاحظات ، نود ان ندرس ابن الفقيه ، الذي يمثل الأدب ويكيفه مع نمط علم « البلدان » ، وان نكتشف الصلة التي يرتبط بها كتابه بالجغرافية عامة وبالجغرافية البشرية خاصة .

مصادر كتاب البلدان ، عناصره وموضوعاته

لا بد ان ننظر الى مصادر كتاب البلدان من ثلاثة جوانب ، تأخذ

بعين الاعتبار المراحل التاريخية ، والمناطق الجغرافية الكبرى ، وشتى العلوم التي نقل عنها .

فمن الناحية التاريخية ، تتوزع المعطيات بكاملها تقريبا على ثلاث فترات كبرى : هي الخلق وعصر التوراة أولا ، ثم العصور القديمة اليونانية والفارسية ثانياً ، ثم الجاهلية والإسلام ثالثاً وأخيراً . ولا أصالة البتة في هذا التقسيم الزمني ، وهذا متوقع في الأدب وفي أدب العجائب(٧٤٩) . مع ذلك ، يجب ان نوضح كيف تنتظم تلك الأقسام الزمنية المتباينة في ذهن الكاتب المسلم في القرون الوسطى . وعليه ، يبدو لنا ان دراسة أبطال التاريخ(٧٥٠) توضح جيدا هذه الناحية ، اذا اعتمدنا على النسب والأحجام الفردية ، هنا أيضاً . بالفعل ، يسيطر ما يمكن تسميته أبطال أحد التواريخ وأبطال التاريخ العام على سائر الأبطال : فأبطال التاريخ الخاص ، المذكورون ١٠ أو ٢٠ مرة في مصنف ابن الفقيه ، يجسدون تجسيداً متميزاً احدى المراحل التاريخية ، المشار اليها من قبل : مثل ابراهيم وموسى في عصور التوراة ، وقباذ (ققاذ) ، وكسرى انوشروان وكسرى الثاني ابرويز (برفيز) في فارس ، وعثمان وعلي ومعاوية والحجاج والسفاح والمنصوروهارون الرشيد والمأمون (٧٥١) في الإسلام . وعلى مستوى أعلى منهم يتسامى أربعة أبطال على التواريخ ليجسدوا التاريخ على وجه العموم : فسليمان يلازم التوراة فقط ، بل يدخل في التاريخ العالمي أيضاً ، لما اشاده من مباني في أنحاء الدنيا ، ولامتثال الجن لأمره ، مما سمح له ، بصرف النظر عن التسلسل التاريخي ، بالظهور في العصور القديمة في الشرق اليوناني الروماني وفي فارس وجزيرة العرب(٧٥٢) . ويشبه الاسكندر

سليمان في صفات عديدة ، وتقارن شواهد المصنف البطلين(٧٥٣) أحياناً . وكان سليمان يستطيع أن « يغدو من اصطخر ويروح ، بصنعاء(٧٥٤) » . كذلك تلقى الاسكندر من ربه « ان يسيره فيما بين مطلع الشمس الى مغربها(٧٥٥) » : وترمز هذه الجمل ، ضمن البعد المكاني ، الى قدرة متماثلة على الانتقال في حدود الزمن ، وحتى خارج حدوده ، وتجسدها هنا أيضاً وظيفة الباني عبر العصور(٧٥٦) ؛ وبما ان الاسكندر فاتح يوناني ومؤسس المدينة المصرية التي تحمل اسمه ، فقد نسب اليه دفعة واحدة ، بالنظر الى ملحمته الشرقية ، بناء جميع مدن فارس وخراسان وما وراء النهر ، وتنقله الأسطورة ، حاملا الأسم نفسه أو اسم ذي القرنين ، من سد يا جوج وما جوج ، شرقا ، حتى مدينة النحاس الخرافية في أقاصي العالم الغربية ، حيث يلتقي ذكره مرة أخرى بذكر سليمان(٧٥٧) . ووضع الاسلام أبرز وجهين من وجوه الشهيرة ، ممن يتضاءل النزاع حولهما ، الى جانب هذين البطلين ، وفي منظور تدبير قدرة الهية تجعل الإسلام أوج ازدهار الانسانية العالمية ونهايتها : نقصد محمداً وعمر اللذين يعيدان عمل البطلين القديمين المشار اليهما من قبل ، ويعليانه في نطاق العالم الجديد ، لكن كل منهما على مستواه ، كما لو ان حكمة سليمان صورت مسبقا تقوى محمد ، وليس سواها ، وفتوحات الاسكندر انبأت بالامبراطورية التي دفعها سيف عمر دفعاً حاسماً(٧٥٨) .

ومن الناحية المكانية ، اهتم كتاب البلدان ، حصراً أو كاد ، بدار الاسلام — لا ترد فيه ولاية السند إلا عرضا — فأثبت بالتالي النزعة الى هذا الاهتمام المشار اليه من قبل في كتاب صورة الأرض وفي

الجغرافية الادارية . ولا تتساهل هذه النزعة في بحث ما وراء الحدود إلا بذكر بعض الاستطرادات الكلاسيكية ، التي تروي بعض الأخبار عن الامبراطورية البيزنطية ، وتورد بعض المعارف التقليدية عن الكرة الأرضية ، وبعض المعطيات عن الشرق الأقصى منتحلة من أخبار الصين والهند(٧٥٩) . أما ضمن حدود دار الاسلام ، فيتناول العرض ، مثلما أشرنا ، أولا فارس والعراق والشام وفلسطين وجزيرة العرب(٧٦٠) . وبذا يصبح كتاب البلدان شبه جغرافية شرقية قطعا ، تعلل اختياراتها باصل ابن الفقيه الفارسي ، وبتصميم هذا الأدب على التوفيق ، في توزيع العالم حول مركز معين ، بين التقليد الفارسي القديم الذي يحدد سرة الأرض في مناطق ميديا – الجزيرة (العراقية) ، وبين مقتضيات العقيدة الاسلامية التي تنقلها نحو الجنوب ، الى المدن المقدسة في الجزيرة العربية(٧٦١) . بالتالي ، يصبح الموقف تأليفيا ، لكن لعله ليس كذلك على مستوى المعرفة المحضة فقط : فوراء هذه المعايرة الظاهرية بين القديم والجديد ، ووراء هذا التوازن ، الذي يراعي بمهارة في حرفية النص ، ما هو عربي وما هو اعجمي ، لا يستبعد ان تختفي مقاصد دينية وسياسية ، سنتمكن من العودة اليها عندما نتقدم في دراسة كتاب البلدان .

بقي علينا ان نستعرض شتى فروع العلم ، التي يشكل مجملها ، المتنافر بقدر كاف قبليا ، مصنف ابن الفقيه . ويمكن ان نسعى الى الحصول على تقريب أول من اجراء تصنيف بسيط للأئمة المستوحى منهم . عندئذ لن نجد أي عناء في التمييز بين الالهام العربي الاسلامي وبين الالهام اليوناني . فبالالهام العربي الاسلامي ترتبط العناوين الثلاثة

الأساسية المتمثلة في الجغرافية والتقليد والأدب . فقد وضعت الجغرافية حصراً ، ولا نعجب اذا لاحظنا انها لا تلعب إلا دوراً متواضعاً بعض الشيء ، تحت رعاية ابن خرداذبه ، الوارد ذكره مرة واحدة فقط(٧٦٢، الذي الهم مباشرة أو عن طريق الجيهاني(٧٦٣) ، بضعة مقاطع من المسالك أو عن الخراج أو التقسيمات الادارية(٧٦٤) . أما التقليد ، فيلقي بثقله الأعظم الهائل(٧٦٥) : ونعني هنا بهذا اللفظ التقليد الديني ، المؤلف من الشواهد القرآنية والحديث ، والتقليد الدنيوي بشكليه الأساسيين : أدب الأخلاق المهذب (أقوال مأثورة ، أمثال ، حكم(٧٦٦) ، وأدب الأخبار (أخبار دنيوية) التي تنتهي الى التاريخ ، المتمثل في الانتحال عن البلاذري(٧٦٧) . ويفرد مجمل هذا الأدب الدنيوي ، تحت قناع عربي ، مكاناً واسعاً بعض الشيء ، لفارس التي لعبت دوراً كبيراً في تكوين أخلاق لا دينية ، نصف علمية ، نصف شعبية ، وعرفت ان تدرج عدداً كبيراً من تقاليدها القومية في تراث تاريخ الجماعة الإسلامية (٧٦٨) عن طريق اثارتها لعبة الوحدة اللغوية . أما في الأدب بالمعنى الصحيح ، فندخل ، خلافاً لذلك ، في مجال تطبعه أساليب الفكر العربية بطابعها البارز : فتأخذ الأشعار حصة الأسد ، بأكثر من مائة وخمسين شاهداً ، بعضها لفحول الشعراء : كذي الرمة ، وأبي نواس ، وأبي العتاهية ، وأبي تمام (الطائي) والبحتري . ولا عجب اذا ورد أولا ذكر فئة من الناثرين ، ممن اعتبروا آنذاك ائمة الادب : كالجاحظ بلا شك . المذكور صراحة أو تورية(٧٦٩) ، وخصوصا المدائني ، الذي لم ينته الناس بعد من الأسف على فقدان مصنفه(٧٧٠) . بالمقابل ، لم يحبذ رواد النثر العربي : فحتى لو تمكنت طريقتهم من الهام أكثر من مقطع من أدب الأخلاق المشار اليه من قبل ، فان اسماءهم تكاد لا تظهر ،

وتسمح صيغة واحدة فقط باثارة ذكرهم(٧٧١) . ذلك أنهم يمثلون مرحلة من الأدب ــ مرحلة وصفناها من قبل بأنها أدب الأخلاق ــ تهم جامع الأدب مثل ابن الفقيه أقل بكثير من المرحلة اللاحقة : فمرحلة أدب التقصي ، على طريقة الجاحظ أو المدائني(٧٧١) ، تحولت الى كنز حقيقي من الأخبار ينهل منه مؤلفنا وكثيرون غيره ، ممن نهجوا معطياته وحولوها تدريجيا الى أدب موسوعي(٧٧٣) .

وتتضاءل مكانة اليونان جدا ، بالمقارنة بالشرق . فلا نصيب لها سوى نفوذ محدود لعدد قليل من العلماء ، وفي طليعتهم بقراط وافلاطون وارسطوطاليس(٧٧٤) . لكن مثلما حدث لبطل اليونان القومي الاسكندر ، الذي سلب منها لصالح تأليفية تاريخية حريصة على مراعاة قيام العالم العربي الإسلامي ، تجري الأمور مع فلاسفة اليونان وحكمائها ، كما لو ان مادة فكرهم الخاصة انتزعت منهم : فلم يعد تيودوز ودوروتيوس أو فستوس ، سوى ذكريات ضائعة بين غيرها ، منثرة في زوايا المصنف الأربعة ، ولا يشار الى ارسطو إلا كمحرر رسالة قصيرة وتافهة الى الاسكندر ، يقول له فيها كيف يسوس رعاياه ، ويحفظ كنوزه بأمان . أخيراً أصبح افلاطون باني جدار اسطوري في مصر(٧٧٥) .

وهكذا أدرج كتاب البلدان ما يستعمله من المعطيات اليونانية النادرة في أدب اثبت قدرته على التمثل مرة أخرى . فاصبحنا نتوقع ان نجد كتابا غير متماسك ، لتفاوت الأزمنة والبلدان والعلوم التي يستمد منها محتواه . والواقع ان العكس قد حصل : فحتى في صميم هذه المقاطع التي نستصعب الى أقصى حد ادراك تسلسل المخطط الاجمالي فيها ، وأحياناً تتابع حديث بدأ قبل بضعة أسطر ، لا نشعر البتة لا بتغيير اللهجة ولا الأسلوب .

وترى أن وحدة المصنف البارزة ترتبط بمعالجة المعرفة فيه : فهي ، مثلما قلنا ، معرفة متوسطة ، لا تريد ولا تدري حتى كيف تتبصر ، كما فعل الجاحظ ، لا بالتراث اليوناني العلمي في جوهره ، ولا بالمعطى العلمي العربي الاسلامي ، المبني على التقليد التاريخي الأدبي . وهي لا تريده ولا قدرة لها عليه ، لأنها انطلقت بنفسها ، بعد مرور عدة عقود على وفاة الجاحظ ، انطلاقاً تاماً خالياً ، فيما يبدو ، من امكانية التأمل بنفسها ، مندفعة في سيرورة يبعث التقليد الحياة فيها كلية ، ولا يسعها ان تتصور غيرها . والدليل على ذلك انها تعامل الجاحظ ، الذي نسيت عقليته ، ولم تأخذ عنه إلا أسلوب تعبيره ، كموضوع تقليد وعنصر من التراث الجماعي .

وتمارس المعرفة السابقة تحويل المواضيع الى أدب ، وتستعجله ، فتحتفظ من اليونان بعد التصرف معهم غريزيا على هذا النحو ، بما يمكنها ان تدرجه في النظام القائم من قبل(٧٧٦) . والواقع ان هذا النظام واسع ، لأنه يضم الى الأصل العربي المأخوذ من جزيرة العرب(٧٧٧) ، والى المفاهيم الموروثة عن فارس ، مكتسباب هائلة من العلم والفكر العائدين الى القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، بعد ان دونهما الأدب ، واعتبرهما مواد حتمية في المعرفة . وقد تكون هذه المعارف مأخوذة جزئياً عن اليونان ، لكنها استعربت ، ونسبت الى الائمة الذين وطنوها ، كالجاحظ مثلا . وهكذا أتى المعطى التقليدي ، العربي الاسلامي أو المستعرب ، في الطليعة في معرفة ابن الفقيه وفي عقله الباطن أيضاً . ولم تعد اليونان تلعب إلا دور تكملة ثانويا جداً . فقد زالت الحدود التي كانت تبين اسهام عبقريتها الأصلية والنوعية ، فصارت تارة منسية صراحة

في مواضيع نشأت عندها(٧٧٨) أصلا ، وفرض عليها طوراً ان تمزج بمواضيع موازية جاءت من التقليد الأدبي العربي(٧٧٩) ، ونسبت اليها أحياناً أخيرة المواضيع المتوازية ببساطة تامة(٧٨٠) . وهكذا نسي التراث اليوناني ، أو دمج أو الحق ، فذاب في الأدب ، بطريقة معالجة لا تخلو من التذكير — وسنعود فيما بعد الى هذه النقطة — بمعالجة مارسها ابن قتيبة(٧٨١) من قبل ، كما رأينا . مع ذلك يمكن ان نتساءل اذا كان وراء حديث ابن الفقيه ارادة واعية الى هذه الدوجة ، تقف ضد اليونان بحد ذاتها . ومهما يكن ، فنحن واياه في مرحلة أدب وصيغة له ، اسميناها أدب الموسوعة ، الذي تروضت فيه تماما آليات النظام ، وأصبحت تسير تلقائيا ، اذا جاز لنا هذا القول . فمن هذه الناحية ، تمثل اليونان حالة بين حالات كثيرة ، وتخضع الى القانون العام القاضي بأن أي معطى تقني أو متخصص ، مهما تضاءل ، ومهما كان نوعه ، يمر قبل ان يستسيغه الأدب ، في قوالب يفرضها ، نعني قوالب نموذج أدبي معين(٧٨٢) . ومهما تحدثنا في البدء عن فوارق نوعية في الأزمان أو الاصقاع أو العلوم التي تهم كتاب البُلدان ، نرجع دوماً مجدداً في نهاية الأمر ، الى تأليفية الاسلام القوية ذاتها ، التي تعنى بالدقائق والعموميات الى حد مستغرب ، وتشمل التاريخ ، وتنسبه الى ظهورها العفوي ، والأرض لتوزعها حول الشرق الذي رأى نشوءها، والمعرفة لتعيد صياغتها حسب قواعد الأدب .

التقنيات والآليات في مصنف ابن الفقيه

تكلمنا من قبل عن الآليات ، لأنها تلعب في كتاب البلدان دوراً رئيسياً ، نود تحديده بدقة . بالتالي ، يهمنا ان نميز بين التقنيات التي

ينجزها كاتب واعي ويمارسها ، وبين الآليات التي تتدخل متى شرعت التقنيات السابقة تخفى على مستعملها .

ويستعمل كتاب البلدان صيغة الغائب ، مثلما قلنا ، فلا يتحدث إلا على لسان شخص ثالث . فيطبق أسلوبه ، مبدئياً ، على علم البلدان ، طريقة مألوفة في الحديث والتاريخ . وعليه ، فالنقل شفهي ، ابان ش . ليفي ستروس بدقة زائدة انه « يتناول الموضوع حسياً » ، ويسنده الى شخص آخر ، ويسوغ « اتصالا معاشاً يتم بين بعض الأشخاص » ، فيتيح فرصة الحصول على صلة بالواقع ، نشعر بها بعمق أكثر مما نشعر بها في حضارة مبنية على الوثائق المكتوبة(٧٨٣) . وقد أعطى أحد النحاة العرب ، وهو الزجاجي (المتوفى عام ٣٣٧ ه / ٩٤٩ م) ، في علم المعاني ، ايضاحاً مقنعاً للاحساس العميق بهذا التوافق : فربط ربطاً وثيقا جداً ، لفظ « الحديث » باصله « حدث » ، الذي يؤدي مدلوله معنى ظاهرة أو واقعة ، وأبان ان هذا الجذر يعبر عن فكرة الظاهرة الخالصة (حدث) وعن تحقيقها (أحداث) وعن الخبر (حديث) المروي(٧٨٤) . ففي هذه النظرية التي توحد على هذا النحو بين الوجود ، المتصور ، والمحقق أو المحكي ، يصبح الحديث ، الذي يترجم الى الفرنسية ، على غير وجهه الصحيح ، بكلام أو تقليد ، هو في الواقع اعادة خلق الواقعة على مستوى الاتصال ، ولا يمكن تصوره إلا اذا أعيد ربطه بالحقيقة الحية ، لحدث تحول الى شيء « محدث » . ويتضح بجلاء جميع ما ينقله هذا الأمر الى الضمائر ، من قوة الحديث المحيية : فالموضوع يتعلق في الواقع بلفظ خلاق . ورب قائل يقول ان ابن الفقيه يستوحي من مصادر مكتوبة . على ان عدداً كبيراً من مصادره ، لا سيما

ما يرجع منها الى أوائل الأسلام ، ينبثق عن أخبار شفهية ، ولا يمثل ، على أي حال ، سوى تسجيلها المادي . ثم ان المعرفة الدنيوية المحضة لا تصدر في جوهرها عن ذهنية مختلفة جداً . بالفعل ، لا يرمي الاستشهاد الى اعطائها قوة اسناد فقط ، بل يتوق أيضاً الى أكثر من ذلك : ففي نظام يعتبر المعرفة سلسلة اسناد متوالية حتى الواقع الأصلي ، يؤول الاستشهاد بأحد الائمة الى رفع القارىء أمام حقيقة الحدث المذكور ، مدركاً على هذا النحو في عفوية أصوله ، سواء اعتمد الإمام على شهادته الشخصية ، أو اسنده بدوره الى مرجع آخر . ولم يقصد عبثا بصيغة « قال (فلان قال) » الأخبار الشفهية والانتحال من النصوص المكتوبة دون تعيين : ففي الحالتين ، تثبت هذه الصيغة ان ادراك الحقيقة يمر بالتناقل .

بالتالي ، نخطىء اذا قلنا ان فعل الرؤية ذاته (العيان) غير معروف في الأدب ، وانه لا يدخل في مصادر أخباره المعول عليها حسب الأصول. فهذه الأخبار ، شأنها شأن جميع المعارف ، لا يسعها إلا ان تستهدف في النهاية تصور الواقع تصوراً حسيا جهد المستطاع . على انها تفضل ان يلمسها الآخرون ، عوضا عن ان تلمس هي نفسها . ونستطيع الاستفاضة في شرح ما قد يبدو ت ، وراً في الرؤية أو التفكير الذاتيين ، اذ ان كل جيل يعتمد على هذ النحو على الأجيال السابقة ، ولا يصبح مصدر معرفة إلا بعد ان يزول . مع ذلك ، اخال مثل هذا الحكم خاطئاً ، لأنه لا يأخذ بعين الاعتبار ظاهرة تقدم الأدب التاريخية ، ان لم يكن في العمق ، فبالحجم ، بما يضيفه الى تراثه من مواد ، بأناة وانتظام . بالتالي ، لا بد من القول ان النظام الثقافي في مؤسسة الاسهم المتميزة

بتماسكها الاستثنائي ، لا يتكون وفق معايير تختلف عن معايير الانظمة الدينية أو السياسية أو الشرعية أو الاجتماعية ، المتداخلة جميعها أصلا . فلا يعقل ألا يكون للإسلام في كل جيل عبقريات تشق طريقها خارج الدروب المطروقة . على ان هذه العبقريات تخضع ، مهما كان ميدانها ، الى الاجماع ، المنصوص عليه صراحة أو الموافق عليه ضمنيا ، الذي يتبناها ، كلياً أو جزئيا ، بعد ان يلزمها بقواعد النظام : فقد أشرنا الى ذلك في حالة الجاحظ ، الذي نازعه في حياته ابن قتيبة ممثل هذا النظام ، وأدرج بعد مرور جيل ، وفق ذهنية النظام ، في تراث الجماعة المشترك . وهذه الجماعة ، أو الأمة ، ليست طائفة دينية فقط ، مثلما ترى ، بل على وجه العموم ، الهيئة الاجتماعية في مجمل مواقفها . وعندما يعتبر ابن الفقيه المعرفة تقليدا متناقلا ، يحدد نفسه عضوا في هذه الأمه ، بتواضع بالغ ومنطق كبير ، بسبب النظام الذي يرتبط به .

ويتضح أيضاً مبدأ العلاقة ــ هنا بين المؤلف وعصره وجمهوره ــ في رأينا بالأشياء ذاته . فالنزعة الى التعبير باحكام قيمية ، بالنسبة الى نموذج مفروض مسبقا ، والميل الى اطلاق الأحكام المتناقضة ، يلهمان عرض المعطى المتواتر في صيغة اجراء مقارنة ، إما بين موضوعي البحث ، وإما بين حسنات وسيئات الموضوع الواحد نفسه . ولا ريب ان هذه المناظرة شائعة في الأدب الفارسي ، لكنها قد تكون أيضاً مستقاة من أقدم تقاليد الجزيرة العربية(٧٨٥) . ومهما يكن ، فقد أصبحت في العصر الذي كتب فيه ابن الفقيه ، طريقة عرض مفضلة في كتب الأدب ، وذريعة عند أهل الأدب أو الشخصيات الرفيعة ، لعقد مجالس يرتجل فيها موضوع معين(٧٨٦) بهذا الأسلوب الانشائي . اذن على وجه

العموم ، لا يقبل شيء ما لم يكن كلاسيكيا ، ما دامت المعالجة تقليدية في الغالب على نطاق واسع . ولولا ان الطريقة تؤلف اطاراً سهلاً والزاميا ، تعرض فيه مواضيع قديمة مجمدة نهائيا(٧٨٧)، وتحجب ، مثل كثير من الأساليب المستعملة في الأدب ، قوى سليمة وقادرة الى أقصى حد على تكييف أي معرفة مقدمة ، وجعلها فعلا موضوع أدب ، لما الححنا عليها . وهذا هو الوضع في الواقع : فقد طبقت المناظرة في البدء على المواضيع الكلاسيكية — أدب الأخلاق أو المقابلة بين البصرة والكوفة مثلا(٧٨٨) — ثم مالت شيئا فشيئا الى الامتداد الى أي موضوع أو بلد آخر . وقد عالج ابن الفقيه مصر بهذا الأسلوب(٧٨٩) ، وجعله مؤلفو كتب المسالك والممالك بعده ، وفي طليعتهم المقدسي ، طريقة منهجية ، يتبعونها في عرضهم .

وعندما تتناول العلاقة الموضوعية أكثر من عنصرين ، تصبح مبدأ تصنيف وقائمة . ولا ريب ان لهذا الأسلوب من عرض المعطى ، الشائع جدا في الأدب العربي ، سوابق في الأدب الفارسي(٧٩٠) . وقد توطن نهائيا في عهد ابن الفقيه ، وطبق على أكثر المواضيع تنوعا ، وسوف يستخدم على نطاق واسع ، كالمناظره ، في نمط المسالك والممالك ، الذي سوف يقدم بهذه الصيغة الخصائص العرقية والاقتصادية والثقافية أو غيرها ، العائدة الى البلدان(٧٩١) . وقد يجسد ابن الفقيه مسبقا ، عرضا ، هذه الجغرافية(٧٩٢) ، لكن ، على وجه الاجمال ، تظل طريقة التعداد لديه أدبية الالهام في جوهرها . فسواء تناول مجدداً سرد خصائص الشعوب ، أو بين فضائل شتى الأماكن في خراسان ، أو على وجه أعم ، فضائل بعض المدن أو البلدان الشهيرة(٧٩٣) ، فهو

يستلهم ، هنا أيضاً ، من النظام أكثر مما يستلهم من الذهنية ، ومن ابن قتيبة ، الذي تصبح الفضائل عنده غاية بحد ذاتها ، ونوعا من تعليم المعرفة الدنيوية ، أكثر مما يستلهم من الجاحظ ، الذي لم تكن هذه الصيغ لديه سوى وسيلة من وسائل عرض نتائج تقصيه الشخصي . وتجيب الخصائص في الواقع في كثير من مقاطع كتاب البلدان عن أسئلة مطروحة(٧٩٤) كيفيا ، وتكرر ، بوضوح وبحرفية النص تقريبا ، التصنيفات المطبقة عند ابن قتيبة(٧٩٥) . وفي الحد الأقصى ، يؤول التمسك بالتمييز الى نتيجة عكسية تماما ، لما تستهدفه المنهجية أيا كانت : نعني نكران المفهوم نفسه وتبني درجة منه وحدها(٧٩٦) .

وهكذا نبدأ بادراك نصيب اللا اراديات : فما دامت الدرجة المتباينة تمثل صفة عجيبة ، وتعبر عن ابتعاد عن القاعدة أو المفهوم المشترك ، تصبح صيغة بين سائر صيغ الطريقة ، التي تتمثل في أخذ الخارق وحده بعين الاعتبار . فالمنهجية المطبقة ، مثلما قلنا ، تتناول ما ليس منهجيا فقط . فاذا كانت من قبل نهجا متبعا عن وعي وبانتظام ، هل نعجب اذا تجاوزت الطريقة المرسومة أحيانا كثيرة جدا ابن الفقيه الواقع في شركها ؟ ويمكن ان تأخذ لا ارادية العجيب أشكالاً كثيرة ، من خلال الآليات الداخلة فيها . فاحيانا يتلاشى الإطار الواقعي ، الطوبوغرافي بنوع خاص ، العائد الى الموضوع ، ليصل بالخبر الى منتصف طريق الحكاية . ويلاحظ كثيراً مثلاً استعمال « كان مرة في بلد بعيد » في تدوينات الشرق الأقصى . وتنتحل تلك التدوينات كما قلنا ، من أخبار الصين والهند ، فتشوش الحدود الجغرافية ، الدقيقة جداً في المصنف الأصلي ، وتحول العجيب الى شيء أخاذ على هذا

النحو(٧٩٧) . وفي أماكن أخرى ، تترتب النتيجة ذاتها على تراكم التدوين الفوضوي ، المرتبط بكتابة لا إرادية ، الذي يتسارع اذا جاز هذا التعبير ، ويتضخم شيئا فشيئاً حول الموضوع الأول ، المتوازي تدريجيا في الأعماق(٧٩٨) . مع ذلك ، تبدو الفعالية الزائدة في أسلوبين أشير اليهما من قبل . يصعب جدا ان نحدد فيهما النصيب العائد الى القصد الواعي واللاإراديات : ونعني اكتشاف مجالات عجيب جديدة(٧٩٩) واجتياح العجيب مواضيع كانت تلحق حتى الآن بالنظام الطبيعي : فلابأس ان تنسج الأساطير حول الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية ، لكن يستغرب ان تكبر الاترجة (الكباد) العادية حتى تحجب الرجل عن صاحبه اذا وضعت بينهما ، وان تعرض مواضيع معروفة كالنيل وحيواناته أو اسم مصر ، على الطريقة العادية وعلى طريقة العجائب(٨٠٠) بآن واحد .

وينجم تسريع عرض الأسطورة عن هذه الظاهرات . ويتخذ شكلا كميا . فيحول المعطى المعقول الى معجزة بعملية ضرب حسابي بسيطة : فقد أخذ ابن الفقيه عن ابن خرداذبه وصف رومه ، فرفع عدد الكنائس من ١٢٠٠ الى ٢٤٠٠٠ كنيسة ، وعدد الحمامات (٨٠١) من ٤٠٠٠٠ الى ٦٠٠٠٠٠ حمام . وفي أغلب الأحيان ، يتم التسريع بتحوير واقع المعطى ذاته أو بقلبه تماما : فلا يكفي مثلا ، كما هي الحال في أخبار الصين والهند ، ان تحرق جثث الملوك المتوفين في سيلان ، بل لا بد أيضاً ان يقطع الملك أربع قطع(٨٠٢) وتنحت عنده سمكة نهاوند وثورها ، وهما من حجر حسب شهادة أبي دلف مسعر ، من ثلج لا يذوب(٨٠٣) . أخيراً نكتفي بالمثال الأخير التالي عن موضوع

الأسكندرية البيضاء ، الذي انقلب مضمونه كلياً : فاصبح قول ابن خرداذبه ان أهلها في فجر تأسيسها لا يمشون فيها بالنهار إلا بخرق سود مخافة على ابصارهم من شدة بياض حيطانها ، بعد ان انتقل منه الى ابن الفقيه : كانت الأسكندرية بيضاء تضيء بالليل والنهار ، فكانوا اذا غربت الشمس ، لم يخرج أحد من بيته(٨٠٤) .

فالكاتب تثقل كاهله وطأة مصادره في جميع ما تقدم ، سواء تعلق الأمر بتقنيات وضعت عن سابق عمد وتصميم أم بلا اراديات ، ويشد الى ذاكرته ، ويستسلم بلا مقاومة الى اغراءاته ، ويرغم على كتابة عرض كمي في جوهره ، يتبسط ، لا في العمق ، بل أفقيا بدس المواضيع والاستطرادات والمعترضات . فتتراكم المعطيات ، واللجؤ الدائم الى الموضوع القريب ، الموازي أو المضاد ، والانتقال المستمر من صيغة الى صيغة أعجب منها ، تجعل كلها كتاب البلدان ضربا من التصفح العاجل ، وتجري الأمور فعلا ، كما لو ان ضغط اذكار ما ينبغي كتابته ، وسيطرة الخوف من اضاعته ، لا يفتآن يحرفان عرض البحث الى جانبي المبدأ الخطي المفروض ان يتبعه . ويتضاءل تعجب القارىء الغربي ، متى سلم ان صميم نظام الكتاب يرتكز على الاستطراد في النهاية ، عندما يرى ابن الفقيه يكتب : « قالوا من عجائب الشام ، أربعة أشياء : بحيرة طبرية ، والبحيرة المنتنة ، وأحجار بعلبك ، ومنارة الأسكندرية(٨٠٥) . » ويقول أيضاً عن حدود العراق : « والعراق في الطول من عانه الى البصرة ، والبصرة تتاخم الأهواز ، والأهواز تتاخم فارس ، وفارس تتاخم كرمان ، وكرمان تتاخم كابل ، وكابل تتاخم زرنج ، وزرنج تتاخم الهند(٨٠٦) » . فاذا سرنا في سياق حركة النص ، حملنا في النهاية طبيعيا من العراق الى الجنة(٨٠٧) .

وما اغرب العالم الذي يستخلص من هذه المعرفة في الواقع ، فقد تشوشت حدود الدنيا التي نراها حسيا في الحياة العادية ، وبرزت فقط التفاصيل التي تخرج فعلا عن نظام طبيعة الأشياء . وأصبحنا أمام علم يتوخى فيه المصنف ، وهو ساحر أكثر منه عالم تربية ، ان يفتننا أكثر بكثير مما يقصد تعليمنا ، ويصبح فيه القارىء ، وهو فريسة مضحى بها أكثر منه تلميذ ، لا يروم على أي حال إلا ان يقع في الشرك . فصار المؤلف والقارىء يتجاذبان على هذا النحو . فتكونت في النهاية ، كما نقول ، جغرافية عجائب حقيقية . لكن آن لنا ان نرى كيف يمكن لعلم البلدان مثلما يقدمه انا كتاب البلدان ان يعتبر علما وجغرافية بشرية كانت أم غير بشرية .

« علم البلدان » : علم على طريقة ابن الفقيه

لا بد ان نتساءل في البدء عن احتمال انطواء مصنف ابن الفقيه على بعض مبادىء ، يجوز اعتبارها وثيقة تتصل بنهج وذهنية علميين . فلا ريب ان جميع ما قلناه عن ذهنية الكتاب وأساليبه يبرز بونا شاسعا جداً بين المعرفة العلمية وبين وصف الأرض ، بالمعنى الذي نسوغ لنفسنا فهمه . على أننا اذا تجنبنا الأحكام المطلقة ، وأمعنا النظر في أعماق المصنف ، متجاوزين ما يفرضه العصر عليه من لبوس ، لأدركنا في النهاية ، ونحن على عجب من أمرنا ، انه مستوحى من مناهج لها في الواقع مرامي تغاير مرامينا ، تكفي حصافتها لتبرئة ابن الفقيه من الاتهام باللامبالاة . ولا بد ان يهدينا التحليل الحاضر الى اكتشاف كاتب ، يولي دوره عناية فريدة جداً ، ويلتزم عن وعي أو لا وعي ، بنظام معارف متماسك جداً .

فقبل كل شيء ، لا يجوز ان ننتهز العقبات الناشئة عن تدخل آليات معينة أثناء مطالعة الكتاب ، فرصة سانحة وسهلة ، لنتخلى عن تمييز تقسيمات المصنف الاجمالية . فمهما كانت نظرتنا اليه سريعة ، فسوف نستخلص منه مخططا محكم التنسيق ، تتناوب فيه بانتظام ضروب العرض « الجغرافية » ، والفواصل الترفيهية : فبعد المقدمة ووصف الأرض ، يحين وقت التوقف الأول عند موضوعات الصين والهند ، ثم يأتي وصف جزيرة العرب ، ويعقبه تقديم استراحة جديدة مقدمة للقارىء تمهيداً لموضوعين أدبيين ، هما مزج الجد بالهزل ومدح الاغتراب . ويستأنف العرض ليعالج المناطق الغربية ، وينقطع في مدح البناء وذمه ، ثم ينتقل الى العراق ، ويعطي فاصلا جديداً بشكل مقدمة ثانية ، تمثل اعلان عقيدة أدبية حقيقية . ويعود المؤلف فيما بعد الى فارس والشمال الغربي ، ثم يتلكأ برهة عند سد ياجوج وماجوج ، قبل ان يختتم الكتاب بالمناطق الشمالية والشمالية الشرقية(٨٠٨) . وهكذا ، اذا لم نحاسب ابن الفقيه على نواياه ، لا بد لنا من الاعتراف بأن مخططه الاجمالي يعكس وحدة بحث واقعية . ويسير الفاصل وفق أفضل تقاليد الأدب ، ويرفه عن القارىء ليريحه من ارهاق عرض مشهور بصعوبته ، ويثبت أن ما يأتي في المقام الأول في ذهن ابن الفقيه ، ليس تلك الاستطرادات التي تتفاوت صفتها الأدبية ، بل علم علم البلدان ، حتى لو اختلف عن علمنا . واذا كنا نقع أحيانا في الحيرة ، على مستوى مجمل الكتاب أو على المستوى الأصغر لتطور أحد المواضيع ، لتشعب العرض ، فلا يجوز لنا ان نستنتج من حيرتنا وجود نقص في وحدته . فمثل هذا الفن في الكتابة ، شأنه شأن الأسلوب الباروكي ، لأن هذا هو المقصود عمليا ،

يمكن ان يعبث هنا وهناك بالخط المستقيم ، لكنه لا ينساه ، بل يتحرك « حول محور » ماثل دوماً فيه(٨٠٩) .

ولا تنجم هذه الوحدة الحقيقية ، العميقة جداً حتى أنها تدرك في أضعف المناهج الفكرية وعياً ، عن البحث المختار ، المنظور اليه مجرداً بحد ذاته فحسب ، بل عن التقاء البحث بالطريقة ، بتعبير آخر ، عن تطبيق منهجية ، عرفناها سابقا بمنهجية اللا مألوف ، على البحث الجغرافي. فعندما نغوص الى أعماق الأشياء ، نساق الى اعادة النظر بالحكم الشائع ، الذي يعرّف علم البلدان بأنه الاستعانة بعلوم غير جغرافية في اكثريتها الساحقة ، في معالجة أحد مواضيع الجغرافية . ذلك ان اعتبار هذه العلوم تاريخاً أو تقليداً ، أو أخلاقاً ، أو شعراً ، لا يلهم اختيارات الكاتب ، بل رائده مبدأ العجيب الذي يتحكم في اصطفاء العلوم التي لا ترد إلا عندما تتماثل مع الخارق ، وهذا هو السبب الوحيد لتدخل الجغرافية . بالتالي هنا أيضاً ، يتوارى سبب وحدة عميق خلف التنوع الظاهري في المعطيات .

ولكي يرتدي تعريف العلوم التي يستقي منها كتاب البلدان ، طابعاً ثانويا الى هذا الحد العظيم ، على ضوء المبدأ الأساسي ، مبدأ العجيب ، لا بد ان ينطوي هذا العجيب ذاته على قاعدة تصنيف موضوعية وألا يخضع الى تقلبات الشخص في اعطائه الحكم القيمي ، وان يلهم بانتظام وسداد ما يساق الكاتب الى اجرائه من اختيارات من بين جميع المواد التي تزوده بها العلوم المشار اليها . فبهذا المعنى الأول ، يدل جذر « عجب » ، كما جاء في لسان العرب(٨١٠) ، على انكار ما يرد اليك لقلة اعتياده ، ويطبقه القرآن فعلا على حالات عجائب وخوارق(٨١١) .

ومنه يتضح انه اذا كان لفظ « بعيد » يدل على ما يحيد عن النظام المعهود ، فان لفظ عجيب ، ولعله صفة مبالغة ، قد يدل على ما هو منقطع عنه(٨١٢) تماماً . وينعت ابن الفقيه بهذا اللفظ ، في المقطع ذاته(٨١٣) الخصائص المحلية ، والبناء ، وعجائب الدنيا الرئيسية ، مبينا على هذا النحو ، من خلال التباين الظاهري ، ان المعيار يظل دائما على حاله : فالمألوف يمثله نوع أساسي ، أو مجمل البلدان ، لذلك لا مانع ان نصف بالعجيب صنفا من الحيوان يدخل في نوع معين معروف أصلا ، أو ذاك الانتاج الخاص ببلد معين ، أو أيضاً النيل لأنه يجري في اتجاه يخالف اتجاه أنهار الأرض الاخرى . اذن يمكننا ، مثلما نرى ، ان نؤدي لفظ عجيب ، ونترجمه الى اللغة الفرنسية بألفاظ متعددة مثل لا مألوف ، ونادر ، وحتّى منفرد أو نوعي(٨١٤) . لكن في جميع الأحوال لا بد من الأنتباه الى ظاهرتين : أولاهما ان فكرة الروعة أو أي حكم قيمي آخر ، لا تلتصق باللفظ إلا بصورة ثانوية ومتممة : فلا تلقاه أبداً ، مثلا ، يوصف به بهذا المعنى(٨١٥) التمساح أو ثمر معين ، لأنهما لا يتسمان بالعجب إلا بمعنى اللفظ الأول ، الوحيد الصالح لجميع الحالات . والظاهرة الثانية ولا بد من تكرارها ، هي ان العجيب ، تحت أشكال التنوع ، يدل دائما في نهاية الأمر على ما هو مرتبط بمعيار التفريق : فاختيار علم البلدان القديم لهذا المبدأ المنهجي ، لن يبدو سيئا الى حد كبير في نظر من يعرف النجاح الذي لقيه مثل هذا المعيار في العلوم الانسانية منذ دي سوسور . لكن من قال لنا ان علم البلدان لم يع هذا المعيار ؟ فابن الفقيه يكرس فعلا هذه المنهجية عندما يعلن : « ما من بلد إلا وقد أعطي نوعا من الفضل ينفرد به وضربا من المرافق

معدولا عن غيره ، يعجب به أهله ويطمئنون اليه في تقريظه(٨١٦) » .
ويقول أيضاً في مكان آخر في نص مغزاه أقوى : « ولولا ان الله عز وجل خص بلطفه كل بلد من البلدان وأعطى كل أقليم من الأقاليم بشيء منعه غيرهم لبطلت التجارات وذهبت الصناعات ، ولما تغرب أحد ، ولا سافر رجل ، ولتركوا التهادي ، وذهب الشري والبيع والأخذ والإعطاء(٨١٧) » .

من ناحية أخرى ، لم يغرب عن بالنا ان هذا العجب كان يمكن ان يصبح مناسبة تقصي عند بعض الكتاب ، كالجاحظ مثلا(٨١٨) . ويختلف المنظور فعلا مع ابن الفقيه . وأنا أعرف جيداً أنه يحاول أيضاً ، في مناسبات نادرة ، ان يخترق الهالة السرية المحيطة بالظاهرة لينفذ الى الحقيقة(٨١٩) . على ان العجيب عنده ، في جميع الحالات تقريبا ، مناسبة تتيح له فرصة التدوين ، لا التقصي ، وتمثل علامة وضع ثابت ، وبالتالي صالح للتدوين ، لا كنقطة انطلاق . اذن يؤول التقصي ، لا الى النفوذ الى ما يختفي وراء الخارق ، بل الى وضع قائمة بهذا الخارق نفسه ، الذي يكفي وجوده على ما هو عليه . فمتى طرحنا هذا الطرح ، يصبح كلام التقصي ، المحدد على هذا النحو ، مرة أخرى ، افقيا ، لا باتجاه العمق ، ولا يقل طموحاً عن الحديث عن سائر المعارف . ويحب علم البلدان الاستيلاء بطيبة خاطر ، فيما يبدو ، لذلك ينفتح أحياناً على ميادين جديدة من العجائب(٨١٩) ، أو يمكن ان يقدم أيضاً ، عن موضوع معين ، تركيب المعارف المتناقلة حتى ذلك التاريخ(٨٢٠) ، لكنه يجمع بنوع خاص ، على مستوى أعلى ، جملة مواضيع تؤلف جغرافية حقيقية : نعني جغرافية طبيعية تشمل الصخور ، والأنهار

والحيوان والنبات ، وجغرافية اقتصادية تضم المنتجات ، والتبادلات ، وجغرافية بشرية تعالج الخصائص الانتولوجية أو البيولجية ، والمراكز الدينية والتقسيمات الادارية . وفي جميع هذه المعارف ، لا يشار طبعا إلاالىالظاهرة الغريبةأو الهامشية ، وليس ، مثلما قد نفعل ، الىالظاهرة الأساسية التي تبنى عليها المعرفة قبل غيرها . وفي النهاية ، لا تبرز الجغرافية مرة اخرى إلا من خلال الغريب(٨٢١) : فهنا يظهر التنظيم الأرضي الخاص بالأكراد(٨٢٢) أكثر من التقسيمات الادارية المعهودة، ولا يسع تفاح العالم ان يضاهي تفاح شيراز ولبنان ، الذي يتميز في شيراز بأن نصف التفاحة حلو ونصفها الآخر حامض ، وفي لبنان ، بأنه لا تفوح منه رائحته إلا اذا توسط رافداً من الفرات(٨٢٣) : ويشبه هذا الوضع الحاح جغرافية فرنسة ، مثلا ، على فج فاليزيا أو تين روسكو . لكن بعد هذا الطرح ، ومرة أخرى ، اذا أردنا ان نتحاشى محاسبة ابن الفقيه على نواياه ، نقول ان المقصود معرفة تعتمد على أساس أرضي كما يتضح من عنوان المصنّف ذاته ، ولا تقل الصفة الجغرافية في بحثه في البدء عن الصفة الجغرافية في خريطة سياحية أو أي دليل نوادر يعود الى أيامنا الحاضرة . لذلك يكمن الخلاف قطعا في ناحية أخرى : ففي حين يستهدف كتاب البلدان ان يوزع مكانيا جملة من المعارف تتعلق ببلدان ينظر اليها كل مرة من زاوية أصالتها التي لا تنتقص ، تتحاشى الجغرافية ، بالمعنى الذي نخصها به نحن ، ان تتغافل ، حتى في دراسة اغرب البلدان ، عن القوانين العامة للآليات الطبيعية أو البشرية . فالجغرافية تتخذ الأرض بما فوقها من البشر موضوعا لها ، وعلم البلدان يعيد في دراسته ادخال رؤية ذاتية رفيعة ، بما يجريه المؤلف من اختيارات إرادية . لكن لا تمنع الأصالة ، في الغايات أو في النتائج ،

الجغرافية القديمة للبلدان ، ان تكون رصينة وواسعة كالجغرافية الاخرى . واذا كان لا بد من ايجاد تباين ، فالاختلاف يعود ، في التحليل الأخير ، الى ذهنية المعرفة ذاتها ، مثلما تتصورها القرون الوسطى والأزمنة الحديثة سواء بسواء . بتعبير آخر ، لدينا الآن علم ، وكان لدينا في الماضي معرفة .

جغرافية بشرية أم نزعة انسانية جغرافية ؟

كيف يمكن اعتبار معرفة عجائب البلدان جغرافية بشرية ، اذا فرضنا ان وجود الجغرافية أمر واقع ، حسب تلك الذهنية التي تحدثنا عنها . قد يجاب : بموضوعها حتما ، ما دامت تنقل معلومات تتعلق بوضع البشر على الأرض أو بنشاطهم . إلا ان هذه المعلومات نادرة ، مثلما رأينا ، ولا تعتبر إلا أحد شتى عناصر معطى أعم ، ينتمي الى فئة أخرى ، هي فئة اللا مألوف . ولا يدرك وجود الانسان في العالم إلا في ناحية اخرى وعلى أساس آخر . فدور الأخبار ، مثلاً ، يمكن ان يبدو شاذا في المعرفة التي تزعم انها معرفة جغرافية منذ البداية . والواقع ان التاريخ يتدخل ، لأننا نشعر بالفطرة بأنه لا يحتمل الانفصال عن المكان الذي نشأ فيه . فابن الفقيه يقدم الانسان كائنا ينظر اليه نظرة شاملة ، تتناوله في وسطه الذي خصته به الطبيعة والتاريخ . من جهة ثانية ، بما ان التاريخ ذاته لا يرد إلا عندما يسرد أخباراً معينه عن هذا البلد أو ذاك ، فان تنهيج العجيب ضمن مراتب تسلسل الأحداث والمواقف ، يؤول في النهاية الى تفسير جوهر أصالة أهل كل بلد . وقد يقال ان الجغرافية المعاصرة تسعى أيضاً بالقدر ذاته الى ربط وجود الكائنات ونشاطاتها ومواقفها بأسباب تاريخية . إلا ان رؤية الانسان الشاملة ، التي يحتمل

ان توفق في هذه النقطه بالذات ، بين منظور ابن الفقيه وبين منظور العلم المعاصر ، لا تظهر عنده إلا في بلد معين ، وعلى مستوى الإقليم على الأرجح . وعلى سبيل المفارقة ، وفي الظاهر على الأقل ، يؤدي هنا سرد الفوارق جنبا الى جنب ، الى خلق الشعور بالوحدة على أعم مستوى . بالفعل ، على هذا المستوى بالذات ، لا يجوز ان نغفل ان ما ترمي اليه هذه المعرفة ، إنما هو وصف دار الإسلام وصفا اجماليا . فهل نعجب اذا لاحظنا مرة اخرى ، ان النظام الثقافي ، بالمعنى الصحيح ، يرتكز على مبادىء النظام الفقهي أو الديني نفسها ؟ فهنالك تقليد ، من أوسع التقاليد انتشاراً في الإسلام ، يرى في تباين الآراء ضمن المجتمع ، نعمة من نعم الله(٨٢٤) ، ويلحظ الشعور نفسه هنا : فعلى أساس مبدأ الأصالات المحلية التي لا تقبل الانتقاص ، يشاد في الواقع بناء كيان نتصوره أشبه بعضوية حية ، ترتبط أجزاؤها المختلفة فيما بينها وفق قوانين الحركة الداخلية(٨٢٥) . ولا ريب ان هذا الموضوع المتناقض موضوع الوحدة الاجمالية ، الذي يقابله تعدد عناصرها ، يتلاءم مع المبدأ السليم ، الذي رأيناه ، القائل بأن « الملل نشاء أصلا من التشابه على وتيرة واحدة » . لكن اذا لم نقرأ إلا وجها واحداً من الورقة المكتوبة ، يفوتنا تبرير الميل الى الخصائص ، نقصد الإيمان العميق بأن الوحدة لا لايمكن ان تنشأ في جوهرها إلا من دمج الفوارق(٨٢٦) . بالتالي ، ندرك وجه الاختلاف بين هذه الجغرافية البشرية وبين جغرافيتنا : ففي حين لا نستطيع نحن ان نعمل ، على مستوى الكل ، إلا بالتعميمات والتجريدات متناسين شيئا فشيئا الخصائص المحلية ، يزعم ابن الفقيه ، خلافاً لنا ، ان رسم لوحته الشاملة على الوجه الأكمل ، يرتبط بمقدار إبرازه الفوارق المحلية ، وابتعاده عن التغاضي عنها . وتبدو لنا هذه الطريقة

كمجازفة ، لأننا بلا شك لا نحيا من الداخل ادراك تلك الحقيقة التي نراها نحن متناقضة . أما علم البلدان في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، فلا يرمي ، أقل من علمنا ، الى اعطاء صورة اجمالية عن الانسان ، على مستوى بلاده ، أو على مستوى العالم .

ويتضح لنا هذا المنظور بجلاء تام ما دمنا نستذكر ما قيل عن تدخل المؤلف باعتباره ذاتا في هذه المعرفة من جهة ، وعن البعد الاجتماعي للأدب ، الذي انجب جغرافية البلدان . بالفعل ، يتباين العلم المعاصر والمعرفة ، بالمعنى الذي يقصده ابن الفقيه ، تباينا عميقا ، فيما يخص مراميهما ، عندما يتخذان الانسان على الأرض موضوعا لدراستهما . فالعلم المعاصر ، عندما يتناوله كموضوع ، يستهدف وصف قوانين وظاهرات ، أي باختصار ، يستبعد تدخل الذات في المعرفة جهد المستطاع . وبالتبادل ، لا تتوخى المعرفة التي يتوقع الحصول عليها من دراسة الانسان ، ان تتدخل في وضع الأشخاص القائمين بهذه الدراسة ، من أجل تحسين شروطه أو تغيير عاداته : فهذا الدور ثانوي وعائد الى التقنيات ، أما معرفة الانسان فترمي ، كعلم ، الى زيادة التراث المشترك في تقصي الانسان عبر الأفراد المعنيين . بالتالي تصبح تلك المعرفة مثالية وكلية في جوهرها ، أي انسانية اذا فضلنا . خلافا لذلك ، ينشأ علم البلدان ، على طريقة ابن الفقيه ، من مجتمع وعلم مناضل ، ولا يرمي الى معرفة الانسان بقدر ما يرمي الى تكوين نموذج معين من البشر . نقول ينشاء من مجتمع ، ما دام تدخل المؤلف . المعتبر ممثلا لهذا المجتمع ، يلاحظ في جميع أماكن المصنف ، على هذا الأساس فقط . ونقول علم مناضل ، ما دام يعود بعد نشوئه الى المجتمع لتدريب أبنائه .

فجميع ما قلناه عن الهام المصنف ، المستقى على الدوام من تجربة ابتهة الاجتماعية ، وعن تحويل المواضيع الى مواضيع أدبية ، وعن الشمول والعجيب ، المتصورين لاجتذاب أوسع جمهور ممكن الى هذه المعرفة ، وأخيراً عن الدور الاجتماعي العائد الى الأسلوب الانشائي ، المقصود منه ربط جمهور مولع بالقواعد الأصولية ، ومؤلف ، تتمثل عبقريته الشخصية كلها في تحريك هذه القواعد على الوجه الأفضل ، كل ذلك يميز الكتابات التي تعبر عن المجتمع (٨٢٧) تمييزاً عظيماً : نعني الكتابات التي الفت في بغداد الخلفاء العباسيين ، عرقيا وسياسيا وثقافياً ، من عناصر متغايرة ، وعبرت عن نفسها في الأدب تعبيراً مفضلا ، باستثناء الشعر . واذا توفرت فيها النزعة الانسانية ، فلا يمكن ان تؤخذ إلا بالمعنى الذي نتحدث به مثلا عن انسانية القرن السابع عشر الفرنسي ، أي حسبما يعرض العصر مثلا أعلى ساميا ، ليس بعيد المنال على كل انسان حازم يتمتع بشيء من المواهب . ونقول مثلا أعلى ساميا : لذلك عندما نتحدث عن الجمهور المتوسط ، مثلما يتضح من منطوق نص ابن الفقيه نفسه ، المذكور سابقا(٨٢٨) ، فيما يبدو ، يجب ان نحرص على التمييز التالي : فاذا كانت الدعوة موجهة ، وهذا لا شك فيه ، الى الرجل المتوسط ، المحدد على أساس صفات الجنس الأساسية ، تظل الغاية بعث نخبة جديدة ، أو على الأصح ، ادخال أحد العامة في عداد النخبة القائمة من قبل ، والمبنية على أساس الدم والمكانه والمال ، متى تحلى بثقافة معينة . وعلى المنوال نفسه ، ينبغي ألا ننخدع بتعبير الثقافة المتوسطة ، المستعملة سابقاً : فهو يستهدف مضمون هذه الثقافة — بمعنى أنها متوسطة بين معارف أولية تمتلكها العامة وبين معارف التخصص العلمي — ولا يقصد الجمهور نفسه الذي يبقى نخبة . والمراد بالاجمال الأخلاق البرجوازيه ،

لذلك يطرح مثلا أعلى لا يتعذر بلوغه ، على غرار النموذج الانساني الحقيقي ، بل يبقى مرتبطاً بالقدر نفسه من الوضوح ، بالمجتمع وبالارتقاء الى مكانة معينة . وبذا تتضح حدود هذه النزعة الانسانية : فتبدو هذه الثقافة في معظم الأحيان محولة عقلانيا الى نظام ، لأنها ، مثلما قلنا ، يجب ان تستخدم جواز مرور(٨٢٩) ، ولأن المبتدئين لا بد ان يتعرفوا فيها على أنفسهم ، لكي يعلموا متى يتحتم عليهم قبول أو رفض المرشح للارتقاء الى مستواهم . بالتالي ، ترمي مثل هذه الثقافة في موضوعها الى تغيير معايير النظام : فهي ترفض التقصي العميق الذي يوشك ان يعرض أركانها الى الخطر ، فتوجه جهودها كلية الى توسيع النظام عرضانيا ، وفق المعايير المحددة من قبل : فتسجل مثلما قلنا ، لكنها لا تبدع شيئا بحد ذاتها(٨٣٠) . وهي كلية في ذهنيتها ، لكن بالمعنى الذي كان يقصده الاسلام ، الذي كانت تجسده دنيويا ، هي وصيغ اخرى سياسية أو ثقافية أو اجتماعية . ويشبه الأدب تماما إسلام القرون الوسطى ، الذي لا يجيز ، باستثناء الامتياز الممنوح الى اليهود والنصارى ، مستقبلا كليا إلا من خلال ذاتها ومن خلال رسالته المساواتية التي تتسامى على الأمم والأجناس ، فلا يتصور ، وراء الاختلافات المحلية ، ثقافة ، ما لم تدون في قواعد لا تعبر عن نزعة انسانية علمية ، بل تصدر في الحال عن نزعة انسانية خاصة .

بالتالي ، يبدو ان بحث الانسان الشامل الذي تحدثنا عنه فيما تقدم ، قد تم في نطاق وحدة ثقافية حقيقية وإيمان معين ، ولا بد لنا من الرضوخ الى الواقع والتسليم بأن هذه الجغرافية ، وان لم تكن نزعتها أقل انسانية من جغرافيتنا ، انسانية أيضاً ، بمعنى مختلف جداً . فهي انسانية حقاً ،

لأنها تهتم بالانسان في موقعه المكاني والزماني في معظم الأحيان . وهي جغرافية فعلا ، لأنها توزع مبادئها حسب معطيات أساسية أرضية ، تتقيد بها على وجه الاجمال . على ان اقتران اللفظين يتخذ قطعا هنا مدلولا مغايراً لمدلولنا . فالعلوم الانسانية ، بما فيها الجغرافية البشرية حتى لو تزايد اعتقادنا الراسخ في أيامنا الحاضرة بان موضوعها موحد ، لا تتبدل فيما وراء التغييرات المكانية والبنيوية ، تمتنع مع ذلك عن تبني أي قبلية ، وتطرح برهان هذه الوحدة ، التي لا تزال طبيعتها تفتقر الى الكشف عنها ، باعتبارها غاية تقصياتنا . خلافا لذلك ، تجري الأمور عند ابن الفقيه ، كما لو افترضت وحدة الانسان مسبقاً : كبند من عقيدةدينية اذا جاز لنا هذا القول ، ما دام علم البلدان هذا ، في هذه النقطة أيضاً ، نتيجة دنيوية لديانة سماوية . فكما اضطر الإيمان الإسلامي ، على نحو ما رأينا ، حيال حدوث الانشقاقات في صفوف الجماعة ، الى التسليم بوجودها ، دون ان يضحي بشيء من مقتضى الوحدة ، وعمل ما هو أفضل ، فحول تلك الخلافات الى مجد الوحدة ، كذلك تصرفت الجغرافية الإسلامية مع العالم بعد مرور حوالي القرنين . فقد اكتفت في البدء ، فيما يبدو ، مثلما قلنا ، فيما يتعلق بدار الأسلام ، بانجاز معطيات كرتوغرافية وادارية ، واتجه حب اطلاعها الى الظاهرات البشرية المحضة ، نحو البلدان الخارجية ، كما لو ان الشعور الفطري بتماسك دار الإسلام ، والعجز عن ايجاد ما يستحق التسجيل في هذه الكتلة ، الخالية من الصدوع ، والمعروفة في مبادىء حياتها وقواعدها ، قد حولا الى الحدود موهبة الاهتمام بتنوع العالم(٨٣١) . في جميع الأحوال ، قد يخفي هذا الموقف في طياته بعض القلق : فعندما يلاحظ الانسان في أراضي اعجمية وجود اعراف مغايرة جدا للقواعد الإسلامية ، يعفي

نفسه ، وان كان لدى الإسلام بعض تلك الأعراف ، من رؤية تلك القواعد ، المفهومة بمعناها الضيق ، لأنها تنطوي في الداخل أيضاً على اختلافات كثيرة مثلما كان تمجيد الماضي في التاريخ يسمح بصرف النظر عن « حاضر ضعيف الأمجاد(٨٣٢) » . ففي هذا المنظور ، يؤول موقف الجغرافية عند ابن الفقيه ، الى قلب النزعة . فيستلهم مما فعل الديني قبله . وقد حصلت الجغرافية ، ضمن حدودها هذه المرة ، اقصد ضمن الحدود الإسلامية ، على نصيبها من الخلافات والنوادر والشواذات ، ففسرتها ، مثلما رأينا ، على انها آليات ضرورية لوحدة المجموع العضوية .

وتبرز عبقرية كاتب آخر في هذه الرغبة العارمة بالوحدة ، وفي هذا المظهر الاجتماعي ، المناضل والمكون من المعرفة . ومع ان ذكر ابن قتيبة لم يرد إلا مرة واحدة في كتاب البلدان(٨٣٣) ، فان تعليمه واضح في جميع الصفحات . فابن الفقيه وابن قتيبة يجسدان « الأدب القومي(٨٣٣) » ، الذي يجمع بعناية أقوال الائمة – ويرويها وكأنها عناصر عقيدة : فنصيب اليونان ضئيل ، مثلما قلنا ، واذا كانت فارس في وضع أفضل كميا ، فانها تندرج ، كما هي الحال عند ابن قتيبة ، في نظام موسوعي ، بنيته عربية اسلامية(٨٣٥) في جوهرها : أي نظام مرادف ، كما قلنا ، للتماسك والقسر(٨٣٦) ، يحتجز فيه الانسان في نوع من المعرفة السماوية ، يقابل الحقيقة الدينية على المستوى الدنيوي .

وفي معظم الأحيان ، تجري الأمور أصلاً ، كما لو ان المستويين لا يتداخلان وليست المفارقة دنيا ، عندما نلاحظ أن هذه الجغرافية ، رغم المناخ الذي يكتنفها ، علمانية في جوهرها ، وان الله لا يقحم فيها

إلا على نطاق ضيق جدا ، يمكن في النهاية اعادته الى مصدر أخبار بين سائر المصادر . في حين ان المحاولة الجاحظية ، التلميذ ة الأمينة للمعتزله ، لم تكن تتصور تقصيها خارج اثبات نظام العناية الإلهية ضمن العالم ، الذي يبدو ان بالامكان ، مع ابن الفقيه ، الاستغناء عن وضعه في صيغة معينة ، اذ ان وجوده مفروض نهائيا على غرار وحدة الإسلام . لكن هل يجب ان نعجب من هذه المفارقة الظاهرية ؟ على أي حال ، لا تستطيع محاولة فكرية تستهدف الثقافة للثقافة ان تنظر الى الله في غير هذا المنظور : فاعتباره مصدر عجيب ومعرفة ، أصبح التقليد الدنيوي يزاحمه ، فتناسب تواريه مع هذه المزاحمة(٨٣٧) . هنا أيضاً يستجيب كتاب البلدان تماماً الى منطقه الداخلي : فبما ان المعرفة منزلة ، انغمس المصنف في اليقين ، بعد ان اكتفى على المستوى الدنيوي بأخذ هذه المعرفة من الائمة المعترف بهم ، واستغنى عن الاحالة اليهم على المستوى الديني . واذا كانت مثل هذه الجغرافية تلتقي في نهاية الأمر مع جغرافيتنا في نزعة انسانية تستبعد الله فقد تم لها ذلك ، في هذه النقطه بالذات ، بطرق مختلفة جداً : فاغفال ذكر الله لا يعني ان هذه المعرفة تتجاهله أو تضعه بين قوسين ، مثلما فعلت معرفتنا ، بل انها تفترض وجوده افتراضا نهائيا .

خاتمة

لعلنا شعرنا عند قراءة الأسطر السابقة اننا أمام كاتب ونمط هامشيين. والخطل كل الخطل في هذا النوع من التفكير . فمن ناحية التسلسل الزمني ، ظهر كتاب البلدان في ظرف حاسم من تاريخ الجغرافية العربية : فاتى بعد كتابة التصانيف الأولى ، التقنية في جوهرها ، العائدة الى

الجغرافية الادارية أو الى الجغرافية الكرتوغرافية المؤلفة على طريقة ابن خرداذبه أو الخوارزمي ، وعقب انتشار بعض النصوص — وفي طليعتها أخبار الصين والهند ، التي تعتبر من أهم ما عالج ما وراء الحدود . أخيراً سبق كتاب البلدان البلخي ، فاتفق ظهوره بدقة تامة : مع عصر اليعقوبي(٨٣٨) والجيهاني . وهذا يعني ان تأثيره سوف يسير في اتجاهين : فمن الجهة الأولى ، سيقوى نزوع الجغرافية التقنية بجميع أشكالها ، البادي في وقت مبكر ، لكن بطريقة مترددة جدا ، نحو الانفتاح على مواضيع الأدب ، وسيسهم من جهة ثانية في توجيه حب اطلاع الكتاب الى دار الإسلام . ففي هذين المنحيين ، سيحدد تحديداً حاسماً اختيارات اصطفتها أنماط أساسية كالجغرافية الادارية مع قدامة ، وصورة الأرض مع البلخي(٨٣٩) . وسوف يصبح اندماجها أحد أسس نمط المسالك والممالك .

ولا بد ان ما عزي على هذا النحو الى مصنف ابن الفقيه من تأثير عميق ، قد تناسبت شدته مع ممارسته حسب الأصول : ففي حين ظل اليعقوبي مدة طويلة يلعب دور الرائد البارز ، لما تميزت به أخباره من أصالة ، وما قام به من أسفار في مملكة الإسلام ، تصرف ابن الفقيه بالأدب طبقا للقواعد ، فضمن لنفسه جميع وسائل قبوله نموذجاً(٨٤٠) في وقت مبكر جداً .

وهكذا مثل ابن الفقيه الأدب تمثيلاً جيداً ، ولم يقم نفسه بابداع شيء على الإطلاق ، لكنه عمل ما هو أكثر بكثير من أجل مستقبل الجغرافية العربية ، على ما عليه من نمط معقد . فقد ظهر على منعطف حرج من هذا النمط ، فطبع بطابع الأدب ، أي قلد براعة نبل الأدب ،

النمط ذاته أولا ، ثم الإطار الذي سوف يتمتع بامتياز العمل فيه من الآن فصاعدا ، وأخيراً عدداً كبيراً من موضوعاته : مثل صورة الأرض المخصصة لجمهور المثقفين ، ونوادر العالم ، وخصائص الولايات وبعض المعلومات عن الطرق البحرية الى الشرق الأقصى ، والأخبار التاريخية البارزة بنوع خاص ، والخراج ، والمسالك ، وغيرها وغيرها . ولا يتبع أي نهج في جميع هذه المواضيع ، مثلما رأينا ، فيما يتعلق بالجغرافية ذاتها ، لكن يكفي ان يرد موضوع جغرافي ، ولو صدفة ، وحتى بين السطور في مصنف يتفق بمثل تلك البداهة مع نظام قيم العصر الثقافية ، كي يجد الكتاب اللاحقون في هذه السابقة تبريراً وحتى تشجيعا يدفعهم الى ترديد الموضوع المشار اليه وتفصيله ، في أعقاب نفوذ الإمام القديم ، المصرح به أم لا ، وبقصد يحتمل ان يختلف ، دون ان يأبه له أحد . وهذا كاف ليجعل ابن الفقيه شخصية هامة في الجغرافية العربية . ففي نظام يتحكم فيه الإستشهاد بامام مباشرة في مصائر نمط أو موضوع ، يلعب ابن الفقيه دوراً حاسماً في مستقبل هذه الجغرافية ، لا دور مبدعها ، لكن دور راعيها حتما .

* * *

حواشي القسم الاول

من الجزء الاول

حواشي المدخل

(١) انظر العرض الإجمالي عند س. مقبول أحمد ، في م١ (٢) ، ج٢ ، ص ٥٩٠ وما يليها مع المراجع ، وكراتشكوفسكي، مشار إليه في المصادر .

(٢) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك (٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م – ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م) . . اليعقوبي ، كتاب البلدان (٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) . يقتصر حديثنا على المصنفات الواصلة الينا

(٣) ٨٤٢ ق.م .

(٤) مثلا قضية البحار أو الأنهار وانعكاساتها على قضية الإيمان : انظر المقدسي ، الترجمة ، فقرة ٣٩ وما يليها . نستثني الأبحاث الرياضية الصرفة ، ما دامت تهم العلم المحض وحده ولا تؤثر في الضمير الوسطي المصور في الأدب .

(٥) ما عدا حالتين استثنائيتين فعلا عند الفرس : حالة مصنف مجهول الف كتاب حدود العالم ونصير خسرو : انظر القسم الثاني من الجزء الأول ، الملحق الثالث .

(٦) لا سيما لدى المصنفين الأوائل مثل ابن خرداذبه وابن رسته .

(٧) قال ر . اتينغوسن بهذا الرأي في « الوسم العربي » ، جنيف ، ١٩٦٢ ، ص ١١. مع ذلك يحسن الا نغفل أن هذا الرأي يحدد حالة وسطى ، صارفاً النظر عن حركات المقاومة الوطنية (الشعوبية) ، وينطبق ، فيما يبدو ، وعلى وجه التخصيص ، على اللغة ، التي لا يجادل أحد على العموم بتفوقها ، الواقعي أو الشرعي ، طيلة الفترة الأولى من الخلافة العباسية في الحد الأدنى .

(٨) م ج ع ، ص ١٤ . رأي مماثل عند ج . م . عبد الجليل ، الأدب ، ص ١٣٦ – ١٣٧ .

(٩) م ج ع ، ص ٩ .

(١٠) انظر المسعودي ، التنبيه ، ص ١٠٩ ، والمقدسي ، الترجمة ، فقرة ١٠ وما يليها .

(١١) يستشهد الجغرافيون فعلا بالجاحظ (انظر المقدسي ، الترجمة ، فقرة ١٣ مكرر) إلا أن الجاحظ كاتب مكثر يعني عرضاً بالجغرافية : حول هذه القضية ، انظر ما يلي الفصل الثاني . ثم إن التواريخ لا تتبدل تبدلا جوهرياً لأن الجاحظ مات عام ٢٢٥ ﻫ / ٨٦٨ م . هنا أيضاً ، لا ندخل مطلقاً في بحثنا لا المنجمين ولا علماء الهيئة النظريين .

(١٢) تعود النسخة الأولى من كتاب المسالك والممالك إلى عام ٢٣٢ ﻫ / ٨٤٦ م ، وتعديلها النهائي إلى ٢٧٢ ﻫ / ٨٨٥ م . سوف تتاح لنا فرصة العودة (انظر ما يلي ص ١٨٣) إلى القضية التي تثيرها هاتان النسختان .

(١٣) انظر ما يلي ، الفصل الأول . معظم التراجمة نصارى ولدوا خارج بغداد وكانوا على صلة دائمة بالخلافة : انظر عبد الجليل ، مشار إليه سابقاً ، ص ١٣٣ ، ور . ارنلديز « العلوم والفلسفة في حضارة بغداد في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل » ، في ارابيكا ، ٩ روماني ، ص ٣٥٧ وما يليها .

(١٤) توفي ابن سعد عام ٢٣٠ ﻫ / ٨٤٥ م ، والبلاذري عام ٢٧٩ ﻫ / ٨٨٩ م .

(١٥) متوفيان على التوالي عام ٢٥٥ ﻫ / ٨٦٨ م وحوالي ٢٧٠ – ٢٧٦ ﻫ / ٨٨٣ – ٨٨٩ م .

(١٦) نلقى هنا أحد التواريخ الاساسية عند ر . بلا شير في م ج ع .

حواشي الفصل الاول

(١٧) انظر رينو ، المدخل ، أماكن متفرقة ، وبلا شير : م ج ع ، ص ١٣ - ١٤ ، و س . مقبول أحمد ، « جغرافية » ، في م١ (٢) ، ج٢ ، ص ٥٩٢ . حول موضوع علم الهيئة ، انظر نللينو ، هذا اللفظ ، في م١ ، ج١ ، ص ٥٠٥ - ٥٠٨ ، وعلم الفلك ، له أيضاً ، القاهرة ١٩١١ - ١٩١٢ ، و ب . دوهيم ، نظام العالم ، أماكن متفرقة ، ول ١٠ . ماير ، الاسطرلابيون العرب وأعمالهم ، جنيف ، ١٩٥٦ ، وكراتشكوفسكي ، ص ٩١ وما يليها (٩٨ وما يليها) ، وو . هرتنر ، « فلك » ، في م١ (٢) ، ج٢ ، ص ٧٨٠ - ٧٨٢ .

(١٨) مثلما سوف نرى في الجزء الثاني الذي يلي هذا الجزء .

(١٩) انظر نللينو ، في م١ ، اشير إليها : تستثنى طبعاً من بحثنا المعارف الشعبية من علم الهيئة التطبيقي .

(٢٠) لفظ السند هند مأخوذ من اللغة السنسكريتية : « سدهانتا » (مصنف في علم الهيئة) والزيج من اللغة البهلوية : « زيك» (جداول فلكية) : انظر نللينو ، اشير إليه من قبل .

(٢١) استمر وجود هذا التأثير بشكل مخلفات افرادية موزعة ضمن مجموعة المعطيات الهلنستية . وحصل النقيض في الأدب ، فاحتفظ موضوع علم الفلك الهندي بذكرى حية : انظر أخبار الصين والهند ، فقرة ٧٢ ، والجاحظ ، رسالة في مناقب الترك ، ص ٣٨ ، ٤٣ - ٤٦ وأماكن متفرقة .

(٢٢) انظر نللينو في م١ ، ج١ ، ص ٥٠٦ ، والمسعودي ، المروج ، ج٨ ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٢٣) اقران حنين العظماء ، المدربون في دار الحكمة التي أسسها المأمون عام ٢١٧ ﻫ / ٨٣٢ م . توفي حنين عام ٢٦٠ ﻫ / ٨٧٣ م ، وقسطا عام ٣٠٠ ﻫ / ٩١٢ م ولكنه ولد عام ٢٠٥ ﻫ / ٨٢٠ م ، فلا شك أنه انتج منذ ٢٣٠ – ٢٣٥ ﻫ / ٨٤٥ – ٨٥٠ م) . عاش ثابت من ٢٢١ ﻫ / ٨٣٦ م إلى ٢٨٨ ﻫ / ٩٠١ م . ولا بد أن نذكر أيضاً يحيى ابن ماسويه ، المتوفى عام ٢٣٤ ﻫ / ٨٥٧ م ، أما اسحاق بن حنين ، فعاش في فترة لاحقة بعض الشيء ، إذ توفي عام ٢٩٨ – ٢٩٩ ﻫ / ٩١٠ – ٩١١ م . حول قضية الترجمات السريانية العربية ، انظر ، بعد أعمال ريسيل وتكاتش ، عمل خليل جيور ، مقولات ارسطو في نسخها السريانية والعربية ، دمشق (م ف د) ، ١٩٤٨ ، ص ١ – ٣٢ ، ٣٨٧ وما يليها (المراجع) ويلاحظ في موضوع الجغرافية (ص ٢٧) ، فيما يبدو ، الدور الرائد الذي لعبه يعقوب الرهوي من بين سائر التراجمة السريان .

(٢٤) طبعاً لانتحدث إلا عن المصنفين الأوائل ، وعلى مستوى الأعمال النظرية وحدها . ولولا ذلك لوجب أيضاً أن نشير إلى اسماء لامعة أخرى ، لاسيما البتاني ، المتوفى عام ٣١٧ ﻫ/ ٩٢٩ م . يلاحظ أن أبا معشر اشتهر كمنجم على وجه التخصيص : انظر ما يلي . حول هذين الفلكيين ، انظر مقالات الموسوعة الإسلامية (اطلب اسميهما) ، والمؤلفات أو المقالات المذكورة من قبل . اخيراً لا يجوز أن نغفل أن التراجمة ، خاصة ثابت بن قرة ، الفواهم أيضاً مصنفات نظرية . والمثال الجيد على تلك الأعمال كتاب السند هند تأليف الخوارزمي (جداول الخوارزمي الفلكية) (انظر المراجع) .

(٢٥) ما عدا ، على الأرجح ، تنهيج استعمال الطرق المثلثاتية التي تحتفظ بلا شك بتأثير هندي .

(٢٦) مع ذلك ، نوه بنظرية حركة الأرض حول محورها ابن رستة ، اخر ص ٢٣ – ٢٤ (انظر نللينو في م١ ، ج١ ، ص٥٠٧ (٢)) .

(٢٧) نقصد في حقل علم الهيئة . لن نقول هنا شيئاً عن العلوم الرياضية الأخرى . لأنها لا تدخل في بحثنا .

(٢٨) « كالمح في البيضة »: ابن خرد ذابه ، ص ٤ ، أبن رسته ، ص ٨ ، ابن الفقيه ، ص ٤ ، المقدسي ، ص ٥٨ ، الخ .

(٢٩) الترجمة ، ص ٤ – ٦ (استشهاد بالسرخسي : حول السرخسي ، انظر مايلي ، ص ١٧٣ – ١٧٤) .

(٣٠) حول مفهوم العلم هذا ، انظر القسم الثاني الفصل السادس ، ابن رسته .

(٣١) انظر ما يلي الفصل الثاني .

(٣٢) قارن بهذه الذهنية دلالة الرقم الروحية في الكونيات القرآنية ، لاسيما السموات السبع والأرضون السبع : انظر احالات توفي فهد في نشوء الكون ، باريس ، ١٩٥٩ ، ص ٢٥٠ وما يليها .

(٣٣) انظر مثلا ابن رسته ، ص ١٥ — ٢٢ ، والمقدسي ، الترجمة ، فقرة ٩٧ وما يليها .

(٣٤) صيغةمتميزة عند ابن رسته ، الترجمة ، ص ١٩ : « ويقال إن مدن الأرض إحدى وعشرون الفاً وست مائة مدينة بعدد دقائق الفلك » .

(٣٥) انظر ابن رسته ، ص ٥ .

(٣٦) انظر مثلا ابن سينا ، أقسام العلوم ، والقسم السادس من مقدمة ابن خلدون . حول نظرة شاملة عن القضية عند اليونان ، انظر ب . دوهيم ، النظام ، ج٢ ، ١٩١٤ ، ص ٧١ .

(٣٧) من المعلوم أن أفضل اسهام للفلك العربي انحصر في الفلك التطبيقي (انظر قياس قوس خط الطول في عهد المأمون) . انظر نللينو في م١ ، ج١ ، ص ٥٠٥ وما يليها .

(٣٨) يشرح المسعودي في التنبيه ، الترجمة ، ص ١٩ — ٢٠ ، علاقات العلمين . حول التنجيم عند العرب ، انظر نللينو في م١ ، ج١ ، ص ٥٠٢ وما يليها .

(٣٩) التنبيه ، الترجمة ، ص ٥٤ . حول تأويل لفظ « اقليم » ، انظر مايلي .

(٤٠) التنبيه ، الترجمة ، ص ٤٧ .

(٤١) يعطي الإقليم الرابع ، وسط الأقاليم السبعة ، مثالا جيداً على ذلك (ص ٥٥ ومايليها) . فهو اقليم العراق (السواد)وبابل ، ويلعب دوراً رئيسياً في العالم بفضل موضعه ، ويعطي أهله ، للسبب ذاته ، أفضل صورة عن الانسان بمزاياه المثالية .

(٤٢) انظر من بين المقاطع الكثيرة ، كتاب الحيوان ، ج٣،ص ٢٤٥ ، و ج٥، ص ٣٥ — ٣٦ .

(٤٣) التنبيه ، الترجمة ، ص ٤٠ .

(٤٤) ينبغي فهم اللفظ هنا بالمعنى اليوناني للكلمة التي أخذ العرب منها « الأقليم » : انحناء الأرض نحو القطب بدأ من خط الاستواء ، ومنه اشتق معنى المناخ ، والمنطقة ، والنطاق الأرضي المرتبط بتأثير أحد الكواكب السبعة . وهذه الفكرة معروفة عند الفرس أيضاً ، إلا أن الكشوارات الفارسية ، مع أن عددها سبعة كذلك ، تمثل كيانات سياسية اثنية (روم ، هند ، صين ، الخ) لا جيوديزية . انظر ت . ه . ويز ، « اقليم » في م١ ، ج٢ ، ص ٤٨٨- ٤٨٩ .

ينطبق العنوان الشهير ، كتاب صورة الأرض ، على ترجمات جغرافية بطلميوس (ومنها ترجمة ثابت بن قرة : انظر نللينو ، شرح زيج البتاني ، ص ٢١٠ - ٢١١) ، وعلى تحويراته التي يتمثل اشهرها ، عند توزيع الأماكن على الأقاليم ، في اضافة الاسماء العربية الرئيسية إلى اسماء بطلميوس : ونموذج هذه المصنفات كتاب صورة الأرض للخوارزمي (انظر المراجع ، و ك . ا . نللينو ، « الخوارزمي وتقليده جغرافية بطلميوس » ، في مم ر ل مجموعة ه روماني ، ١٨٩٤ - ١٨٩٥ ، ص ٣ - ٥٣) والفصل السادس من زيج البتاني (طبعة نللينو) وإن كان متأخراً بعض الشيء .

(٤٥) علم خرائط حقاً ، بمعنى أن هذا التقصي الجديد يقتصر على اعطاء الخطوط الرئيسية من الصورة المرسومة لمشهد الكرة ، أما النص ، إذا وجد ، فلن يكون سوى تعليق تقني على الرسم : ينطبق هذا الكلام على الخوارزمي الذي يبدو كتابه نصاً يدون فيه المعطيات الرسمية من الأطلس الذي وضعه علماء عهد المأمون . وهذا صحيح بالنسبة إلى البلخي أيضاً : انظر المقدسي ، ص ٤ (ترجمة ، فقرة ١٢) ، و ج . ه كرامرز « قضية البلخي الأصطخري واطلس الإسلام » ، في الأعمال الشرقية ١١ روماني ، ١٩٣٢ ، ص ٩ - ٣٠ . ويعتبر الخوارزمي الذي يجمع بين كتاب صورة الأرض ومصنفات الهيئة المحضة ، أحد أفضل الأمثلة (انظر ما يلي ، الفصل الثالث) . حول النواحي التقنية في الكارتوغرافية العربية ، انظر ك . ميلر ، الخرائط العربية ، ستوتغار ، ١٩٢٦ - ١٩٢٧ ، ٣ مجلدات .

(٤٦) مثلا تقديرات عائدة إلى عهد بطلميوس تتعلق بالمسافات البحرية أو البرية أو عدد جزر البحر الشرقي (١٢٧٨ في م ج ع ، ج٧ ، ص ٤ ، و ١٣٧٠ عند ابن رسته (ص ٨٤) والبتاني (ص ٢٦) . كذلك شكل البحار العام (انظر نللينو ، شرح زيجه ، ص ١٦٦ وما يليها) .

(٤٧) علاقة الكتل القارية والمائية بتوازن الكرة ، حركة الأنهار : ظاهرات التجاذب ، المد والجزر : يتوفر مثال جيد في التنبيه ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٤٨) نعرف أن الخوارزمي يورد في مصنفه موضوعات أدب (حول هذا اللفظ ، انظر الفصل الثاني) : تصنيف افخم المباني في العالم ، الذي كرره ابن رسته ، ص ٨٣ في الكتاب (طبعة فون مزيك ، ص ١٠٦ ، ١٠٨) ، موضوع منابع النيل ودلتاه : مع ذلك تظل هذه التدوينات نادرة جداً وجافة ولا تخفف شيئاً من العرض الرياضي والجاف في المصنف.

(٤٩) يجب ، مهما كان الوضع – وتختلف الحالة هنا – اعادة طرح القضية في بدء الجغرافية في نطاق العلم اليوناني .

(٥٠) حول عدم احتواء الترجمات عمل سترابون ، انظر ما يلي ، القسم الثاني ، الفصل الثامن ، عصر المسالك والممالك .

(٥١) انظر نللينو في م١ ، ص ٥٠٥ – ٥٠٦ . مثلما قلنا (ص ١٠٨ ، حاشية ٤٤) يعلل هذا الاهتمام وحاجات المجتمع الجديد ضم هذه المصنفات ، في توزيع الأقاليم ، اسماء التقليد البطلميوسي واسماء أشهر الأماكن في جزيرة العرب : مثال الخوارزمي ، مدخل فون مزيك ، ص ٩ – ١٠ روماني .

(٥٢) انظر شوى « القبلة » ، م١ ، ج٢ ، ص ١٠٤٥ – ١٠٤٧ . يمثل المقدسي تمثيلا حسناً جداً طريقة تطور علم القبلة . فقد جاء بعد قرن من ظهور الجغرافيين الأول . ولم يذكرها البتة في عداد العناوين التي تدخل في موضوع علم الجغرافية الشاملة ترجمة ، فقرة ٢ . ولا تعود القبلة إلى الظهور إلا في اطارها الأصلي ، أي في الفصل الخاص بوصف الكرة العام وبالاقاليم (الترجمة ، فقرة ٩٥) .

(٥٣) النظرية العامة لتأثير الكواكب المذكرة أو المؤنثة (ص ٣٨) ، ومقارنة حرارة الأرحام وافراطها في نضج الجنين ، بالحرارة الشمسية (ص ١١) .

(٥٤) بضع صفحات فقط في مصنفات المسالك والممالك ، مثل مصنف ابن حوقل أو المقدسي .

(٥٥) بالمعنى المحدد سابقاً ، ص ١٠٨ ، حاشية ٤٤ .

(٥٦) انظر م . ستينشنايدر Die arabischen Ubersetzungen aus dem Griechischen ، لايبزيغ ، ١٨٨٩ – ١٨٩٣ ، مجلدان ، ومقالات م ١ ، لاسيما : ر . والزر « ارسطوطاليس » ، م١ (٢) ، ج١ ، ص ٦٥١ – ٦٥٤ (مراجع وافرة جداً) ، م . ليسنر ، « بلينوس » ، م ١ (٢) ، ج١ ، ص ١٠٢٤ – ١٠٢٦. حول زوزيم الأخميمي (بانوبوليس) ، انظر المراجع التي يذكرها ش . بيلا في كتاب البخلاء ، ص ٣٤٥ .

(٥٧) حول صنعة الكيمياء ، انظر ١ . وايدمان ، « كيمياء » ، في م١ ، ج٢ ، ص ١٠٦٨ – ١٠٧٦ (مع المراجع ، لكن يستكمل البحث عند ج . روسكا ، «الكيميائي في الاسلام » ، في مجلة الثقافة الاسلامية ، ١١ روماني ، ١٩٣٧ ، ص ٣٠ – ٣٦ ، « والكيمياء العربية » ، في مجلة ارخيون ، ١٤ روماني ، ص ٤٢٥ – ٤٣٥) . انظر أيضاً ب . كروس ، « جابر بن حيان » ، في م١ (٢) ، ج٢ ، ص ٣٦٧ – ٣٦٩ . حول الأنواء (ترجمات ارسطو وتوفراست) ، انظر ب . ليوين ، « الآثار العلوية » ، في م١ (٢) ، ج١ ، ص ٧٥٨ – ٧٥٩ .

(٥٨) ص ١٢ روماني من مدخل ش . بيلا . يمثل تساؤل الجارية الحكيمة تودد في ألف ليلة وليلة (انظر ما يلي ، ص ١٣٣) منهج معارف آخر ، لكنه أكثر عرضة للجدل ، إذأن تاريخ تأليف المصنف ونمطه تكتنفهما الشكوك . حول التربيع والتدوير ، انظر ما يلي الفصل الثاني .

(٥٩) ص ٢٦ .

(٦٠) ص ٢٩ . انظر أيضاً ، من بين سائر المسائل ، نقاش تعليل المد والجزر الميثولوجي ، وتعليلهما الميكانيكي (ص ٩١) .

(٦١) التنبيه ، الترجمة ، ص ٦٨ .

(٦٢) التنبيه ، ص ٤٦ .

(٦٣) التنبيه ، ص ٤٧ .

(٦٤) التنبيه ، ص ٤٦ .

(٦٥) حول هذه الانشاأت الذهنية الشاملة ، انظر ب . دوهيم ، ذكر من قبل ،وبراوني (مستشهد به فيما يلي الحاشية ٧١) ، ص ١٣٠ .

(٦٦) ابن رسته ، ص ٨٧ ، الترجمة ، ص ٩٥ – ٩٦ .

(٦٧) انظر القسم الثاني ، الفصل السادس .

(٦٨) ص ١٠٣ ، الترجمة ، ص ١١٤ .

(٦٩) ادراج المعادن في الدور الحي

(٧٠) أضعف تجريدا بمعنى اللفظ عندارسطو. انظر دوهيم ، اشير إليه سابقاً ، ج٢ ، ص٧١ .

(٧١) حول الطب ، يمكن أن يكتفي د ل . لوكلير ، تاريخ الطب العربي ، باريس ،

١٨٧٦ ، مجلدان ، و ب. كارادي فو ، « الطب » ، في م١ ، ج٤ ، ص ٧٧٩ — ٧٨٠ ، وخاصة أ . ج . براوني ، الطب العربي (ترجمة فرنسية لـ هـ . ب . ج . رينو) ، باريس ١٩٣٣ (يهمل مدخل ا . ك . شحاده لكتابه ابن النفيس واكتشاف الدورة الرئوية ، دمشق (م فـ د) ، ١٩٥٥) . أما باللغة العربية ، فيبقى المصنف الأساسي عيون الانباء في أخبار الاطباء لابن أبي اصيبعة ، نشره آ . مولر ، القاهرة ، ١٢٩٩ / ١٨٨٢ ، مجلدان . يعثر على مثال على نجاح مدرسة جنديسابور عند الجاحظ ، البخلاء (ترجمة ، ص ١٤٧ — ١٤٨) . أما علم الجنين الوارد في كليلة ودمنة لابن المقفع (الترجمة ، ص ٤٣ وما يليها) فمن منشأه هندي (انظر ف . غابريللي ، « مغناة ابن المقفع » ، في م د ش ، ١٣ روماني ١٩٣١ — ١٩٣٢ ، ص ٢٠٣) .

(٧٢) انظر براوني ، مشار إليه من قبل ، ص ٢٤ — ٢٥ .

(٧٣) انظر ر . والزر ، « جالينوس » ، في م١ (٢) ، ج٢ ، ص ٤١٣ — ٤١٤ ، و ب . كارادي فو ، « بقراط » في م١ ، ج١ ، ص ٨٠٤ ، وبراوني ، ذكر من قبل. حول ثاوذوسيوس خاصة ، انظر براوني ، ص ١٩ ، وابن الفقيه ، ص ٢٢٣ (تياذوس) : حذار الخلطامع تياذريطوس (ثيوذوريتوس) ، أدوية : انظر ابن الفقيه ، ص ١٢٧ ، دوزي ، ج١ ، ص ٨٦١ .

(٧٤) حول ما كانت عليه هذه الحقول آنذاك ، انظر تحليل براوني الجيد ، مشار إليه من قبل ص ٤٧ — ٤٨ (تحليل مضمون فردوس الحكمة ، المؤلف حوالي ٨٥٠ م لعلي بن ربان الطبري) .

(٧٥) دراسة تبدلات المركب البشري حسب تأثير المناخ والموقع الجغرافي : انظر ماذكر من قبل ، ص ٤٧ — ٤٨ .

(٧٦) انظر ما يلي ، الفصل الثاني ، ص ١٤٠ .

(٧٧) انظر كارادي فو ، مفكرو الأسلام ، ج٢ ، ص ٢٩٠ — ٢٩١ ، ٢٩٤ وما يليها ، و ب . ليوين ، « الأدوية » ، في م١ (٢) ، ج١ ، ص ٢١٩ — ٢٢١ ، و ش. أ . دبلر ، « ديوسقرديس » ، في م١ (٢) ، ج٢ ، ص ٣٥٩ . حول الدينوري (المتوفى قبل ٢٩٠ هـ / ٩٠٢ — ٩٠٣ م) ، كتاب النبات ، انظر مايلي الحاشية ١١٤ .

(٧٨) حول الفلاحة ، انظر م . الشهابي ، « الفلاحة » ، في م ١ (٢) ، ج٢ ، ص ٩٢٠ وابن الفقيه ، ص ١٥٢ (احالات إلى فسطوس — لاشك انه كستهوس أو كستس

انظر المروج ، ترجمة بيلا ، فقرة ٣٠٨ ، حاشية ٤ و م . الشهابي ، ذكر كتاب الفلاحة). نعني بالابحاث الأهلية ، مصنفات تأهيل واستخدام الحيوانات (انظر مفكرو الاسلام ، الفصل ١٠ ، أماكن متفرقة) ، واختيار موقع ملائم السكن (انظر ابن الفقيه ، ص ١٥٢ ، ١٥٤ والطهي والصحة الغذائية وتنظيم الحياة اليومية (تدبير المنزل : انظر الترجمة العربية للفظ اليوناني ايكونوميكوس لبريزون) : انظر ب . والزر و ا . ر . جب ، « اخلاق » ، في م١ (٢) ، ج١ ، ص ٣٣٧ (١) و ٣٣٨ (١) .

(٧٩) احيل إلى التشبيه المماثل بين الروح العربية والنحلة التي تجني من كل الأزهار ، الذي ورد عند أحمد أمين (فجر الإسلام ، ص ٣١ — ٤٣ ، وخاصة ص ٤٢ ، س ١٦ — ١٧) .

(٨٠) أ — . و م . كروازية ، الأدب اليوناني ، الطبعة العاشرة ، باريس ، سحب ، ص ٦٢٢ ، ٦٣٢ ، ٦٩٦ .

(٨١) انظر الفصل الثاني .

(٨٢) اشرنا من قبل (حاشية ٥٠) إلى عدم وجود جغرافية سترابون بين الترجمات اليونانية إلى العربية . وطبعاً نفكر بهذا النقص هنا .

(٨٣) انظر والزر وجب ، ذكر من قبل ، ص ٣٣٥ — ٣٣٩ ، وأحمد أمين ، ظهر الاسلام ، ج٢ ، ص ١٧٥ وما يليها .

(٨٤) انظر ما يلي الفصل الثاني ، الحاشية ٢٧٩ .

(٨٥) أي الثلث الأول من القرن التاسع الميلادي ، بطريقة نظرية بعض الشيء ، نقر بذلك ، في سبيل توضيح العرض .

(٨٦) انظر التعاريف الواردة في مقالة ر . والزر ، ص ٣٣٧ .

(٨٧) حول مصنفات ابن المقفع ، انظر ك . بروكلمان ، في م١ ، ج٢ ، ص ٧٣٨ ، و ف . غابريللي ، ذكر من قبل (ما سبق حاشية ٧١) . مثال آخر على هذه الأخلاق في مجموع رسائل الجاحظ .

(٨٨) انظر في كليلة ودمنة ، انعدام الاشارة إلى الاسلام شبه التام ، ماعدا الدعاء والتأليه الذي يظهر جلياً في المقطع الشهير عن المساواة بين الأديان والأخلاق الطبيعية (الترجمة ، ص ٣٥— ٤٠) . أما الأدب الصغير والأدب الكبير ، فاشد تحفظاً بالنسبة إلى الدين الجديد : لا يجوز

أن نغفل أن ابن المقفع مجوسي أسلم حديثاً وربما أنه لم يكن صادقاً في اسلامه : انظر د . سورديل ، « سيرة ابن المقفع حسب المصادر القديمة » ، في مجلة ارابيكا ، ١ روماني ، ١٩٥٤ ، ص ٣٠٧ – ٣٢٣ . ويلاحظ التحفظ ذاته في كتاب التاج الجاحظ المزيف (مشار إليه فيما يلي ص ١١٨) : انظر مدخل ش . بيلا ، أماكن متفرقة .

(٨٩) انظر ما يلي حول الأدب في الفقه والكلام .

(٩٠) مجمل الخصال التي تؤلف المروءة أو فضيلة الرجال . انظر ب . فارس ، الشرف عند العرب قبل الإسلام ، باريس ، ١٩٣٢ ، ور . بلاشير ، الأدب ، ج١ ، ص ٢٣ – ٣٦ (مع المراجع) .

(٩١) انظر ما يلي ، ص ٢٦٧ – ٢٦٩ . نذكر مثلا عند ابن الفقيه (١٦٠ – ١٦١) نبذة عن موضوع « ذم البناء » . . . . كذلك ، تضمن نص حفر في صخرة تبنابر ، قرب همذان ، مدحاً تقليدياً للصدق ، قرىء على الاسكندر ، اثناء مروره بهذه المدينة (ص ٢٤٣ – ٢٤٤) . وأدرجت الأمثال ذاتها في متن تقني ظاهرياً كمثل الثعلب والمحار في سياق عرض عن اللؤلؤ ، عند أبي زيد السيرافي ، ملحق ، ص ١٣٥ – ١٣٧ .

(٩٢) ابن الفقيه ، ص ١٦٠ ، الذي يقول بأن هذه الرسالة قرأت على المأمون .

(٩٣) لن يظهر الأدب السياسي المسمى الأحكام السلطانية (الماوردي وأبو يعلا) ، الذي يصف التطبيق المثالي لأنظمة الشرع الإسلامي العام ، إلا في القرن الخامس الهجري / الحادي‌عشر الميلادي . أما السياسة على الطريقة اليونانية ، فقد كانت‌معروفة‌معرفة‌سيئة‌فيمايبدو أو تم تعديلها بسرعة كبيرة : ويبدو أن سياسة ارسطو لم تترجم (انظر ر . والزر ، « افلاطون » ، في م١ (٢) ، ج١ ، ص ٢٤٢) ، أما المصنفات التي تستلهم من الفلسفة اليونانية وتحمل العنوان المنتظر : كتاب السياسة (الفارابي ، ابن سينا ، أبو القاسم المغربي)، فليست سوى مؤلفات اخلاق شخصية أو اجتماعية أكثر منها مبادىء حكم وتنظيم الدولة : انظر ل . ستروس ، « كيف قراء الفارابي قوانين افلاطون » ، في مختارات ماسينيون ، ج٣ ، دمشق (م ف د) ، ١٩٥٧ ، ص ٣١٩ وما يليها ، و س . الدهان ، المدخل إلى أبي القاسم المغربي ، كتاب السياسة ، دمشق (م ف د) ، ١٩٤٨ ، ص ٣٢ – ٤٢ .

(٩٤) دور الفراسة . انظر ت . فهد ، لفظ الفراسة ، في م١ (٢) ، ج٢ ، ص ٩٣٧– ٩٣٨ ، وكليلة ودمنة ، الترجمة ، فقرة ٣٤ ، ٤٥ (والحاشية ١١) ، ٢٩٧ (مع بداية نقد هذا العلم ، فقرة ٢٩٩)، وي . مراد ، ، الفراسة العربية وكتاب الفراسة لفخر الدين

الرازي ، باريس ، ١٩٣٩ ، ومصنف الجاحظ المزيف الوارد في الحاشية التالية ، يستكمل البحث بالمراجع الواردة عند ش بيلا ، فهرس الجاحظ ، كتاب التربيع ، تحت لفظ «بوليمون» تبدو الإسهامات العربية معدومة في كليلة ودمنة (انظر د . ب . مكدونلد ، القيافة » في م١ ، ج٢ ، ص ١١٠٨ – ١١٠٩) .

(٩٥) حول الزجر والعرافة،نظر كليلة ودمنة ، الترجمة ، فقرة ٥٢٤ وأماكن أخرى ، وباب العرافة والزجر والفراسة على مذهب الفرس ، المنسوب خطاء إلى الجاحظ . حول هذا المصنف وعلاقات هذا العلم بفارس الساسانية ، انظر مصادرت . فهد ، « الزجر بالغراب » ، في مجلة ارابيكا ، ٨ روماني ، ١٩٦١ ، ص ٣٠ – ٥٨ (خاصة ص ٥٤) . حول تفسير الأحلام ، انظر كليلة ودمنة ، الترجمة ، فقرة ٥٤١ – ٥٤٥ ، ٥٦٤ – ٥٦٨ (مع اشارات مبهمة إلى الهند) . ا . دوتي ، السحر والدين في افريقية الشمالية ، الجزائر ، ١٩٠٩ ، ص ٣٩٥ وما يليها . ت . فهد ، « الدينوري » ، في م١ (٢) ، ج٢ ، ص ٣٠٩ ، وله أيضاً ، كتاب تعبير الرؤيا لحنين بن اسحاق ، نشر ترجمةعمل ارتيميدور الافسسي ، دمشق م ف د) ، ١٩٦٤ .

(٩٦) نشرت رسائل عبد الحميد بن يحيى الكاتب في رسائل البلغاء (نشرها م . كرد علي ، طبعة ثالثة ، القاهرة ، ١٩٤٦ ، ص ١٧٣ – ٢٢٦) . حول كتاب التاج في أخلاق الملوك ، المصنف في عهد المتوكل (٢٣٢ – ٢٤٧ ھ / ٨٤٧ – ٨٦١ م) ، انظر ترجمة ش . بيلا ، (كتاب التاج المنسوب إلى الجاحظ ، باريس ، ١٩٥٤) . حول الإلهام الفارسي ، انظر على وجه التخصيص المدخل إلى هذا المصنف الأخير ، ص ٩ ، ١٥ و ف . غابريللي ، « اداب وعادات البلاط الساساني في كتاب اخلاق الملوك للجاحظ » ، في م دش ، ١١ روماني ، رقم ٣ ، ١٩٢٨ ، ص ٢٩٢ – ٣٠٥ و د . سورديل ، الوزارة ، ص ٥٩ – ٦٠ ، ٧١٩ – ٧٢٠ . انظر أيضاً هلال الصابيء ، رسوم دار الخلافة ، نشره م . عوض ، بغداد ، ١٩٦٤ .

(٩٧) انظر قدامة ، الترجمة ، ص ١٩٢ (نصائح عامة للملوك) ، ٢٠٠ – ٢٠١ (انوشروان) ، ٢٠٤ (الاسكندر) . الاعراف حية : يعثر عليها خاصة عند الهروى (متوفى عام ٦١١ ھ / ١٢١٥ م) ، في كتاب التذكرة ، ترجمه وحشاه ج . سورديل– تومين ، في مدش ، ١٧ روماني ، ص ٢٠٥ وما يليها) .

(٩٨) انظر كروازيه ، ذكر من قبل ، ص ٧٩٠ – ٧٩١ .

(٩٩) انظر سوردبل ، ذكر من قبل ، ص ٥٩ — ٦١ ؛ وبلاشير ، مختارات ، ص ١١ — ١٢ ، و ج . لوكونت « المدخل إلى أدب الكاتب لابن قتيبة » ، في مجموعة ماسينيون ، ج٣ ، دمشق (م ف د) ، ١٩٥٧ ، ص ٤٦ .

(١٠٠) انظر د . سورديل . « البريد » ، في م١ (٢) ، ج١ ، ص ١٠٧٧ — ١٠٧٨ (إلا أن هذه المؤسسة تعود إلى امبراطورية الأخمنيين وإن كانت المقالة لا تشير إلى ذلك) ؛ وقدامة ، الترجمة ، ص ١٤٤ — ١٤٥ . انظر الفصل الثالث ؛ الحاشية ٣٨٥ .

(١٠١) يبدو أن أولى تلك القوائم قائمة ماشاء الله المتوفى عام ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م ، إلا أن أشهرها التبصر بالتجارة المنسوب إلى الجاحظ : حول هذه المصنفات ، انظر ما يلي اخر الفصل الثالث .

(١٠٢) لهذه الطرق ، هي أيضاً ، علاقة بالخراج (رسوم تستوفى من السفار) وتنظيم البريد وحفظ الأمن ، نظراً لانتقال البشر الكثيف احياناً . سوف ننوه فيما بعد (آخر الفصل الرابع) بالتطورات الخاصة بهذا الموضوع .

(١٠٣) يقتصر بحث الجغرافية السياسية عند ابن خرداذبة أو قدامه ، على إدراج هذه المواضيع الإدارية في اطار أوسع .

(١٠٤) ضمن رسائل البلغاء ، مشار إليها سابقاً ، ص ١١٧ — ١٣٤ . وجهت إلى الخليفة المنصور واستعرضت بعض شؤون الجيش والعدالة والخراج .

(١٠٥) صنف هذا الكتاب لهارون الرشيد ؛ وبحث في قواعد استيفاء الخراج ، ومبادىء العدل الجنائي وبيت مال المسلمين مؤلفه أحد مؤسسي المدرسة الحنيفية ، لكنه اشتهر كأول قاضي قضاة : انظر ج . شاشت ، هذا اللفظ ، في م١ (٢) ، ج١ ، ص ١٦٩ ، وما يلي ص ١٩٠ (يضاف إلى ذلك ت أ ع ، ج١ ، ص ١٧٧ ، وملحق ، ص ٦٦٨) . يجب أن نذكر أيضاً ، منذ آخر الخلافة الأموية ، رسائل عبد الحميد الكاتب (استشهد بها في الحاشية ٩٦ .)

(١٠٦) صنف ابراهيم بن محمد الشيباني ، على نحو ما ابان د . سورديل (مصنف الكتاب لعبد الله البغدادي ، في م د ش ، ١٤ رومانى ، ١٩٥٤ ، ص ١١٦ ، حاشية ٢) الرسالة العذراء في فن الكتابة ومعارف الكاتب . انظر مايلي ، الفصل الثاني ، حيث يتضح أن الجاحظ لعب أيضاً دورا هاماً في رسالته عن الكتاب .

(١٠٧) يبدو لنا أن تعبير الكاتب المساح الفقيه ، الذي وضعه د . سورديل (ذكر من قبل ، ص ١٢٢ ، ح ٩٠) ، ضيق بعض الشيء لايفي بالغرض ، نظراً لعدد العلوم الواردة عند البغدادي (المقال ذاته ص ١١٥ — ١١٧) وعند ابن قتيبة أيضاً (انظر ج . لوكونت ، مشار إليه سابقاً ، ص ٥٩ — ٦٠) .

(١٠٨) انظر المقالات المستشهد بها من قبل، والفصل الثاني التالي حول كيفيات هذه الأفضلية .

(١٠٩) انظر سورديل ، الوازرة ، ص ٦١ .

(١١٠) متوفين على التوالي حوالي ١٣٢ ﻫ / ٧٥٠ م ، ١٣٩ ﻫ / ٧٥٧ م ، ٢١٥ – ٢٣١ ﻫ / ٨٣٠ – ٨٤٥ م ، ٢٤٤ ﻫ / ٨٥٨ م .

(١١١) انظر ﻫ . فليش بشأن هذه المدارس وحول نظرة اجمالية عن الصرف والنحو العربيين ، في الفقه العربي ، ج ١ ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ١ – ٤٩ ، وعبد الجليل ، اشير إليه من قبل ، ص ١١٧ وما يليها . يقلل فليش بحق التأثير اليوناني في علوم اللغة (ص ٢٣ – ٢٦ . أضف مراجع ا . شاد ، « البلاغة » ، في م١ (٢) ، ج ١ ، ص ١٠١٢ ، جيور ، اشير إليه سابقاً ، ص ٤٠ وما يليها) .

(١١٢) متوفين على التوالي عام ١٧٥ ﻫ / ٧٩١ م ، ١٧٧ ﻫ / ٧٩٣ م ، ١٨٣ ﻫ / ٧٩٩ م .

(١١٣) يخصص المقدسي مثلا صفحات كاملة لقضايا لفظية (الترجمة ، فقرة ١٨ – ١٩ ، ٥٨ / ٢ ، ٩٢ – ٩٣ وأماكن متفرقة) وينوه بانتباه بالغ بدرجة صفاء اللغة المحكية هنا أو هناك (انظر على وجه التخصيص الفقرة ٥٨ / ٦ ، طبعة دي خويه ص ١٢٨ وأماكن متفرقة) .

(١١٤) أشهر مثال مثال الدينوري (لعله توفي حوالي ٢٨١ – ٢٨٢ ﻫ / ٨٩٤ – ٨٩٥ م ، وفي جميع الأحوال قبل عام ٢٩٠ ﻫ / ٩٠٢ – ٩٠٣ م : انظر ب . ليوين ، في م١ (٢) ، ج٢ ، ص ٣٠٨) . تثقف بالثقافة الهلنستية ، واهتم بالعلوم ، الهيئة والنبات خاصة ، لكنه يتناولها بذهنية معجمية وحسب عرف الجزيرة العربية الشائعة لدى علماء فقه اللغة العراقيين ، الذين تتلمذ عليهم . ا ظر بشأن تطبيقات المعجمية العربية ، م١ (٢) ، ج١ ، مقالتي ب . ليوين (الأصمعي ص ٧٤٠ (١)) ، و ج . . هل (الباهلي ، ص ٩٤٩) .

(١١٥) كان والده على صلة بابن خرداذبه أصلا : انظر الأغاني ، ج ١٩ ، ص ١٣٣. إذا أخذنا الجغرافيين(الاوائل فقط ، أي المصنفين الذين ظهرت أعمالهم حتى عام ٣١٨ ﻫ / ٩٣٠ م المحدد كيفياً ، وإذا صرفنا النظر عن أخبار الرحلات والتصانيف النظرية الصرفة والرسائل المتخصصة ، واكتفينا (انظر ثبت المؤلفين) بالذين صنفوا فعلا – وهذا جوهري بالنسبة إلى بحثنا – عملا جغرافيا ، لاحظنا أن الهمذاني وحده عربي الأصل . على النقيض ، نجد من العجم (من الفرس أساساً) : ابن خرداذبة ، المروزي (جعفر بن أحمد) ، اليعقوبي ، السرخسي (أحمد بن الطيب) ابن الفقيه ، ابن رسته ، الجيهاني ، والبلخي . وقد قلنا إن قدامة نصراني اسلم . أما الجاحظ ، الذي يندرج هنا بفضل كتاب الأمصار (انظر

الفصل الثاني) ، فنحيل ، بشأن أصله إلى بيلا ، الوسط ، ص ٥١ — ٥٤ . ويظل وضع ابن النجم غامضاً .

(١١٦) من الاهتمامات الأساسية التي وضع فيها مصنفات مستقلة ، التاريخ عند اليعقوبي والمروزي ، والفلسفة عند السرخسي ، والموسيقى عند ابن خرداذبة ، والنقد الأدبي عند المروزي وقدامة ، والشعر عند ابن الفقيه .

(١١٧) المثال النموذجي البرامكة . انظر سورديل د . ، « البرامكة » ، م١ (٢) ، ج١ ، ص ١٠٦٦ — ١٠٦٧ .

(١١٨) يعثر عند الجغرافيين على موضوع العجمي الذي يعطي العرب دورس لغة فصحى : انظر مثلا المقدسي ، الترجمة ، فقرة ٢١٣ .

(١١٩) انظر ما تقدم حاشية ٧ .

(١٢٠) بعض استاتذة فقه اللغة الكبار فرس مثل سيبويه والمساني والفراء . وهذا التقليد حي : صنف الزمخشري الفارسي في مطلع القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي المفصل ، وهو موسوعة صرف ونحو عربيين .

(١٢١) انظر قول ابن خرداذبه : فوجدت بطلميوس قد أبان .. بلغة اعجمية فنقلتها عن لغته باللغة الصحيحة لتقف عليها (طبعة دي خويه ، ص ٣) .

(١٢٢) أوضح ه . لاووست هذه الناحية بجلاء تام في مجمل مؤلفاته ، واعتبر أن السنة غامرت قطعاً بوجودها ضد حركات الانشقاق في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي انظر أيضاً لوكونت ، اشير إليه سابقاً ، ص ٤٧ . تبرز تواريخ حاسمة : ٢٣١ ﻫ / ٨٤٧م لبدء مناهضة المعتزلة في خلافة المتوكل ، و ٢٤١ ﻫ / ٨٥٥ م لوفاة ابن حنبل آخر الائمة الاربعة .

(١٢٣) متوفين عام ٢٥٦ ﻫ / ٨٧٠ م و ٢٦١ ﻫ / ٨٧٥ م .

(١٢٤) متوفى عام ٣١٠ ﻫ / ٩٢٣ م .

(١٢٥) انظر غولدزيهر ، الذي استشهد به لوكونت ، مشار إليه من قبل ، حاشية ١ ، و ج . شاشت ، موجز تاريخ التشرع الإسلامي (الترجمة لج . و ف . ادين) باريس ، ١٩٥٣ ، ص ٣٠ — ٣٣ .

(١٢٦) أبو حنيفة متوفى عام ١٥٠ ﻫ / ٧٦٧ م ، مالك عام ١٧٩ ﻫ/٧٩٥ م ،

والشافعي عام ٢٠٤ ﻫ / ٨٢٠ م . حول ابن حنبل ، انظر الحاشية ١٢٢ . حول تاريخ الشرع الإسلامي حتى هذا التاريخ ، انظر شاشت ، مشار إليه سابقاً ، ص ٩ — ٥٥ .

(١٢٧) متوفين عام ١١٠ ﻫ / ٧٢٨ م ، و ٢٤٣ ﻫ / ٨٥٧ م . انظر عرضاً عن اتجاهات هذه الصوفية ومميزاتها عند بيلا ، الوسط ، ص ٩٣ ، وما يليها (انظر خاصة ص ١٠٢) .

(١٢٨) أي حتى عام ٢٣٢ ﻫ / ٨٤٧ م ، وهو بدء خلافة المتوكل (انظر الحاشية ١٢٢)

(١٢٩) انظر دور الفقه ومناهجه عند المقدسي : انظر القسم الثاني الفصل الثامن .

(١٣٠) انظر القسم الثاني ، الفصل التاسع .

(١٣١) يخطر لنا بداهة علاقات — التداخل والتعارض — بين الفلسفة اليونانية وبين الاعتزال . مثال آخر ، الحديث هذه المرة ، عند غولدزيهر ، « الدراسات الإسلامية » (مجلة ارابيكا ، ٧ روماني ، ١٩٦٠ ، ص ١١ — ١٢ — ترجمة ج . ﻫ بوسكيه — وعند ت. و . جينبول ، لفظ الحديث ، في م١ ، ج٢ ، ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

(١٣٢) مفاهيم شرعية مثل الاجماع ، استحسان ، استصلاح ... والابتكار الطريف للحديث كعنصر شرعي « انظر شاشت ، اشير إليه من قبل ، ص ٣١) ، الخ .

(١٣٣) لا بد من القول في أوائل ظهور هذه المدرسة : ولا يشك أحد خاصة هم ، لأنهم نصبوا أنفسهم حماة السنة من الفكر اليوناني . لم نأخذ هنا إلا بالنهج المتبع تجماهم هذه المحاجة العقلانية ، مهما كان أمرهم ، ورثة الفكر اليوناني البعيدين والجريئين ، وغالباً ما تبعدهم كثيراً جداً عن السنة (انظر مثلا وضع أبي موسى الوراق) .

(١٣٤) في الشرع الإسلامي ، كان ثلاثة أئمة (مالك والشافعي وابن حنبل) عربا اقحاحا . أما الإمام الرابع ، أبو حنيفة ، ففارسي الأصل ، وإن كان والده ينتمي انتماء كلياً إلى قبيلة بني تيم الله . وفي الحديث ، كان مسلم اضافة إلى ابن حنبل ، أحد ركني هذا العلم ، عربياً . أما الركن الآخر ، البخاري ، فكان فارسياً ، شأنه شأن مؤلفي الكتب الاربعة الأخرى المسماة « صحيح » ، وإن كانت ضعيفة القيمة نسبياً . مهما يكن نلاحظ أن هذه العلوم لا تبدع بل تسجل معطى ثابتاً من قبل ، تتدخل فيه تقاليد عربية ، خالصة أو تأليفية (انظر جينبول ، اشير إليه من قبل ، ص ٢٠٥ (١)). نبدي الملاحظة أياها ، مع شيء من التفصيل بالنسبة إلى الطبري والتفسير . أما القراءة ، فيتفرد بها العرب أو الفرس المستعربون (انظر ر . بلا شير ، المدخل إلى القرآن ، باريس ١٩٥٩ ، ص ١١٨ وما يليها) . أما

أستاذ الصوفية الكبير فحسن البصرى ، وهو عراقي بأبيه ؛ لكنه مستعرب ولد في المدينة ، ويلم بالفارسية لكنه لا يكتب إلا بالعربية . ومعظم علماء الكلام موالي ينتمون إلى القبائل العربية الكبرى . (مثلا واصل بن عطاء ، عمر بن عبيد ، أبو الهذيل العلاف) ، والجاحظ منهم باعتزاله وعروبته بقلبه إن لم يكن بأصله ، ويجسد جيداً مشاعرهم : انظر بيلا ، الوسط ، ص ٥٤

(١٣٥) في الجزء الثاني ، الذي يلي هذا الكتاب .

(١٣٦) حول التاريخ ، انظر د . س . مرغوليوث ، محاضرات عن المؤرخين العرب ، كالكوتا ، ١٩٣٠ ، وسوفاجيه كاهين ، المدخل ، ص ٢٤ - ٣٩ وأماكن متفرقة ، وسوفاجيه ، مختارات نصوص مترجمة ، في « المؤرخون العرب » ، داريس ، ١٩٤٦ ، و ف . وستنفيلد ، المؤرخون العرب وأعمالهم ، غوتنجن ، ١٨٨٢ ، وبيلا ، الوسط ، ص ١٣٩ وما يليها ، وبيلا ، اللغة والأدب ، ص ١٤٢ وما يليها ، وبلاشير الأدب ، ج ١ ص ١٢٨ وما يليها ، وأحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج ٢ ، ص ٣١٩ - ٣٦٠ ، ومؤرخو الشرق الأوسط (بإشراف ب . ليويس و ب . م . هولت) ، اكسفورد ، ١٩٦٢ ، و هـ . أ . ر . جيب ، « تاريخ » ، في م ١ ، ملحق ، ص ٢٥٠ - ٢٦٣ .

(١٣٧) نقصد من زاوية مفهوم التاريخ بالذات (انظر ما يلي) وليس من زاوية المواضيع المعالجة ، التي يتدخل فيها ببداهة تامة الإطار غير الإسلامي : انظر عبد الجليل ، الأدب ، ص ١٢٤ - ١٢٥ . وتؤيد المؤثرات الفارسية (أشير إليها ، وهوارت ، الأدب ، ص ١٧٣ - ١٧٤) حركة انطلقت من قبل ، وتبرز قيمتها بمضمونها لا بذهنيتها .

(١٣٨) مصنفات هيرودوت ، وكسينوفون ، وتوسيديد ، وبوليب ، وديودور ، وسترابون ، وبلوتارك (مع ذلك انظر القسم الثاني ، الفصل السادس ، كتاب البدء والتاريخ) وديون كاسيوس ، غير معروفة عند العرب ، فيما يبدو .

(١٣٩) اربعة مؤرخون عظام : البلاذري (متوفى حوالي عام ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) ، والدينوري (متوفى حوالي ٢٨١ - ٢٨٢ هـ / ٨٩٤ - ٨٩٥ م : انظر حاشية ١١٤) ، واليعقوبي (متوفى بعد عام ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م)، الطبري (٢٢٤ هـ / ٨٣٩ م - ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م) .

(١٤٠) يقارن من هذه الناحية بين التاريخ - الاخلاق لبلوتارك موضوع تجارب الأمم (انظر أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ص ٢٠١ وما يليها) .

(١٤١) لعله ارتبط في التحليل الأخير ، بإحدى ثابتات الفكر البشري : التناقض الأساسي في المعرفة التاريخية (انظر الفكر المتوحش ، ص ٣٤٢ وما يليها) ، الذي قد يعلل أصلا فشل الطبري إذ أنه عدل عن البحث التاريخي العالمي واكتفى بظهور الإسلام .

(١٤٢) تدخل بعض الفرس ، الذين قد يكونون استعربوا (يخطر لي اليعقوبي والبلاذري خاصة) ، لكنهم تأثروا جداً بثقافة العراق المتعددة العناصر آنذاك ، وكانت فئة منهم كثيرة الترحال ، لاسيما في بلدان ملتقى الطرق ، كالعراق ، بالتأكيد والشام ومصر أيضاً . انظر ك . هـ . بيكر ، « البلاذري » ، في م ا (٢) ، ج ١ ، ص ١٠٠١ — ١٠٠٢ (وسورديل ، الوزارة ، ص ٢٢ ، الذي يثبت الأصل الفارسي) ، و ب . ليوين ، « الدينوري » ، في م ا (٢) ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ ، و ك . بروكلمان ، « اليعقوبي » في م ا ، ج ٤ ، ص ١٢١٥ — ١٢١٦ ، ور . باريه ، « الطبري » ، في م ا ، ج ٤ ، ص ٦٠٧ — ٦٠٨.

(١٤٣) عبد الجليل ، مشار إليه سابقاً ، ص ١٢٣ .

(١٤٤) حول هذا التاريخ ، انظر هوار ، الأدب ، ص ٥٩ وما يليها ، ١٧٣ وما يليها ، ، وعبد الجليل ، ص ٧٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ١٢٧ — ١٢٨ ، وسوفاجيه كاهين ، المدخل ، ص ٢٤ — ٣١ .

(١٤٥) إلا في بعض المقارنات السطحية ، مثل المقارنة بين نهج السير ونهج الطبقات .

(١٤٦) في البدء ، عاش في المدينة ذاتها ، حول الرسول ، من كان يجوزان تطلب منه الأخبار الأساسية . وعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف هذه الحقبة الأولى (انظر سوفاجيه كاهين ، اشير اليهما من قبل ، ص ٣١) ، يلاحظ أن المؤرخين المشهورين (نغفل ذكر الأخباريين العاديين مثل ابن عباس ، ووهب بن منبه ، والرواة مثل عبيد بن شريه (أو شاريه : انظر بيلا ، المدخل إلى الجاحظ ، كتاب التربيع ، ص ١٧ روماني ، ٢١) ، ولدوا في المدينة (الزهري ، المتوفى عام ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م ، وموسى بن عقبة بن أبي إياس ، المتوفى عام ١٤١ هـ / ٧٥٨ م ، وابن اسحاق ، المتوفى حوالي ١٥١ هـ/ ٧٦٨م). وفي هذه الفترة ولد مؤرخان فقط في العراق ، هما محمد الكلبي (المتوفى عام ١٤٦ هـ ٧٦٣ م) وأبو مخناف (المتوفى عام ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م) ، إلا أنهما ينتميان إلى وسط عربي أو مستعرب متأثر كلياً بالتقاليد ، وقد حارب أجدادهما وآباء اجدادهما إلى جانب علي : بالفعل ، بقي التقليد العربي حتى انهيار الأمويين ، مهيمناً رغم الانشقاقات الداخلية (أبو مخناف مثلا ، يمثل وجهة النظر العراقية والكوفية ، المناهضة للامويين بشدة) ، وحيا جداً في

بلاط دمشق ، وسوق يقصد الشام (حول الوضع الأقل وضوحاً لعوانة بن الحكم ، انظر صالح العلي ، في م1 (٢) ، ج1 ، ص ٧٨٢ – ٧٨٣) المؤرخون أو الرواة (عبيد بن شاريه ، وهب ، الزهري ولم يتدخل العراق تدخلا بارزاً إلا فيما بعد بفضل سيف بن عمر (المتوفى بعد عام ١٧٠ ه / ٧٨٦ – ٧٨٧ م ، وأبي اليقظان (سهيم بن حفص ، الذي لا يجوزان يلتبس اسمه مع اسم الصحابي المسمى أبي اليقظان أيضاً ، المتوفى عام ١٩٠ ه/ ٨٠٥ – ٨٠٦ م) ، والهيثم بن عدي (المتوفى حوالي ٢٠٦ – ٢٠٩ ه / ٨٢١ – ٨٢٤ م) ، وهشام الكلبي الكلبي (المتوفى عام ٢٠٤ ه / ٨١٩ م) ، وأبي عبيده (المتوفى حوالي ٢١٠ ه / ٨٢٥ م) ، وابن هشام (المتوفى عام ٢١٨ ه / ٩٣٤ م) ، وأبي نعيم الملائي (المتوفى عام ٢١٩ ه / ٨٣٤ م) المعروف كأخباري أيضاً) والمدائني (المتوفى حوالي عام ٢١٥ – ٢٣١ ه / ٨٣٩ – ٨٤٥ م) ، وابن سعد (المتوفى عام ٢٣٠ ه / ٨٤٥ م) ، الخ . لكن يمكن أن نعتبر أن هؤلاء المؤرخين يتناولون أحداثاً معروفة من قبل (كان ابن سعد خاصة كاتب الواقدي (انظر ما يلي) ويستوحي ابن هشام من ابن اسحاق) وعربية على الرغم من اتخاذ مواقف متناقضة بشأنها (انظر عناوين ش . بيلا في الوسط ، ص ١٤٢ ، ١٤٤) . من جهة أخرى ، ظل تقليد جزيرة العرب حياً بفضل ابن زباله في المدينة (كتب تاريخ هذه المدينة عام ١٩٨ ه / ٨١٤ م : انظر ابن رسته الترجمة ، ص ٦ روماني ، ٦٣ (وحاشية ٣) ، ٦٦ ، ٨١ (وحاشية ٤) ، ٨٤ (وحاشية ٥) ، و ج . سوفاجيه ، جامع الأمويين في المدينة ، باريس ، ١٩٤٧ ، ص ٢٦) ، وبفضل الأزرقي في مكة (متوفى عام ٢٤٤ ه / ٨٥٨ م) ، والزبير بن بكار ، الخبير بسيرة قريش وانسابها (المتوفى عام ٢٥٦ ه / ٨٧٠ م : أنظر الذهبي ، التذكرة ، ج٢ ، ص ٥٢٨) والواقدي (المتوفى عام ٢٠٨ ه / ٨٢٢ م) ، قاضي بغداد ، المولود في المدينة . أخيراً في مرحلة ثالثة ، تتعدى اطار هذا لفصل الزمني ، أي بعد عام ٢٤٦ ه / ٨٦٠ م – أو إذا شئنا ، بالتوازي مع رؤيا أوسع تاريخ : البلاذري ، الطبري ... – أمعد نمط الأحاديات إلى الجزيرة وفارس وخراسان ، فضل مؤرخين ينتسبون إلى هذه الأصقاع : انظر هوارث ، مشار إليه سابقاً ، ص ١٧٧ تؤخذ النبذ عن المصنفين من تذكرة الذهبي ، حسب اسمائهم) .

(١٤٧) في المكان (المدينيون والمكيون في العراق) أو في الزمان (عام ٢٧٢ ه / ٨٨ م مثلا ، كتب الفاكهي أيضاً تاريخ مكة في مكة ذاتها) .

(١٤٨) عبد الجليل ، مشار إليه سابقاً ، ص ١٢٥ .

(١٤٩) سوفاجية كاهين ، المدخل ، ص ٢٥ وما يليها .

(١٥٠) انظر ل . ماسينيون ، الوعد المقطوع ، باريس ، ١٩٦٢ ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٧ .

(١٥١) يفسر هذا الوضع كون المؤرخين في الوقت ذاته فقهاء لغة (أبو عبيدة ، ونوعا ما الأصمعي الذي يغلب عنده فقه اللغة على التاريخ) أو محدثين (ذكرت تذكرة الحفاظ الذهبي معظم المؤرخين العرب الأوائل . انظر أيضاً بالنسبة إلى الرواية ، الدور المزدوج لوهب بن منبه أو ابن عباس في الحديث والتاريخ) .

(١٥١) سوفاجيه كاهين ، مشار اليهما من قبل ، ص ٣١ .

(١٥٢) تقليد حي : فيما بعد ، أي بدأ من نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، أصبح لوظيفة الوزير أخبارها : انظر سورديل ، مشار إليه سابقاً ، ص ٦ — ٧ .

(١٥٣) انظر سوفاجيه ، المدخل ، الطبعة الثانية ، ص ٣٣ .

(١٥٤) بالنسبة إلى مجمل هذه القضايا ، نحيل إلى المراجع المذكورة من قبل .

(١٥٥) ارجع إلى اخر الفصل السادس في القسم الثاني بالنسبة إلى علاقات الجغرافية والتاريخ .

(١٥٦) انظر من بين شتى الأمثلة ، المقدسي ، الترجمة ، الفقرات ٥١ ، ٨١ ، ١٢٣ ، ١٨٧ وأماكن متفرقة .

(١٥٧) انظر ما يلي الفصل الخامس ، في بحث ابن الفقيه .

(١٥٨) انظر بلا شير ، المختارات ، ص ١٠ — ١١ (كرره عبد الجليل ، الأدب ص ١٣٦) .

(١٥٩) ليست الجغرافية وحدها في هذا الوضع : فالعلوم النظرية تشبه حالتها على نطاق واسع .

حواشي الفصل الثاني

(١٦٠) بالنسبة إلى هذا الفصل ، اعتمدت على نطاق واسع على مؤلفات ش . بيلا التي تتناول مجمل مصنفات الجاحظ والأدب . حول الجاحظ وابن قتيبة كـ « جغرافيين » ، انظر كراتشكوفسكي ، ص ١٢٣ — ١٢٦ (١٢٨ — ١٣٠) ، ٦٦ — ٦٧ (٧١) .

(١٦١) هذا التعبير من وضع ج . ا . فون غرونباوم (مشار إليه سابقاً) ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٨١ — ٢٨٢ .

(١٦٢) تستحيل تأدية لفظ الأدب في العربية بكلمة واحدة في اللغة الفرنسية ، لأن معانيه تعددت عبر التاريخ ، ولم تدرس بعد . بانتظار هذه الدراسة الإجمالية ، انظر غرونباوم ، ذكر من قبل ، ص ٢٧٤ وما يليها ، وغابرييلي ، لفظ أدب ، في م١ (٢) ج١ ، ص ١٨٠ — ١٨١ ، ونلّلينو ، الأدب ، ص ٧ وما يليها ، وبيلا ، اللغة والأدب العربيان ، ص ١٢٧ — ١٢٨ ، و ر . باريه ، « اسهام في دراسة الأوساط الثقافية في الشرق الأدنى في القرون الوسطى : « الموسوعية » العربية الإسلامية من ٨٥٠ إلى ٩٥٠ م : « المجلة التاريخية ، ٢٣٥ روماني ، كانون الثاني — اذار ، ١٩٦٦ ، ص ٤٧ — ١٠٠ .

(١٦٣) « تأديب كل فكرة تدل على انتهاء اسهام الإسلام بتقدم البشرية في القرون الوسطى » (غرونباوم ، مشار إليه ، ص ٢٨٢) . ينبغي تنويع هذا الرأي قطعاً ، انما ، قام الأدب بتحويل الذوق العام إلى الأمور السهلة التي جعلت مفتاح النجاح الذي تستهدفه الكتابة أصلا في القرون الوسطى . لذلك لم يشجع الأدب التقصي النظري المحض .

(١٦٤) معرفتنا سيئة بسيرورة هذا التطور ، لأننا نجهل كل شيء تقريباً عن مصنفين بارزين مثل عبد الحميد الكاتب ، أو سهل بن هارون أو المدائني (حول أهمية المدائني ، انظر بيلا ، الوسط ، ص ١٤٤ — ١٤٥) . لكن ربما وجب علينا أن نعتبر أن الجاحظ لعب دوراً هاماً في هذه السيرورة : انظر ص ١٤٠ من القسم الأول .

(١٦٥) لا تتأثر اللهجة الحكمية في مجمل الطريقة بمحاولة اضفاء صبغة الفكاهة بالمثل .

(١٦٦) بفضل مزاياهما الخاصة ، وحظوتهما في عصرهما . انظر الحاشية ١٦٤ .

(١٦٧) ولد الجاحظ حوالي عام ١٦٠ ﻫ / ٧٧٦ م ، وتوفي عام ٢٥٥ ﻫ / ٨٦٨ م (انظر بيلا ، الوسط ، ص ٥٠) . ولد ابن قتيبة عام ٢١٣ ﻫ / ٨٢٨ م . وتوفي بلا ريب عام ٢٧٦ ﻫ / ٨٨٩ م .

(١٦٨) مصنفات ابن خرداذبة ، الذي عدل كتابه عام ٢٧٢ ﻫ / ٨٨٥ م ، وكان تاريخ النسخة الأولى عام ٢٣٢ ﻫ / ٨٤٦ م .

(١٦٩) « لكل عصر جاحظه » (الهمذاني ، المقامة الجاحظية ، مع أنه ينتقد كثيراً نثر الجاحظ : انظر طبعة بيروت ، مع تحشية محمد عبده ، الطبعة الرابعة ، ١٩٥٩ ، ص٧٥).

(١٧٠) قام بها ش . بيلا ، الذي أدين له بارشادات المطالعة المشار إليها .

(١٧١) فقدت مصنفات أخرى (امثلة : كتاب المعادن والقول في جواهر الأرض ، كتاب الأصنام ، الخ ، أو أن عنوانها لايدل على مضمونها – وهو من وضع الناسخ – (انظر كتاب التربيع والتدوير ، مدخل ش . بيلا ، ص ١٠ روماني ، حاشية ١) : مثال : كتاب الأوطان والبلدان .

(١٧٢) نزعت دراسات ش . بيلا (نظرة شاملة جيدة في م ١ (٢) ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ – ٣٩٨) بحق إلى إثبات وجودها ، الذي القت الأساطير وظروف النسخ ظلالا كثيفة عليها .

(١٧٣) قد يقال رداً علينا أن مصنفات الجاحظ تتعرض إلى جميع الابحاث ، حتى لو حملت عنواناً متخصصاً . لسنا واثقين من هذا الاعتراض . فمتى أخذنا بعين الاعتبار تحوير النصوص والتفنن في عناوين المصنفات ، فلاحظ في الواقع أن الرسائل كالمصنفات الكبرى (البيان ، البخلاء) تمتاز بان لها هدفاً واضحاً تماماً . وبالضبط ، يدفعنا هذا الهدف وتحديده ، حسب الحالات ، في مجال الدفاع عن الدين أو نطاق الأدب أو السياسة ، أو الأخلاق أو الاتنوغرافية ، الخ ، أن نرى في هذه المصنفات ايضاحاً لمفهوم عام في المعرفة ، تتوخى أن تتعمق في هذه الناحية أو تلك منه . اما يسوغ لنا ، إذا اقتضى الأمر ، أن نحيل إليها التوضيح نقطة معينة من كتاب التربيع أو الحيوان . يبقى الاعتراض الزمني : فايضاح المفهوم لا يثبت لأن كتاب الحيوان ظهر في آخر حياة الجاحظ (مباشرة قبل ٢٣٢ ﻫ : انظر بيلا ، الفهرس ، رقم ٥٧ ؛ ومدخل التربيع ، ص ١٢ روماني) . أما أنا فأرى في ذلك حجة مناقضة : فلا يمكن

ارتجال موسوعة مثل كتاب الحيوان ، ويستغرق تصنيفها سنين طوالا . وتنطبق الملاحظة ذاتها على كتاب التربيع الذي يعتبر « قائمة » : فمهما كان تاريخه (كتب فعلا حوالي ٢٢٧ – ٢٣٠ هـ / ٨٤٢ – ٩٤٥ م ، أي عشرين سنة قبل وفاة الجاحظ : انظر بيلا ، الفهرس ، رقم ١٦٤ ومدخل التربيع ، ص ١٢ روماني) . يبدو أن القضايا التي لا تحصى فيه هي القضايا ذاتها التي اقلقت المصنف طيلة حياته .

(١٧٤) المقصود في الواقع مجمل الخليفة كما سنرى . حول هذا العنوان ، انظر الحاشية ٢١٤ .

(١٧٥) لا بد أن أحد النساخ وضع هذا العنوان (بيلا ، اشير إليه) الذي استخرجه من الفقرة ٣٠ من المصنف .

(١٧٦) التوراة ، الأساطير ، الأخرويات : فقرة ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٨٨ ، الأديان : فقرة ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٦٣ – ١٦٤ ، تاريخ الأمم الأعجمية وحضارتها : فقرة ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، جزيرة العرب قبل الإسلام : فقرة ٣٨ ، ٤١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ – ١٤٥ .

(١٧٧) الأسطورة الأسلامية : فقرة ٦٣ ، علم الكلام ، الصوفية ، الفلسفة ، الفقه ، قضية الامامة : فقرة ٤٣ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٧ – ١٦٠ – ١٧١ .

(١٧٨) علم الكونيات ، الرياضيات ، الموسيقى : فقرة ٦٤ ، ١٤٧ – ١٤٨ ، ١٥٠ – ١٥٣ ، علم الحيل (الضوء خاصة) : فقرة ١٦٧ – ١٧٠ ، ١٧٣ – ١٧٤ ، ١٧٧ ، جغرافية عامة (صورة الأرض ، عجائب العالم) وجيولوجية : فقرة ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ١٧٥ ، الحيوان (الحيوان الطبيعي أو الأسطوري) : فقرة ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ١٤٦ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، اتنوغرافيه (خصائص العروق ، وصف التقنيات) : فقرة ٤٨ ، ٦٤ ، ٧٨ ، ١٧٢ ، الطب (نظرية الأمزجة) : فقرة ١٤٤ ، ١٥٢ ، السحر (بشتى أشكاله) : فقرة ٦٨ – ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١٣٩– ١٤٢ ، ١٧٦ ، ١٨٣ ، ١٨٤ .

(١٧٩) بيلا ، مشار إليه من قبل ، ص ١٠ روماني .

(١٨٠) الدور البغدادي في القرن العاشر ، الذي أصابه التجمد (القسط) الذي اعترى

الأدب . انظر ا . لتمان في م١ (٢) ، ج١ ، ص ٣٦٩-٣٧٥ (مع احالة في ص ٣٧٥ (١)) إلى دراسة « ج . هوروفتز » . Die Entstehung von Taunsendundeine Nacht

في مجلة الأمم ، عدد ٤ ، نيسان ١٩٢٧ .

(١٨١) نحيل إلى شتى مؤلفات ش . بيلا بالنسبة إلى عرض موقف الجاحظ التالي .

(١٨٢) حول مذهب الاعتزال ، انظر ا . ن . نادر ، نظام المعتزلة الفلسفي ، بيروت ١٩٥٦ ، وأحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج٣ ، ص ٢١ - ٢٠٧ .

(١٨٣) هذه الناحية سلوك ثابت في موقف التعصير العربي : فالسلفية في القرن التاسع عشر وضعت هي أيضاً حركتها في اطار من التقدم العلمي مجاراة للغرب ومن التقليد الأخلاقي لرفض مادية هذا الغرب اياه .

(١٨٤) حول الحركة القومية الشعوبية ، انظر د . ب . ماكدونلد ، في م١ ، ج٤ ، ص ٤١٠ . حول اسباب تعلق الجاحظ بالعروبة ، انظر بيلا ، الوسط ، ص ٥٤ .

(١٨٥) لاسيما وإن القيم الفارسية - الشرف ، النبل ، الفروسية - قريبة جداً من النظام التقليدي العربي ، الذي يستطيع بسهولة أن يتمثلها ، لكنه يفقد فيها بعض الشيء ذكرى أصوله وافتخاره بأنه أوجدها هو نفسه (انظر غرونباوم ، مشار إليه سابقاً ، ص٢٧٩ ب . فارس الشرف عند العرب قبل الإسلام ، ذكر من قبل) . في الواقع ، خطر فارس أنها قريبة جداً من جميع النواحي .

(١٨٦) سوف نرى (ص ١٤٢ - ١٤٣ ، ١٥٥) انه يحسن التدقيق في هذا الرأي بعض الشيء .

(١٨٧) مثال : اسطورة المد والجزر (فقرة ١٧٥) التي يهاجم فيها الجاحظ الخرافة التي تقول بأن المد والجزر ناجمان عن وضع ملك رجله في الماء أو سحبها منه . قد يعود الخبر إلى الرسول نفسه : احالات في كتاب التربيع ، ص ١٩٦ .

(١٨٨) أوشرية : انظر الإحالات في الحاشية ١٤٦ .

(١٨٩) انظر بيلا ، مشار إليه من قبل ، ص ١٥ - ١٧ روماني .

(١٩٠) لم تذكر السنة حتى ولا مرة واحدة في كتاب التربيع .

(١٩١) امثلة عديدة عن التفسيرات اليونانية : نظرية الأمزجة (فقرة ١٤٤ ، ١٥٢) ،

الفلسفة الأفلاطونية والأرسطوطاليسية (فقرة ٨٣) ، نظرية الموسيقى حسب اقليدوس ؛ مورسطس (انظر ﻫ . ج . فارمر في م١ ، الملحق ، بهذا الاسم) ، وفيثاغوروس (فقرة ٥٠١) نظرية الميزان (فقرة ١٧٢ : قرسطون ، خرستيون باليونانية : انظر ا . ويدمان في م١ ، ج٢ ، ص ٨٠٢ – ٨٠٥ الخ .

(١٩٢) فقرة ١٧٤ . مثال اخر : فقرة ٦٢ (اشخاص اسطوريون طوال القامة ومعمرون) . انظر مع ذلك حاشية ٢٢٦ .

(١٩٣) لعل المقطع مدسوس (انظر بيلا ، ص ٧ – ٨ روماني) إلا أن اللهجة تنسجم مع سائر العمل .

(١٩٤) فقرة ١٢٩ .

(١٩٥) فقرة ٨١ . تفرض حقوق الخبر أن نضيف كما فعل الجاحظ : « وترضي العقل كالسماع » . ويزيد الجاحظ بعد أن جعل العيان معياراً مثالياً : « الخبر لا يعرف (كالعيان) الأشياء في تكيفها بل في مجملها » .

(١٩٦) التي قواها الاتصال باليونان ، لكن كانت بذورها موجودة في البصرة : انظر بيلا ، الوسط في أماكن متفرقة ، و م١ ، (٢) ، اشير إليها من قبل .

(١٩٧) حول تصور المعتزلة نظام الكون العقلاني ، وحول حدوده ، انظر كتاب الحيوان ، ج١ ، ص ٣٣ ، ونادر ، ذكر من قبل ، و م١ (٢) ، ج١ ، ص ٣٦٠ (ت ج دي بوير ، « عالم ») و ٤١٨ ما يليها . (ل . غارديه ، « الله ») . يعطي كتاب الحيوان مثالا عن الإيمان بهذا النظام ، مع نوعي اثبات الخليفة : المتناهي الكبر والمتناهي الصغر (انظر ما يلي) .

(١٩٨) سوف نرى أهمية تطوره (الفصل الخامس) . في الدراسة اللاحقة نكتفي بالأمثلة التي يؤخذ فيها جذر عجب بمعنى الشيء الخارق « العجيب » ، ونصرف النظر عن مقاطع كتاب التربيع المشكوك باندراجها في النص الأصلي (مبينة بأحرف مطبعية خاصة في طبعة ش . بيلا) .

(١٩٩) فقرة ١٨١ .

(٢٠٠) فقرة ٧٨ ، ٧٩ .

(٢٠١) نلاحظ بصورة عابرة أن الجاحظ يرفض ، فيما يبدو تصديقتحويل الذهب .

(٢٠٢) لنذكر هنا أيضاً أن المعتزلة تستهدف قبل كل شيء الدفاع عن الإيمان دفاعاً أفضل باللجوء إلى المحاجة العقلانية .

(٢٠٣) فقرة ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢٠٤) مثال عدد اللانهاية (فقرة ٣٧) .

(٢٠٥) بيلا ، مدخل إلى التربيع ، ص ١٥ روماني . انظر كتاب الأمصار ، ص ١٧١ « فسبحان من ... جعل الشك داعية إلى اليقين » . تكرر الفكرة ذاتها في كتاب التربيع ص ١٩ .

(٢٠٦) فقرة ٥٩ .

(٢٠٧) وضع تتويج كتاب التربيع الأخلاقي تحت اسماء يونانية فقط (بقراط ، افلاطون ، بوليمون ديموقريتس ، ارسطو ، الخ : الفقرة ١٩٠ وما يليها . مع ذلك يلاحظ ورود (فقرة ١٩٤) اسم الطبيب اليهودي ماسرجس ، وهو راوية فقط (مترجم من السريانية إلى العربية) . يعثر خاصة (فقرة ١٩٠) على القول المأثور « كل ما أعرف أني لا أعرف شيئاً » .

(٢٠٨) يذكر نص مثل نص الفقرة ١٩٧ بجوامع الكلم في كليلة ودمنة أو في الأدب الصغير ، وترد تسمية كليلة ودمنة صراحة في الفقرة ١٥٦ .

(٢٠٩) على المنوال ذاته ، سوف نساق ، لكي نفهم فهماً أفضل اتجاهات بعض الجغرافيين ، إلى التساؤل عن تطور الأدب بعد الجاحظ .

(٢١٠) الجاحظ ، مجموع رسائل الجاحظ (انظر المراجع) بالنسبة إلى هذا المقطع أنا مدين إلى ملاحظات ش . فيلا المدونة في مقدمة ترجمته لهذه الأعمال (قيد التحضير) .

(٢١١) انظر ، من بين سائر الأمثلة ، سلاسل الأسباب والنتائج (مجموع الرسائل ، ص ١٧ وأماكن متفرقة) والفهارس (المرجع اياه ، ص ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ وأماكن متفرقة) الكثيرة جداً عند ابن المقفع .

(٢١٢) انظر ص ٦ — ٧ (دفاع الاسباب والعلل) ، ٧٥ (الوظيفة تخلق العضو) ، ٧٧ (وصف سريري لانحباس البول وأثره في المزاج) الخ .

(٢١٣) في مصنفات الجاحظ وغيره ، كما سنرى .

(٢١٤) أداء لفظ الحيوان بالعربية بـ « المخلوقات الحية » بالفرنسية أفضل من ترجمته

بكلمة « الحيوانات » ، لأن التعبير الأول أقرب إلى الصواب ، لأن الانسان ، مثلما سوف نرى ، يمثل مركز النظام ، والموضوع يتعلق ، بوجه عام جداً ، بالخليقة ، حية كانت أم جماداً . انظر الحاشية ٢٣٢ .

(٢١٥) انظر ما تقدم في الحاشية ١٧٣ .

(٢١٦) حول هذه المصادر ، انظر مقدمة طبعة ع . م . هارون . نشير بنوع خاص ، من جهة ، إلى ترجمة كتاب الحيوان (هكذا جاء) ارسطو لابن البطريق (ص ١٤ ، انظر ما يلي حاشية ٢١٧) ، ومن جهة أخرى ، إلى التصانيف العربية ، العجمية أصلا ، المؤلفة قبل الجاحظ ، عن مختلف الحيوانات (ص ١٦) . ينبغي أن نضيف إلى المصدرين السابقين الخبرة الشخصية : انظر ما يلي : ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٢١٧) يبدو أن هذه المصنفات الثلاثة عرفت في ترجمة ليحيى بن البطريق : انظر ر . والزر ، « ارسطوطاليس » ، في م١ ، (٢) ، ج١ ، ص ٦٥٣ (١) . ويجب اضافة مصنفين اخرين أقل أهمية « في حركات الحيوان المكانية على الأرض » و « في حركة الحيوانات » .

(٢١٨) يذكر ارسطو ذلك صراحة في الكتاب الأول من المصنف المسمى « في كون الحيوان » وفي اخر كتاب « في الأعضاء التي فيها الحياة » .

(٢١٩) انظر مقدمة ب . ليويس لطبعته كتاب « في الاعضاء التي فيها الحياة (انظر المراجع) التي يعرف فيها الطلاب (الكتاب الأول ، ١ ، ٦٣٩) بأنهم « من ليسوا علماء على وجه التحديد ، بل تلقوا قسطاً من الثقافة العامة » : انظر مطلع « في الأعضاء التي فيها الحياة » الذي نعطي ترجمته فيما يلي : « يقول ب . ليويس : « ينطوي تعبير » علم الشيء « على لغو يمكن تعليله إذا علمنا أن ارسطو يخاطب جمهوراً من المثقفين لا التقنيين » (كتابه المشار إليه ، ص ١ ، حاشية ١) .

ويذهب البعض أحياناً إلى حد القول بأن تلامذة ارسطو الفوا قسماً من كتاب « في طبائع الحيوان » (انظر ليويس ، ذكر من قبل ، ص ٢٠ روماني) ، وإلى حد القول بان وضع هذا الكتاب في صيغته النهائية تم بعد وفاة ارسطو ، مما يوضح طابع التزييف في كتابيه ٩ و ١٠ (انظر كروزية ، الأدب اليوناني ، ج٤ ، ص ٧٠٩ ، حاشية ١) .

(٢٢٠) يمكن مقارنة المواضيع عند ارسطو والجاحظ بطريقة منهجية : على سبيل المثال : السمندل : « في طبائع الحيوان » (طبعة ج . برتيليمي — سان — هيلير ، ج٢ ، ص ٢١٥) ،

وكتاب الحيوان ج ٥ ، ص ٣٠٩ — ٣١٠ ، و ج٦ ، ص ٤٣٤ — ٤٣٥ . حول تأثير المناخ والمياه في خصائص الأجناس : « في طبائع الحيوان » ، ج ١ ، ص ٢٧١ وما يليها ، وكتاب الحيوان ، ج٣ ، ص ٤٣٤ — ٤٣٥ وأماكن أخرى . للحصول على لائحة أكمل لهذه المقارنة ، انظر ط . الحاجيري « تخريج نصوص ارسطوطاليسية من كتاب الحيوان » ، مجلة كلية الآداب ، الإسكندرية ، ١٩٥٣ وبعدها .

(٢٢١) انظر حاشية ١٧٢ .

(٢٢٢) أخذ هذا التعريف من كتاب البيان والتبيين (ذكره أحمد أمين في فجر الإسلام : انظر ما تقدم حاشية ٧٩) . وختم أحمد أمين بقوله (٣٧) : « لنقل إذا اردتم ، أن اللسان أقوى على الإنطلاق من ملكة التفكير » . انظر ما يقوله غرونباوم ، ذكر من قبل ، عن « الرواية التفصيلية » ، وبلاشير ، الأدب ، ج ١ ، ص ٣٠ وما يليها .

(٢٢٣) غرونباوم ، ذكر من قبل ، ص ٢٥٤ .

(٢٢٤) يعلن الجاحظ (كتاب الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٦٨) صراحة أن ليس لدى العرب ما يدعوهم إلى حسد « الفلاسفة » (أي اليونان) على معرفتهم بالحيوانات .

(٢٢٥) عندما لا يرمي إلى « الجهد المنسق لازالة الصبغة الاجنبية » : انظر غرونباوم ، ذكر من قبل ، وما يلي في دراسة ابن قتيبة .

(٢٢٦) أما على مستوى المعرفة — قد يلعب حب الإطلاع ، المضطرب بعض الشي عند الناشي ، دوراً في وجود انعدام القابلية للجدل ، وأما على مستوى بعض الطرق المنهجية (انظر ص ١٣٥) التي يمكن التساؤل أصلا ما إذا كانت قد فقدت ، بتركها اليونان ، قدرتها الجدلية وأصبحت أدوات عرض محضة فقط .

(٢٢٧) يعثر على هذه الإشارة إلى الواقع ، العادية طبعاً في مثل كتاب الحيوان ، في مصنفات أخرى ، كالبيان والتبيين والبخلاء ، التي يركز موضوعها الأصلي ، لاعلى العالم الخارجي ، بل على الاعتبارات الاخلاقية أو النظرية . ويميز الإهتمام بتحديد الموقع الجغرافي مثلا ، دراسة العادات ، مثلما وردت في كتاب البخلاء ، تمييزا كلياً عما جاءت عليه في كتاب لا برويير . وتنطبق الملاحظة ذاتها على كتاب البيان والتبيين (الذي لا بد من مقارنته بالطريقة ذاتها بكتاب كنتيليان) : فقد أورد نيفاً وثلاث مائة من اسماء الأمكنة أو العناصر أو المواقع ذكرت اثناء معالجة بضعة موضوعات كبرى مختارة ، ليست سوى الأمصار التي

سوف يلح عليها الجغرافيون بعد الجاحظ : كالبصرة ، والكوفة ، والعراق ، والشام ، وخراسان ، والمدينة ، ومكة : انظر الطرفة التي رواها المقدسي (الترجمة ، ص ٦١) .

(٢٢٨) اختيرت (ج٤ ، ص ١٤٠ – ١٤٣) مثالا على تأثيرات المناخ السيئة . استوحي اختيار التأويل في بضعة مقاطع من حواشي الناشر . يستعاض في اخر ص ٤٢ من لفظ « معام » بلفظ « مقام » .

(٢٢٩) موضوع تقليدي (انظر كتاب الأمصار ، ص ١٨٠ وما يليها) سوف يتخذ حجة للقيام بعرض من وحي جديد وفي اسلوب جديد .

(٢٣٠) حول نبذة ياقوت ، المستوحاة من هذه اللمحة ، انظر معجم البلدان ، ج١ ، ص ٢٨٦ (منسوبة إلى الهمداني) . أما المقدسي ، فيقول عن الاهواز انها « مزبلة الدنيا » (طبعة دي خويه ، ص ٤٠٣) . ويقول عن أهلها : « ولا تراهم مع تلك الأموال الجمة والتجارات العجيبة والصناعات النفسية ، عندهم من التمييز والتدبير ما عند غيرهم . إذا ترعرع أولادهم ، طرحوهم في الغربة،وابلوهم بالاسفار والكسب،فيتيهون من بلدإلى بلد، ولاحظ لهم من علم أو أدب » (الإحالة السابقة ذاتها) . والموضوع ذاته معروض بشيء من التفصيل والبعد عن الأصل الجاحظي أيضاً ص ٤١٠ ، و ٤١١ من الطبعة اياها . ونلاقيه أيضاً عند الثعالبي في لطائف المعارف ، ص ١٠٧ – ١٠٩ .

(٢٣١) لا يعثر على شتى عناصر الجغرافية في بحث المؤلف نفسه (كتاب الحيوان ، ج١ ، ص ٤٢) ؛ الذي يعدد بلا نظام جوانب متنوعة من هذه الثقافة المسماة أدباً ، لكن في المصنفات ذاتها (حسب الذهنية المعينة في الحاشية ١٧٣) . حول الاجناس البشرية ، يكفي أن نشير إلى اهتمام الجاحظ بدراسة الشعوب والمجموعات العرقية الكبرى ، خاصة العرب ، والفرس والزنج ، والترك . مع ذلك ، نذكر ، على سبيل المثال ، كتاب الحيوان ، ج٥ ، ص ٣٥ – ٣٦ . (نظرية « نضوج » الاجناس) .

حول الإعتبارات الطبية وتأثيرات الوسط الطبيعي في النوع ، انظر كتاب الحيوان ، ج١ ، ص ١٥٧ (طول العمر في فرغانة) ، ج٣ ، ص ٤٣٤ – ٤٣٥ (أثر البادية في رجال الروم والسند) ، ج٤ ، ص ١٣٥ ، ١٣٩ (اثر موقع التبت ، والموصل والزنج) البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٩٤ (اعتبارات طبية) . كتاب القول في البغال ، ص ٨٦ (تبدل خصائص العرق المكتسبة عند الانتقال من بلد إلى اخر) الخ .

حول الأغذية ، انظر كتاب الحيوان ، ج٣ ، ص ٥٢٥ – ٥٢٦ (ما يأكل العرب من

الحيوان) ، ج ٤ ، ص ٤٦ (أكل ديدان الجبن في الأهواز) ، ج ٥ ، ص ٤٢٩ (شراب العسل الذي ينتبذ في مصر ، نقله ابن الفقيه ، ص ٦٦) ، كتاب البخلاء ، ص ١١٧ ، وأماكن أخرى .

حول التبرج واللباس ، انظر كتاب الحيوان ، ج ٤ ، ص ١٧٢ (علاقة عكسية بين الحمل والنظافة الشخصية) . البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٨٨ ، ٣٤٢ ، ج ٣ ، ص ٦ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١١٤ ، وأماكن أخرى (اعتبارات عامة عن الكساء ولبس العمامة) ، كتاب البخلاء ، ص ١٢٣ (خفوف السند) .

حول انتقال الأملاك ومصادر جلب شتى السلع ، انظر كتاب الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٤٣ (السيوف القلعية) . كتاب البخلاء ، ص ٥٩ ، ٦٦ ، ٧٨ ، ٧٩ وأماكن أخرى . حول انتقال الأشخاص ، انظر البخلاء ، ص ١٢٣ .

حول المجموعات الجنسية أو الاجتماعية ، الداخلة في الصراعات السياسية ، انظر كتاب البخلاء ، ص ٦٠ — ٦١ . حول البريد ، عرض مفصل في كتاب القول في البغال ، ص ٥٥ — ٧٢ .

حول الأديان ، انظر كتاب الحيوان ، ج ٥ ، ص ١٥٧ وما يليها (اليهود ، المجوس ، النصارى) ، ص ٣٢٧ — ٣٢٨ (العلاقة بين الدين والذكاء) ، ج ٧ ، ص ٢٥ — ٢٩ (الختان) . حول بعض العادات ، انظر كتاب الحيوان ، ج ٦ ، ص ١٤٥ — ١٤٧ (لعب الأعراب) ، كتاب البخلاء ، ص ٨٣ (استعمال المائدة عند اشراف الأرض الصغار من الفرس) .

أما حول الاهتمامات اللغوية والثقافية ، فانظر كتاب الحيوان ، ج ٤ ، ص ٢١ — ٢٣ ، ج ٥ ، ص ٢٨٩ — ٢٩٠ . كتاب البخلاء ، ص ١٢٢ . كتاب البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٨ ، ٩٢ ، ١٤٤ ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ ، وغيرها .

(٢٣٢) يتضح أن الموضوع لا يتعلق بالكائنات الحية وحدها ، مثلما يدفعنا العنوان إلى الإعتقاد .

(٢٣٣) كتاب الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٩٩ .

(٢٣٤) كتاب الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٧١ .

(٢٣٥) حول خلق الكائنات الراقية ، أي الجن والملائكة ، المصنفة إلى مراتب هي

أيضاً ، انظر كتاب الحيوان ج٣ ، ص ٢٣١ – ٢٣٥ (جدل حول اجنحة الملائكة) ، ج٦ ، ص ١٩٠ – ١٩٤ .

حول اعتبار الانسان حيوانا ذا شعر ، انظر كتاب الحيوان ، ج٥ ، ص ٤٨٤ . شبه ظاهر القرد بظاهر الانسان : ج١ ، ص ٢١٥ ، الإنسان اشبه بالحمام : ج٣، ص ١٦٣– ١٦٨ ، ٢١١ وأماكن أخرى ، الانسان مقلوب إلى صورة خنزير : ج٤ ، ص ٧٢ (يذكر الجاحظ ذلك بكل تحفظ ، ولا ريب أن هذه النقطة من الذكريات الغامضة المأخوذة من القصص اليونانية (حادث سرسي) . انظر غرونباوم ، ذكر من قبل ، ص ٣٣١ – ٣٣٢ ، حاشية مقنعة لأنها ترمي إلى الامتناع عن عزل الانسان عن الخليقة ، وربطه بالأنواع الحيوانية الأخرى . مقارنة صوته بصوت السنانير : ج٤ ، ص ٢١ – ٢٣ ، مع ما يلي كخاتمة : « فلما قلت وجوه المعرفة ووجوه الحاجات ، قلت وجوه مخارج الأصوات » .

حول المراجع المتعلقة بالانسان ككل ، انظر كتاب الحيوان ، الفهرس ، لفظ « انسان » . حول خصائص « الانسان الحيواني » العقلية ، انظر ج١ ، ص ٤٢ وما يليها ، ٧١ . حول الاستطاعة ، انظر ج٥ ، ص ٥٢٥ – ٥٤٣ ، حيث صير الانسان حيواناً أعطي العقل للاعتبار والتفكير الجيد (وظيفة ضرورية جداً بإيراد مثال الملائكة والأقوام المعذبة).

(٢٣٦) كتاب البخلاء ، ص ٥٩ (مقتبس من مقطع أطول بكثير : ص ٥٦ – ٦٢).

(٢٣٧) طبعة دي خويه ، ص ٤٤ (مقتبس من ص ٤٣ – ٤٥) ، الترجمة ، فقرة ٨٣ – ٨٧ .

(٢٣٨) أوضح ش . بيلا حس المشاهدة والتفصيل الواقعي (الوسط ، ص ٦٣ ، ٢٢٣ – ٢٢٤ ، وأماكن اخرى) . نحيل إلى امثلة عن العيان في رسالة القول عن البغال ، ص ٥٤ ، وكتاب البخلاء ، ص ٢٥ ، وكتاب الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٦١ ، وج٤ ، ص ٣١٦ ، وج٧ ، ص ٤١ . صياغة واضحة المبدء ذاته في ج٣ ، ص ٣٦١ : « وليس الأمر كما قالوا . وكل قول يكذبه العيان ، فهو افحش خطأً ، واسخف مذهباً ، وأدل على معاندة شديدة وغفلة مفرطة » .

(٢٣٩) حول نوايا المقدسي بشأن الأسلوب ، المتناقضة أحياناً ، انظر الترجمة ، فقرة ١٦ – ١٧ ، ٢٠ . بالنسبة له تتميز الكتابة في النهاية بتطبيق قواعد انشاء عصره الياً ، لا بالتكييف ، ما ينطوي عليه من السلاسة ، كما هي الحال عند الجاحظ : انظر القسم الثاني ، الفصل التاسع .

حول اسلوب الجاحظ ، بانتظار دراسة ش . بيلا ، المرغوب بها (الوسط ، ص ١٤٦) ؛ انظر ملاحظات ج . م . عبد الجليل المقنعة ، الأدب ، ص ١١٤ (مع استشهاد بو . مارسيه). نقصد بالاعتبارات الأخلاقية ، بحث الكاتب الأخلاقي ، مثل الجاحظ في نواحي كثيرة ، لا المغزى الأخلاقي على طريقة ابن المقفع : فهذا الجانب من الأدب ، لايزال ، يعثر عليه ، من ناحية الاسلوب في بعض مصنفات الجاحظ (حاشية ٢١١) ، لكنه لم يعد يظهر في النصوص الجغرافية الا نادراً (انظر ما تقدم في الحاشية ٩١) ؛ واختفى كلياً عند المقدسي . ويشعرنا المقدسي بضرورة التنهيج والتمحيص المزدوجة ، عندما يقول (الترجمة ، فقرة ١٣ مكررة) عن كتاب الأمصار ، إن الجاحظ أدرج في كتابه ، « ليجنب القارىء الملل » ، استطرادات ونوادر ، تقل فعلا عما أورده ابن الفقيه ، لكن تكثر في كتاب صغير (فقرة ١٣) . ويتخذ المسعودي الموقف ذاته في مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ (ذكره بيلا ، الوسط ، ص ٦٨ حاشية ٧) .

(٢٤٠) انظر عند الجاحظ ، كتاب البخلاء ، ص ٧٨ (افاعي سجستان ، وثعابين مصر وحيات الأهواز) ، ٧٩ ، س ١٢ — ١٣ (تعداد اصناف المآكل) . كتاب الحيوان ، ج ٤ ، ص ١٠٦ (لخصائص بعض البلدان) ، و ج ٧ ، ص ٢٣٠ (تعداد بعض الأماكن مع بيان اثرها في سيكولوجية البشر) . وتزداد القناعة من استشهاد المقدسي بالجاحظ — المستوحى بلا ريب من ذهنية كتاب الأمصار ذاتها . ويندرج استشهاده كلياً (الترجمة ، فقرة ٦١) في فصل أفرد كله لخصائص البلدان (ثبت يتصف بذهنية ابن الفقيه اياها ، ص ٩٢ — ٩٣). كذلك ينبغي المقارنة بما ورد في كتاب البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ : « ما رأينا ارضاً مثل الأبلة ، اقرب مسافة ، ولا أطيب نطفة ، ولاأوطاء مطية ولا أربح لتاجر ، ولا أخفى لعابد » و بما ورد عند المقدسي في الفقرة ٦٣ : وليس أكثر ولا ارذل من مذكرى نيسابور ، ولا أطمع من أهل مكة ، ولا أفقر من أهل يثرب ، ولا أعف من أهل بيت المقدس » ، والفقرة ٧٨ (تصنيف صفات اصحاب المذاهب) الخ . ونجد عرضاً مستوحى من التفكير ذاته عند اليعقوبي (ترجمة ، ص ٥) عند الحديث عن أهل بغداد : « فليس عالم أعلم من عالمهم ، ولا اروى من روايتهم ، ولا أجدل من متكلمهم ، ولا أعرب من نحويهم ، ولا أصح من قارئهم ، ولا أمهر من متطببهم » ، الخ ، الترجمة ، ص ٢٣٥ (استشهاد النويري باليعقوبي : حول شتى أنواع المسك) . ابن رسته ص ١٢٢ : « ليس باليمن ، ولا بتهامة ، ولا بالحجاز ، مدينة أعظم منهل ولا أكثر أهلا وخيراً ، ولا أشرف أصلا ، ولا أطيب

طعاماً » ، ص ١٤٧ – ١٤٨ : تعداد كنوز الرومية ؛ الخ . ابن خرداذ به (اقدر بكثير : انظر فيما يلي الحاشية ٢٤٥ ، مع ذلك انظر الترجمة ، ص ١٢٣ ، ١٣٣ : أحسن الأرض مخلوقة الرى ولها السر والسريان ، واحسنها مصنوعة جرجان ، ... ، وأحسنها مستخرجة نيسابور » . ابن الفقيه ، ص ١٢٩ (خصائص اليمامة) ، ص ٣٣ (القول في اليمن) ص ٩٢ ، الخ يفصل المؤلف نفسه أيضاً موضوع التوزيع (مثال ، ص ٨٤ : « والحدة عشرة اجزاء تسعة منها في البربر وجزء في الناس » . انظر أيضاً ص ٩٢) . حول هذا النمط من التفكير ، انظر الإحالات فيما يلي في الحاشية ٢٤٢ .

(٢٤١) قارن اشارة الجاحظ إلى وجنات الصبية في نبذة الأهواز (ما تقدم ، ص ١٤٤) بما كتبه المقدسي ، طبعة دي خويه ، ص ٣٩٧ (عن دوبية في خلقة الخنفساة : « وترى موضع الوقيد بالنهار اخضر ») . حول المقارنة بين التفصيل والإجمال ، انظر مثلا ابن حوقل ، ص ٤١٩ : المقدسي ، الترجمة ، فقرة ١٤٨ – ١٤٩ ، الذي يتحدث عن طبرية ، فيضع حصى الجامع بجانب ما يلي : « وعليها بما يدور قرى ونخيل ، والسفن فيها تذهب وتجيء ... والجبل مطل على البلد شاهق » .

(٢٤٢) حول التيار المزدوج للهجاء والمديح ، وذهنية التصنيف (خصائص ، مفاخر مثالب) انظر كراتشكوفسكي ، ص ١٢٤ (اخر ١٢٨) ، ١١٨ (١٣٢) ، ١٦٢ (آخر ١٦٦) ، (مع تأكيد على العصر الأموي) . وبلا شير ، الأدب ، ج ١ ، ص ٢٤ وما يليها ، ٣٠ وما يليها (مع اشارة إلى تناقضات الطباع العربية في الجاهلية) ، وغرونباوم ذكر سابقاً ، ص ٢٨٧ ما يليها : وسوفاجيه – كاهين ، مدخل ، ص ٢٥ ، و أ . طرابلسي ، النقد الشعري عند العرب ، دمشق (م ف د) ، ١٩٥٦ ، ص ٢١٥ وما يليها. ثم أن تطبيق الموضوعين المتوافقين (انظر بشأن الجاحظ ، بيلا ، الوسط ، ص ١٢ روماني ، حاشية ١ ، ورسالة في مناقب الترك أيضاً ، ص ٤٥ ، التي تجعل من المفاخر والمثالب موضوعاً الزامياً في المعارف الانسانية) يلازم البحث عند الجغرافيين . ونحيل ، على سبيل المثال ، إلى نبذة ابن حوقل ، المذكورة في الحاشية السابقة ، وإلى هذا المقطع ، المختار من مقاطع كثيرة عند المقدسي (طبعة دي خويه ، ص ١١٨) : عن البصرة : « وحماماتها طيبة ؛ والأسماك والتمور بها كثيرة ، ذات لحم وخضر واقطان والبان وعلوم وتجارات ، غير انها ضيقة الماء ، منقلبة الهواء ، عفنة ، عجيبة الفتن » . وقد كانت مثل هذه الالية الذهنية التعويضية ظاهرة من قبل في نبذة الجاحظ عن الأهواز ، التي يتعارض فيها الانتان مع طيب الماء الجاري ،

والبخل مع الثراء . مع ذلك تتضح الآلية بمزيد من الجلاء ، عند الجاحظ دوماً ، متى طبقت على مجموعة مواضيع : انظر كتاب البخلاء ، ص ١١٦ : « وفي قول جميع الناس أن ماء دجلة امرأ من ماء الفرات ، وأن ماء مهران امرأ من ماء نهر بلخ ... أن الماء الذي يكون عليه النفاطات امرأ من الماء الذي يكون عليه القيارات » (مستوحى من ترجمة ش . بيلا ، ص ١٤٠ — ١٤١) . انظر كتاب الحيوان ، ج١ ، ص ١٥٧ (طول الأعمار في شتى البلدان) ، وفخر السودان على البيضان ، ص ٦٧ — ٦٨ (مقارنة بين الصفات العقلية لدى مختلف المجموعات البشرية) ، والإحالات السابقة في الحاشية ٢٤٠) التي نعتمد عليها في مقارنات الجغرافيين بين الموضوعات المتنوعة .

(٢٤٣) انظر الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج٧ ، ص ٢٠٣ « احاجي عن أعجب الاشياء في العالم) ، وفخر السودان على البيضان ، ص ٥٨ : « إن لقمان ... يقول : ثلاثة لا تعرفهم إلا عند ثلاثة : الحكيم عند الغضب ، والشجاع عند الخوف ، والأخ عند حاجتك » . ولدى ابن المقفع ، انظر كليلة ودمنة ، ص ٥٦ ، ٥٧ ، ٩٦ ، ١١٦ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٦١ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٩١ .، وخاصة ٢١٤ — ٢٢٥ ، سلسلة طويلة من هذه الحكم ، نختار منها الحكمة التالية :

ونشير ، من بين روايات كثيرة إلى هذه الرواية المختلفة عن السلسلة ، الواجب ادراجها في الاتجاه الطبيعي ذاته (مثال مأخوذ من الأدب الصغير ، ص ١١ ، من بين أمثلة كثيرة .

ونجد أيضاً أمثلة عديدة في كليلة ودمنة ، الترجمة ، ص ٤١ ، ١٤١ ، وأماكن أخرى . يعارض الهمذاني هذا الاسلوب في المقامة الجاحظية (طبعة م . عبده ، ذكر من قبل ، ص ٧٥).

(٢٤٤) حول المؤثرات التي هذبت الأدب ، انظر غرونباوم ، ذكر من قبل ، ص ٢٧٨ — ٢٨٢ . تبدو شمولية هذه الذهنية بوضوح ثابتة — لكن كيف نحدد هذه التأثيرات المحتملة — في العوالم الهلنستية والرومانية والشرقية : فلو اغفلنا مثلا اسلوب المقارنة الذي يعتبر من لزوميات التعبير الشعري في اللغتين اليونانية واللاتينية ، لوجدنا لدى سينيك ، عن موضوع الفضيلة ، التوسع ذاته الوارد في النثر الأخلاقي في الأدب (انظر كونستنسيا سابينتس ، ٣ — ٦ روماني ، ومقدمة علي بن الشاه الفارسي لكليلة ودمنة ، ص ٢٩١).

(٢٤٥)يدفعنا ما نعرفه عن حياة ابن خرداذبه ، وما قيل عن مصنفاته ، التاريخية أو غير التاريخية (انظر المسعودي ، مروج الذهب ، ج١ ، ص ١٣ ، ودي خويه ، مدخل إلى

كتاب المسالك والممالك ، ص ١١ — ١٢ روماني ، ر . بلا شير ، تقرير عن نشر كتاب اللهو والملاهي ، ل ع . خليفة ، في مجلة ارابيكا ، ٨ روماني ، ١٩٦١ ، ص ١٠٢) ، إلى الاعتقاد بأنه كاتب يمثل جيداً نموذج الأديب . إلا أن مصنفه الجغرافي ، الذي نهتم به وحده ، يعنى قليلا ، فيما يبدو ، في تقنيته ، بموضوعات وتصورات الفكر التي نحن بصددها باستثناء بعض مقاطع (انظر الاستشهاد في الحاشية ٢٤٠) تثير فعلا ، في رأينا ، قضية انفتاح النمط التقني المتمثل بجغرافية زمنه على المؤثرات الأدبية الصرفة . بالفعل ، تضعنا هذه المقاطع في حيز من الكتاب ، يتألف من مجموعة اضافات ، طرأت ، حتى عام ٢٧٣ ﻫ (تاريخ ظهور الصيغة الثانية والنهائية) ، على صيغة المصنف الأولى (اجمالا ، المسالك ووصف « ارباع » الأرض الأربعة التي كتبت عام ٢٣٢ ﻫ (انظر دي خويه ، المدخل ، ص ١٨ ، ٢٠ روماني) . ففي هذا الحيز ذاته من المصنف ، أو في الترجمة ، ص ١٣٢ ، نجد — وليس لدينا ما يدعونا إلى الاعتقاد باضافة تعليق — نبذة الجاحظ عن الأهواز ، مع ذكر اسم هذا الكاتب صراحة ، وتكرار بعض الفاظ نصه حرفياً (مثال ، وجنة حمراء) . ولا يعود هذا الاقتباس إلى صيغة عام ٢٣٢ ، ولا يمكن منطقياً الشك في هذه الناحية ، بسبب موقعه في المصنف ، مثلما قلنا ، ولأن صيغة عام ٢٣٢ وكتاب الحيوان متعاصران تقريباً (انظر ما تقدم ، حاشية ١٧٣) . بالتالي ، تحتوي صيغة كتاب المسالك والممالك النهائية ، العائدة لعام ٢٧٢ ، أي ١٧ عاماً بعد وفاة الجاحظ ، خلافاً لصيغة عام ٢٣٢ ، موضوعات خاصة بالأدب وبمعلمه الرائع : أي عجائب الأرض ومناطقها وخصائصها . إذن ، تتضح الرغبة بمجاراة ذوق العصر وبتطبيق الأساليب الأدبية الجديدة على نمط المسالك .

(٢٤٦) ذكره بنوع خاص ابن الفقيه ، والمسعودي ، والمقدسي (انظر فهارس هؤلاء المؤلفين) ، والهم ابن رسته (الترجمة ، ص ٦٠ — ٦٣ : كتاب الحيوان لكن ربما أيضاً كتاب الأمصار (انظر ص ١٨٧ وما يليها) ، وقدامه بن جعفر بلا ريب (انظر ا . مكي ، قدامة بن جعفر ومصنفاته ، ص ٢٧٧ — ٢٧٦) . بالمقابل ، يبدو أن اليعقوبي اعتمد على وثائق أصلية (اشار إليها سوفاجيه من قبل (أخبار الصين والهند ، ص ٢٨ روماني) .

(٢٤٧) انظر المقدسي ، الترجمة ، فقرة ١٣ ، و ١٣ مكرر . .

(٢٤٨) انظر مثلا موضوع القرشيين : ص ١٧٤ — ١٨٧ .

(٢٤٩) صنف كتاب الأمصار عام ٢٤٨ ﻫ / ٨٦٢ م (انظر ص ١٨١) ، فتاريخه يعود إلى سبع سنوات قبل وفاة مؤلفه .

(٢٥٠) انظر بيلا ، م١ (٢) ، ج٢ ، ص ٣٩٧ (١) .

(٢٥١) على هذا النحو ، تتضح الأهمية المعطاة إلى المواضيع العربية التي لم ينكرها الجاحظ مطلقاً أصلا ، مثلما مر معنا .

(٢٥٢) مروج الذهب ، ج١ ، ص ٢٠٦ .

(٢٥٣) انظر ما تقدم ، الحاشية ٢٢٧ .

(٢٥٤) «وذلك كله مصور في كتبي» ، ص ١٨٦ .

(٢٥٥) تأويل موضوع القرشيين وبني هاشم في نطاق دراسة تأثير الأسيسات الاقتصادية (حرب وتجارة) في العادات (ص ١٧٤ وما يليها) ، وإعادة إدخال الموضوع التقليدي للحنين إلى الأوطان كأساس رئيسي في المجتمعات البشرية (آخر ص ١٧١) ، الموقف ذاته في موضوع السفر والاغتراب ، وبمناسبة المقارنة المطروقة مجدداً بين البصرة والكوفة ، تعليل بعض الأحداث العائدة إلى آليات الأسعار (ص ٢٠٠ — ٢٠١) ، الخ .

(٢٥٦) مع ذلك ، لا تنسب جميعها إلى الجاحظ : انظر ما تقدم في الحاشيتين ١٧٢ و ١٧٣ .

(٢٥٧) انظر ما تقدم في الحاشية ١٦٩ و ص ١٣٩ ، ومقالة ش . بيلا في م١ ، اشير إليها سابقاً .

(٢٥٨) تفنن انشائي ، تفاصيل غريبة ، طرافة ، هزل ، الخ .

(٢٥٩) انظر ج . لو كونت ، ابن قتيبة ، دمشق (م ف د) ، ١٩٦٥ . وعبد الجليل أدب ، ص ١٢٢ . و ش . بيلا ، « ابن قتيبة والثقافة العربية » ، منوعات طه حسين ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٢٩ — ٣٧ (بالعربية) . وكذلك ، « مراحل الانحطاط الثقافي في البلدان العربية في الشرق » ، في م ت ح١ ، ص ٨١ وما يليها . انظر وجهة النظر التقليدية — تجاوزتها الأبحاث — في م . غودفروا . دي مونبين ، مدخل إلى كتاب الشعر والشعراء ، المذكور فيما بعد ، و س . عكاشة ، مدخل إلى أحدى طبعات المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، مذكور في منوعات طه حسين المشار إليها ، ص ٣٣ .

(٢٦٠) أهم من الفارق الزمني بالقيمة المطلقة ، الذي يفسده أصلا طول عمر الجاحظ الاستثنائي (١٦٠ ﻫ / ٧٧٦ م — ٢٥٥ ﻫ / ٨٦٨ — ٨٦٩ م ، ابن قتيبة : ٢١٣ ﻫ / ٨٢٨ م — ٢٧٠ ﻫ / ٢٧٦ ﻫ ، ٨٨٢ — ٨٨٩ م) البليغ بحد ذاته ، هو التوافق بمنفوان

الشباب بين الجاحظ والمعتزلة والحركة العلمية في عهد المأمون (١٩٨ هـ / ٨١٣ م - ٢١٣ هـ / ٨٣٣ م) وبين رد فعل السنة الذي بدأ في عهد المتوكل (٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م - ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م) بالنسبة إلى ابن قتيبة .

(٢٦١) انظر ج . لو كونت في منوعات ماسينيون ، مجلد ٣ ، ص ٤٥ وما يليها (مقال مشار إليه) .

(٢٦٢) مشار إليه سابقاً ، ص ٤٧ .

(٢٦٣) أدب الكاتب ، ذكر في منوعات ماسينيون ، مشار إليه سابقاً ، اخر ص ٥٥ .

(٢٦٤) الإحالة ذاتها ، آخر ص ٥٩ .

(٢٦٥) انظر ما تقدم الحاشية ١٠٧ .

(٢٦٦) على هذا النحو ، يعلل عدد الشواهد الشعرية في أدب الكاتب . انظر من ناحية أخرى أيضاحاً طريفاً عن الفروسية في كتاب *الشعر والشعراء* ، ذكر في مدخل م . غودفروادي مونبين ، ص ١٢ روماني .

(٢٦٧) سوف تتاح لنا فرصة العثور عليها مجدداً في بحث قدامة . حول أدب اعداد الكاتب السابق انظر سورديل ، الوزارة ، ج ١ ، ص ١٤ - ١٧ ، وما تقدم ص ١١٦ - ١١٧ .

(٢٦٨) يلاحظ الإلهام الفارسي ذاته عند عبد الحميد الكاتب (مع المفهوم الرفيع ذاته عن مهنة الكاتب) والجاحظ الزائف في كتاب التاج ، والشيباني ، لكن البغدادي يختلف عن هؤلاء المصنفين ببعض نقاط برنامجه ، الذي يستطيع اليونان أن يلعبوا دورهم فيه (في التنجيم والطب بنوع خاص) ، وعن الشيباني من جهة أن هذا الأخير يبدي ، في نطاق المعارف العامة ذاته ، حرصاً بالغاً على التقنية والتخصص . انظر سورديل ، مشار إليه ، في م د ش ، ١٤ روماني ، ص ١١٥ وما يليها .

(٢٦٩) في رسالته في ذم اخلاق الكتاب (ثلاث رسائل ، طبعة فنكل ، القاهرة ، ١٩٢٦ ، ص ٤٠ وما يليها . دراسة وترجمة ش . بيلا في هيسبيريس ، ١٩٥٦ ، ص ٢٩ - ٥٠) .

(٢٧٠) حول الجاحظ وفارس ، انظر ما تقدم ، ص ١٣٤ . يعثر على مقطع حاسم جداً ينقد فارس ويدافع عن التقليد العربي في الثلاث رسائل المشار اليها سابقاً ، ص ٤١ - ٤٢ .

(٢٧١) المرجع ، ذاته ص ٤١ .

(٢٧٢) انظر أدب الكاتب ، ذكر في لوكونت ، مشار إليه سابقاً ، ص ٥٠ — ٥١ .

(٢٧٣) تقليد تاريخي ديني (انظر عيون الأخبار ، والمعارف ، المراجع) يطبقه أدب الكاتب في ترتيبه بشكل مبادىء تنظم اخلاق الموظف والتقاليد العائدة إلى الفقه والشرع (انظر لوكونت ، مشار إليه سابقاً ، ص ٦٠ — ٦١) . أما دراسة اللغة فقد اشرنا إلى اهميتها من قبل .

(٢٧٤) انظر ش . بيلا ، اللغة والأدب ، ص ١٣٢ (لكن انظر منوعات طه حسين ، مشار إليه سابقاً) ، وعبد الجليل ، مشار إليه سابقاً (بوجه اخص ، عن ابن قتيبة النحوي).

(٢٧٥) عيون الأخبار ، على التوالي : ١ ، ٥ ، ٩ ، ٧ ، ١ ، روماني .

(٢٧٦) هنا أيضاً يعطي اختيار ابن قتيبة فعلا إدارة حريصة على التقليد : انظر ا . طرابلسي ، النقد الشعري عند العرب ، دمشق (م ف د) ، ١٩٥٦ ، ص ٧٠ — ٧٣ .

(٢٧٧) انظر حواشي ف . س . بودنها يمر الصحيحة جداً في مقدمة ترجمة « العيون » الجزئية (ترجمة ل . كوبف) ، باريس — لايدن ، ١٩٤٩ ، ص ١٤ — ١٩ . يعطي مثال جيد على اعادة إدراج اليونان في اطار شرقي ، ص ٧ ، و ١١ — ١٢ من تلك المقدمة : فابن قتيبة يأخذ مواد من اليونان عن طريق الجاحظ (يصحح هنا جزم بودنها يمر ، ص ٧ : لعل ابن قتيبة لم يذكر الجاحظ لسبب بسيط هو لأنه يكرهه) . حول العلاقة بين الشواهد اليونانية والتقليد العربي ، انظر مثلا العيون ، ج٢ ، ص ٦٢ — ٦٩ ، ٧٣ — ٧٨ .

(٢٧٨) اجراها ش . بيلا في منوعات طه حسين ، مشار إليه سابقاً ، ص ٣٦ — ٣٧ .

(٢٧٩) بهذا المعنى ، ينبغي ، تأويل استغلال خدينامه في كتاب العيون (انظر لوكونت مشار إليه سابقاً ، ص ٥٦) . لا يظهر الحدث الفارسي مطلقاً في مقاطع طويلة ، بشكل شامل ، يبين صفته الموحدة والقومية ، بل بشكل مفصل جداً ومجزأ ، في استشهادات قصيرة توضح نصاً عربي الإلهام . فيتوفر بالمعنى الصحيح تفكك الموضوع الفارسي . انظر بحث ر . والزر . وه . ا . ر . جيب في م١ (٢) ، ج١ ، ص ٣٣٦ (٢) ، (بند « الأخلاق»).

(٢٨٠) انظر عيون الأخبار ، ج٢ ، أماكن متفرقة .

(٢٨١) تنطبق الملاحظة أيضاً على اليونان (انظر ما تقدم ، الحاشية ٢٧٧) وعلى الهند (انظر مثلا عيون الأخبار ، ج٢ ، ص ٨٣ ، ١٠٥ : استشهادات موزعة في النص المعين من قبل) .

(٢٨٢) القول لابن تيمية (شرح سورة الإخلاص ، ذكر في ﻫ . لاووست ، دراسة عن عقائد ابن تيمية الاجتماعية والسياسية ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، ص ٧٥ ، حاشية ٢) . وبالحرص ذاته على السنة الخالصة ، يجب ربط طريقة تأويل ظاهر القرآن ، الذي دفع احياناً إلى اتهام ابن تيمية بالتشبيه . : انظر م . زغلول سلام ، ابن قتيبة ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ٢٣ ، ٢٧ .

(٢٨٣) بدأ « سد الأبواب في وجه الاجتهاد » في هذه المادة منذ منتصف القرن الثالث الهجري : التاسع الميلادي ، وهنا أيضاً لعب ابن قتيبة دوراً رئيسياً في هذه الحركة . انظر ج . شاشت موجز تاريخ الفقه الإسلامي (ترجمة ج . و ف . ارين) ، باريس ، ١٩٥٢ ، ص ٦٤ — ٦٥ ، و ج . لوكونت ، ابن قتيبة ، مشار إليه سابقاً ، ص ٢٥٦ — ٢٥٨ . اتخذ الموقف ذاته في مادة الشعر ، انظر ما تقدم الحاشية ٢٧٧ : ا . طرابلسي (مشار إليه سابقاً) يتحدث عن « مشرع الشعر » .

(٢٨٤) لعل ش . بيلا يقول « بدائية » (منوعات طه حسين ، ص ٣٧) .

(٢٨٥) استخلص هذا البرنامج من مدخل كتاب الشعر والشعراء ، مشار إليه ، ص ٥ ، الذي يبرز قيمة الشعر العالية وخطورة ميزته .

(٢٨٦) يشاهد هذا الاجتياح في مدخل كتاب المعارف ، ص ٢ ، ونشعر به في الوقت ذاته ، بفضل اللاراديات ، بظهور ميل إلى الجناس ، الذي يبشر ، للمئة عام اللاحقة ، بازدهار السجع الذي لنا عودة إليه (انظر القسم الثاني ، الفصل التاسع) . الآثار ذاتها في مدخل كتاب الأنواء ، ص ٢ — ٤ ، وأماكن أخرى . على هذا المستوى ، يستحسن اجراء دراسة مقارنة بين ابن قتيبة والجاحظ الذي يظل النثر عنده ، على النقيض ، دوماً خاضعاً بأمانة إلى الفكرة المراد التعبير عنها : فإذا أخذنا بعين الإعتبار مجمل مصنفات الجاحظ ، حق لنا أن نستنتج أن المقاطع « المسجوعة » نادرة : انظر كتاب التربيع والتدوير ، فقرة ١٠٥ ، المدسوسة أصلا (انظر الإشارات المطبعية التي يعطيها الناشر ، ص ٨ روماني) مما يوحي بمبادهة أحد النساخ .

(٢٨٧) هذه الفاظ ابن قتيبة نفسها (كتاب الأنواء ، ص ٢) .

(٢٨٨) ليس لها مقابل

(٢٨٩) كتاب الشعر والشعراء ، ص ٤ .

(٢٩٠) مثلا ، رسالة . . . في مناقب الترك ، ص ٢١ ، ٢٣ .

(٢٩١) انظر ما تقدم في الحاشية ٢٦٣ .

(٢٩٢) أحيل هنا إلى المقطع الشهير عن تأويل مختلف الحديث (ترجمة ج . لوكونت : مصنف اختلافات الحديث ، دمشق (م ف د) ، ١٩٦٢ ، ص ٦٥ — ٦٧) وهو مثال نموذجي عن تهجمات لعبت حتماً دوراً حاسماً في تكوين اسطورة الجاحظ المهرج .

(٢٩٣) انظر ش . بيلا ، « الجاحظ » في م١ (٢) ، مشار إليه سابقاً .

(٢٩٤) « ومن انفتاح باب العلم بعد ادمان القرع »(كتاب الحيوان ، ج١ ، ص ٢٠٥).

(٢٩٥) « ولا تذهب في الأمور مذهب العامة ، وقد جعلك الله تعالى من الخاصة ، فانك مسؤول عن هذه الفضيلة » (كتاب الحيوان ، ج٣ ، آخر ص ٣٠٢) .

(٢٩٦) انظر ما تقدم في الحاشية ١٦٨ والحاشية ٢٦٠ .

(٢٩٧) انظر ترجمة ج . وايت ، ص ٢٢١ وما يليها ، والتعليق العائد اليها .

(٢٩٨) انظر م . غودفرواد يمونبين ، مدخل إلى كتاب الشعر والشعراء ، ص ٢٧ رومانى ، والفصل الأول من هذا القسم ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .

(٢٩٩) حول معنى الأنواء (في الأصل نظام حساب مبني على سقوط النجوم في المغرب مع الفجر وطلوع اخرى تقابلها من ساعتها في المشرق) ، وادب هذا النمط . انظر ش . بيلافي م١ (٢) ، ج١ ، ص ٥٣٨ — ٥٤٠ .

(٣٠٠) مع اقتباسات هندية تبقي الإطار عربياً : انظر بيلا ، ذكر من قبل .

(٣٠١) انظر ابن المقفع ، رسالة في الصحابة ، ترجمة ش . بيلا ، الوسط ، ص ٢٨٦ وفيما بعد المقدسي ، الترجمة ، فقرة ٩٢ .

(٣٠٢) فيما يتعلق بالأخبار ، انظر المعلومات التي اعطاها ابن قتيبة عن البصرة (خمسة اسطر أخبار تشكل كل النبذة عن البصرة في المعارف ، ص ٢٤٥ — ٢٤٦) . وحول « مناظرة » المفاخر والمثالب ، انظر ما تقدم ، ص ١٤٩ . لدى المدائني مثال عن البصرة والكوفة ، وهو سلف الجاحظ (انظر بيلا ، الوسط ، ١٤٤) .

(٣٠٣) المقدسي نموذجي من هذه الناحية عندما يعالج مجمل الأمصار . فهو يضع معطيات الموضوع التقنية (فقرة ٩٢) إلى جانب معطيات الأدب التقليدية (ففرة ٦١ : لائحة خصائص الأمصار العشرة ، وإن كانت منسوبة صراحة إلى الجاحظ : حول هذه النقطة انظر البحث اللاحق .

(٣٠٤) انظر ما تقدم ، ص ١٤٩ — ١٥٠ .

(٣٠٥) أنا مدين بهذا التعبير الموفق إلى م . ج . وايت .

(٣٠٦) حتى منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي (انظر ما تقدم في آخر المدخل) .

حواشي الفصل الثالث

(٣٠٧) انظر الفصل الأول ، ص ١٠٥ وما يليها . حول هذا الفصل ، انظر كراتشكوفسكي ، ص ٩٩ (١٠٥) ، ١٢٧ (١٣١) ، ١٤٧ - ١٥٠ (١٥٥ - ١٥٨) ١٦٠ - ١٦٢ (١٦٥ - ١٦٦) ، ١٩٥ - ١٩٦ (١٩٨ - ١٩٩) ، ٢١٩ - ٢٢٥ (٢١٩ - ٢٢٣) .

(٣٠٨) انظر فيما يأتي ، ص ١٧٨ وما يليها .

(٣٠٩) حول تعريف هذا اللفظ ، انظر الحاشية ٤٤ .

(٣١٠) بسبب تأثير النجم في السمت .

(٣١١) انظر الحاشية ٤٦ . يلغ مجموع المعطيات العددية ٨٠٠٠ عند بطلميوس (ر . تانون ، مشار إليه سابقاً ، ج ١ ، ص ٣٦٥ وما يليها) .

(٣١٢) « الجغرافية تمثيل رسمي (باليونانية : صورة بالكتابة) للارض المعتبرة كلا ، مع ما يقابله من مميزات عامة ، بالتالي ، تختلف عن وصف البلدان (باليونانية ، عن الكتابة عن جماعة من الناس) ، اللذي يتناول البلدان بلداً بلداً منفردة ، ويصف عمليا كل شيء فيها حتى أدق التفاصيل ، كالموانىء والقرى ، والمقاطعات (باليونانية ، الأعمال) ، والمجاري المائية الصغيرة ، الخ . خلافاً لذلك ، تنفرد الجغرافية بعرض الأرض المعروفة (باليونانية ، المقورة) بكليتها ودفعة واحدة ، وبتبيان طبيعتها مثلا وموقعها والعناصر الداخلة فيها ، انما تؤخذ جميع الظواهر السابقة على مستوى الشمول والعموم ، مثلا الخلجان ، والدول (باليونانية ، المدن) الهامة (باليونانية ، الكبيرة) وأشهر (باليونانية ، أجدر بالذكر) الشعوب والأنهار ، أي ، باختصار ، أبرز (باليونانية ، ذات المعالم) ميزات كل وحدة مبحوث فيها (باليونانية ، منظور إليها) . بالتالي ، يتوخى وصف البلدان (خوروغرافيا) اعطاء منظور جزئي ، مثلما تراه العين وحدها وتسمعه الأذن وحدها ، في حين تتطلب الجغرافية اعطاء رؤية شاملة (باليونانية ، مشاهدة عامة) ، ونظرة اجمالية

يحتاج إلى الرأس بإجمعه » (جغرافية بطلميوس ، كتاب ١ ، ١ ، ١ — ٢ ، ابرز المؤلف بعض الكلمات ، ووضع بعض الألفاظ باللغة اليونانية ، اعطينا ترجمة حرفية لها لعدم وجود أحرف يونانية في مطبعة الوزارة) .

(٣١٣) مع ذلك ، لابد أن نحتفظ ، ونقول أن اسماء الشعوب تعتبر احياناً خطوط وصف عريضة ، كلما قلت المعرفة بهم ، مثلا : باليونانية ، الناس الذين يعيشون في العربات (شعب السيت) ، أو سكان المغاور (تروغلوديت : شعب من اثيوبيا) ، والأثيوبيين (باليونانية ، مظهر اللون الأحمر القانيء ، ذوو الوجوه المحروقة) .

(٣١٤) يتضح هنا أيضاً اشعاع مدرسة جندي سابور . ويستدل على عظم التأثيرات الهندية — التي يحتمل الا تخلو من التأثيرات اليونانية الأقدم منها — من ترجمة كتاب سوريا — سيدهانتا (السند هند) في عهد المنصور . وقد الهم كتاب الزيج لابراهيم الفزاري ، المصنف في الربع الأخير من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي .

(٣١٥) نلاقي هنا قضية اساسية : هي قضية اللغة . فقد توفر للجمهور المثقف الذي تلقى المواضيع اليونانية في عهد المأمون (٨١٣ — ٨٣٣ م) وسيلة نقل الفكر العربي . لكن هذا الفكر ذاته مشبع كلياً بالمواضيع الفارسية ، نظراً لظروف نشوء النثر العربي : فقد الهمت أخلاق فارس وتاريخها ، وطبها وحتى ديانتها (واحياناً ديانة الهند عبر فارس) ، مثلما مر معنا ، على نطاق واسع ،(ودون اشتراك ثقافة أخرى تقريباً) الفكر الأدبي في اوائل الخلافة العباسية . ويجب الا ننسى ايضاً ان التأثيرات الفارسية كانت فعالة حتى في الأوساط المسيحية ، التي نعرف مدى اسهامها في ترجمة المصنفات اليونانية : وخير مثال على هذه التأثيرات ، في فترة سابقة ، برديسان (برديصانالمولود عام ١٥٤ ميلادية : انظر ا. ابل، « ديصانية » في م ا (٢) ، ج ١ ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦) .

(٣١٦) أنظر « داتستان — أي — دينيك » ، ترجمة ر . موليه ، في كتاب « نشوء العالم » ، باريس ، ١٩٥٩ ، ص ٣٠٨ — ٣١٤ ، وخاصة ٣١٢ : « وفي ذروة الثلث (الوسيط) ثبت (الخالق) الشمس المنيرة ، والقمر المتلالىء والكواكب ... وقرر أن تبدأ حركتها متى قدم الخصم ، وتدور حول الخليقة مرسلة على الأرض الواسعة الضوء والمطر ... »

(٣١٧) ترجع إلى فارس بلا ريب (وينسبها التقليد العربي إليه أحياناً) عادة وضع صورة اشياء أو كائنات مألوفة فوق المجاميع البحرية أو البرية الكبرى على الخرائط :

كالطير أو المعطف الصغير (طليلسان) والقوارة (انظر فيما يلي الحاشية ٣٥٧) ، الخ . انظر س . مقبول أحمد ، « جغرافية في م١ (٢) ، مشار إليها سابقاً ، ص ٥٩٠ (٢) ، ٥٩٢ (١) ، ٥٩٦ (١) . وسيلعب هذا التقليد دوراً هائلا عند الجغرافيين العرب ، الذين سوف يشيرون إليه أو يقبلونه حسب الحالات : انظر ابن الفقيه ، ص ٣ - ٤ ، والمسعودي فقرة ١٩٣ ، والمقدسي ، الترجمة ، فقرة ٢٦ ، ٢٨ ، الخ . أما المسعودي، مشار إليه سابقاً ، فيبدو كأنه يعيد تلك العادة إلى اليونان ، لكن قد يكون الأمر مجرد اضطراب بصري إذ إن الأشكال التي رآها هو على خرائط « بطليموس » ، وجدت في مخيلته فقط . فنحن لا نعرف كيف كان بطليموس يرسم خرائطه ، « ولسنا واثقين أنه نشر خرائط في حياته » ، إذ أن الخريطة الوحيدة المنسوبة إليه رسمت في الواقع في محارف بيزنطية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين (ر . تانون ، مشار إليه سابقاً ، ج١ ، ص ٣٦٩) . مع ذلك ، ورغم الحجة المعاكسة المتمثلة في اسماء صرر الكواكب ، يبدو أن تقنية التصوير تتعارض مع تقنية تحديد بطليموس الدقيقة جداً : انظر ما يلي حاشية ٣٢٧ .

فهل يجب أن نقارن الطير الذي يشمل شكله جميع اجزاء الأرض (انظر ابن الفقيه ، مشار إليه سابقاً ، بتلك الحيوانات ذات الوظيفة الرمزية الشاملة ، » التي يمثل جسمها صورة عالم حقيقة » (المفكر المتوحش ، ص ٨٠) !

(٣١٨) فيما بعد انتقل المركز الفارسي العراقي المذكور (الذي لا يزال اثره يستشف عند ابن رسته مثلا (ص ١٠٤ وما يليها ، أو بوضوح زائد أيضاً ، عند المسعودي (كتاب التنبيه ، ص ٥٥ - ٥٧) إلى العراق دون غيره (انظر اليعقوبي ، ص ٢٣٣ وما يليها) ، أو حتى إلى الأماكن المقدسة في جزيرة العرب (انظر ابن الفقيه ، ص ١٦ وما يليها ، وابن رسته أيضاً ، ص ٣٤) . مع ذلك ، يجمع جغرافيون كثيرون نظامي التقسيمات الإقليمية الطولية (خطأ ؟) والتوزيع النجمي حول المركز (السرة اليونانية) : انظر المقدسي ، ص٥٨وما يليها، ٦٧، ١٣ . حولاسسهذاالتوزيعالجنسي الميثولوجية ، انظر م . موليه ، « تقسيم العالم حسب الأعراف الفارسية » ، في م١ ، ٢٦٠ ، ١٩٥٢ ص ٤٥٥ - ٤٦٣ .

(٣١٩) انظر مثلا المسعودي ، المروج ، فقرة ٣٩٥ - ٣٩٧ (حيث يظهر ، بالنسبة إلى الملك الأعلى ، ملك المركز ، لقب شاهنشاة : موضوع جعل فارسياً ، أو كان فارسياً : انظر الإحالات في أخبار الصين والهند ، فقرة ٢٤ ، حاشية ١) . كذلك تأدبت مواضيع الهيئة : انظر صورة « مح البيضة » ، المكررة دائماً لايضاح مركز الأرض المتوسط في الكون : ابن خرداذبة ، ص ٤ ، ابن الفقيه ، ص ٥٤ ، ابن رسته ، ص ٨ ، الخ .

ولا يبدو أن هذه الصورة يونانية . والمسعودي (فقرة ١٨٧ ، وما يليها) الذي يحذو حذو بطلميوس عن كثب ، فيما يبدو لا يأتي على ذكرها (خصوصاً فقرة ١٨٧ و ١٩٧ ، حيث نتوقعها ولا نجد في الواقع سوى مفهوم النقطة الهندسي ، ونجد الموقف ذاته ، في التنبيه والإشراف ، ص ١٥) .

(٣٢٠) انظر فيما تقدم ، الحاشية ٤٤ .

(٣٢١) انظر ما تقدم ، حاشية ٣١٨ . في كثير من الحالات ، يأخذ المصنفون ، ومنهم الثلاثة المذكورون في النص ، من المفهومين : ذكرى مركز ميديا (الجبال) الوسطى ، الذي أصبح موضوع تقريظ أدبي ، يقترن ببداية المرض بجزيرة العرب . ورب معترض يقول إن المصنفات المذكورة هنا تأتي بعد مصنفات الخرائط الصرفة الأولى (ومنها كتاب صورة الأرض للخوارزمي) وتتجاوز كثيراً اطار صورة الأرض . على أن ما يهمنا بالضبط ، ليس صورة الأرض الخالصة ، وهي من صنع تقنيين ، بقدر ما يهمنا ما آلت إليه في ايدي المصنفين بلقاءات وتأقلم المواضيع الأدبية . وباختصار ، بدخول المواضيع البشرية في علم الخرائط .

(٣٢٢) رفعة مرتبطة بمواضيع نشرئية واسطورية : هبوط آدم على الأرض ، والطوفان وابراهيم (انظر ابن رسته ، ص ٢٤ — ٢٦ ، وابن الفقيه ، ص ١٦ وما يليها) . وبالنسبة إلى كثير منها أصلا ، ينحصر الأمر في مواضيع حولتها الاخبار من بيت المقدس إلى جزيرة العرب ، مع تغيير اتجاه القبلة في الصلاة : انظر بشأن مجمل هذه المواضيع والأماكن ابن الفقيه ، ص ١٩ وما يليها ، ٩٣ ، ١٠١ ، ٢٥٨ . ويرد اثبات كافي الوضوح على « تقييم » مدن جزيرة العرب عند ابن رسته (ص ٢٥ ، ٢٦) الذي روى أن موضع البيت درس في الطوفان ، في حين يروى ابن الفقيه أن المدينة ارفع الأرض كلها ، ولها علاقة بجبل الجودي ، الذي وقفت عليه سفينة نوح (ص ٢٠) .

(٣٢٣) تبدو هذه الظاهرة بأوضح جلاء في ميدان الجغرافية الفلكية ، إذ تحدد القبلة أو اتجاه مكة بالتقاء مجمل دوائر الكرة الأرضية الكبرى بنقطة مكة : انظر ش . شوى ، م١ ، ج٢ ص ١٠٤٥ ، ١٠٤٧ . وادى موضوع القبلة إلى نشوء أدب كامل : نذكر الدينوري ، والبتاني ، وابن الهيثم بعدهما (ذكرهم ر . ارنلديز في مجلة ارابيكا ، ٩ روماني ، ١٩٦٢ ، ص ٣٦٩ ، مع تطبيق آخر بشرى للهيئة : علم الميقات ، الذي يستخدم لتعيين أوقات الصلوات الخمس اليومية) . حول علاقات موضوع القبلة والأدب الجغرافي ، انظر فيما يلي الحاشية ٣٧٧ .

(٣٢٤) واضح جداً أن هذا المفهوم موروث عن الهند : انظر مقبول أحمد ، مشار إليه سابقاً ، ص ٥٩١ . (٢) وهنالك مثال عند ابن رسته ، ص ٢٢ .

(٣٢٥) تقارن في هذا الموضوع رصانة بحث ابن رسته بضعف المعطيات « العلمية » » عند المقدسي ، الذي كتب في السنوات الأخيرة من القرن العاشر ، وتفصله عن سلفه ثمانون عاماً أو أكثر .

(٣٢٦) كتاب التنبيه والإشراف ، ص ٥٣ .

(٣٢٧) يعلن المسعودي بهذا الشأن ، انه يحكم استناداً إلى رؤية المصادر ، إذ يقول انه رأى خرائط مارينوس (التنبيه والإشراف ، مشار إليه سابقاً) ، وبطلميوس (مروج الذهب ، فقرة ١٩١ ، ١٩٣) . ويعيد مثل هذا القول طرح قضية علم الخرائط البطلميوسي ، المثارة من قبل (حاشية ٣١٧) . فهل رأى المسعودي النسخ الأصلية ، أم خرائط رسمها التراجمة ، حسب معطيات مارينوس وبطلميوس اثناء النقل من اليونانية إلى السريانية أو من السريانية إلى العربية ؟ ، في هذه الحالة الأخيرة قد ندرك ، بفضل التأثيرات السابقة (انظر الحاشية ٣١٥) ، أصل هذه الكارتوغرافية التصويرية ، التي يعتقد المسعودي أن بامكانه أن ينسبها إلى بطلميوس ، وتبدو لي ، قطعاً ، انها تتعارض مع صفة الأصل اليوناني الرياضية . أما « تعذر فهم الاسماء اليونانية » على صورة بطلميوس المنوه بها (مروج الذهب ، فقرة ١٩٣) ، فيعزى إما إلى وضع التراجمة الاسماء اليونانية باليونانية على الخريطة ، أو إلى كتابتهم اياها بأحرف عربية في صيغ (مشوهة ، مثلا ، لضرورات التكيف مع الرسم) تظل فيها على قدر مماثل من الغموض .

(٣٢٨) يبدو انها صممت لترفق بالصورة المأمونية : انظر المراجع التي ذكرها أ . وايدمان في م١ ، ج٢ ، ص ٩٦٦ (٢) .

(٣٢٩) انظر الحاشية ٤٨ . وقد أفاد من موضوع البيوت المعظمة في العالم ، افادة منهجية ، فلكي اخر ، اسمه أبو معشر ، فخصها بمصنف مستقل ، هو كتاب الألوف في بيوت العبادات ، أي دراسة الهياكل والبنيان العظيم الذي يحدث بناؤه كل ألف عام (انظر هوروفيتز في م١ (٢) ، ج١ ، ص ١٤٤) . على أن أبا معشر (البومسر ، في العصر الأوربي الوسيط) شخصية أعقد من شخصية الخوارزمي : فهو فلكي ومنجم أيضاً بنوع خاص ، مما جعله يتناول جميع المواضيع (مثلا ، نظرية المد والجزر) في نطاق الكون الشائع آنذاك (انظر فيما تقدم ، الفصل الأول ، ص ١٠٧ ، ١١٢) ، وضمن له شهرة واسعة جداً . وفي وقت

مبكر جداً ، شقت المواضيع المبسطة ، مثل موضوع البيوت « المظلمة » طريقها إلى أشد المصنفات تقنية ، بلا ريب بفضل التأثير الجزئي لامثال اولئك الثقات .

(٣٣٠) مروج الذهب ، فقرة ٨ .

(٣٣١) مروج الذهب ، فقرة ٢٩٨ (وحاشية ٦) .

(٣٣٢) يروى التقليد (انظر ما يلي ، حاشية ٣٣٥) انه « مترجم ومقتبس من المصنفات اليونانية : انظر تج . دي بوير في م١ ، ج٢ ، ص ١٠٧٨ . في الواقع ، احتمال مطالعته المصنفات اليونانية في لغتها الأصلية ضعيف . ويذكر ابن النديم (الفهرست ، ص ٢٦٨) « انهم ترجموا له ، أي الكندي ، ترجمة سيئة اصلا ، جغرافية بطلميوس . ولم يأت مجمل نبذة الفهرست عن الكندي (٢٥٥ — ٢٦١) على مزيد من الصراحة . وكان كارادي فو (مفكروا الإسلام ، ج٤ ، ص ٥) قد شك أن الكندي عرف اليونانية .

(٣٣٣) اشتهر باسم « فيلسوف العرب » . وهو مؤلف رسالة شهيرة (رسالة في العقل) ، عرفها العصر الوسيط في ترجمة لاتينية عنوانها « في العقل » (انظر ت١ ع ، ملحق ، ج١ ، ص ٣٧٣ ، س ٤) .

(٣٣٤) التنبيه والإشراف ، ص ٤٢ ، ٧٧ .

(٣٣٥) انظر التنبيه والإشراف ، ص ٤٢ ، حاشية ٢ (مع استشهاد بمصدر عربي يكرر الفكرة التقليدية القائلة بأن الكندي عرف اللغة اليونانية (انظر فيما تقدم الحاشية ٣٣٢ ويصبح نقصاً في الفهرست .) .

(٣٣٦) قلما يكون في صيغتها العربية ، إذ أن مصنف المد والجزر المهم ترجمة لاتينية (انظر ت١ ع ، الملحق ، ج١ ، ص ٣٧٣ ، ش ٣١) .

(٣٣٧) قياس قوس من دائرة نصف النهار في عهد المأمون . حول معنى المعاينة عند الكندي ، انظر تج . دي بوير ، مشار إليه سابقاً (يصحح تعبير ص ١٠٧٩ (١) : « لقد تحقق المصنف بالتجارب من صحة اسس نظريته ، الخاطئة أصلا ») .

(٣٣٨) انظر التنبيه ، ص ٧٧ ، الموقف ذاته بالنسبة إلى مواضع أخرى مجهولة في الشمال أو في جنوب خط الاستواء : التنبيه ، ص ٤٢ ، مروج الذهب ، فقرة ٢٩٧ .

(٣٣٩) الت فعلا إلى تضخيم اخطاء بطلميوس . فطول البحر المتوسط يبلغ حوالي ٣٩٠٠ كم . وتفصل ، حسب بطلميوس ، ٦٢ درجة تقريباً ، حجارة هرقل الجبار عن

مدينة ايسوس ، أو إذا اعتبرنا الدرجة ٥٠٠ ستاديوم ، حوالي ٣١٠٠٠ ستاديوم ، أو ٥٥٨٠ كم . أما ارقام المصنفين العرب فأعلى بكثير ، مهما أخذت قيمة الميل ، الذي يعتبر مع الفرسخ أوفر وحدة طول ذكرا عندهم . وهذه الوحدة غامضة جداً ، إذ تتراوح بين ١/٥٦ و ١ / ٨٧ من درجة الأرض (انظر التنبيه ، ص ٤٥ ، ومروج الذهب ، ج ١ ، ص ١٨٢ ١٨٣ = فقرة ١٩٠ وحاشية ٨ : حول صعوبات التقدير هذه ، انظر مروج الذهب ، طبعة بيلا ، فقرة ١٩٤ ، حاشية ٨ ، وترجمتي للمقدسي ، فقرة ٩٧ ، حاشية ٨ ، وفقرة ١٠٢ ، حاشية ٢٥) . ويعطي البتاني ٥٠٠٠ ميل طولا للبحر المتوسط ، وتدعي مدرسة الكندي تصحيح هذا الرقم إلى ٦٠٠٠ ميل (مروج الذهب ، فقرة ٢٩٨) ، أو ٨١٠٠ كم على أساس أن الميل البطلميوسي يساوي ٢ / ٧١ ستاديوم (التنبيه ، ص ٤٢ ، حاشية ٣ ، و ١ ستاديوم = ١٨٠ متراً) أو أخيراً على أساس ٨٧ / ١ درجة (قيمة الدرجة ذاتها — انظر المروج ، ج٣ ، ص ٤٤١ — ٢٥ فرسخاً ، أي حوالي ١٤٤ كم ، ما يعطي الميل ١٦٦٥٦ ، كم) ٩٩٠٠ كم (٩٧٠٠ كم في المقالة المغفلة المؤلف « بحر الروم » في م١ (٢) ، ج١ ، ص ٩٦٣) .

(٣٤٠) مع اهمال الشعور بالفخر الذي يدفع إلى تضخيم تقديرات اليونان .

(٣٤١) اشير إلى الظاهرة ذاتها أيضاً في علم الخرائط المحض : انظر كرامرز ، « قضية البلخي » ، ص ٩ — ١٢ .

(٣٤٢) استعمل ماركوبولو هذا اللفظ (قسمة العالم ، طبعة ١ . ت تسرستيفنز ، باريس ، ١٩٦٠) ، بمعنى دنيوي ، فصار يعبر عن فكرة الترتيب والتنظيم في الأحداث أو على مستوى اللغة . وهنا لا يمكن فصل تقويم البلدان (عنوان اخر لمصنف البلخي) عن موضوع المركز (السرة باليونانية) .

(٣٤٣) انظر التنبيه ، ص ١٠٩ . حول مصنفات السرخسي ، انظر ما يلي .

(٣٤٤) يعرف السرخسي بأنه تلميذ الكندي ، وقد اشتهر بنوع خاص (انظر ما يلي حاشية ٣٤٧) كفيلسوف ومنجم وجغرافي . لائحة مصنفاته مقنعة (انظر روزنتال ، السرخسي ، أماكن متعددة) يبدو أن المصنفات الوحيدة المتعلقة مباشرة بمواضيع السلطة ، هي كتاب اخلاق ، يحمل عناوين متباينة « انظر روزنتال ، مشار إليه سابقاً ، ص ٨١ : « كتاب الندماء ، لكن يمكن أن يكون أيضاً مجرد عمل ادبي ») ، وموجز تاريخ العالم الذي كتبه للمعتضد وكان مؤدبه (المرجع ذاته ، ص ٢ إذن ثقافته عامة ، مثلما يليق بالمربي

خالية من اهتمامات الكتاب التقنية . ويشير المسعودي فعلا (مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ١٧٩) إلى أنه ولي (بتشديد الياء حسب اندريه ميكيل) الحسبة (مسؤول عن شرطة الأسواق والأخلاق في بغداد ، إلا أن هذه الوظيفة تختلف كلياً ، حتى في بغداد ، عن وظائف الإدارة المركزية ، من ناحية اختصاصها البلدي أو الريفي ، ومن ناحية اسمها الدينية والأخلاقية (انظر ش . كاهين ، « الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي المديني في اسية المسلمة في القرون الوسطى » ، في مجلة ارابيكا ، ١٩٥٩ ، ٦ رومانى ، ص ٢٥٣ — ٢٥٤ ، و ا . تيان ، تاريخ التنظيم القضائي في بلاد الإسلام ، لا يدن ، ١٩٦٠ ، ص ٦٢١ — ٦٢٢ ، ٦٢٧ — ٦٣٠) . وإذا صح خبر المسعودي ، فهو يثبت العلاقات بين اصحاب الصورة وبين السلطة ، لكن دون التغلغل المطلق في الجهاز الإداري المركزي الذي يميز الجغرافية الإدارية .

وهنالك كتاب مسالك وممالك آخر (انظر ثبت المؤلفين) صنفه جعفر بن أحمد المروزي المتوفى حوالي ٢٧٤ ﻫ / ٨٨٧ م ، بالتالي المعاصر للكندي ، المتوفى عام ٢٥٦ ﻫ / ٨٧٠ م ، والمعاصر للسرخسي ، المتوفى عام ٢٨٦ ﻫ / ٨٩٩ م . وهو يشبههما بشدةانتقائيته ، إذا حكمنا على أساس لائحة مصنفاته (انظر ياقوت ، معجم الأدباء ، مشار إليهسابقاً) ، ولم يذكر هو أيضاً ككاتب .

(٣٤٥) انظر مروج الذهب ، فقرة (٢٦٨) (حاشية ١) ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، روزنتال ، مشار إليه سابقاً ، ص ١٧ — ١٨ .

(٣٤٦) انظر روزنتال ، مشار إليه سابقاً ، ص ٤٠ وما يليها ، الذي يشير إلى استعمال عناوين متباينة للمصنف ذاته ، عند ذكره المؤلفين ، مما يعلل فشل ج . وايت في العثور على عنوان يرد عند ابن رسته في أي مكان آخر (ص ٦ ، والترجمة ، ص ٤ ، حاشية ١) .

(٣٤٧) مثلا ، مختصر كتب المنطق : انظر التنبية ، النص ، ص ٦٠ ، والترجمة ، ص ٨٩ ، وأركان الفلسفة وتثبيت علم أحكام النجوم : انظر ابن رسته ، مشار إليه سابقاً ، يتناول مجمل انتاج العلوم التالية : الدين والفلسفة ، الطبيعة والجغرافية ، الأخلاق ، التاريخ الأدب ، الهيئة والتنجيم ، الرياضيات ، الموسيقى والطب .

(٣٤٨) كتاب منفعة أو منافع البحار والجبال والانهار : انظر التنبيه ، النص ، ص ٥١ والترجمة ، ص ٧٧ .

(٣٤٩) مثلا حول ابعاد البحار (مروج الذهب ، فقرة ٣٩٨) ، والمد والجزر (المرجع ذاته ، فقرة ٢٦٨) ، والأنهار الكبرى(المرجع ذاته ، فقرة ١٨٧ ، حاشية ١ ،

وفقرة ٢١٣ ، حاشية ١) ، وجبل النار (التنبيه ، ص ٨٩ : فصحيح أن الإحالة تشير هنا إلى مختصر لكتب المنطق ، لكن هذا النوع من المعلومات يبدو خاصاً بكتاب منفعة البحار . ومهما يكن من أمر ، إذا صحت الإحالة ، فهي تؤيد وجود رغبة واحدة في تداخل العلوم عند السرخسي وفي كتاب المسالك والممالك : انظر ما يلي) .

(٣٥٠) عرب الصورة ، لكن لا يبدو أنه حقق انفتاح هذا النمط على علوم اخرى ، مثلا على الجغرافية البشرية في اوائل ارتسامها ، وكانت آنذاك شائعة (انظر ما تقدم ، ص ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٧٠ ، ١٧١) ، التي يتصل الانسان بواسطتها بطالعه ووسطه الطبيعي ، مع أن الكندي ذاته كان يعرف ذلك (انظر مروج الذهب ، فقرة ١٧١) .

(٣٥١) هنالك اثبات اخر يهم انفتاح الصورة على معطيات اسطورية ، يمكن العثور عليه في تأكيد المسعودي (مروج الذهب ، فقرة ٢٩٧ ، حاشية ٣) الذي يعيد ، فيما يبدو ، إلى كتاب المسالك والممالك مختلف الأخبار المتعلقة بمدينة تولي الأسطورية . لكن لعل الأمر يتعلق في التحليل الأخير : باحد اصباغ الصورة ، ببعض معطيات الأدب النادرة ، كما هي الحال عند الخوارزمي (انظر الحاشية ٤٨) ، وهو أسلوب لا يلزم اساسياً صفة الصورة التقنية .

(٣٥٢) التنبيه ، ص ١٠٩ .

(٣٥٣) شخصية غامضة ، عاد شخص يدعي سهراب ، فأخذ عملها (انظر المخطوط ، ٣ وجه ، ٦٧ ظهر ، طبعة فون مزيك ، ص ٥ ، ١٩٢ (حاشيه) ، و ت١ ع ، ج١ ، ص ٢٦١ ، والملحق ، ج١ ، ص ٤٠٦) . يثير تاريخ هذا المخطوط الطويل ، المعروض في الورقة ٦٧ ظهر ، كثيراً من الشك ، في صيغة النص الأصلية ، لو لم يثبت لوسترانج (مشار إليه سابقاً ، ص ٢) انه يعود ، على علاته ، إلى الفترة الواقعة بين ٢٨٩ هـ/ ٩٠٢م و ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥م .

(٣٥٤) ارشادات عملية لرسم الصورة : ٣ وجه — ١٠ وجه ، البحار : ١٠ وجه ١٨ ظهر ، الجزر : ١٨ ظهر — ٢٤ ظهر ، البحيرات : ٢٤ ظهر — ٢٥ ظهر ، الجبال : ٢٥ ظهر — ٣٠ وجه ، المجاري المائية الهامة : ٣٠ وجه — ٥٠ وجه ، العيون والمجاري المائية الأخرى : ٥٠ وجه — ٦٧ ظهر . قد يكون المصنف غير كامل ، إذ انه لا يتضمن بعض الأوصاف المعلن عنها ، لاسيما وصف المدن (انظر الورقة ٦٧ وجه بآخرها) وبعض المسالك (انظر لوسترانج ، مشار إليه سابقاً ، ص ٧) . لكن يظل هذا الافتراض ضعيفاً ،

لأن المخطوط يشير (انظر الورقة ٢ ظهر) إلى أن الكتاب ملخص (فاحببت أن اختصر من جميع كتبهم) .

(٣٥٥) انظر مثلا « الأصنام النحاسية » على تخوم بحر الروم الغربية (١٠ ظهر) ، وجزيرة الفضة ، وجزيرة الحجارة الكريمة في بحر الظلمات (١٧ ظهر) ، وجزر البحر الأخضر (٢٣ وجه وظهر) ، والحوار بين الله وموسى على جبل الطور (سيناء) (٢٩ وجه وظهر) ، ومنابع النيل (٤١ ظهر) ، ويأجوج ومأجوج (٤٦ وجه و ٤٨ ظهر) ، ورومية (٥٠ وجه) . فاذا كانت هذه الإدخالات في مجال الأدب لا تكفي لشرح عنوان الكتاب ، عندئذ يجب أن نعتبر هذا العنوان نوعاً من الرغبة في الدعاية ، لأن اجتذاب الجمهور بوعده بمواضيع أدب يثبت أن هذه المواضيع محببة للناس .

(٣٥٦) عولجت فيها الجبال مثلما عولجت البحار : فهي « تمر من » ، وأولها » و « تجتمع » أو « يصب اليها » : انظر ١٤ وجه وما يليها ، و ٢٨ وجه — ٣٠ وجه .

(٣٥٧) اعتبرت لاغنى عنها ، حتى في هذا « الملخص » ، حتى انها ، فيما يبدو ، احتفظ بها كاملة (أكثر من عشر ورقات من (٣٠ إلى ٤١) من أصل ٦٨ ورقة) . نعلم من ناحية ثانية أن وصف الجزيرة السابق الهم ، احياناً حرفياً ، الخطيب البغدادي (ومن خلاله ياقوت) وأبا الفداء : انظر لوسترانج ، مشار إليه سابقاً ، ص ٦ : استعمل أبو الفداء لفظ قوارة (بتشديد الواو) ، ويقترح دوزي (ج٢ و ص ٤١٧) صيغة قوارة (قطعة مدورة — بدون تشديد الواو) ، ونجد الكلمة غير مشددة في نص ابن سيرابيون) (انظر ١٥ ظهر ، ١٦ وجه وظهر ، و ١٩ ظهر ، وأماكن أخرى) أي بصيغتها المغلوطة ، مما يعطي برهاناً اضافياً على العلاقة بين النصين .

(٣٥٨) « مجرى ماء كبير تسلكه المراكب » (٣٦ ب) ، « جسر من حجر » (٣٥ ب) ، « عند مدخل القناة جسر ضخم ... تندفع المياه تحته بشدة ، قبل أن تجتاز القرى والمزورعات » (٣٤ ب) .

(٣٥٩) Die Istahri Frage في ZOMC ١٥ روماني ، ص ٤٢ — ٥٨ .

(٣٦٠) أو ايضاً كتاب تقويم البلدان (توزيع البلاد) : انظر ص ٧٧ ، حاشية ٣ .

(٣٦١) المقدسي (الترجمة ، فقرة ١٢) يقدم لنا كتاب البلخي مدرسياً ، ومكثفاً جداً ، مؤلفاً من صور بنوع خاص ، تصحبها شروح مقتضبة : حول هذه الأقوال المتنازع

فيها ، مع مصنف الرياضي ابي جعفر الخازن ، انظر ت١ ع ، الملحق ، ج١ ، ص ٣٨٧ ، و د . م . دنلوب ، البلخي « في م١ (٢) ، ج١ ، ص ١٠٣٤ (١) ، و ج. ه. كرامرز ، « جغرافية » في م١ ، الملحق ، ص ٧٠ (١) .

(٣٦٢) انظر ياقوت ، معجم الأدباء ، ذكره دنلوب ، مشار إليه سابقاً ، ص ١٠٣٤ (١) . وكان يعرف اسرة الجيهاني (الأب أو الابن) : حول هذه القضية ، انظر ثبت المؤلفين اسم جيهاني) .

(٣٦٣) انظر طبعة دي خويه ، ص ٦٧ – ٦٨ ، ٢٦٩ – ٢٧٠ ، ٢٨٠ (حاشية ا) ، ٣٠٦ (حاشية ب) ، ٣٠٧ .

(٣٦٤) المرجع ذاته ، ص ٣٠٧ .

(٣٦٥) لا نستطيع أن نعرف إذا كان ابن سيرابيون على صلة بهذه المدرسة أيضاً نظراً لغموض شخصيته .

(٣٦٦) آخر ص ١٧٠ .

(٣٦٧) انظر الاصطخري ، ابن حوقل ، المقدسي ، الداخلين اجمالا كما نعلم فيما يسمى بـ « مدرسة البلخي » : انظر مقبول أحمد ، مشار إليه سابقاً ، ص ٥٩٥ – ٥٩٦ .

(٣٦٨) خريطتان أو ثلاث خرائط تقليدية (المعمورة ، البحار) من أصل عشرين خريطة لجغرافيي هذه « المدرسة » : انظر كرامرز ، « قضية البلخي » ، ص ١٠ .

(٣٦٩) يعطي ابن سيرابيون مثالين مزعجين (انظر ٥٩ ظهر وما يليها) ، كالمقدسي (انظر الترجمة ، فقرة ١٠٢ ، حاشية ٢٥) ، والمسعودي (انظر التنبيه ، ص ٦٨) الذي يعتقد أن كل ما في الأقاليم من المدن يقع على خط واحد .

(٣٧٠) اقتصر ذكر الأراضي غير الإسلامية وذكر المفاهيم الأخرى المأخوذة من الصورة على فصول المدخل في جغرافية المملكة ، ثم اختفى هذا الذكر كليا من الكارتوغرافية .

(٣٧١) التوزيع الأساسي كما يلي (انظر كرامرز ، « قضية البلخي » ، ص ١٠) : جزيرة العرب ، المغرب ، مصر ، الشام ، الجزيرة ، العراق ، خوزستان ، فارس ، كرمان ، السند ، ارمينية ، القفقاس (الران)، اذربيجان ، ميديا (الجبال) ، جيلان ، طبرستان ، مفازة فارس ، سجستان ، خراسان ، وترانسوكسيان (ما وراء النهر) . وينزل رقم العشرين إلى اربعة عشر عند المقدسي ، بضم ارمينية والقفقاس واذربيجان في

اقليم الرحاب (السهول العالية) الوحيدة ، وبادخال جيلان وطبرستان في اقليم الديلم ؛ وبادخال خراسان وترانسوكسيان وسجستان في اقليم المشرق (ولاية المشرق) ، وباعتبار أن مفازة فارس تمثل كياناً قائماً بذاته ، خارجاً عن الأقاليم .

(٣٧٢) قد يعترض على الرقم ١٤ ، المحتفظ به عند المقدسي ، الذي كان ، مثلما قلنا ، ينتمي على هذا المستوى إلى المدرسة ذاتها (انظر ما تقدم في الحاشية ٣٦٧) . بالفعل قد يظن أن الرقم ١٤ (انظر مقبول أحمد ، مشار إليه سابقاً ص ٥٩٧ (١)) ، يستجيب إلى رغبة بالعودة إلى تقليد منسوب إلى هرمس ، كان يعارض فيه الأقاليم السبعة المعمورة إلى شمال خط الاستواء بسبعة اقاليم غامرة في الجنوب (انظر المقدسي ، الترجمة ، فقرة ٩٥) . إلا أن السبب الحقيقي للرقم ١٤ يتعلق بمستوى آخر : انظر ما يلي الحاشية ٣٧٥ .

(٣٧٣) انظر كرامرز ، « جغرافية » ، مشار إليه سابقاً ، ص ٧٠ (١) . ويشك بهذا الرأي مقبول أحمد ، مشار إليه سابقاً ، ص ٥٩٦ (١) : إلا أن التوزيع الأرضي وإن اختلف ، تظل الذهنية فيه على حالها اساسياً ، في رأينا ، إذ نجد دوام الطرق التصويرية : فقد احتفظ بالتمثيلات الرمزية المارة معنا (انظر ما تقدم حاشية ٣١٧) : يؤكد ذلك المقدسي (الترجمة ، فقرة ٢٦) صراحة في حديثه عن البلخي .

(٣٧٤) مع اتاحة الفرصة ابقاء آثار من المفاهيم القديمة : انظر ما تقدم حاشية ٣١٨ ، و ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٣٧٥) يسهل علينا أن نثبت أن هذه الكيانات في الاقاليم ، كانت تابعة ، في معظم الحالات ، لسلطات مستقلة ذاتياً على درجات متفاوتة : فعندما كتب البلخي ، حوالي عام ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م ، كان المغرب (مع الاندلس) خارجاً عن سلطة العباسيين ، وكانت مصر قد تعرضت لغزوات الفاطميين ؛ وعرفت جميع الأقاليم في الشمال والشرق قيام سلطات محلية : الطاهريين ، الصفويين الديلميين ، السامانيين . وكان لدى المقدسي (انظر ما تقدم حاشية ٣٧١) مايدعوه إلى اجراء تجميع في الأقاليم : فالمشرق يضم عنده (انظر الترجمة ، فقرة ١٩) مجمل الدول السامانية ، وكانوا آنذاك في ذروة مجدهم ، مثلما ينطبق ديلمه مع أوج مجد سيطرة السكان على هذه المنطقة (انظر ف . مينورسكي ، « ديلم » ، في م١ (٢) ، ج٢ ، ص ١٩٩ (١)) ، ورحابه مع امجاد سلالة المصفرين في منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي (انظر م١ (٢) ، ج١ ، ف . مينورسكي ، « اذربيجان » ، ص ١٩٤ (٢) ، و م . كانار ، « ارمينية » ، ص ٦٥٨ (٢) ، و ر . ن . فرأى ، « الران » ، ص ٦٨١ (٢) .

(٣٧٦) يؤيد ذلك تعريف المسعودي لمصنف السرخسي : انظر ما تقدم . ص ١٧٤ .

(٣٧٧) يعلل الانتصار على ذهنية الجغرافية الرياضية عدم دخول مفهوم القبلة التقني جداً رغم اهميته عند الطائفة الجديدة ، في صورة الأرض الجديدة . وخصت القبلة بمصنفات متخصصة ، ولم ترد في المصنفات الجغرافية ، إلا للتذكير ، مشاراً إليها اشارة فقط (ذكرت مرة عند ابن سيرابيون : ص ٦٧ ظهر بآخرها) . مع ذلك انظر القسم الثاني ، الفصل السادس ، الحاشية ١٠٢٠ . حول المصنفات عن القبلة ، انظر ما تقدم ، حاشية ٣٢٣ .

ويبدو لي هذا الانتصار (انتصار المذهب الفارسي وتأديب بعض المواضيع) بالنسبة إلى الجغرافية ، توضيحاً للنزعة التي يقويها ابن قتيبة على المستوى الأعم لتاريخ الفكر . فقد عارض تياراً تعصيرياً علمياً ، وحدد موضوعاً عربياً اسلامياً (هنا المملكة) عالجه حسب الذهنية والمناهج المأخوذة عن فارس، بعد تفريغها من مضمونها الفارسي القديم ، بتكييفها مع المعطيات الجديدة : فهنا ايضاً نلاقي بلاد فارس في شكلها لافي مضمونها صنفوا (٣٧٨)على التوالي (انظر ثبت المؤلفين) عام ٢٣٢ ه / ٨٤٦ م (النسخة الثانية عام ٢٧٢ ه / ٨٨٥ م) وعام ٢٧٦ ه/ ٨٨٩ م ، وبين ٢٧٩ ه/ ٨٩٢ م و ٢٩٥ ه/ ٩٠٧ م ، وعام ٣٢٠ ه / ٩٣٢ م (لكن هنا ، بالنسبة إلى قدامة ، يتعلق الموضوع بكتابة مصنف بدأت بلا ريب من وقت بعيد : انظر ا . مكي ، قدامة بن جعفر ، مشار إليه سابقاً ، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٨) .

(٣٧٩) انظر مثلا لوائح ولاة سجستان أو خراسان عند اليعقوبي (الترجمة ، ص ٩١ وما يليها ، و ص ١١٤ وما يليها) ، وذكر فاتح كل اقليم (مثلا اذربيجان : المرجع ذاته ، ص ٧١ ، كرمان ، ص ٩٩ ، ومصر : ص ١٨٥ ، الخ) ، وبعض التلوينات الأدق (المرجع ذاته ، ص ٨١ : « وطبرستان بلد منفرد له مملكة جليلة » ، وذكر ممالك افريقية الشمالية : ص ٢٠٧ وما يليها) .

(٣٨٠) يشير المقدسي (طبعة دي خويه ، ص ٣٠٧) إلى خبرة البلخي في الخراج ، لكنه يأخذ عليه (المرجع ذاته ، ص ٦٤) جهده المسالك ، وهي عنصر آخر هام في الجغرافية الإدارية . ثم أن البلخي يلح على خراسان ، وهو البلد الوحيد الذي يعرف جيداً تنظيم أعماله ودواوينه . لكن إذا كان البلخي رائد اطلس الإسلام ، وإذا كان اطلس الإسلام من جهة ثانية لا ينفصل عن جغرافية المملكة الامبراطورية (انظر كرامرز : « قضية البلخي » ، مشار إليه سابقاً ، ص ١١ — ١٢) نسلم بوجود صلة منطقية بين نوايا البلخي ومفاهيم الجغرافية الإدارية .

(٣٨١) انظر فيما تقدم ، الحاشية ٣٧٨ ، تواريخ كتابة المصنفات . حول المرتكزات الزمنية المتعلقة بصورة الأرض ، انظر ص ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ (وحاشية ٣٤٤) والحاشية ٣٥٣ و ص ١٧٤ .

(٣٨٢) انظر مثلا نفوذ ابن خرداذبه : التنبيه والإشراف ، ص ١٠٩ ، ومروج الذهب ، فقرة ٩ ، ويستطيع المقدسي أن يعطي حكماً اقسى (ترجمة ، فقرة ١٣) ، مع ذلك يعتمد على سلفه في الغالب (انظر فقرة ٩٤ ، ٩٥ ، حاشية ١ ؛ ٢٣٦) .

ويدور ممثلو صورة الأرض في فلك السلطة ، مما يؤيد رأيي في العلاقات بين الجغرافية الإدارية وصورة الأرض . ونحن نعرف دور الخوارزمي كعالم رسمي ، إذا جاز لنا هذا التعبير ، عند الخليفة المأمون ، لكن الكندي لعب الدور نفسه في عهد المعتصم ، وكان السرخسي مربي المعتضد ثم نديمه ، اخيراً يجمع البلخي تتلمذه على الكندي إلى تجربة الكاتب ، في الولاية طبعاً (انظر ما تقدم ص ١٧٥ ؛ ١٧٦) .

(٣٨٣) ص ١١٨ .

(٣٨٤) انظر الحاشية ١٠٧ .

(٣٨٥) يعيد المصنفون العرب هذه المؤسسة إلى الساسانيين عامة (انظر ابن الفقيه ، ص ١٩٨) ، لكنها في الواقع اشغانية : انظر هيرودوت ، ٥ روماني ، ٥٢ — ٥٣ ، وكسينوفون ، سيروبييدا ، ٨ روماني ، ٧ ، ١٨ .

(٣٨٦) دور يؤيده عرض الخصال المطلوبة من مدير الديوان : انظر قدامة ، ص ١٨٤ ١٨٥ (لا يرجع إلا بتحفظ إلى الترجمة ، ص ١٤٤ — ١٤٥) . وهنالك عرض أساسي عند أبي يوسف يعقوب (مشار إليه سابقاً ، ص ٢٨٧ — ٢٨٨) الذي يتهم كتاب البريد ، الذين يسيرهم اخلاصهم الأعمى للسلطة ، بالتحيز في نقل المعلومات ، وبالتحزب بانتظام إلى الإدارة المركزية ضد الرعايا : رد فعل فقه المساواة الإسلامي (حول أبي يوسف يعقوب ، انظر ما يلي ، الحاشية ٣٩٣) ضد تنظيم الخلافة حسب قواعد الملكية التقليدية على النمط الشرقي .

(٣٨٧) اميزها حالة جداول الأسعار (انظر ما يلي) . ولا نستطيع هنا أن نتذرع بجدول ابعاد الحصون الشامية (انظر سوفاجيه ، اخبار الصين والهند ، ص ١٥ روماني) بسبب تاريخه المتأخر (النصف الثاني من القرن الثاني عشر) .

(٣٨٨) كان ج . وايت ، فيما أعلم ، أول من أوضح بجلاء علاقات هذا المؤلف بالسلطة المركزية : انظر كتاب البلدان ، ص ٨ ، ١٣ – ١٤ ، ١٥ روماني .

(٣٨٩) انظر بنوع خاص تصنيف ر . بلاشير في م ج ع .

(٣٩٠) لعل الضرورة تقضي بأن يحترس هنا ، وفي مناسبات اخرى (انظر ما تقدم في ص ١٢٧ ، ١٥٦) ، من بعض اليات التفكير : فعندما نتكلم في القرن العشرين عن ملخصات ، وتذاكرات ، ومفكرات (م ج ع ، ص ١٥ ، ١٨ ، ٣٢ ، ٥٥) ، نشير بحكم عاداتنا الذهنية ، إلى مجلدات متخصصة ، تقنية ومكثفة ، وهي نوع من « مصنفات الكاتب الكامل » ، متناسين كل المدة الزمنية التي تفصلها عن المؤلفات الكبرى الانتقائية التي تحدثنا عنها منذ قليل . وما يزيد بروز هذا الابهام ، متى اردنا لا شعورياً تحاشي ذلك النقد ، اننا نتحدث في الوقت ذاته (المرجع ذاته ، ص ١٨ ، ٥٤) عن « الموسوعات » رغم وقوعنا في التناقض .

(٣٩١) انظر ماتقدم في الفصل الأول، ص ١١٨ ، وفي الفصل الثاني، ص ١٥٤–١٥٥.

(٣٩٢) شقت المواضيع الأدبية طريقها إلى العلوم الرياضية ، وتعلل هذه الظاهرة بتولي كتاب فرس اصلا وثقافة ، الكتابة بالعربية : انظر ما قيل من قبل عن الخوارزمي وأبي معشر (الفصل الأول ، حاشية ٤٨ ، وما تقدم حاشية ٣٢٩) وعلى وجه اعم ، ما تقدم حاشية ٣١٥ .

(٣٩٣) انعدام التقنية المحضة واضح في قائمة د . سورديل (الوزارة ، ص ٦ – ٤٠) الذي يلح على الصفة « الأدبية » لهذه النصوص (ص ٢ ، ٤) ، ويأسف ، كمؤرخ ، لهذا النقص (انظر ، ص ٣ ، استشهاد ر . برونسويغ) . ولأول وهلة ، قد تشذ المصنفات التي يعتبرها د . سورديل ل.(ص ٣٨) « مصنفات تطرح نظرية سياسية » . مع ذلك ، إذا كانت (رسالة في الصحابة » لابن المقفع تثير قضايا حسية مثل خضوع الجيش (انظر رسائل البلغاء ، ص ١٢٠ – ١٢١) ، أو حكم العراق ، أو الخصومة بين البصرة والكوفة (ص ١٢٤ – ١٢٥) ، أو علاقات الجزيرة العربية بالسلطة المركزية (ص ١٣٢ – ١٣٣) ، فهي تعالج هذه القضايا بأسلوب يحمل طابع مصنفها : ويستشف منها الحرص على ربط القضايا المبحوثة بالأخلاق التقليدية (انظر بنوع خاص ، ص ١٢٢) المأخوذة من فارس ، ويلاحظ فيها دوماً استعمال نثر سلس ، مصطنع احياناً ، لا يتخلله أبداً جفاف الانشاء الإداري : انظر ص ١١٧ – ١١٩ وأماكن أخرى .

وتغضب التقنية إلى حد كبير جداً على كتاب الخراج لابي يوسف يعقوب ، المتوفى عام ١٨٢ ﻫ / ٧٩٨ م (انظر طبعة فانيان ، ص ٩ روماني) . فهو مخصص لمختلف قضايا الضرائب كالجبايات والجزيات ، ولا يتطرق إلى مواضيع اخرى – كالاخبار التاريخية أو الاحاديث أو حتى الاخلاق (المصدر نفسه ، ص ٦ – ٢٧ ، ١٦٨ – ١٦٩) ، إلا في علاقتها بالبحث العام ، لشرحه أو توضيحه . ونذكر بنوع خاص أن المؤلف عربي قح أصيل (انظر ج . شاشت ، م١ (٢) ، ج١ ، ص ١٦٨ – ١٦٩) ، يعتمد في كتابه على مصنفين عرب دون غيرهم ، حتى في التاريخ والأخلاق . وهو فقيه وقاضي يبدو ، بما تتطلبه مهامه وثقافته الدينية والعربية فعلا ، شخصية فذة في مجمل الجهاز الإداري . إذن يمثل كتاب الخراج جيداً برهاناً بالتناقض بالنسبة إلى تصانيف معظم الكتاب ، المشبعين بالتقاليد الفارسية ، والحريصين ، مثلما قلنا ، على الانتقائية واسلوب المناسبات .

وتنطبق هذه الملاحظة الأخيرة على كتاب الخراج ليحيى بن ادم ، الذي لم يشر إليه د . سورديل . ويستهدف مؤلفه ، المتوفى عام ٢٠٣ ﻫ / ٨١٨ م (انظر طبعة جينبول ، ص ٧) تحقيق اغراض مختلفة : فيقدم مواده خامة ، باعتباره مؤرخاً نزيهاً ، في حين يقوم أبو يوسف يعقوب باستخدام مواده للدعوة إلى مذهب أبي حنيفة الذي ينتسب إليه (انظر حول هذه النقطة ف . بفاف ، مشار إليه سابقاً ، ص ١٠ ، ٥٠) . لكنه يعتمد هو أيضاً حصراً على التقليد العربي ، الذي يصبح اللجوء إليه والاستشهاد به منهجيين : إذ إنه ، وإن لم يكن عربياً أصيلا ، يرتبط بوسط من يمثله من الفقهاء والمحدثين (انظر الذهبي ، تذكرة الفاظ ، ج١ ، ص ٣٥٩ – ٣٦٠) . وتسيطر في هذا الوسط اساليب الفكر العربية دون غيرها (انظر ما تقدم ص ١٢١ – ١٢٢) .

(٣٩٤) انظر المدخل إلى كتاب المسالك ، ص ١٥ ، ٢١ روماني .

(٣٩٥) انظر كتاب المسالك ، ص ٣ .

(٣٩٦) انظر ما تقدم ، خاصة الحاشية ٧ ، و ص ١٢٠ – ١٢١ . يفرد ابن خرداذبه من جهته مكانه مرموقة إلى أرقى تعبير في اللغة العربية : أي الأشعار ، وقد عددت منها ما لا يقل عن ٩٧ استشهادا في كتاب المسالك .

(٣٩٧) إذا كانت المسالك التي تهم جزيرة العرب تحتل مكاناً اوسع من غيرها (١٢٥– ١٥٥) يمكن القول أن معرفتها ، مع أخذ تنقل البشر بسبب الحج بعين الاعتبار ، تدخل ضمن المعارف الواجب على مسؤول في السلطة أن يمتلكها .

(٣٩٨) بضعة أسطر في ص ٥ .

(٣٩٩) آخر ص ٥ ، انظر ما تقدم ، ص ١٦٦ — ١٦٧ ، ١٧٥ — ١٧٦ .

(٤٠٠) حول ذكريات اليمن ، انظر ص ١٤٤ — ١٤٥ (البنيان واليمن) ، ص ١٣٦ ١٤٣ (التقسيم الإداري القديم إلى مخاليف) ، قلة المعلومات ذاتها في ذكر الأراضي المقدسة (الحرم) في مكة والمدينة (بضعة اسطر ، ص ١٣٢ ، آخرها ، ١٣٣) . بالنسبة إلى فارس ، انظر ، من بين سائر الشواهد ، ص ١٤ — ١٥ ، ١٧ — ١٨ (الملوك) ، ١٦١ — ١٦٢ (البنيان) ، ١٧١ — ١٧٢ (المدن الشهيرة) ، ١٧٣ (حجاب كسرى) .

ملاحظة : سقط من الترقيم ٤٠١ وليس له مقابل .

(٤٠٢) انظر ما تقدم ، ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٤٠٣) قد يقدم اعتراض على نسبية هذا التقسيم ، نظراً لبتر المصنف . مع ذلك ، تتداخل مواضيع جميع الأقسام إلى حد يدفعنا أن نرجح أن الإسقاطات لن تغير تغييراً جذرياً شيئاً من النسب المحددة هنا . احسب في عداد مواضيع الأدب مواضيع ملوك العالم ، واصحاب الرقيم ، وروميه ، ومرور موسى الأسطوري في القفقاس ، والبنيان في اليمن ، وعجائب الدنيا ، وسد ياجوج وماجوج ، وبعض عجائب طبائع البلدان ، أي ما يقرب من ٢٢ صفحة من الترجمة (استبعد في حسابي المواضيع المعالجة في ص ١٣٨ وما يليها من الترجمة ، إذ أنها ليست لابن خرداذبة بلا شك : انظر الحاشية ١ من الصفحة المذكورة) ، يقابلها حوالي ٧٥ صفحة للمواضيع التقنية .

(٤٠٤) حوالي ٣٤ صفحة ، تتناول الهيئة (في علاقتها بالقبلة ، انظر ص ٥ ، التي يجب أن يعرف اتجاهها في جميع الأماكن) ، وتقدير خراج السواد (الريف العراقي) ، والقاب ملوك خراسان والمشرق (العادات المحلية التي تفيد معرفتها الوالي) ، والمسافات إلى المشرق في البحر ، والطريق البحرية ذاتها (اهتمامات تجارية مع أخبار تقليدية عائدة إلى الأدب فعلا) ، والخريطة السياسية لسلطنات المغرب ، وطريق بلاد الروم وتنظيم امبراطوريتهم (في علاقتها بموضوع الثغور ، ومسالك التجار الاغراب ، وأخيراً الجبال والأنهار . هنا أيضاً ، وللاسباب المبينة في الحاشية السابقة ذاتها ، استثنيت الصفحتين ١٥٧ آخرها و ١٥٨ (انظر الترجمة ، ص ١١٨ ، حاشية ١) المخصصتين لبعض المعلومات الفلكية التي تكرر ما قاله المؤلف في مطلع مصنفه ، واستثنى أيضاً ، لكن لاسباب أخرى ، رحلة سلام الترجمان (ص ١٦٢ وما يليها) التي تمثل بالتأكيد رحلة استكشاف في الثغور ، بقصد تلافي حملات الاجتياح (يستشف هذا القصد من آخر ص ١٦٢) ، لكنها صنفت في مواضيع الأدب بسبب صلتها بموضوع ياجوج وماجوج .

(٤٠٥) انظر الفصل الثاني ، ص ١٥٠ ، وحاشية ٢٤٥ .

(٤٠٦) لم يستطع دي خويه أن يعطي الا مثالا واحداً (انظر مدخله إلى كتاب المسالك ، ص ١٨ — ١٩ روماني) الذي يتفق أصلا مع الموضوع الأدبي : انظر ما يلي حاشية ٤٠٨ .

(٤٠٧) انظر ما تقدم حاشية ٢٤٥ (التي تحيل إلى نص ذكر فيه اسم الجاحظ صراحة). اقتباسات مماثلة من نص كتاب الحيوان بشأن التبت والموصل (انظر المسالك ، ص ١٧٠ ، و كتاب الحيوان ، ج ٤ ، ص ١٣٥ ، أو ج ٧ ، ص ٢٣٠) ، وعدم وجود النمل الكبير الذي يسمى فرسانا أك افرضشان (المسالك ، ص ١٥٦ ، والحيوان ، ج ٤ ، ص ١٠٦ ، على أن الثقة ضعيفة بهذا المثال) .

(٤٠٨) انظر المسالك ، ص ١٥٩ — ١٦٠ (وما تقدم ، حاشية ٤٠٦) .

(٤٠٩) ربما أخذت من أخبار الصين والهند ، المكتوبة عام ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م ، فتقع بدقة كبيرة بين نسختي كتاب المسالك : ويتعلق الموضوع باضافات تفصيلية إلى نص الصفحات ٦١ — ٦٩ من هذا الكتاب . وقد بحثت هذه الإضافات بعد سوفاجيه : أخبار الصين والهند ، ص ٢٣ — ٢٤ روماني ، وحواشي الفقرات ١ — ٩ ، ٢٤ — ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٥٥ (يرجى تصحيح احالة سوفاجيه ٤٦ — ٤٧ وجعلها ٦٦ — ٦٧) .

(٤١٠) ضروب دس في النص واضحة ، اضيفت إلى النسخة الأولى حسب طرق ابانها دي خويه (مشار إليه سابقاً ، آخر ص ١٧ روماني) ، وتناولت جميعها مواضيع أدبية : منارة الاسكندرية (ص ١١٤ — ١١٥) ، مدن « الروم » الخراب ، واستعباد بني اسرائيل (ص ١١٧ — ١١٨) ، اضافة إلى المقاطع المشار إليها في الحاشية السابقة طبعاً .

(٤١١) لا سيما الموضوعات المعتبرة امتداداً عادياً للمسالك ، مثلا مواضيع أصحاب الرقيم (١٠٦ — ١٠٧) العلاقة بموضوع الطرق المؤدية إلى القسطنطينية) ، موسى (ص ١٢٤ ، العلاقة بالطريق الشمالية الذاهبة إلى القفقاس) . أما موضوع الطريق البحرية إلى المشرق (ص ٦٠ وما يليها) فيمكن أن يعاد مبدئياً إلى النسخة الأولى (له علاقة بموضوع البصرة) . مع ذلك رأينا (ما تقدم حاشية ٤٠٩) ان اضافات متنوعة مأخوذة من أخبار الصين والهند طرأت فيما بعد على المقطع في أغلب الظن .

(٤١٢) انظر ما تقدم ، الفصل الثاني ، الحاشية ٢٤٥ .

(٤١٣) طبعاً لا ينشأ بحد ذاته ، لكن من اتجاه عام ، مثلما مر معنا فيما تقدم ، ص ١٨١ – ١٨٢ . ولنقدر اصالة ابن خرداذبة حق قدرها ، نرجع إلى الثلاثي ، المشار إليه سابقاً ، الكاتب المساح الفقيه . فالحد الأول والثالث – الكاتب والفقيه – وحدهما عولجا ، قبل ابن خرداذبه ، في الأدب الإداري وحسب الذهنية المحددة . أما مع ابن خرداذبة ، فقد دخل الحد الثاني إلى معرفة الأرض معرفة حسية ، في عالم الكتاب الانتقائي ، من خلال التعبير المكتوب .

(٤١٤) مع ذلك لعله اقترن بحرص على الفعالية والدقة الحسية ، يذكرنا بالجاحظ ، أو أيضاً بالشيباني : انظر الإحالات فيما يقدم ، الفصل الثاني ، الحاشية ٢٦٣ .

(٤١٥) « من امتهن مهنة الكاتب ، وعين كاتباً ، يجب عليه أن يعنى بالاهتمام بفروع الأدب » : استشهاد البغدادي بالشيباني ، الترجمة ، د . سوردِيل ، مشار إليه سابقاً (انظر ما تقدم ، الفصل الثاني ، ذكر من قبل) .

(٤١٥م)رأينا إن اليونان اهتمت هذا الموضوع بنوع خاص : انظر ما تقدم ، ص ١٦ ، ١٧ ، ١٨ وما يليها ، ونجده عند ابن خرداذبة ، ص ١٧٠ ، منوهاً به (انظر ما تقدم ، حاشية ٤٠٧).

(٤١٦) انظر ص ١٧١ – ١٧٢ ، وقارن بلائحة الجاحظ عند المقدسي ، الترجمة ، فقرة ٦١ .

(٤١٧) انظر من بين المواضيع ، موضوع ملوك العالم وموضوع الخراج في السواد المذكورين فيما تقدم حاشية ٤٠٣ و ٤٠٤ .

(٤١٨) يقول ابن خرداذبه في مقدمته مخاطباً الشخصية الكبيرة المشار إليها سابقاً (انظر ما تقدم حاشية ٣٩٤) : « وقد سمت ... ما رجوت أن يكون محيطاً بمطلوبك وآتيا على ارادتك ، كالمشاهد لما نأى ، والخبر بما قرب ، وصنعته كتاباً » (المسالك ، ص ٣) : مع ظل العيان ، وإن أحل محله قرأة الكتب ، يؤخذ كمرجع أساسي .

(٤١٩) ص ٨٨ – ٨٩ ، انظر أيضاً ص ١٩ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٨ ، الخ .

(٤٢٠) يأخذ ابن رسته عليه ، ص ١٤٩ ، سرعة تصديقه ، والمقدسي ، الترجمة فقرة ١٣ ، ايجازه . وهذه الانتقادات مقنعة عند ابن حوقل ، ص ٥ .

(٤٢١) أوضح حالة وضع ابن رسته ، الذي لا يذكر اسمه : انظر المراجع في الاعلاق النفيسة ، ترجمة وايت ، الفهرس ، ص ٢٩٥ .

(٤٢٢) وهكذا شأن المسعودي ، بعد أخذه عليه أنه يكتب لجمهور ضيق ، وانه ينقصه الدقة العلمية (مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٧٠ – ٧١) . ورأينا أن المقدسي لا يراعيه أيضاً (ما تقدم حاشية ٤٢٠) ، وهو يسميه « إماماً » في هذا العلم (الجغرافية أو معرفة المشرق) : انظر طبعة دي خويه ، ص ٦٨ .

(٤٢٣) انظر المقدسي ، الترجمة ، آخر فقرة ١١ ، وطبعة دي خويه ، ص ٢٤١ .

(٤٢٤) باستثناء الإحالات البسيطة إلى مصنفه ، يمكن أن تكون بعض مقاطع الجيهاني قد قلدت تقليداً قريباً جداً : نظرة اجمالية جيدة في مدخل ف . مينورسكي إلى حدود العالم ، ص ١٦ – ١٨ روماني ، رواية سلام الترجمان لجدار ياجوج وماجوج (انظر حاشية ٤٠٣ وحاشية ٤٠٤) ، قلدها الجيهاني ، ثم نقلها الإدريسي عن نص الجيهاني : انظر دي خويه ، المدخل إلى المسالك ، ص ١٦ روماني .

(٤٢٥) انظر المقدسي ، الترجمة ، فقرة ١٠ – ١١ .

(٤٢٦) انظر نص المقدسي الوارد فيما بعد .

(٤٢٧) انظر ما تقدم ، حاشية ٤٤٠ ..

(٤٢٨) الترجمة ، فقرة ١٠ .

(٤٢٩) البرهان على هذه الاهتمامات العلمية على الرغم من التقاليد الفارسية ، التي سنتحدث عنها ، ويعتمد عليها البلخي ، وهو كاتب آخر ، ليختار توزيعاً مستوحى من «الكشوارات» ؛ (انظر ما تقدم ، ص ١٧٥ – ١٧٦) ، أخذ الجيهاني بالتوزيع التقليدي للسبعة « اقاليم » ، يقع كل اقليم منها تحت تأثير كوكب (انظر المقدسي ، فقرة ١٠) ، التي يضاف إليها سبعة اقاليم غامرة (انظر المقدسي ، طبعة دي خويه ، ص ٣٨٧ ، حاشية ن) مع ذلك ، يظهر التأثير الفارسي في الكارتوغرافية (المرجع ذاته ، طبعة دي خويه ، ص ٢٦٩ انظر ما تقدم حاشية ٣١٧) .

(٤٣٠) يتوسع المقريزي في بحث نقله عن ابن رسته مشيراً إلى رحلة الجيهاني إلى مصر (انظر الأعلاق النفيسة ، ترجمة وايت ، ص ٩٠ حاشية ١) . ويبدو تأكيده استقراء خارجياً لا أساس له .

(٤٣١) بشأن البلخي ، انظر ما تقدم ، حاشية ٣٦٣ ، وحول الجيهاني ، انظر المقدسي ، طبعة دي خويه ، ص ٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٨٠ (حاشية آ) . لعله ينبغي فهم نقد المقدسي

(الترجمة ، فقرة ١١ : ورأيته ذكر منازل مجهولة ، ومراحل مهجورة ») ، بمعنى التخصص الخراساني اياه ، المتطرف هذه المرة .

(٤٣٢) انظر المقدسي ، الترجمة ، فقرة ١١ ، ٥٠ ، طبعة دي خويه ، ص ١١٥ (الهند ، النيل ، بابل) . انظر أيضاً ف . ميثورسكي ، مدخل إلى الحدود ، ص ١٧ ، ١٨ روماني ، و ج . وايت ، الأعلاق النفيسة ، المدخل ، ص ٦ – ٧ روماني (الإحالة إلى مصر فيها مزيد من الشك : انظر ما تقدم ، حاشية ٤٣٠) .

(٤٣٣) الإفادة من رحلة ابن فضلان افضل من تقليد ابن خرداذبه في رحلة سلام (ما تقدم ، حاشية ٤٢٤) : إذا كان الجيهاني ذاته قد استقبل في بخارى مبعوث الخليفة إلى بلاد الفولغا الجنوبية ، يمكننا أن نتصور انه كتب ، بصيغة شخصية ، الأخبار التي أعطاه اياها ابن فضلان في طريق عودته (انظر س . الدهان ، مدخل إلى رسالة ابن فضلان ، ص ٥٣ وما يليها) ، بلا شك مقابل الخدمات (الاستضافة والتموين) التي يعلن ابن فضلان أن الجيهاني قدمها له اثناء الذهاب (الرسالة ، ص ٧٦) . انظر أيضاً ثبت المؤلفين ، لفظ « ابن فضلان » .

(٤٣٤) يأخذ المقدسي على الجيهاني انه كتب في مقاطع كثيرة جغرافية طبيعية صرفة : « ولم يفصل الكور ولا رتب الاجناد ، ولا وصف المدن ، ولا استوعب ذكرها ، بل ذكر الطرق ... مع شرح ما فيها من السهول والجبال ، والأودية والتلال ، والمشاجر والانهار . وبذلك طال كتابه ، وغفل عن أكثر طرق الاجناد ووصف المدائن الجياد » (ترجمة ، فقرة ١١) .

(٤٣٥) ص ٨٥ – ٨٦ .

(٤٣٦) كتب (انظر وايت ، البلدان ، ص ١١ روماني) عام ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م ، بالتالي قبل الجيهاني المتوفى عام ٣٠١ هـ / ٩١٤ م .

(٤٣٧) لا بد أن نقول كلمة هنا عن مؤلف آخر ، ورد صراحة انه كاتب ، متوفى عام ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م ، يبدو أنه ساهم في ظهور جغرافية أكثر انتقائية في أوساط الكتاب : نقصد ابن أبي عون المسمى أيضاً ابن الناجم الذي يذكر المسعودي (التنبيه ، ذكر من قبل) انه صنف كتاب « النواحي والآفاق » (انظر ثبت المؤلفين) . يذكر ابن النديم (مشار إليه) المصنف ذاته ، بعنوان مختلف بعض الشيء ، وينسبه إلى ابن أبي عون ، ومصنفات أخرى له ، منها كتاب عن الدواوين . مع ذلك ، المعطيات عن هذا المؤلف ضئيلة إلى حد لا يسمح لنا باعطاء حكم صحيح عن اعماله .

(٤٣٨) مصنفة ، مثل كثير من المصنفات ، مبتور مع الأسف : فهو يشتمل على تسعة كتب ، لم يحفظ منها سوى الخامس والسادس والسابع وقسم فقط من الثامن . وتعالج الصفحات المفقودة معلومات تهذيب الانشاء والبلاغة من جهة ، والتاريخ (الكتاب التاسع) من جهة أخرى : انظر مكي ، قدامة بن جعفر ومصنفه ، ص ٢٥٨ ، والفهرست ، المستشهد به فيما بعد ، حاشية ٤٤٣ (مع احالات عن مجمل اعمال قدامة) .

(٤٣٩) انظر مكي ، مشار إليه سابقاً ، ص ٧٧ وما يليها ، ٨٦ — ٨٧ .

(٤٤٠) المرجع ذاته ، ص ٧٤ — ٨٢ — ٨٣ ، ٨٨ — ٨٩ .

(٤٤١) انظر ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٧ ، ص ١٥ ، حول مهام هذا الديوان الدقيقة (زمام) ، انظر سورديل ، الوزارة ، ص ٥٩٩ — ٦٠٥ .

(٤٤٢) انظر مكي ، مشار إليه من قبل ، ص ١٢١ — ١٤٨ ، ٩٤ ، ٩٦ (حول العلاقة بين والده وبين ابن خرداذبة) .

(٤٤٣) بالفعل مصنف رئيسي ، ولا ريب انه مصنف العمر كاملا : انظر مكي ، مشار إليه سابقاً ، ص ٢٥٨ . وهنالك مصنف آخر هام في ميدان النقد الأدبي ، هو نقد الشعر . حول نسبة نقد النثر إلى قدامة ، انظر مكي ذكر من قبل ، ص ١٨٠ — ١٨٣ . انظر لائحة كل المصنفات عند ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٣٠ ، وياقوت ، معجم الأدباء ، ج٢٧ ، ص ١٣ : مناقشة عند مكي ، مشار إليه من قبل ، ص ١٦٨ وما يليها .

(٤٤٤) كتاب الخراج ، م١ .

(٤٤٥) في الباب الرابع من المنزلة الخامسة : انظر كتاب الخراج ، م١ .

(٤٤٦) انظر ا . شاد و ج . فون غرونباوم ، في م١ (٢) ، ج١ ، ص ١٠١٢ — ١٠١٣ .

(٤٤٧) مثلا ، كتاب الخراج ، م٧٣ (حيث تعرف الكتابة بانها فرع من الشريعة ، التي هي علم الأصل ، ٧٥ .

(٤٤٨) انظر مكي ، مشار إليه سابقاً ، ص ٢٨٥ .

(٤٤٩) انظر ما تقدم ، الفصل الأول ، ص ١٢٣ وما يليها .

(٤٥٠) انظر سوفاجيه ، المؤرخون ، ص ١٥ : البلاذري « قيم بنوع خاص باستطراداته العديدة عن نواحي تتعلق بالمؤسسات التاريخية أو الشرعية المرتبطة بالفتح » .

(٤٥١) حتى لو لم يذكر ابن المقفع مثلا ، فان تأثير أدب عصره واضح : انظر (كتاب الخراج م ١٧٨) نموذج « عقدة » . حول هذا اللفظ ، انظر ما تقدم ، الفصل ٢ ، حاشية ٢١١ ، وحاشية ٢٤٣) ، ثم المثل (المرجع ذاته ، م ١٥٩) .

(٤٥٢) ارسطو والاسكندر « حكيما » فارس (والهند) ، انوشروان ، فيثاغوروس افلاطون ، الخ : انظر كتاب الخراج ، م ١٣١ – ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، وأماكن أخرى . الإحالات العربية اندر إلى اقصى حد ، لا سيما مع الخلفاء معاوية ، ومروان الثاني والمنصور ، والبلغاء : م ١٤١ ، ١٥٦ ، ١٧٨ . ولا ننسى أن قدامة ، حسب الفهرست (ص ٢٥٠) ، قد اسهم ببعض التعليقات على عمل ارسطو ، مما يثبت ، مثلما يلاحظ امجد طرابلسي بحق (النقد الشعري عند العرب (ذكر سابقاً ، حاشية ٢٧٦ والفصل الثالث نشوء الجغرافية الادارية) ، أنه عرف الأعمال اليونانية عن طريق اخرى غير طريق الترجمة. حول العلاقات المحتملة بين عمل قدامة وعمل برايسن ، الفيثاغوري الجديد ، انظر ش . كاهين ، « كتاب الخراج العربي » ، اوورينس ، ١٥ روماني ، ١٩٦٢ ، ص ١٦٨ – ١٧١ .

(٤٥٣) هل عرف قدامة مصنف الجيهاني ؟ لا تقنع أبداً الحجج التي يقدمها مكي لاثبات ذلك (مشار إليه سابقاً ، ص ٢٧٦) .

(٤٥٤) انظر ما تقدم ، الفصل الأول ، حاشية ٩٣ .

(٤٥٥) حول وصف ديوان الرسائل : كتاب الخراج ، م ١٥ – ٢٧ . انظر أيضاً نموذج اجابة على عريضة ، المرجع ذاته ، م ٢٨ .

(٤٥٦) انظر ما تقدم ، الفصل الثاني ، ص ١٦٤ – ١٦٥ ؟ . حول قدامة انظر الخراج ، م ١٣٨ ، التمييز بين شكلي الجود (الكرم والسخاء) الذي يذكرنا بنهج الجاحظ عند كلامه عن الغيرة (التمييز بين العداوة والحسد ، انظر مجموع الرسائل ، مشار إليه سابقاً ، وأماكن اخرى) . الطريقة ذاتها في اعادة التفكير في المعطيات الكلاسيكية ، ذكر من قبل ، م ١٣٨ – ١٣٩ (الشجاعة) ، ١٣٩ – ١٤٠ (الحلم ، الذي لا يعتبر بالضرورة مزية للعاهل) ، ١٤٧ (مواقف متنوعة) ، ١٦٣ – ١٦٤ (الرغبة أيضاً) ، الخ . ويؤدي هذا التفكير ، في مقاطع كثيرة جداً ، إلى اتباع اسلوب انشاء شخصي يتحرر من آلية الحكم التقليدية .

(٤٥٧) الباب ١ – ٧ ، من المنزلة الثامنة ، المنصبة على السلطة (الباب السابع)

والمعرفة ، المترتبة عليه ، العائدة إلى العلاقات بين العاهل والرعايا (البابان ٩ و ١١) ، مما يجعل الباب الثامن الذي يبدأ الأخلاق بالتمييز الأساسي بين الملاك والبهيمة (الباب ١) ، ينغلق عليها في تنظيم دقيق جداً .

(٤٥٨) البابان ٢ — ٥ ، عن الأقاليم « السبعة » والبحار والجبال والأنهار . يلاحظ تفضيل التقسيم اليوناني إلى « اقاليم » على التقسيمات التقليدية (الفارسية أو غيرها) المعروضة في م ١٥ وما يليها . وهنالك أيضاً احالات إلى بطلميوس وماريتوس وهيبارخوس وتيموستين (م ٤٨ ، يعلن الناشران هذا الكاتب لم « يعرف » : مدخل ، ص ٨ ، حاشية ٥ . لاريب أن الأمر يتعلق بأميرال بطلميوس فيلادلف الشهير بلامحة مرافىء البحر المتوسط ومراسيه (انظر سترابون ، ك١ ، ٢١ ، ك٢ ، ٤٠ ، ك٩ ، ١٠ في كروازية ، الأدب اليوناني ، ج٥ ، ص ١١٨) . وذكر المسعودي في التنبيه أيضاً تيموستين اياه ، ص ٤٨) .

(٤٥٩) نشرهما دي خويه في ج٦ من م ج ع .

(٤٦٠) يتحدث الجاحظ (كتاب الأمصار ، ص ١٨١) عن مملكة العرب ومملكة العجم ، لكن يتحدث قدامة عن مملكة الإسلام : انظر كتاب الخراج ، ص ٢٣٤ و م ٤٥ . وإذا كان اللفظ لم يستعمل بعد بمعناه المطلق ، مثلما سيحصل عند المقدسي . إلا أن له منذ الآن مع ذلك معنى موحداً واضحاً جداً : فعندما يشير قدامة (كتاب الخراج ، ص ٢٥٢) إلى جمع امبراطورية ميديا والجزيرة القديمة على يد اردشير الأول ، يمارض بين مملكة الإسلام وبين تلك الأمارات وممالك الطوائف بعد أن تكونت على حسابها . ونشير بصورة عابرة إلى الإبهام في المثل الأعلى للملكة ، التي تتنازعها على هذا النحو ذكرى التجمع الوطني القديم ومثل الإسلام الأعلى المساواة . ويتحقق التوفيق في موضوع العدو التقليدي : أي الروم (امبراطورية الروم ، أو الامبراطورية البيزنطية) : « جمع اردشير بن بابك المملكة بعد مشقة وطول مجاهدة ، فمنع حينئذ الأتاوة التي كانت الفرس تؤديها إلى الروم بعد مشقة ، فينبغي الا يكون المسلمون لصنوف اعدائهم أشد حذرا منهم للروم ، وقد جاءت بذلك ايات » . كتاب الخراج ، مشار إليه سابقاً ، حول مقطع القرآن ، انظر بلاشير ، القرآن ، ج٣ ، ص ٤١٩ — ٤٢٠) .

(٤٦١) انظر ما تقدم ، ص ...، ...، ...

(٤٦٢) دون أن نتحدث عن وصف المسالك في الباب ١١ (خاص بالبريد) من المنزلة الخامسة .

(٤٦٣) أدركت هذه الجوانب بوضوح تام يبرر تسمية المنزلة السادسة من كتاب الخراج احياناً كتاب البلدان (انظر مكي ، مشار إليه سابقاً ، ص ١٧٤) . يتحدث ابن حوقل (ص ٣٢٩) عن تذكرة قدامة .

(٤٦٤) انظر ما تقدم ، الفصل الثاني ، ١٥٥ م وما يليها .

(٤٦٥) يمكن أن تصبح المهنة اطاراً سهلا ومغرياً ، تحصر فيه مفاهيم اشق (الحق ، الإدارة) . إلا أن المنظور الأساسي ، أي منظور علاقات المهنة بالثقافة ، يظل بلا تغيير .

(٤٦٦) الصورة من وليم مارسيه في حديثه عن الطبري .

يمكن ابداء ملاحظات مماثلة عن قدامة الناقد الأدبي وعن جغرافيته : فهنا أيضاً ، يتخذ العمل قيمته من مفهوم اصيل وقوي في البنية ، على أن سيطرة التراث التقليدي تظل هائلة فيه : انظر طرابلسي ، مشار إليه سابقاً ، ص ٨٦ — ٨٩ .

(٤٦٧) ما تقدم ، ص ١٤٦ — ١٤٧ .

(٤٦٨) لنأخذ مثلا علاقة الانسان بالوسط الطبيعي ، الاساسية إلى حد بعيد في كتاب الحيوان (انظر ما تقدم ، الفصل ٢ ، ص ١٤٢) : يعثر غالباً جداً على الايضاحات المعطاة لها عادة عند ابن الفقيه ، مسجل الأدب ومشرعه تقريباً ، الذي كتب حوالي عام ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م : (ابن الفقيه ، ص ١٥١ : المسكن ، ص ١٥٢ : الفروق العرقية ، ص ١٥١ ، ١٦٢ : العودة إلى موضوع الجاحظ عن العلاقة بين الشمس وبين السودان منذ المرحلة الجنينية ، الخ) . لكن ، بعد مرور أكثر من عشرين عاماً ، اختفت هذه الإيضاحات من مصنف قدامه . ويستغرب هذا الاختفاء بسبب الاحتفاظ بالموضوع (في المنزلة الثامنة كما رأينا) . إذن ، ظلت المنزلة الثامنة على أصالتها نظرية بكليتها وخالية من الايضاحات التي كان يمكن أن تجعلها حية . ألم يحصل ذلك بالضبط لأن هذه الإيضاحات تشعرنا ، بصورة واعية أو لا واعية ، أنها تندمج في نظام مغلق ، لا مبرر لوجودها ولا طاقة خلاقة لها خارجاً عنه ؟

(٤٦٩) الفصل الثاني ، ص ١٤٦ آخرها — ١٤٧ .

(٤٧٠) لم يتقدم المشهد مطلقاً عند قدامة بعدما ارتسمت معالمه ، مثلما رأيناها عند ابن سيرابيون (ما تقدم ، ص ١٧٤) أو عند ابن خرداذبة (ص ١٨٥) : انظر حول مجمل المسالك (كتاب الخراج ، ص ١٨٥ — ٢٢٩) أمثلة نادرة جداً عن التدوينات الحسية ،

تسند إلى رواة الأخبار بلا ريب (المرجع ذاته ، ص ١٨٥ ، ١٨٩ - ١٩٠ ، ٢٠٤ - ٢٠٩) باستثناء وصف الأهوار العراقية (المرجع ذاته ، ص ٢٤٠ وما يليها) ، الذي يعلل باعتبارات إدارية (معرفة السدود وتاريخها) ، خضعت لها جميع التفاصيل المعطاة : هنا أيضاً لم يرد ذكر الكائنات والاشياء بحد ذاتها .

(٤٧١) يعيد صقل مصنف البلخي ويتوسع فيه .

(٤٧٢) كتب اليعقوبي عام ٢٧٦ ه / ٨٨٩ - ٨٩٠ م وتوفي في السنوات الأخيرة من القرن التاسع أو في السنوات الأولى من القرن العاشر الميلادي ، عندما كان الأصطخري لا يزال حياً : ٣٤٠ ه / ٩٥١ م .

(٤٧٢م) وجد آنذاك، متلما سوف نرى في الفصل التالي ، ما نسميه أدب الرحلة (قصص بحرية وقصص سفارات) ، لكن ليس هذا الأدب ، في نظر المعاصرين ، إلا مورد موضوعات يستقي منه أدب بقي نظرياً وحضرياً تعريفاً : والبرهان أن ما وصلنا من موضوعات ما عدا بعض النصوص النادرة تم حفظه عن طريق الأدب وطابعه الأدبي ، لكن لم تضمن المصنفات ذاتها ، وما يقترن بها من حب الإطلاع الساذج المسير لها ، لا نجاح مؤلفيها ، ولا تكريسها نمطاً أدبياً . ويتمثل فضل اليعقوبي في إدراج نفس غريب عن الأدب في « الأدب » ذاته : وهذه ميزة ابرزها سوفاجيه ، اخبار الصين والهند ، ص ٢٨ روماني .

(٤٧٣) انظر ما تقدم ، ص ١٧٧ - ١٧٨ ؟

(٤٧٤) يطلق عليه هذا الاسم في الغالب (انظر ترجمة وايت ، ص ٢٣١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤) ، ولعله عمل في ديوان البريد : المرجع ذاته ، المدخل ، ص ٨ روماني .

(٤٧٥) انظر هوارت ، الأدب العربي ، ص ٢٩٦ ، وكتاب البلدان ، ترجمة وايت ص ٢٣٤ .

(٤٧٦) يجب ألا ننسى أن اسرة اليعقوبي لعبت دوراً هاماً جداً في تاريخ الحركة الشيعية : انظر وايت ، ذكر من قبل ، ص ٧ روماني . وقد عاد اليعقوبي نفسه إلى هذا التقليد في مصنفه التاريخي : المرجع ذاته ، ص ١٠ - ١١ روماني .

(٤٧٧) ترجمة وايت ، ص ٢٢٨ - ٢٤٦ . لا أرى لماذا يقول وايت في مدخله (ص ٢٠ روماني) : « لا يستشهد كثيراً بكتاب البلدان » . حول قضية الاستشهادات باليعقوبي ، وإن جاءت مع ذلك متأخرة ، انظر ما يلي ، الفصل الخامس ، حاشية ٨٤٠ ، والفصل السادس في القسم الثاني ، الجغرافية والأدب ؟

(٤٧٨) مثلما مر معنا من قبل ، توفي الكندي بعد عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م ، والسرخسي عام ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م ، وصنف ابن سيرابيون بين عام ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م وعام ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م، والبلخي عاش من حوالي ٢٣٦ هـ/٨٥٠م إلى ٣٢٢ هـ/٩٣٤م. ولإكمال هذه الخلاصة من التداخلات المحتملة بين صورة الأرض والأدب الإداري ، نضيف ان الجيهاني ، المتوفى عام ٣٠١ هـ / ٩١٤ م ، وقدامه ، المتوفى عام ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م ، ينتميان إلى جيل ابن سيرابيون والبلخي : انظر ثبت المؤلفين .

(٤٧٩) نشير هنا فقط إلى أن كتاب البلدان يتناول حصراً دار الإسلام مع نبذة مقتضبة عن الشعوب المجاورة ، مثل الترك وأهل النوبة ، وإلى أن مواضيع الأدب التقليدية كثيرة فيه : انظر الأمثلة التي ذكرها ج . وايت ، مشار إليه سابقاً ، ص ١٦ ، ١٨ روماني (هواء بغداد ومبانيها الشهيرة).

(٤٨٠) ج . وايت (ذكر من قبل ، ص ١٥ روماني) يرى في العرض غاية سياسية في حين يتعلق الموضوع ، في رأيي ، بمجرد شكل ثقافي : انظر ما تقدم ، حاشية ٣٩٨ .

(٤٨١) النصوص البارعة الأسلوب عن (طوبوغرافية مع بيان الامتيازات الممنوحة) بغداد وسر من رأى والكوفة (٢٤٢ — ٢٥٠ ، ٢٥٢ — ٢٥٤ ، ٢٥٩ — ٢٦٣ ، ٣١٠ — ٣١١) ، ولوائح ولاة الأقاليم (سجستان وخراسان : ص ٢٨٢ — ٢٨٦ ، ٢٩٥ — ٣٠٨) ، وخريطة المغرب السياسية والعشائرية (ص ٣٤٢ — ٣٥٣ ، ٣٥٦ — ٣٦٠) : تقارن هذه المواضيع بالمواضيع التي يعرضها ابن خرداذبه ، بذهنية واحدة (ماتقدم حاشية ٤٠٤) . وخصص باقي مصنف اليعقوبي (اجمالا ، ص ٢٣١ — ٢٦٠ من ج٧ من م ج ع) للمسالك ، التي يعالج معها مواضيع وصفية ، خراجية أو تاريخية .

(٤٨٢) يقول اليعقوبي عن اسفاره : « في عنفوان شبابي » ، و « سافرت حديث السن» (ص ٢٣٢) . تبدو لي ترجمة ج . وايت (ترجمة ، ص ٢) بـ « منذ نعومة اظفاري » ، مبالغة لأن المترجم يشير (المدخل ، ص ٨ روماني) إلى أن اليعقوبي امضى طفولته في بغداد .

(٤٨٣) لا شيء يمنعنا أن نفكر ، مثل ج . وايت (ذكر ص ٨ روماني) ، إن الموضوع كان يتعلق هنا بمهمات استطلاع لديوان البريد : انظر ما يقوله ابن الفقيه (آخر ص ٢٩٠) عن مراسلات اليعقوبي ومختلف امراء ارمينية وكتابها .

(٤٨٤) عند المقدسي ، على خلاف ذلك ، تقتصر المسالك على هيكل تقني ، وتحصر في كل مرة في نهاية الفصل ، فيصبح المصنف حرا ، فيما تبقى ، ليرتب موضوعه حسبما يشاء .

(٤٨٥) لا أفكر هنا في السوابق التاريخية أو المعطيات السياسية التي أشرت اليها من قبل (حاشية ٤٨١) ، بقدر ما افكر في تلك التدوينات المقتضبة جداً ، الزاخر بها كتاب البلدان وتتناول أصل السكان وعاداتهم وتركيبهم وسكنهم ، وجميع التفاصيل الضرورية لمعرفة البلد بدقة .

(٤٨٦) ج . وايت (مشار إليه سابقاً ، ص ١٥ روماني) كتب يقول : « التفاصيل المعطاة عن المدن المقدسة وعن جزيرة العرب شحيحة إلى درجة مذهلة : ويشعر الانسان جيداً أن هذه المنطقة لا تقدم البتة من وجهة النظر الخراجية » .

(٤٨٧) مشار إليها سابقاً ، ص ١٤ روماني .

(٤٨٨) ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٤٨٩) انظر ما تقدم ، حاشية ٤٠٩ .

(٤٩٠) انظر الإحالات فيما تقدم ، حاشية ٣٨٥ . وهنالك آثار اخرى ، يجب التفتيش عنها في بقاء وحدة قياس فارسية ، تحمل اسم البريد ذاته ، إلى جانب القياس العربي : انظر المقدسي ، الترجمة ، فقرة ١١٥ (وحاشية ٢٠) .

(٤٩١) طبعة بيلا ، مشار إليها ، ص ٥٥ — ٧٢ .

(٤٩٢) ورد الموضوع ، الناشيء عن تداخلات توراتية اسلامية (القرآن ، ١٢ ، ٥٤ وما يليها) وشعبية عند ابن رسته (ص ١١٦) . ويشير إليه المقدسي تلميحاً ، ويربطه بالمقابل صراحة بقضية الخراج (الترجمة ، فقرة ١١٠) . أما ابن الفقيه (ص ٦٨) فيعلن أن هدم المباني لا يقوم به خراج الأرض باجمعها .

(٤٩٣) رأينا مثالا على ذلك فيما سبق ، حاشية ٤٦٨ ، في حديثنا عن قدامة .

(٤٩٤) درس ج . فون غرونباوم (الإسلام المتوسطي ، ص ٣٢١ وما يليها) وجود الأوديسه في الف ليلة وليلة لاسيما موضوعي سرسي وبوليفيم نشير إلى أن غرونباوم يؤكد أن الاقتباسات الحاصلة جرت « في اقصى حد حوالي عام ٩٠٠ م » (ص ٣٢٥) . وفي بعض الحالات الأخرى ، تسهم قضية الأصول أيضاً في غموض النقل : فالى أي مدى ترتبط بموضوع السست ، قصة ايرخت في كليلة ودمنة ، الشرقي الأصل إلى حد بعيد جداً ؟

(٤٩٥) عند ابن الفقيه : آ — يعامل الرقم على مستوى واحد هو والموضوعات الأدبية الأخرى ، ويسهم ذكره في العرض التفصيلي لهذا النمط من المصنفات : وهاك مثالين من أمثلة

كثيرة أخرى : ففي القول في مصر ، يأتي موضوع الخراج (ص ٧٦) بعد عجائبها ، ويجيء في الحديث عن حمص (١٠٩ — ١١٠) بين موضوع مدائن الجنة وبين احدى اساطير تدمر .

ب — بنوع خاص ، اصبح الرقم بعد الآن موضوع أدب لا يخضع إلى التحقيق . وحتى لو تم تصوره بحد ذاته ، فقد يؤدي إلى جعل الفائدة المرتبطة به تتوافق مع اعادات النظر التي يحتمها التاريخ . لكن لا ينطبق هذا الوضع على هذه الحالة : فالتدوين في الأدب يعود إلى تكرار الرقم ذاته بلا تغيير في فترات متباعدة في قالب متماثل : فالارقام الواردة عند ابن الفقيه (حوالي ٢٩٠ ﻫ / ٩٠٣ م) لخراج مختلف البلدان ، واحدة هي والأرقام الواردة عند ابن خرداذبة ، الذي نقل نصه حرفياً (بلا أدنى شك نص النسخة الأولى ، حوالي ٢٣١ ﻫ/ ٨٤٦ م : انظر ما تقدم ، ص ١٨٣) . بالتالي ، يظل الرقم بلا تبديل طيلة مدة تزيد عن خمسين عاماً : انظر بالنسبة إلى اذربيجان ، ص ١٢١ ، ٢٨٦ ، وبالنسبة إلى مصر على التوالي ابن خرداذبة ، ص ٨٤ وابن الفقيه ،ص٧٦ ،و بالنسبة الى فلسطين ص٧٩ و١٠٣ ، وبالنسبة إلى حمص ، ص ٧٦ و ١١٠ وبالنسبة إلى ديار ربيعة ، ص ٩٥ ، ١٣٣ ، وبالنسبة إلى اصبهان ص ٢٠ ، ٢٦٣ ، وبالنسبة إلى اذربيجان ص ١٢١ ، ٢٨٦ ،وبالنسبة إلى خراسان ، ص ٣٩ ، ٣٢٨ (مع خطأ نسخ : انظر الحاشية يا بالمقابل ، قارن بمعلومات اليعقوبي الأصيلة والرصينة المبنية على وثائق رسمية (كتاب البلدان ، ص ٣٢٥) : اصبهان ، ص ٢٧٥ ، خراسان ص ٣٠٨ ، حمص ، ص ٣٢٥ ، فلسطين ، ص ٣٢٩ .

ج — وهنالك نمط اخر متوقع في معاملة الأرقام يتمثل في المبالغة المنهجية ، التي ستتاح لنا فرصة العودة اليها : فتصبح الـ ٤٠٠٠٠ حمام و ١٢٠٠ كنيسة في وصف الرومية عند ابن خرداذبة (ص ١١٣ — ١١٥) ٦٠٠٠٠٠ و ٢٤٠٠٠ عند ابن الفقيه (ص ١٤٩ — ١٥٠) الذي يستلهم نصه عن كثب من نص ابن خرداذبة .

د — اخيراً ، ينجم تخفيض قيمة الواقع عن قيام القارىء دوماً لا شعورياً بارجاع معطى الرقم ، الهامشي باستمرار ، إلى موضوعات تتفق معه على نطاق التقليد والأسطورة : فالكلام المعاد عن العجائب المحلية ، ولوائح الخصائص ، والجداول المقارنة لمباهج وثروات مختلف البلدان تسحق بثقلها تقديرات الخراج المرقومة .

ويمكن اجراء ملاحظات مماثلة على المسالك (مثلا ، ص ١٣٣ (س ١٤ — ١٥)) ، ٣٠٣ ، ٣٠٥) ، التي لا يسعها اعطاءصورةحسيةعنبلدان اختيرت خصيصاً كذريعة لا يراد قصص عجيبة ، أو ايضاً ، فيما يتعلق بالثغور (ص ١١١) ، التي يتلاشى ذكرها تماماً

تقريباً لصالح حب الإطلاع على ما هو غريب ، الموجه إلى *البلدان* الأعجمية (موضوع الروم ، ص ١٣٦ — ١٥١) .

(٤٩٦) أخذ الأدب على عاتقه موضوعاته (أبعاد الأرض وشكلها ، البحار ، الأقاليم ، الخ) ، في حين تلقت المسالك والممالك روحها وتطورها (معرفة الأرض حسياً) .

(٤٩٧) البكري والإدريسي وويثان ، انظر ما يلي حاشية ٤٩٩ .

(٤٩٨) نحيل ، حول هذه النقطة ، إلى الفصل الثاني اجمالا وإلى الاحالات المعطاة فيه.

(٤٩٩) لا سيما موضوعات المسالك والممالك ، متى جاء دورها : فعندما يعالج *البكري* أو الإدريسي مجدداً معطيات المقدسي أو ابن حوقل ، العائدة إلى بلدان المشرق ، ماذا يعملون ، ان لم يكن تناولها على أنها موضوعات اصبحت كلاسيكية ، يمكن استخدامها حسب مشيئتهم ، بعد أن اتسمت بطابع الأدب ؟ وماذا نقول عن استغلال هذه المعطيات ذاتها في مصنفات موسوعية المرمى مثل مصنفات ياقوت أو العمري . ؟ .

(٥٠٠) حول هذا المؤلف ، ولعل اسمه الأصلي جويل أو جواب ؟ ؟ ، انظر ستيلشنايدر ، مشار إليه سابقاً ، ص ١٥ — ٢٣ .

(٥٠١) يوسع المخطوط (انظر المراجع) في النهاية (ص ٢٢٩ ظهر — ٢٣٠ وجه) منظوره ، ليشمل بعض المعطيات الكلاسيكية الأعم . من ناحية اخرى ، يلي كتاب الأسعار في المخطوط سلسلة تصانيف لمنجم آخر ، هو أبو مسعر . وتبدي الوثيقة بمجملها وحدة كبيرة ؛ إذ أنها تبدأ بزيج ، وتنتهي بمقالة حنين بن اسحاق وجداول فلكية متنوعة .

(٥٠٢) نصوص تتناول حالات معينة (إذا كان ... إن كان) وحركات الأسعار المقابلة لها .

(٥٠٣) انظر « أبو يوسف يعقوب ، مشار إليه سابقاً ، ترجمة فانيان ، ص ٧٥ — ٧٦ ، و أ . ج . ونسينك ، دليل الأحاديث المحمدية الأولى ، لايدن ، ١٩٦٠ ، ص ٣٠— ٣٣ .

(٥٠٤) مشار إليه سابقاً ، ص ١٧١ .

(٥٠٥) المرجع ذاته ، ص ١٧٣ .

(٥٠٦) في « رسالة في مدح التجار » (طبعة حسن سندوبي ، احدى عشرة رسالة ، القاهرة ، ١٣٢٤ ه / ١٩٠٦ م) ، ص ١٥٦ — ١٥٨ ، يؤيد هذا الموقف ما قيل ،

ص ١٥٥ ، من قبل عن الجاحظ والكتاب . ويتخلل مدح التجار بعض التحفظات اصلا : فكتاب الأمصار يتحدث عن بخلهم (ص ١٧٦ — ١٨٥) ، وكتاب الحيوان عن مبالغاتهم في القصص البحرية (مشار إليه سابقاً ، ج٦ ، ص ١٩) . عاد قدامة إلى هذه الفكرة في حديثه عن أصحاب اخبار الجغرافيين اليونان : كتاب الخراج ، م ٤٨) .

(٥٠٧) انظر سوفاجيه ، اخبار الصين والهند ، ص ٢٧ روماني ، والمؤرخون ، ص ٧ وما يلي حاشية ٥٢٢ .

(٥٠٨) انظر مثلا المقاطع الطويلة التي خصصها اليعقوبي لانواع العطور المختلفة (كتاب البلدان ، ص ٣٦٤ — ٣٧٠) . انظر التبصر ، ص ١٥٧ ، وبخاصة تعميم الأسلوب الذي بدأه ابن خرداذبة ، ويؤول إلى الإشارة إلى المحاصيل المحلية ، عند ذكر بلد أو مدينة : كتاب البلدان ، أماكن متفرقة . انظر أيضاً ما يلي ، حاشية ٥١٧ .

(٥٠٩) حكيم : انظر بيلا ، المدخل إلى التبصر ، ص ١٥٤ .

(٥١٠) انظر في الصفحات ١٥٤ — ١٥٥ ، ١٦١ ، الإحالات غير العربية وتقنيات الانشاء : الترابطات ، المقارنات ، الفصول ، التصنيفات .

(٥١١) هنا أيضاً ، نعيد طرح قضية الأصل ذاتها ، مثلما فعلنا من قبل سائر الموضوعات (ص ١٩٧ — ١٩٨) دون أن نتمكن من حلها : أدب إداري أم أدب ؟ .

(٥١٢) انظر التبصر ، ص ١٥٦ — ١٥٨ .

(٥١٣) ما تقدم ، الفصل الثاني ، حاشية ٢٤٠ وحاشية ٢٤١ .

(٥١٤) انظر اليعقوبي ، ص ٢٧٩ ، ٣٦٥ (حول هذه الصفحة الأخيرة ، انظر ما يلي حاشية ٥١٧ .) ابن الفقيه ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ١١٧ : ينبغي أن نذكر أيضاً تمور البصرة ، ولآلىء الخليج الفارسي ، وسيوف اليمن ، وزبيب الطائف ، وياقوت سرنديب الخ .

(٥١٥) انظر اليعقوبي ، ص ٢٧٩ (الثياب الخراسانية) ، ٣٦٨ (اسماء مختلف أنواع العود) ، ٣٢١ ، ٣٣١ (الفرش الأرمني) ، الخ . المقدسي ، الترجمة ، فقرة ١٦ (حول اسماء الفواكه المختلفة) ، الخ .

(٥١٦) انظر كتاب البلدان ، ص ٣٦ ، س ٨ — ١٠ (الجزع والعقيق) و ٢٩ — ٣٠ (تمور العراق) .

(٥١٧) ويبقى ايضاً احياناً ، وكذلك عند اليعقوبي نفسه ، بالتوازي مع صيغته الحسية : أقصد هنا الصفحات الأخيرة من كتاب البلدان (ص ٣٦١ – ٣٧٣) ، التي دونت فيها معطيات تقليدية عن المسك والعنبر والعود الخ . وبداهة ، يمكن أن نثير قضية صحة هذه الصفحات ، إذ أن الأمر يتعلق باستشهادات من اليعقوبي ، وردت عند مصنفين متأخرين عنه ، وأن نتساءل ما إذا كان الهدف المتوخى من قبلهم هو العودة ، تحت سلطة اليعقوبي إلى الموضوعات التقليدية المقبولة في الأدب والباقية بعيدة جدا عن سائر مصنف اليعقوبي والروح الواقعية التي تعطيه حيويته . لكن ، مهما يكن ، يعثر على هذا الأدب « الاقتصادي » أيضاً ، وإن بقدر اقل بكثير ، في أقسام اصح من المصنف : انظر ص ٢٧٩ (مذكورة) فيما تقدم حاشية ٥١٥) ، ٢٧٧ (فرش طبرستان) ، ٣٨٨ (ثياب تنيس ودمياط) ، الخ .

* * *

حواشي الفصل الرابع

(٥١٨) الف ليلة وليلة ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ج٢ ، ص ١١٩ — ١٤٤ . حول هذا الفصل ، انظر كراتشكوفسكي ، ص ١٢٩ وما يليها (١٣٢ وما يليها) ، ١٨٤ وما يليها (١٨٦ وما يليها) .

(٥١٩) ندمج استشهادين في استشهاد واحد (كتاب البلدان ، ص ١٤٩ ، س ١١ — ١٧) حيث تتداخل الموضوعات .

(٥٢٠) ما تقدم ، ص ٢٠٤ .

(٥٢١) عالجه الجاحظ أيضاً ، خاصة في رسالة الحنين إلى الأوطان (انظر بيلا ، لائحة ، رقم ٥٣) .

(٥٢٢) مشار إليه سابقاً ، ص ١٤٦ . بالفعل ، نستطيع أن نعتبر ، مع هايد ، مشار إليه سابقاً ، ص ٣١ — ٣٢ ، ومع فران ، رحلات ، ص ٧٥ وما يليها ، أن الاضطرابات الحاصلة في الصين ابتداء من عام ٨٧٥ م وما جرته من فوضى عامة ، تشير إلى انقطاع المبادلات التجارية مع الصين ، إذ إن شبه جزيرة ملاقة تحولت من مرحلة بسيطة على طريق الصين البحرية إلى نهاية الملاحة الصينية والعربية . ثم تباطأت أيضاً الحركة ، المقيدة على هذا النحو في القرن العاشر الميلادي ، من جراء « استمرار الفوضى » (في العالم الإسلامي هذه المرة) و « ما احدثته من فاقة عامة : انظر سوفاجيه ، اخبار الصين والهند ، ص ٣٨ وماني (انظر أيضاً المسعودي ، مروج الذهب ، فقرة ٣٢٩ ، ٣٣٦) .

ويعود تاريخ السندباد بوضوح ، مهما كان العصر الذي دون فيه خطياً ، إلى فترة الإزدهار التجاري الكبرى في القرن التاسع الميلادي (انظر ا . لتمان ، « الف ليلة وليلة » ، في م١ (٢) ، ج١ ، ص ٣٧٢ (٢) ، ٣٧٤ (٢) .

(٥٢٣) مشار إليه سابقاً ، ص١٤٦ .

(٥٢٤) مشار إليه سابقاً ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٥٢٥) المداران الحزينان ، باريس ، ١٩٦٢ ، ص ٦٨ ، ٧٠ .

(٥٢٦) ترجمة ، ص ١٧٦ ، س ١١ — ١٣ .

(٥٢٧) المقدسي ، الترجمة ، فقرة ٨٧ .

(٥٢٨) انظر ما تقدم ، حاشية ٥٢٢ .

(٥٢٩) انظر ابن رسته ، ص ١٣٢ — ١٣٤ (ذكر ابي عبد الله محمد بن اسحاق . فقد اقام عند ملك قمار مدة تدفع إلى الاعتقاد بأنه تاجر ، مثلما أشار سوفاجيه : انظر أخبار الصين والهند ، ص ٢٣ روماني ، حاشية ٢) . المسعودي ، مروج الذهب ، فقرة ٢٤٦ (بالنسبة إلى افريقية ، أملاً ناخوذا ، عجائب الهند ، أماكن متفرقة . المقدمة ، فقرة ٢٨ .

وفي العصر ذاته ، نشاء الأدب التقني البحري (خرائط ورهما نجات ملاحية) الذي ازدهر في القرنين ٩ و ١٠ ﻫ/١٥—١٦ م ، خصوصاً مع ابن ماجد ، ربان فلسكودا غاما (خطأ فادح صححناه في ابحاث عديدة : ملاحظة من ابراهيم خوري) . مع الاسف فقدت مصنفاته الأولى ، ولا نحتفظ الا بذكر مصنفيها : محمد بن شاذان ، وسهل بن أبان ، وليث ابن كهلان ،(آخر القرن ٣ ﻫ / ٩ م) ، وفيما بعد : خواشير بن يوسف الأركي (حوالي ٤٠٠ ﻫ / ١٠٠٩ م) : انظر مقبول أحمد م١ (٢) ، ج٢ ، ص ٥٩٧ (٢) ، ٦٠٠ (٢) . كراتشكوفسكي ، ص ٢٤٣ (٢٣٧) .

(٥٣٠) نحن مدينون على نطاق واسع ، في الملاحظات التالية ، إلى مقدمة سوفاجيه (ص ١٥ — ٤١ روماني) ، التي نحيل إليها اجمالياً ، لكي لا نثقل التحشية ، مكتفين ببعض الإحالات التي نرى استحالة الاستغناء عنها .

(٥٣١) سوفاجيه ، مشار إليه ، ص ٢٠ روماني .

(٥٣٢) لن تتدخل هذه الطريقة الا في وقت لاحق ، خاصة في عجائب الهند ، عندما يتقبل الفقه والتاريخ نهائياً استعمالها : انظر سوفاجيه ، ص ٢٩ — ٣٠ روماني .

(٥٣٣) اللفظ من عند سوفاجيه ، ص ٢٣ روماني .

(٥٣٤) يحسن أن نضيف إلى ما ذكره سوفاجيه من مصنفين ، ص ٢٣ — ٢٩ روماني ، بعض الاهتمامات المشتركة بين اخبار الصين والهند ، وبين كتاب الحيوان للجاحظ (مثلا : الاسماك كلها يأكل بعضها بعضاً : أخبار الصين والهند ، فقرة ٣ آخرها ، كتاب الحيوان ، ج٣ ، ص ٦٥ ، ج٤ ، ص ١٧١ ، ج٥ ، ٣٢١ ؛ كذلك الاهتمام بطول البال (١٢٠ و

٥٠ ذراعاً) : أخبار الصين والهند ، فقرة ٢ ، كتاب الحيوان ، ج٥ ، ص ٣٦٢) •
لكن يبدو أن أوجه الشبه السابقة تعود بلا ريب ، في التحليل الأخير ، إلى المصادر المشتركة : أي قصص البحريين لاسيما أن المثالين المأخوذين نموذجان موحدان بداهة .

(٥٣٥) روى هذه النبذة المؤرخ الصولي (احا لات في اخبار الصين والهند ، ص ٣٠ ، حاشية ٢) ، وتتعلق بالراضي ، وريث الخلافة المعين . فقد ثار لمصادرة كتبه ، وخاطب خصومه بهذه الكلمات : « انتم لا تقدرون إلى هذا الحد هذا النوع من الكتب ، كعجائب البحر وتاريخ السندباد ، والهر والجرذ » (ترجمة سوفاجية) . ويشير أحمد أمين إلى الواقعة (ظهر الإسلام ، ج١ ، ص ٢٧ — ٢٨) ، ويبرز أن الحرس التركي كان يتبع سياسة منهجية لفرض وصايته على الخلافة عندما أبعد الأمير عن كتبه الشرعية والدينية واللغوية والتاريخية ، وحاول حصره فيما يلهيه .

حول عجائب البحر ، وهو مصنف مفقود ، انظر سوفاجيه ، ص ٣٠ روماني ، فقرة ٣ . والهر والجرذ مثل من كليلة ودمنة (الترجمة ا . ا . ميكيل ، باريس ، ١٩٥٧ ، ص ٢٢٩ — ٢٣٥) . حول عناوين أخرى تحمل اسم « العجائب » (في البر والبحر) ، انظر الفهرست ، ص ٣٠٨ .

(٥٣٦) لم تدخل في حسابنا مقاطع كاملة من مصنفات اوسع ، مثلا الفقرات ١٦٥ — ١٨٦ ، ٢٤٣ وما يليها ، و ٣٢٨ — ٣٥٥ من مروج الذهب ، أو ايضاً ج١ من مختصر العجائب . وهذان المصنفان متأخران : على التوالي حوالي مئة ومئة وخمسين عاماً عن اخبار الصين والهند (حول تاريخ تصنيف مروج الذهب ، انظر ما يلي ، حاشية ٥٥٤ ، وحول تاريخ تصنيف مختصر العجائب انظر ثبت المؤلفين ، لفظ « ابراهيم بن وصيف شاه ») .

(٥٣٧) انظر ما تقدم ، ص ١٧٠ ، ١٧٢ — ١٧٣ ، ما قيل في حديثنا عن الجاحظ .

(٥٣٨) يمكن أن نقول ، مع التحفظ الشديد الذي يوحي به وضع المخطوطة (انظر سوفاجيه ، ص ١٦ روماني) إن القصص البحرية أو العائدة إلى الشواطىء البحرية من البر ، نادرة جداً في اخبار الصين والهند : انظر فقرة ١ — ٣ ، ٩ — ١٠ ، ١٧ ، ١٩ ، وتدوينات منفردة في فقرة ٤ — ٨ ، ١١ ، ١٣ — ١٧ (من أصل مجموع الفقرات البالغ ٧٣ فقرة) .

(٥٣٩) ولن نحاول التحقق من صحتها ، لاسيما أن الميل إلى الخوارق يزداد تغلبه شيئاً فشيئاً على المعرفة الموضوعية . وقد دان المؤلفون الحصيفون على الدوام تبجح البحارين (انظر الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج٦ ، ص ١٩) ، أو ابتعدوا عنهم بعض الشيء

(المسعودي ، مروج الذهب ، فقرة ٢٤٥ ، ٣٠٥) . نشير إلى تأكيد أبي زيد السيرافي ملحق ، ص ١٣٩) : « امتنعت عن ذكر القصص الكاذبة ، التي يرويها البحارة ، ولا يصدقونها هم انفسهم » . هذا التأكيد يتنافى مثلما سوف نرى ، مع موقف المصنف ، الذي وقع اسير ميول عصره إلى العجيب . واشارة إلى هذا الموقف ، يصبح رائز رصانة اخبار الصين والهند ، اغفالها لموضوع واق واق (بلد الشرق الأقصى ، اليابان ؟) أو الجنوب الأقصى من مدغسكر ؟ افريقية الشرقية ؟ : انظر مختصر العجائب ، ص ٢٦ ، ٢٩ ، عجائب الهند ، فقرة ٧ ، ٣١ ، ٣٨ ، ١١٠ ، ١٢٢ — ١٢٣ ، ١٢٦ — ١٢٧ ، ١٣٤ (حول موقع واق واق ، انظر هارتمان و د . م . دنلوب ، « بحر الهند » في م١ (٢) ، ج١ ص ٩٥٨ (٢) — ٩٥٩ (١) ، وفران ، الرحلات ، ج١ ، ص ٤ روماني ، « واق واق » في م١ ، ج١ ، ص ١١٦٤ — ١١٦٨) .

(٥٤٠) انظر أخبار الصين والهند ، فقرة ٤ — ٧ ، ٩ ، ١٤ ، ٢٥ — ٢٦ ، الخ .

(٥٤١) انظر فقرة ٢١ — ٢٣ ، ٣٣ — ٤٩ ، ٥٩ ، ٦٤ (عن الصين) ، ٢٤ — ٣٢ ، ٥٠ — ٥٣ ، ٦٦ (عن الهند) ، ٥٤ — ٥٨ ، ٦٠ — ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ — ٧٢ (جدول مقارنة البلدين) ، وتتحدث الفقرة ٧٣ عن موقع التبت وعن بعض خصائص كوريا . أخيراً ينبغي اضافة معلومات مبعثرة عن سكان مختلف الجزر (فقرة ٤ — ٢٠ ، أماكن أخرى)

(٥٤٢) فقرة ٥٣ ، ٥٦ .

(٥٤٣) بداية ونهاية الفقرة ٧٢ .

(٥٤٤) فقرة ٢١ ، ٧٢ (حول الهواء ، والأنهار والحالة الصحية في الصين والهند)

(٥٤٥) عن استهلاك لحم الخنزير ، انظر فقرة ٢٢ . عن عدم الذبح الأصولي لحيوانات الاستهلاك ، فقرة ٧١ . حول استعمال المسواك ، الفقرة نفسها (وحاشية ٦) .

(٥٤٦) تكنى المرأة بالفراش (امرأة يتزوج منها قبل كل شيء للحصول على الأولاد) في فقرة ٦١ ، القذارة بالجنابة (تلوث كبير) في فقرة ٧١ ، وإلى الحرب بالجهاد (الحرب المقدسة) في الفقرة ٧٢ ، الخ .

(٥٤٧) الوضع واضح بنوع خاص بالنسبة إلى القانون الجزائي : حظر الزنا (فقرة ٥٧) ، اعدام قطاع الطرق (فقرة ٦٩) . لكن مثل هذه التفاصيل عن اخلاق الامتناع عن الخمر (فقرة ٥٥) ، وعن طقوس الزواج (فقرة ٥٧) أو عن ارسال اللحية والشاربين (فقرة ٦٥) تستلهم من الذهنية نفسها .

(٥٤٨) وهو نموذج عن الفكر في القرون الوسطى عموماً ، الذي لا بد له أن ينتظر ان تحل محله ابتداءمن عصر النهضة ، انظمة تفسيرات عقلانية ، قبل أن يذهب التحليل الحديث إلى أبعد من ذلك ، ويحاول أن يميز في تلك الأنظمة نصيب النظام الشامل الثقافة التي يعود اليها .

(٥٤٩) أنظر أخبار الصين والهند ، فقرة ٧ ، ١٤ .

(٥٥٠) حول اوائل وكيفيات هذه الملاحة ، انظر سوفاجيه ، مشار إليه سابقاً ، ص ٣٩ – ٤٠ روماني وأخبار الصين والهند ، فقرة ١١ ، ١٣ ، ١٤ .

(٥٥١) أي في القرن التاسع : انظر ما تقدم ، حاشية ٥٢٢ .

(٥٥٢) في حين تعرف أخبار الصين والهند ، مثلما رأينا ، واقع التجارة الصينية : « تحمل معظم السفن الصينية في سيراف » (فقرة ١٣) . أما التبصر بالتجارة فأكثر منهجية إذ يوسع مبدأ التدوين الحصري للحركات باتجاه بغداد ، في داخل العالم الإسلامي ذاته .

(٥٥٣) حول هذا الموضوع ، انظر ش . ا . دبلر ، Vto زيارة المسلمين الشرق الأقصى قبل الفتح المنغولي في القرن الثالث عشر (Saen تبدل الوسط الجغرافي والاتنولوجي في المقاطعات الشرقية) ، « في مجلة Homenaje a Millas Vallicrosa جزء أول ، ص ٤٦٥ وما يليها .

بلغت قوة الضوابط الثقافية حداً أصبح العجيب فيها يكتنف لا الفوارق بل أوجه الشبه ذاتها ، وكان الغريب الهندي قد وفر اطاراً سهلا ، في الأمثال ، للحكم التقليدية (انظر كليلة ودمنة ، أماكن متفرقة) .

(٥٥٤) حول العلاقات بين أبي زيد (الحسن بن يزيد) والمسعودي ، انظر أخبار الصين والهند ، ص ٤٤ – ٢٥ روماني . فقد سمح تلاقي الرجلين في البصرة لابي زيد ان يطلع المسعودي على أخبار الصين والهند بعد اعادته النظر بها واكمالها . وقد تم هذا اللقاء ، المشار إليه في مروج الذهب (فقرة ٣٥١) بين ٣٠٣ ﻫ / ٩١٥ – ٩١٦ م ، وهو تاريخ اقامة أبي زيد في البصرة (حسب مروج الذهب مشار إليه سابقاً ، وبين ٣٣٢ ﻫ / ٩٤٣ م وهو تاريخ تصنيف مروج الذهب(انظر التنبيه ص ٢١٣) طبعاً . لكن يبدو أن المسعودي قد استقر منذ ٣١٣ – ٣١٥ ﻫ / ٩٢٥ – ٩٢٧ م ، في الجزيرة العليا والشام ومصر (التنبيه والإشراف ، ص ٧٣ ، ١٥٠ ، ٢١٣ ، ٤٣٣ ، ٤٨٨) ، في حين اقتضت اسفاره

الشرقية » ، حتى هذه السنوات ، خلافاً لذلك ، وجوده في اصقاع الخليج الفارسي (انظر ش.ا بروكلمان ، م١ ، ج٣ ، ص ٤٥٧ — ٤٥٨) : فقد وجد بنوع خاص في اصطخر ، عام ٣٠٣ ذاته (التنبيه ، ص ١٥٠) ، وعاد إلى عمان في نهاية رحلته البحرية في المحيط الهندي ، عام ٣٠٤ هـ / ٩١٦ — ٩١٧ م ، مروج الذهب ، فقرة ٢٤٦) . يمكننا إذن أن نستنتج منطقياً أن اللقاء بين المسعودي وبين أبي زيد السيرافي حدث عام ٣٠٣ هـ / ٩١٥ — ٩١٦ م ، أو في السنوات اللاحقة مباشرة ، وبالتالي أن الملحق السابق اللقاء ، يقع هو ، في اقصى حد حوالي ٣٠٣ هـ / ٩١٥ — ٩١٦ م : وقد قبل هذا الرأي بدون مناقشة سوفاجيه (مشار إليه سابقاً) وفران (خصوصاً في عنوان رحلة التاجر العربي سليمان انظر ثبت المؤلفين لفظ أبو زيد السيرافي ») .

(٥٥٥) ص ١٣ .

(٥٥٦) مثلا فيما يتعلق بالمنتجات العائدة إلى الحياة البحرية والتجارة معاً ، كالعنبر واللآلىء بنوع خاص : انظر الملحق ، ص ١٣٢ — ١٣٥ .

(٥٥٧) انظر أخبار الصين والهند ، فقرة : ١ — ٢ ، والملحق ، ص ١٣٢ — ١٣٥ .

(٥٥٨) انظر الملحق ، ص ٩٣ ، ١٢٦ ، ١٣٠ — ١٣١ .

(٥٥٩) انظر ما تقدم ، حاشية ٥٣٩ .

(٥٦٠) انظر ما تقدم ، حاشية ٥٢٢ .

(٥٦١) ص ٩٥ — ٩٦ .

(٥٦٢) ثابر بعض التجار المسلمين على مواصلة اسفارهم حتى الصين (انظر ما يلي ، حاشية ٥٨٥) ، لكن يشتبه بقصصهم إلى حد يشك معه ، رغم مزاعمهم ، في اقامتهم في هذا البلد . ثم إن معلوماتنا عن تجارة الهند المأخوذة عنهم ، ليست مطلقاً غنية جداً (انظر أخبار الصين والهند ص ٣٦ روماني ، حاشية ٨) . ويبدو طبعاً انها تأثرت بتقليص التجارة مع الصين ، وزاد تأثرها بانخفاض الحركة الناجم عن الفوضى العراقية (اخبار الصين والهند ، ص ٣٧ روماني في آخرها) : انظر الملحق ، ص ١٣٩ ، الذي يشير إلى استيراد دنانير السند ، وزمرد مصر ، والمرجان ، من الهند « فيما مضى » ، وإلى توقف هذا الاستيراد . ويرد في ص ١١٨ ، تدوين آخر جدير بالانتباه إليه ، يتعلق باللصوصية في سيلان ، وبآثارها المشؤومة على التجارة العربية . انظر أيضاً كتاب عجائب الهند ، فقرة ١١٢ (البداية والنهاية) الذي يعيد إلى عام ٩١٨ — ٩١٩ تزايد انحطاط الحركة التجارية .

(٥٦٣) نتيجة اضطراب التجارة مع الشرق الأقصى : فخريطة العالم اختلطت ، إذ صار الحمير موجودين في قسم (من قارة آسية) يتاخم البلدان العربية » : الملحق ، ص ٩٧ .

(٥٦٤) شرع الملحق بخصها بجانب هام منه : انظر ، ص ١٢٧ وما يليها . ثم تضخم الموضوع في عجائب الهند وفي القسم الأول من مختصر العجائب .

(٥٦٥) انظر ص ١٠٩ (جغرافية الصين الطبيعية) ، ١١٠ (اليحمور حامل المسك) ١٢٢ (نظام الموسيمات) واماكن أخرى .

(٥٦٦) انظر أخبار الصين والهند ، فقرة ٥٦ ، والملحق ، ص ٧٨ ، ٨٩ – ٨٠ .

(٥٦٧) انظر اخبار الصين والهند ، فقرة ٥٢ ، والملحق ، ص ١١٥ .

(٥٦٨) سنعالج هذا المصنف في القسم الثاني في الفصل السابع ، وسنبرز عندئذ التصنيف المتبع .

(٥٦٩) انظر رسالة في مناقب الترك ، ص ٣٨ ، ٤٣ – ٤٦ ، وأماكن أخرى : فاليونانيون يحذقون الحكم والآداب وأهل الصين الصناعات ، والهنود العلوم (فلك وطب بنوع خاص) ، وآل ساسان الملك ، ويتميز الترك والعرب بمحبة ، الوطن والحرية . الموضوع مكرور بالنسبة إلى أهل الصين الذين نهتم بهم هنا ، في كتاب الحيوان ، جزء ٥ ، ص ٣٦ .

(٥٧٠) على التوالي فقرة ٥٥ ، ٣٤ ، ٧٢ .

(٥٧١) الملحق ، ص ٨٤ ، معاد في مروج الذهب ، فقرة ٣٥٤ .

(٥٧٢) يلعب الثعلب دور الجرذ عند لافونتين (أمثال ، ك ٨ ، ٩) .

(٥٧٣) الملحق ، ص ١٣٥ – ١٣٧ .

(٥٧٤) الملحق ، ص ٩٨ – ١٠٢ ، مكرور في مروج الذهب ، فقرة ١٧٩ وما يليها.

(٥٧٥) انظر ما تقدم ، حاشية ٥٤٥ .

(٥٧٦) الملحق ، ص ١١٦ – ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٥٧٧) الملحق ، ص ٨١ ، ١٢٤ ، اللذي نرى فيهما أن العهر المقدس تحول إلى مجرد ممارسة تجارية .

(٥٧٨) انظر اخبار الصين والهند ، ص ٣٦ ، ٣٨ ، روماني ، ول . ماسينيون ، « سحائب ماجلان » ، مستخرج من م دا ، مكرر في الوعد المقطوع باريس ١٩٦٢، ص ٤٢١ وما يليها .

(٥٧٩) كتاب الحيوان ، جزء ١ ، ص ٨٢ ، والأعلاق النفيسة ، ترجمة ص ٢٢٧.

(٥٨٠) دراسة البيروني عن الهند شاذة ، تفسرها مواهب المصنف ، وظروف رحلته سواء بسواء : أي فتح البلاد قسراً أمام الجيوش الغزنوية الذي اتاح للبيروني فرصة حرية العمل كاملة .

(٥٨١) انظر ماتقدم ، ص ...

(٥٨٢) لا ريب أن هنا يكمن أحد الأسباب التي دعت سوفاجيه ، الذي يعلي شأن رسالة أخبار الصين والهند كثيراً (مشار إليه سابقاً ، ص ٣٢ روماني) إلى فصل الملحق عنها في طبعته . ويصف أصلا المؤلفين بمصنفين « متميزين فعلا بالنسبة إلى تاريخهما وكاتبيهما ، ويختلفان بصفتيهما » (ص ١٨ روماني) .

(٥٨٣) التواريخ الرئيسية : ٢٦٤ هـ / ٨٧٨ م : بدء ثورة هوانغ تشاو (يان شو) ، مذبحة التجار العرب ونهاية التجارة المباشرة مع الصين ، وسط القرن الثالث عشر – ١٣٦٨ م : السلالة المغولية يووان في الصين (١٣٦٨ م : عهد السلالة الوطنية منغ) . ١٢٧٥ – ١٢٩١م: اقامة ماركو بولو في الصين (عودته إلى البندقية عن طريق سومطرة ، وسرنديب ، والهند وفارس : ١٢٩١ – ١٢٩٥) . ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م–٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م : رحلة ابن بطوطة إلى الهند والصين(التاريخ الأول يعود إلى وصوله إلى نهر الهندوس : انظر الرحلة ، طبعة بيروت ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م ، ص ٣٩٣ (يؤيده هـ . أ . ر . جيب :رحلات ابن بطوطة ، كمبريدج ، جزء ٢ ، ١٩٦٢ ،ص ٥٢٨–٥٣٠ وآخرها)والتاريخ الثاني يعود إلى رجوعه إلى جزيرة العرب : الرحلة ، ص ٦٤٨ . في الهند ، التي لم تكن قد خضعت بعد إلى سيطرة المغول ، عهد محمد بن طغلق (٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م – ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م) ، فترة ازدهار سلطنة دلهي ، تتوافق تماماً مع مرور ابن بطوطة في هذه المناطق) .

(٥٨٤) انصف سوفاجيه (اخبار الصين والهند ، ص ٢٩ – ٣٠ روماني)في نسبة عجائب الهند إلى بزرك بن شهريار : فبزرك (عجائب الهند ، فقرة ٤٦) ليس سوى أحد البحريين الذين يتألف المصنف من اخبارهم ولا داعي مطلقاً لنسبتها إليه، سيما انه لم يذكر إلا مرة واحدة ، خلافاً لبحارة اخر تتردد اسماؤهم غالباً جداً . حول تاريخ التصنيف ،

انظر فقرة ٩٣ ، التي تروى حدثاً يعود إلى عام ٣٤٢ ه / ٩٥٣ – ٩٥٤ م ، وهو أحدث تاريخ بين التواريخ الواردة في المصنف (انظر مايلي ، حاشية ٦١٢) ، مما يدل أن التصنيف حصل سنة ٣٤٣ ه / ٩٥٦ – ٩٥٧ م (انظر سوفاجيه ، اخبار الصين والهند ، ص ٣٠ روماني ، حاشية ١) .

(٥٨٥) عجائب الهند ، فقرة ٤٧ ، ٦٠ – ٦١ ، ٨٤ ، ٩١ ، ١٠٩ ، ١١٤ : يبدو أن الفقرة ٩١ وحدها تتعلق بنبذة عن العادات . أما الباقي ، وهو مجموعة « عجائب » فيقبل فكرة جنة كنوز مفقودة . ولم يحدد تاريخ هذه الأسفار إلى الصين في الفقرات ٤٧ ، ٩١ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، بل يحال إلى السنوات ٢٩٦ – ٣١٢ ه / ٩٠٨ – ٩٢٤ م (عهد وزارات ابن الفرات الثلاثة) في الفقرتين ٦٠ – ٦١ وإلى السنوات ٣٠٨ ه / ٩٢٠ م (؟) في الفقرة ٨٤ . لكن القصص المروية خارقة إلى حد يمكننا معه بحق أن نشك ، إن لم يكن في ذهاب الرواة فعلا إلى الصين ، ففي مشاهدتهم ما يتحدثون عنه واقامتهم في البلاد .

(٥٨٦) انظر ما تقدم ، حاشية ٥٣٩ . عجائب الهند ، فقرة ٧ ، ٣١ ، ١١٠ ، ١٢٢ – ١٢٣ ، ١٢٦ – ١٢٧ ، ١٣٤ . نرى أن الموضوع يصبح هنا رئيسياً .

(٥٨٧) عجائب الهند ، فقرة ١٥ ، وهنالك جزيرة النساء (فقرة ١٤) ، وجزيرة القردة والذهب (فقرة ٤١) الخ .

(٥٨٨) حول الصور ، انظر ما يلي ، عند الحديث عن الحيوان ، وايضاً فقرة ٤٦ ، ٦٠ ، ٩ ، ١١٢ وأماكن أخرى (نماذج قصص بحرية كلاسيكية) ؛ حول الألفاظ ، فقرة ١٧ ، ٤٨ (اسماء السفن) ، حول تقنية الملاحة ، فقرة ٤٠ – ٤١ واماكن أخرى ، حول الأخطار ، فقرة ٤٦ « اشارة صريحة إلى الموضوع ، وأماكن أخرى (لايضاحه) ؛ حول التهذيب ، فقرة ١٤ (ص ٢٠٣) .

(٥٨٩) عجائب الهند ، فقرة ١٣ ، ١٤ .

(٥٩٠) عجائب الهند ، ص ٢٠٥ آخرها ، ٢٣٧ .

(٥٩١) عجائب الهند ، ٢٠٢ – ٢٠٣ ، ٢١٨ ، ٢٩١ – ٢٩٢ .

(٥٩٢) عجائب الهند ، ص ٢٠٢ – ٢٠٥ ، مع الفارق أن تلاطم الأمواج يحدث نارا (انظر أيضاً فقرة ٢٣) يشير ببساطة إلى ارتطام المياه بارصفة الجزيرة.وينبغي ربط مجمل المعتقدات بدور سحابة مجلان الثابتة انظر لفظ قمر ،« كضوء قمري رمادي يشير إلى الجنوب» :

انظر ما سيفيون مشار إليه سابقاً ، ص ٤٢٦ — ٤٢٧ . بالضبط تختم مغامرة بهم بموضوع الضوء والرماد ، ويقترن به موضوع ظلمات البحر .

(٥٩٣) ظهور موضوع هام : هو موضوع القرصنة (عجائب الهند ، فقرة ٦٢ ، ٦٣ ، ٨١ ب) . حول أمثلة على المبالغة ، انظر فقرة ٢٦ — ٤٦ مكرر وأماكن أخرى .

(٥٩٤) « وكان يعامل التجار في مركبة بما يعامل به أصحاب الشروط » (عجائب الهند ، فقرة ٤٩) وهذا موضوع أساسي ، يعالج على ضوء واقع قاسي : الرق (عجائب الهند والسند ، ص ١٩٦ ، ٢٠٨ ، وفقرة ٣٢) .

(٥٩٥) عجائب الهند ، فقرة ٨٩ ، ٩٦ (حول من بهم شبكرة وجعلهم يعتقدون زوجهم امرأة أخرى) . أمثلة أخرى على الخداع ، أو القصص الماجنة فقرة ٦٧ ، ٩٠ ، ١٠٢ .

(٥٩٦) حب الأموال والتباهي به : فقرة ٣٢ ، ٤٩ ، ٥٠ آخرها ، ٨٦ ، ٨٧ ، وأماكن أخرى .

(٥٩٧) حول السمك ، انظر عجائب الهند ، فقرة ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٦ (أولها ، قارن مع الملحق ص ١٣٣) ، ٣٣ ، ٥٤ ، حول السرطان ، فقرة ٥ — ٦ ، حول السلحفاة ، فقرة ١٨ ، حول سمك المنشار والسمك الطائر ، فقرة ١٦ ، ٢٢ .

(٥٩٨) حول الحياة انظر عجائب الهند ، فقرة ٢٥ — ٢٦ ، حول النمل (بلا ريب بسبب ذكريات قرآنية : قرآن ، ٢٧ ، ١٨) ، فقرة ٣٧ ، ٧٥ ، حول القردة ، فقرة ٣٩ وما يليها ، حول الفيلة ، فقرة ١١١ ، حول التماسيح ، فقرة ٥٨ ، ١٠٥ .

(٥٩٩) الطيور البحرية ، عجائب الهند ، فقرة ١٢٠ وخصوصاً ٥٥ ، طيور تعيش في النار ، فقرة ١٣٢ . التنوع ذاته بشأن الأحجام : يلح خصوصاً على ضخامة بعض الطيور الأسطورية ، التي نتعرف فيها على طير الرخ في رحلتي السندباد الثانية والخامسة : فقرة ٨ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٢ — ٥٣ ، ١٣٠ .

(٦٠٠) انظر ما تقدم ، حاشية ٥٩٢ .

(٦٠١) عجائب الهند ، فقرة ٢٢ .

(٦٠٢) حول السمندل ، انظر عجائب الهند ، فقرة ١١٢ ، مشار إليها سابقاً ،

حول التنين ، فقرة ٢٤ ، حول الأسماك الطائرة ، فقرة ٢٢ مشار إليه سابقاً ، حول العقارب الطيارة ، فقرة ٣١ ، حول الدواب الثنائية الجنس ، فقرة ١٢٣ .

(٦٠٣) انظر ما تقدم ، ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٦٠٤) مثلما يطاء الانسان القردة والطيور في رحلتي السندباد الثالثة والسابعة ، يطأ هنا القردة (عجائب الهند ، فقرة ٢٠ ، ٤٠ ، ٧٤) ، والضبع والنمرة (فقرة ٢٠) وحيوان البحر (فقرة ١٥ ، ١٩ (؟) ، ٢٠) ، سمك غريب له فرج كفرج المرأة : فقرة ٢١ ، شجر يحمل حملا ... صورته صورة الناس انظر فقرة ٣٨ .

(٦٠٥) يعرف الجاحظ هذه الموضوعات (مثلا بشأن البغل : الحيوان ، جزء ١ ، ص ١٠٣ ، ٢٢٢ ، موضوع عام تسافد الأجناس المختلفة : جزء ٧ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ ، لكنه ، وإن كان يروى بعض الأمثلة الغريبة عليها ، يحترس جداً من أخذها على عاتقها (كتاب الحيوان ، جزء ١ ، ص ١٤٦ ، جزء ٧ ، ص ١٧١ ، ٢٠٤) : حول النسب بين الفيل والخنزير ، المرجع نفسه ، جزء ٧ ، ٢٠٤ ، تشابه بين الفيل والجاموس) يقارن باللهجة الجازمة في عجائب الهند التي تعطي (فقرة ٢٠) بعض أمثلة تسافد . وبما أن الأمر يتعلق بشواذات عند الناس (كتاب الحيوان جزء ٣ ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤) ، فالجاحظ لا يرويها كمعطيات خاصة ، وذريعة لقصص مثيرة ، بل يقرنها بآن واحد بادانة اخلاقية ويتأمل عن الأسباب الفيزيولوجية والسيكولوجية لهذه التصرفات (حول هذا الموقف ، انظر ما تقدم ، فصل ٢ ، ص ١٤٦ — ١٤٧) .

(٦٠٦) نماذج قصص (يعثر على بعضها في ألف ليلة وليلة ، مثلا ، فقرة ١٢ (موضوع الخاتم الموجود في سمكة : انظر مثلا قصة أبي قير وابي صير ، الف ليلةوليلة ، جزء ٤ ، ص ٥٠— ٥١) ، ١٨١ (وادي الالماس تحرسه الحيات : انظر رحلة السندباد الثانية ، حول الخدع انظر ما تقدم ، حاشية ٥٩٥) فقرة ٨ ، ١٢ ، ٢٦ — ٢٧ ، ٤١ ، ٤٥ (لم يرد مطلقاً فيها ذكر البحر والشرق) ، ٥٠ ، ٥٩ ، ١٨١ ، ٨٨ ، ١٠٥ ، ١١٢ (بدء قصة « القارب ») . ويباشر بوصف شخصية بوليفيم ، الوارد ذكره ، في رحلة السندباد الثالثة ، في الفقرة ١٣٣ . ونساء جزيرة النساء في الفقرة ١٤ ، نوع من اسطورة المرأة المفترسة ، بنت البحر ، على المستوى الجنسي .

(٦٠٧) انظر ما تقدم ، حاشية ٥٦٨ .

(٦٠٨) انظر ما تقدم ، ص ١٩ — ٢٠ ، والزروجيب ، « الأخلاق » ، في م١ (٢) جزء ١ ، ص ٣٣٧ (١) .

(٦٠٩) فرض نفسه على الهند (فقرة ١ ، ١٤ (البداية) و ٩٠) ، وسيلان (فقرة ١٠٣) ، وافريقية (فقرة ١٣٢) ، والوقواق والجزر البعيدة (فقرة ٧ ، ١٤) . تذكير بالمبادىء الإسلامية : فقرة ٨٦ (ص ٢٧٥) ايضاً فقرة ١٣ ، ١٤ ، ٣٢ الخ . هناك مقطع (ص ٢٠٢) ذو مغزى هام : شمول مفهوم القبلة اديان متنوعة . ولطغيان مواضيع التاريخ الإسلامي مغزى أهم أيضاً : مناورة معاوية في صفين وذكرى ثورة الزنج (زنج العراق الأسفل عام ٨٧٧ – ٨٨٣) ، واضحتان في الفقرة ٧ .

(٦١٠) عجائب الهند ، فقرة ٣٢ آخرها .

(٦١١) ويؤدي الحرص على تحاشي اهمال أي شيء مما يمكن أن يصلح توسعاً في الغريب ، إلى جعل تأكيد الفقرة ٢٠ ، آخرها ، اسذج أيضاً : « ولو ذهبنا نعد ما تنتج من اجتماع الاجناس لعددنا من ذلك ما يبهت القارىء ، ويخرج عما قصدنا إليه من عجائب الهند خاصة »

(٦١٢) انظر الفقرة ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٧٧ ، ١١٧ ، ١٢٧ .

(٦١٣) تكثر التواريخ : فقرة ١ ، ٩ ، ١٠ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٨ ، ٦٠ ، ٨١ ب ، ٨٣ ، ٩٣ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، وتشير إلى أحداث وقعت بين ٢٨٨ ﻫ / ٩٠٠ – ٩٠١ م و ٣٤٢ ﻫ / ٩٥٣ – ٩٥٤ م . وتتدخل الإشارة إلى المصادر أكثر من ذلك أيضاً : فقرة ١ – ٢ ، ٣ – ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩، ١٠ ، الخ . حول استخدام هذه الاستشهادات ، انظر سوفاجيه (مذكور سابقاً ، ص ١١٧ حاشية ٢) .

(٦١٤) انظر مثلا فقرة ٥ (حول موضوع : جميل جداً إن كان صحيحاً ، ومع ذلك ...) ، ٩٢ ، بداية (حرص يتحاشى أن ينعكس مجدداً على القصة عدم دقة ، ضئيل أصلا ، عائد إلى الكاتب وحده) . يقارن بهذا الحرص مقاطع متنوعة تبين زخرفة المواضيع منذ الملحق (يد الذهب الخالص ، في سيلان ، وزنه هائل (ملحق ، ص ١١٩) ، يعبر البحر في كتاب عجائب الهند (فقرة ٧٣) ، وترى بجانبه شجرة من نحاس (المرجع نفسه ، فقرة ٣) ويمكن أن نتساءل ما إذا كانت لا تمثل تكييف موضوع الشجرة العجيبة المماثلة ، وفي رومية أو القسطنطينية (انظر ابن خرداذبة ، ص ١١٦ ، وابن الفقيه ، ص ٧٢ ، وأبن رسته ، ص ٧٩ ، ١٢٨) . وفي كتاب اعجائب الهند ذاته ، يتم التأكيد على الأسطوري بطريقة أخرى : فالموضوع يتجزأ أو يحيا بالتكرار ، حرفياً أحياناً (فقرة ٣٤ ، ٣٦ ، ٧٧ ، ٧٨) .

(٦١٥) ص ١١٥ .

(٦١٦) على سبيل المثال ، نذكر فقط كتاب التبصر بالتجارة ، المنسوب إلى الجاحظ ، ص ١٥٧ آخرها ، ١٥٩ .

(٦١٧) التي يمر بها الطريق البري الذاهب إلى الصين : انظر سوفاجيه ، اخبار الصين والهند ، ص ٣٧ روماني ، حاشية ٢ .

(٦١٨) أضف إلى السفارة العربية إلى الصين ، التي ذكرها سوفاجيه (مشار إليه سابقاً) ، بالنسبة إلى العصر الأموي ، كتاب ملك الصين إلى معاوية ، الذي ذكره الجاحظ في كتاب الحيوان ، جزء ٧ ، ص ١١٣ .

(٦١٩) خصوصاً السامانيين (وزيرهم الجيهاني) ، الذين لعبوا دورهم في تنظيم رحلات ابن فضلان وأبي دلف مسعر . كذلك ساعد بنو طاهر بالطريقة ذاتها سلام الترجمان الذي سندرسه فيما بعد . انظر رسالة ابن فضلان ، ص ٧٦ ، واحالات أخرى في ثبت المؤلفين .

(٦٢٠) التبس احياناً اسم أول هؤلاء الأشخاص ، وهو على الأغلب الرياضي والفلكي الشهير محمد بن موسى بن شاكر ، مع سميه الذي لا يقل شهرة عنه ، الرياضي والفلكي مثله ، محمد بن موسى الخوارزمي ، انظر ما يلي ، ص ٢٤١ — ٢٤٢ وثبت المؤلفين (نحيل إليه أيضاً بالنسبة إلى الجرمي وسلام) . حول الجرمي ، انظر أيضاً ما يلي ، ص ٢٤٢ .

(٦٢١) نظراً لصفة هذا البحث المحدودة ، يضمن لنا حجم المقتطفات المحفوظة ، بطريقة ثانوية ، أن الزمن لم يتسبب هنا بحدوث ضياع هام جداً .

(٦٢٢) في الواقع لا يهمنا كثيراً إذا جاء عنوان مصنف ابن فضلان كتاباً ، إذا صدقنا المخطوطة ، أو رسالة ، إذا اتبعنا ياقوت (انظر كانار ، ترجمة ، ص ٤٢ ، حاشية ٨) والاستعمال المألوف : فالعبرة لصفات المصنف ، التي تجعله ، مهما كان عنوانه ، رسالة (« تذكرة » أو رسالة ») : فينبغي طبعاً أن يعاد هنا طرح قضية تأثير النماذج ، خصوصاً نموذج الجاحظ . وتتناول الرسالة أيضاً ، مع الكندي ، موضوعات علمية (انظر الفهرست ، ص ٢٥٥ — ٢٦١ ، وأماكن أخرى) ، ومع السرخسي ، التاريخ الرسمي (حول حملة أحمد بن الموفق ، وهو الخليفة العتيد المعتضد ، ضد خمارويه : انظر روزنتال ، مشار إليه سابقاً ، ص ٥٩) .

(٦٢٣) ص ٩٤ .

(٦٢٤) ص ١٦٢ وما يليها من كتاب المسالك والممالك .

(٦٢٥) انظر ما تقدم ، الفصل ٣ ، ص ٠٠٠ ، حاشية ٤٣٣ . حول انتحالات أخرى انظر المقدسي ، طبعة ذي غويه ، ص ٣٤٦ (٣٤٥ ، حاشية ب) ، وايت ، مدخل إلى « الأعلاق النفيسة » لابن رسته ، ص ٦ — ٧روماني؛ و س . مقبول أحمد ، « جغرافية » ، في م١ (٢) ، ج٢ ، ص ٥٩٥ (٢) .

(٦٢٦) استغل ابن الفقيه سلام ، هو وغيره (ص ٢٩٨ — ٣٠١ ، انظر ص ٢٣١ حاشية ج) . انظر احالات أخرى لدى ابن رسته ، ترجمة ، ص ١٦٧ ، حاشية ٧ .

(٦٢٧) ص ١٠٤ — ١٠٦ .

(٦٢٨) خصوصاً الحوليات ، على نحو ما مورست آنذاك . وقد ابرز سامي الدهان (مشار إليه سابقاً) ص ٢٨ ، الفرق بين الرسالة والجغرافية .

(٦٢٩) ينبغي طبعاً اضافة البلغار اليهم مع شعبين مجاورين لهم أيضاً : الروس ، المعتبرين حسب بعض النماذج قاطنين عند البلغار (انظر ترجمة ، ص ١١٦ وما يليها) والخزر ، الذين لا يملك المؤلف عنهم إلا اخباراً شفهية (المرجع نفسه ، ص ١٣٥ ، حاشية ٣٦٢) .

(٦٣٠) انظر كانار ، مشار إليه سابقاً ، ص ٤٣ ، ١٤٢ — ١٤٣ .

(٦٣١) معجم البلدان ، جزء ١ ، ص ٤٨٦ . حدد م . كانار في خاتمة ترجمته الرسالة ، مشار إليها سابقاً ، العودة إلى بغداد في عام ٣١١ ﻫ / ٩٢٣ م .

(٦٣٢) بالفعل اثار ر . بلاشير (م ج ع ، ص ٩٤ — ٩٥) قضية صحة الرسالة في علاقتها بالقارىء ، المخصصة له ، لكن سنرى أن هذه المسألة شكلية لا جوهرية . اينبغي علينا أن نذكر أن الاهتمام بالشكل لا يزال يعتبر أحياناً ، في أيامنا الحاضرة ، احدى سمات المراسلة الدبلوماسية م .

(٦٣٣) انظر سامي الدهان ، مشار إليه سابقاً ، ص ٢٨ ، الصفات المميزة لهذا النثر هي فن القصة المتصلة (يخالف اسلوب التعداد لدى الجغرافيين الإداريين) والتأثير الأدبي (الذي سنرى بعض امثلته فيما بعد . يلاحظ أن التكلف لا يذهب إلى حد النثر المقفى أو السجع) .

(٦٣٤) انظر الرسالة ، ص ١١٤ ، حاشية ٨ . سورديل ، الوزارة ، جزء ٢ ،

ص ٤١٤ وما يليها ، ٥٢٠ – ٥٢١ (والحاشيتين ١ و ٢) واماكن أخرى . ذكر حامد ابن العباس في الرسالة (ص ١١٤ آخرها) على انه مؤلف كتاب التعريف لملك البلغار .

(٦٣٥) انظر م ج ع ، ص ٩٧ .

(٦٣٦) ص ١٥٥ – ١٥٦ ، ترجمة ، ص ١٢٢ – ١٣٤ . ينبغي أن نذكر أيضاً ، من بين صفات كثيرة أخرى ، صفات تستمد غرابتها من مخالفتها لعادات الإسلام (انظر ص ٩٢ – ٩٣ ، ٩٤ ، ١١٥ ، ١٣١ – ١٣٢ ، وأماكن أخرى ، لكن ، خلافاً لما يجري في أخبار الصين والهند ، أو الملحق أو عجائب الهند (انظر ما تقدم . ص ٢١٤ – ٢٢٠ ، ٢٢٥ – ٢٢٦) ، يستوحي تدوين هذه الفوارق هنا من اهتمامات سياسية في الواقع : فهداية البلغار مهمة ابن فضلان الخاصة (انظر حول هذا الموقف ، بنوع خاص ، ص ١١٧ ، ١٣١ – ١٣٢ ، مشار إليها سابقاً ، و ١٣٤) .

(٦٢٧) ص ١٠١ . أمثلة أخرى : ص ١٢٠ ،حول شخص بلغاري : وكان رجلا له منظر وهيبة بدين عريض كأنما يتكلم من خابية » . ص ٨٣ – ٨٧ : تدوينات واقعية عن البرد في خوارزم ، والاكسية التي يقتضيها ،وبعض العادات أو المواقف التي يوحي بها ، ويمثل جميع ما تقدم الترجمة المعاشة والتجريبية ، عن الموضوع النظري لعلاقة الإنسان بالأرض والمناخ : انظر ما تقدم ، فصل ١ و ٢ ، ص ٠٠٠ – ٠٠٠ ، وأماكن أخرى . وهنالك مثال آخر أهم أيضاً ، لأنه يوضح ما يمكن أن يجنى من فائدة لدراسة الأدب العربي ودوافعه ، وتقنياته ، من ملاحظة تطور بعض الموضوعات الجوهرية ، لنأخذ مثلا موضوع مناقب الترك ، الذي يعالجه الجاحظ في الإطار العام العائد إلى توزيع المهارات المتنوعة لدى الانسان على الفئات العرقية الكبرى على الأرض (انظر رسالة إلى الفتح بن خاقان ، أماكن متفرقة) . ويمثل ابن فضلان (ص ١٠٣) مرحلة الانتقال من الموضوع النظري إلى توضيحه المعاش : « ولقد رأيت يوماً ، وهو يسايرنا على فرسه ، إذ مرت وزة طائرة ، فاوتر قوسه ، وحرك دابته تحتها ، ثم رماها ، فاذا هو قد انزلها . اخيراً هاك مع الهمذاني (المقامة الأسدية ، طبعة م . عبده ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ٣٣ وحاشية ٧ – ٣٥ ، بالسجع الخاص بهذا المؤلف تركيا « يأخذ قوسه . . . »

(٦٣٨) الرسالة ، ص ١٣٦ – ١٤٠ ، ترجمة ، ص ١٠٨ – ١١٠ : بالتالي ، مقطع قصير نوعاً ما ، ومعروض على انه مستقى من أخباري (وقد ينزل الخبر احياناً إلى المرتبة الثانية : انظر ص ١٣٧ آخرها – ١٣٨) . وقد يقال إن ابن فضلان يزعم أنه قد

مضى ، على حد أقوال مضيفيه ، لينظر إلى عظام رجل من يأجوج ومأجوج (ص ١٣٩ – ١٤٠ وهذا المقطع محرف كثيراً أصلا) ، إلا أن المؤلف لم يقل أبداً صراحة أنه تعرف على بقايا بشرية في تلك العظام ، وإذا صدقنا ياقوت (معجم البلدان ، جزء ١ ص ٨٨ ، يعطي رواية مقتضبة ومتحفظة فيما يتعلق بأحجام العظام) فقد شك صراحة بهذا الخبر .

(٦٣٩) ذكريات حيوانات قديمة بنوع خاص ، مثل المأموث أو الكركدان الشمالي . يذهب بعض المؤلفين إلى حد الاعتقاد بان الكركدن « لم يكن قد انقرض من سيبريا في ذلك العصر : الرسالة ، ص ١٤١ – ١٤٢ ، ترجمة ، ص ١١٢ – ١١٣ ، وحاشية ٢٧١ .

(٦٤٠) ص ١٢٣ – ١٢٤ ، ترجمة ، ص ٩٥ – ٩٦ وحاشية ١٩٨ .

(٦٤١) امثال الناس والدواب ... اشباح تشبه الناس ... اتبينها واتخيلها .

(٦٤٢) ص ١٢٥ – ١٢٧ .

(٦٤٣) في النهاية ، لا نجد أبداً ما يحمل طابع العجيب الدائم إلا ما أعلنه ابن فضلان ، عن حية «بدنها قريب من بدن الشجرة في الغلظ والطول» . وهذا الموضوع أحد المواضيع المفضلة في الأدب ، مثلما يلاحظ بحق م . كانار (ترجمة ، ص ١٠٠) ، حاشية ٢١١) . ولا يشير ياقوت (جزء ١ ، ص ٤٨٧ – ٤٨٨) إلى هذه الظاهرة ، مما يدفعنا إلى التساؤل (انظر أيضاً ما تقدم حاشية ٦٣٨) ما إذا كان النص المذكور عنده ، وهو اوجز على العموم ، لا يمثل صيغة أقرب إلى الأصل ، فتكون اضافات مخطوطة مشهد ، هنا كما هي الحال في أماكن أخرى ، متجهة إلى العجيب والأدب .

(٦٤٤) انظر مثلا في ثبت المؤلفين الإحالات العائدة إلى قصة سلام الترجمان .

(٦٤٥) رأينا أن اخبار الصين والهند تعود إلى عام ٢٣٧ ﻫ / ٨٥١ م ، وملحق أبي زيد إلى أعوام ٣٠٣ – ٣٠٤ / ٩١٥ – ٩١٦ م (ما تقدم ، حاشية ٥٥٤) . لسلام والجرمي علاقة بالخليفة الواثق (٢٢٧ ﻫ / ٨٤٢ م – ٢٣١ ﻫ / ٨٤٧ م) ، وتاريخ رسالة ابن فضلان ٣٠٩ – ٣١١ ﻫ / ٩٢١ – ٩٢٣ م) (انظر ما تقدم ، حاشية ٦٢٩) .

(٦٤٦) مثال آخر رائع ، خارج عن نطاق الجغرافية الصرفة : سيرة اسامة بن منقذ في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي .

(٦٤٧) يجب تمييزه عن حامل الأسم نفسه ، أبي دلف العجلي (القاسم بن عيسى) ، مؤسس سلالة محلية صغيرة في المنطقة الواقعة بين اصبهان وهمذان ، المتوفى عام ٢٢٥ ﻫ /

٨٣٩ م – ٨٤٠ م . انظر ك . ف . زيترستين ، « القاسم » ، الموسوعة الإسلامية ، جزء٣ ص ٨٤٤ – ٨٤٥ ، و ا . مارين . » « الدلفيون » ، موسوعة اسلامية (٢) ، جزء ٢ ، ٦٣٩ ، وأبو دلف الثاني ، ترجمة ، ص ٥٠ ، ٩٨ ، وابن رسته ، ترجمة ، ص ١٧٩ (وحاشية ٤) ، ص ٢٠٤ – ٢٤٢ .

(٦٤٨) حول السامانيين ، يحسن أن نطرح ، مثلما فعلنا ، قضية العلاقات المحتملة بين أبي دلف ووزير هذه السلالة ، الجغرافي الجيهاني (انظر ترجمة مينورسكي للرسالة الثانية ، مشار إليها سابقاً ، ص ١٤ ، ٢٤) . في الواقع ، إذا كان أبو دلف قد عرف بلا شك مصنف الجيهاني ، وربما استلهم منه تفاصيل رسالته الأولى عن الترك (انظر مينورسكي ، مشار إليه سابقاً) ، فمن المؤكد بالمقابل تقريباً (انظر ثبت المؤلفين) ، أن الجيهاني كان متوفى في ذلك الوقت : وفي أفضل الاحتمالات قد يكون أبو دلف عرف ابنه ، أبا علي الجيهاني ، المتوفى عام ٣٣٠ هـ / ٩٤١ – ٩٤٢ م .

(٦٤٩) انظر مينورسكي ، مشار إليه سابقاً ، ص ١٧ – ١٨ ، والمقدسي ، طبعة دي خويه ، ص ٣٣٧ .

(٦٥٠) حسب الثعالبي ، ذكره مينورسكي ، مشار إليه سابقاً ، ص ٩ .

(٦٥١) انظر الإحالات في ثبت المؤلفين .

(٦٥٢) مينورسكي ، مشار إليه سابقاً ، ص ٢٦ .

(٦٥٣) حول الشرق ، انظر دراسة ر . بلاشير و ب . ماستو ، في مدخلهما إلى « مختارات من مجالس الهمذاني» ، باريس ، ١٩٥٧ ، ص ١٠ – ١٣ .

(٦٥٤) يمثل سيرانو وريتار تمثيلا كافياً ، بمغامراتهما ، « السير » التي كنا نتحدث عنها . فمصنفا تهما تجمع بين رحلة إلى القمر ، ورحلة إلى لابونية وبين الميل إلى الأنماط المتركزة المتمثلة في المأساة بالنسبة إلى الرحلة الأولى ، وفي الهزلية بالنسبة إلى الرحلة الثانية . ويمثل فوريتيير ولوساج ، هما ، « الأوراح » : فلوساج ، الذي يعني بآن واحد بالهزلية ، وهي النمط الكلاسيكي ، وبرواية التشرد أو المغامرات مع جيل بلاس أو مغامرات بوشين ، يحيا حياة خالية تماماً من الأمجاد ، وفوريتيير أكاديمي ، إلا أن احتقاره للاعراف الأدبية أو الاجتماعية يذهب إلى حد تأليف رواية برجوازية وأمثال ، خصوصاً إلى حد تحدي الأكاديمية بنشره معجمه ، فطرد منها .

(٦٥٥) انظر ف . مينورسكي في هاتين الفرضيتين في الموسوعة الإسلامية (٢) ، جزء ١ ، ص ١١٩ ، وفي اوريتس ، ٥ روماني ، ١٩٥٤ ، ص ٢٤ : استطاع أبو دلف ، الذي ينقصه المال دائماً ، إن يبتكر نقده اللاذع ... لكي يحصل على مكافأة أعظم » .

(٦٥٦) انظر ماركارت ، Streifzuge ، ص ٧٧ وما يليها ، ص ٨٣ وما يليها ، الرسالة الثانية ، ترجمة مينورسكي ، ص ١٢ — ١٨ ، حيث يبين أن أبا دلف ذهب بلا ريب من بخارى إلى سجستان ، وأن رحلته المزعومة حتى مقاطعات نان شان وقنصوه (على بعد ٥٠٠ — ٧٠٠ كم إلى جنوب الحدود الجنوبية من منغولية الخارجية الحالية) تثير الشك بسبب ما في تعداد اسماء قبائل الترك المار بها من فوضى لا تصدق ، ثم أن جميع المعلومات عن ماليزية والهند منتحلة وضعيفة أصلا .

(٦٥٧) الرسالة ، ص ١٥ ، ١٩ .

(٦٥٨) هنالك حالة فريدة هي الإشارة العائدة إلى شبه جزيرة ماليزية (قلة) ، التي اعتبرت بحق (ص ١٨) نهاية الملاحة نحو الشرق ، لكن الظروف التاريخية التي جعلت منها نهاية (انظر اعلاه ، حاشية ٥٢٢ ، حاشية ٥٦٢) تصبح هنا في الشرق ما يقابل الجزر الخالدات في الغرب ، أي نوعا من « طرف العالم » السحري ، و « نقطة قصوى بالنسبة إلى المراكب التي لا تستطيع أن تتعداها وإلا غرقت » .

(٦٥٩) في أوريتس ، مشار إليه سابقاً ، ص ٢٤

(٦٦٠) بالأحرى ، إذا كانت الحاجة المالية تسير التأليف ، مثلما مر معنا من قبل (حاشية ٦٥٥) .

(٦٦١) انظر مينورسكي ، مدخل إلى الرسالة ، ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، و ب.ج. بلغاكوف و ا .ب . خاليدوف ، في طبعتهما الرسالةذاتها ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، حيث يعلنان ، بلا مزيد من التدقيق ، أن اهتمام المؤلف بالعلوم الطبيعية والطبية العقاقيرية ، يرتبط بانتسابه إلى بني ساسان . أما أنا ، فأرى في عرض هذه الإهتمامات أنفاماً كلاسيكية : أي الإحالات إلى تأثير الأماكن على صحة الكائنات البشرية أو تصرفهم (الرسالة ، ص ٣٨ ، ٤٠) ، التي تدخل تماماً في نطاق ذهنية الجاحظ ، ويعاد ذكر عقارب قصيبين أو شهرزور الشهيرة (كتاب الحيوان ، جزء ٤ ، ص ٢٢٦ ، جزء ٥ ، ص ٣٥٨) في ص ١٨ من الرسالة.

(٦٦٢) لا تنطوي الرسالة الثانية ، مثلما قلنا ، على أثر لذكريات أدبية ، بالمقابل ، لم يذكر أبو دلف ، ولا يبدو أن الأصطخري أو ابن حوقل أو المقدسي قد نقلوا عنه .

(٦٦٣) ترجمة ، ص ٨٥ – ٨٦ ، ذكر جزء من النص ، أعلاه ، ص . . .

(٦٦٤) انظر الرسالة : الأنهار : ص ١٣ وأماكن أخرى ، الجبال : ص ١٨ ، المسالك : ص ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٠ ، المباني والأعاجيب : ص ١١ ، ١٣ ، ٢٠ ، ٢١ إلخ ، المدن : ص ٣٣ ، ٣٩ ومواضع أخرى ، المحاصيل : ص٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، إلخ ، الأسعار : ص ١٧ ، الأخلاق والعادات : ص ١٨ ، ٣٢ ، مشاهير الرجال : ص ٣٢ ، الخصائص المحلية : ص ٣٢ ، ٣٧– ٣٨ .

(٦٦٥) ينبغي ، باسم المبادىء ذاتها التي اعتمدنا عليها في الرسالة الأولى ، رفض مايتذرع به ف . مينورسكي (مدخل إلى الرسالة ، ص ٢٥ – ٢٦) من أسباب ، لجعل المرسل إليه مقيماً في العراق ، وبالتالي لا يصدم بمبالغات أبي دلف .

(٦٦٦) انظر ب . ج . بلغانوف ، و ا. ب . خاليدوف ، مشار إليهما سابقاً ، ص ٢٢ . يصل الميل إلى الماضي الفارسي والديلمي أحياناً إلى حد « الشعوبية » ، وهذا أمر غريب عند رجل عربي ، يخدم قلمه على هذا النحو ، عن قناعة أو عن مصلحة ، المعسكر المعادي تقليدياً . انظر ، ص ٣١ (ترجمة ، ص ٥١) ، حيث ورد أن العرب هدموا في منطقة الري جميع آثار المباني الفارسية القديمة . ويمكن اكتشاف استغلال « العجائب » السياسي ذاته . عند المقدسي : انظر ترجمة ، فقرة ٨٨ ، حاشية ١

(٦٦٧) نجد حالة فريدة ، فيما أعلم ، من المبالغة الصفيقة (ترجمة ، ص ٦٠ : « سوف يعتبر سامعي هذا الأمر مبالغة مني ، مع أني أوردت فقط ماعاينت ») تتعلق بنيسابور ، حيث يمكن أن يزن جذع الراونه حتى ٤٠ كغ ، والسفرجلة الواحدة ٣ ، ١ كغ (الإحالة ذاتها ، مع تعليق ، ص ١٠٧) .

(٦٦٨) ص ١٢ ، ترجمة ، ص ٣٥ .

(٦٦٩) الرسالة ، ص ٣٤ – ٣٥ ؛ ترجمة ، ص ٥٤ – ٥٥ . بالفعل ، أعلى قمة في جبال البورز (دماوند ، دنباوند) كتلة بركانية كانت نشاطها بلا ريب أشد مما هو عليه الآن ، مما يعطي لما يقوله أبو دلف من أنه تعرض إلى مخاطر ، قيمة حقيقية . فقد لاحظ جيداً جداً الظاهرات ، لاسيما الكبريتية منها ، ويختتم بحق تام : « فالدخان المعتبر نفس (كائنات أسطورية حبيسة الجبل) هو مجرد بخار النبع الكبريتي . وهذا التركيب يعطي مظهراً منطقياً لما يدعيه عامة الناس » . حول هذا الجبل ، انظر م . ستريك ، موسوعة

إسلامية (٢) ، جزء ٢ ، ص ١٠٨ – ١٠٩ (لايشير إلى أبي دلف) . يقارن أبودلف بابن الفقيه ، ص ٢٧٤ – ٢٧٩ .

(٦٧٠) الرسالة ، ص ٤١ ، ترجمة ، ص ٦٠ .

(٦٧١) وإذا أخذنا بعين الإعتبار الميل المتزايد إلى النثر المسجوع ، البادي في المسالك والممالك في وقت لاحق ، أمكننا أن نتوقع تبديل تدوينات شبيهة بتدوينات أبي دلف ، بأسلوب المقدسي الإنشائي . لنأخذ (الرسالة ، ص ١٧) الجملة التالية : « أرمينية رخيصة الأسعار ، وربما كان القحط بها عظيماً جداً » . ويمكن جيداً جداً أن نتصور عند المقدسي الشكل التالي : أرمينية / رخيصة الأسعار / قليلة الأمطار / ربما كان . . . مع ادخال متزاوجات صوتية .

(٦٧٢) يجب أن نفكر مجدداً ، هنا أيضاً ، بصفة مصنف اليعقوبي الإستثنائية والرائدة.

(٦٧٣) يجب ألا ننسى أن الرسالة الأولى كتبت بمناسبة سفارة قصد بها معالجة قضية « الزيجات التركية » لصالح السامانيين في بخارى .

(٦٧٤) انظر حميد الله ، « أوربة والشرق الإسلامي » ، في أرابيكا ، ٧ روماني ، ١٩٦٠ ، ص ٢٨١ – ٣٠٠(مع المراجع) . ا . فاسيليف ، بيزنطية والعرب ، أماكن متفرقة . م . كانار ، « حملات العرب ضد القسطنطينية في التاريخ والأسطورة » ، في م ا س ، ١٩٢٦ ، ص ٦١ – ١٢١ . كذلك ، دراسة إجمالية عن العلاقات العسكرية ، والدبلوماسية ، والإقتصادية والثقافية بين بيزنطية والإسلام » في Dumbartonoaks Papers ، رقم ١٨ ، ص ٣٥– ٥٦ . انظر أيضاً المسعودي ، مروج الذهب ، جزء٢ ، ص ٣٣٥ وما يليها ، والمقدسي ، ترجمة فقرة ١٢٣ .

(٦٧٥) لامجال لإستعراض جميع السفارات العربية إلى الإمبراطورية البيزنطية ، التي نحيل بالنسبة إليها ، إلى المصنفات والمقالات المذكورة سابقاً ، فنكتفي بالإشارة إلى السفارات التي تبدو وكأنها آلت إلى كتابة رحلات : وفيما أعلم ، تشكل سفارة عمارة ، وقد نقلها ابن الفقيه (انظرثبت المؤلفين) ، حتى الآن المثال الوحيد عنها ، الذي فات حصافة كراتشكوفسكي المألوفة . ولم أجد عند ابن حوقل أثراً لعميل الإستخبارات الذي يقول سامي الدهان (مدخل إلى رسالة ابن فضلان ، ص ١٧) ، استناداً إلى هذا المؤلف ، أنه بقي عشرين عاماً في القسطنطينية ، بناء على أمر هارون الرشيد . والقصة معروفة ، لكنها ترجع إلى مصادر أكثر تأخراً بكثير ، يشك جداً في صحتها : انظر كراتشكوفسكي ، ص ١٢٩ – ١٣٠ (١٣٣) .

(٦٧٦) حول موسى بن نصير ، انظر ثبت المؤلفين .

(٦٧٧) حول قصص تبادل الأسرى ، انظر المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص٢٥٥ وما يليها (ويشير إلى تبادل الجرمي من بينهم) . وقصص مجموعة شفهياً على لسان الأسرى أو الرحالة المسلمين الآخرين في الإمبراطورية البيزنطية عند ابن حوقل ، ص ١٩٥ومايليها . وسوف يبقى تقليد السفر إلى القسطنطينية قسرياً كان أم غير قسري ، حياً حتى تاريخ متأخر : انظر ترجمة قصة الحاج عبد الله بن محمد ، الذي زار القسطنطينية في عهد اندرونيك الثاني باليولوغ (١٢٨٢ — ١٣٢٨) ، بقلم عز الدين ، في م ا س ، ١٩٥٨ ، ص٤٥٣—٤٥٧

(٦٧٨) انظر ماتقدم ، ص ٢٢٧ . حول التحقق من الشخص ، انظر ثبت المؤلفين .

(٦٧٩) المرجع ذاته .

(٦٨٠) انظر كانار في د ش ذ ل ب ، مشار إليها سابقاً .

(٦٨١) كراتشكوفسكي ، مثلا ، ص ١٣٥ (١٣٧) ، يستطيع بعد دي‌خويه أن يجد في قصة المغرورين آثار فولكلور واضحة .

(٦٨٢) إذا كان الشراخف ، مبدئياً ، بالنسبة إلى عمارة بن حمزة ، الذي نقله ابن الفقيه ، ومحمد بن موسى (نقله ابن خرداذبه ، والمسعودي) ، والجرمي (نقله ابن خرداذبه) وهارون بن يحيى (نقله ابن رسته) ، ماذا نقول عن الأسواني ، المعروف فقط من خلال المقريزي (القرنان ١٤ — ١٥) ، الذي نقل عنه المنوفي ، وابن إياس (القرن الخامس عشر ، انظر ج . ترويو ، في أرابيكا ، ١ روماني ، ١٩٥٤ ، ص ٢٧٦— ٢٧٧) وعن ابراهيم بن يعقوب الذي نقله البكري (القرن ١١) والقزويني (القرن ١٣) ، وماذا نقول عن المغرورين (الإدريسي (القرن ١٢)) ،أخذ عنه أبو حامد الغرناطي (القرن ١٢) والعمري (القرن ١٤) ،) ، وخصوصاً عن الغزال (ابن دحية ، (القرنان ١٢ — ١٣) ، وعن المقري (القرنان ١٦— ١٧)) ؟ سنعود إلى هذه المسألة فيما يلي ، ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٦٨٣) هذه هي بنوع خاص حالة خالد البريدي (المقدسي ، ترجمة فقرة ١٢٣ ، حيث لا يتنافى الاسناد المعطى ، مبدئياً ، مع إنتاج هذا الشخص ، وفي زمنة ، لرحلة خطية) ، وحالة مبعوثي هارون الرشيد إلى جزيرة العرب الجنوبية (الإدريسي ، طبعة جوبير ، جزء ١ ، ص ٦٤ ، ذكرها كراتشكوفسكي ، ص ١٢٩ (١٣٢)) . أخيراً ، يجدر بنا ألا ننسى جميع المصادر الشفهية (انظر ماتقدم ، حاشية ٦٧٧) التي لا مجال لذكرها

في هذا الفصل ، الموضوع كثبت مكتوب للمصادر المكتوبة (المعروفة مباشرة أم غير المعروفة) .

(٦٨٤) حول محمد بن موسى وحسه النقدي ، انظر كراتشكوفسكي ، ص ١٣٠ (١٣٣) . حول الجرمي ، وصحة وصفه الإداري لإمبراطورية بيزنطية ، المرجع ذاته ، ص ١٣٢ (١٣٤) . وإذا كان هارون بن يحيى ينجرف في وصفه رومية في نزعته إلى العجائب التي لا تستبعد أصلا أساساً واقعياً ، فهو يعطينا على أي حال ، معلومات بالغة الأهمية عن القسطنطينية . تبقى طبعاً مسألة حجم هذه المقاطع الضئيلة إلى أقصى حد : ويبدو أن أخطر ضياع أصاب مصنف الجرمي لأن أصله أوسع من سائر المصنفات (انظر كراتشكوفسكي ، ص ١٣٢ أسفلها (١٣٥)) .

(٦٨٥) حدد هدف الرحلة بأنه علمي صرف : أي معرفة شكل بحر الظلمات (المحيط) وحدوده .

(٦٨٦) يعطينا تصوراً صحيحاً بعض الشيء عن نظام النيل وروافده ، ثم لوحة مفصلة جداً ودقيقة عن تنظيم النوبة وبيجا إدارياً وسياسياً . إلا أن المقريزي يكرر بأمانة هذه اللوحة ، فيدل على مفهوم رفيع لديه عن شرفه ككاتب ، لكنه يقع في عيب آخر : هو غياب مفهوم التاريخ لديه . وتجري الأمور وكأن الأربعة قرون التي تفصله عن الأسواني مرت على هذه البلدان دون أن يتغير فيها شيء .

(٦٨٧) يؤخذ هذا اللفظ طبعاً دائماً على مستوى التقييم الموضوعي لواقع تاريخي ، مع العلم أن النصوص لا تقل قيمتها عن غيرها في مجال دراسة الذهنيات الإجتماعية .

(٦٨٨) حتى لو وجد العجيب مبدئياً في البلاط البيزنطي ، فأساليب عرضه هنا (ابن الفقيه ، ص ١٣٧– ١٣٩) تظل مسفة .

(٦٨٩) استطاع ليفي بروفنسال (كرره ا . هويس ميرندا ، في الموسوعة الإسلامية (٢) ، جزء ٢ ، ص ١٠٦٢) أن يشير (« تبادل السفارات بين قرطبة وبيزنطية في القرن التاسع » ، في بيزنتيون ، ١٢ روماني ، ١٩٣٧ ، ص ١– ٢٤) إلى ما يتخلل الموضوعات نفسها من قلق دائم في قصة سفارتي غزال إلى القسطنطينية وجتلاند ، كالتحايل لتحاشي الدخول إلى محضر العاهل حاملا النير ، ثم صداقته الغرامية للملكة ، وإرسال القصائد . فاستنتج ليفي بروفنسال أن قصة جتلاند « عدوى لا حقة» إذ إن السفارة إلى القسطنطينية وحدها حقيقة تاريخية . وقد انصف كراتشكوفسكي ، ص ١٣٣ – ١٣٤ (١٣٦) .

هذه الفرضية . مع ذلك بقيت مقالة ليفي بروفنسال أساسية ، مادامت تثبت استثمار هذه الموضوعات : بالفعل تحيل إلى حوليات مجمعة ، سبقت بلا شك نصوص ابن دحية والمقري ، تحوي هذه الموضوعات : بالتالي لم يسع مستقبل هذه الموضوعات الشعري ـ العجائبي إلا أن يتمكن مع الأجيال .

(٦٩٠) حتى لو سلمنا ، كما هي الحال سابقاً (ص ١٣٥ — ١٣٦ ، ١٤١) أن الكتابة ذاتها لا تتنافى مع بعض الصيغ الأدبية ، يستغرب مع ذلك ، هنا ، أن تقتصر ذكريات سفارات الغزال على هذه الأشكال حصراً .

(٦٩١) « التقليد المحمدي . . . » ، في ZDPV، ٢ روماني ، ١٨٧٩ ، ص ١٤. الدراسات المحمدية ، جزء ٢ ، ص ٣١٨ ، حاشية ٢ . آخر ما توصلت إليه القضية في ج . سورديل تومين ، مدخل إلى ترجمة الهروي ، كتاب الزيارات ، دمشق (م ف د) ، ١٩٥٧ .

(٦٩٢) انظر الإحالات عند ج . سورديل تومين : مشار إليه سابقاً ، ص ٣٠ روماني ، الحاشيتان ٢ ، ٣ .

(٦٩٣) مع استثناءات نادرة جداً تقريباً ، تمثل أصلا مصنفات مفقودة : انظر الدراسات المحمدية ، مشار إليها سابقاً ، وج . سورديل تومين ، ص ٣٠ — ٣٥روماني .

(٦٩٤) انظر ف . مونتيل ، مدخل إلى « الوعد المقطوع » ، ص ٢٧ ومايليها .

(٦٩٥) انظر مايلي ، القسم الثاني الفصل ٧ . نمط ذاته مطور عن موضوع المقارنة والمفاخر والمثالب : انظر ما تقدم ، فصل ٢ ، حاشية ٢٤٠ ، حاشية ٢٤٢ .

(٦٩٦) ومثله أيضاً ، بصورة ثانوية من أدب « العجائب » : انظر ج . سورديل تومين ، ص ٣٧ روماني .

(٦٨٧) أسماء أخرى في ك . عواد ، مدخل إلى طبعة كتاب الديارات ، ص ٢٢— ٢٦.

(٦٩٨) مشار إليه سابقاً ، ص ١٩ : المؤلف (الذي وصف سابقاً بأنه أديب) « لم يورد فى كتابه إلا ما لذ وطاب من مستملح الأخبار وبديع الصفات . . . فكتب ما كتب بأسلوب جميل أخاذ ، يذكرنا بأساليب أئمة الأدب في المئة الرابعة للهجرة « /العاشر الميلادي» . فدون أن نشترك بحماس الناشر لأسلوب الشابشتي ، يمكن أن نقر له بالبساطة ، والسهولة وأحياناً ، رغم الصيغ الموحدة ، بعض المبتكرات الموفقة : باختصار بشيء من العناية بالأسلوب ، وهي إحدى ميزات الأدب .

(٦٩٩) انظر الأسماء المذكورة عند ك . عواد ، مشار إليه سابقاً ، ص ٢٧ وما يليها .

(٧٠٠) هـ . لاهوست « مفصل قانون ابن قدامة » ، دمشق (مفد) ، ١٩٥٠ ، ص ٤ روماني (ذكر ج . سورديل تومين ، مشار إليه سابقاً ، ص ٢٠٠ روماني ، الذي يذكر أيضاً ، مع الهروي ، بضعة أمثلة أخرى عن هذه التأليفية لدى الحجاج) . حول مجمل القضايا المثارة هنا ، انظر ج . سورديل تومين ، ص ٢٢ — ٢٣ روماني ؛ د . سورديل ، « دير » ، في الموسوعة الإسلامية (٢) ، جزء ٢ ، ص ٢٠١٠ هـ . لا هوست ، « كتاب الشرح والإبانة لإبن بطة » ، دمشق (مفد) ، ١٩٥٨ ، ص ٢٨ ؛ ٩٢ روماني وما يليها . ش . كاهين ، « ذمة » ، في الموسوعة الإسلامية (٢) جزء ٢ ، ص ٢٣٤ وما يليها (في منظور تاريخي واجتماعي اقتصادي أكثر منه ثقافي) . ج . غراف ، تاريخ الأدب العربي المسيحي ، فاتيكان ، ١٩٤٤ — ١٩٥٣ ، ٥ مجلدات ، جزء ١ ، ص ٥٢ — ٧٧ ، جزء ٢ ، أماكن متفرقة .

(٧٠١) نفكر بنوع خاص بدور الكتاب المسيحي الأصل : انظر د . سورديل ، الوزارة ، أماكن متفرقة ، و « دير قنة » ، في الموسوعة الإسلامية (٢) ، جزء ٢ ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

(٧٠٢) بالتالي خاضع بحد ذاته ، إلى فصل « الجغرافية بلا جغرافيين » .

(٧٠٣) في الحالة الأولى ، نفكر مثلا بأبي دلف مسعر . في الحالة الثانية ، نعارض معطيات الرحلة بالمعالجة التي تلقاها في الملحق أو عجائب الهند .

(٧٠٤) ص ١٠٨ .

* * *

حواشي الفصل الخامس

(٧٠٥) حول هذا البرمكي ، انظر د . سورديل في م ا (٢) ، ج ١ ، ص ٧٥٠ . مقاطع ابن الفقيه المستشهد بها هنا واردة في ص ١ – ٢ من كتاب البلدان .

(٧٠٦) حول هذا الوجيه والقائد التميمي ، انظر ش . بيلا ، م ا (٢) ج ١ ، ص ٣١٣ – ٣١٤ .

(٧٠٧) حول هذه الشخصية الشهيرة في الأساطير الفارسية ، الوارد ذكرها في كليلة ودمنة بنوع خاص ، انظر هـ . ماسيه ، في م ا (٢) ، ج ١ ، ص ١٣٩٩ .

(٧٠٨) معرفة أيام الملوك وأخبارهم .

(٨٠٩) حرفياً الكور (اختيرت » الكور « للسجع مع « أخبار » السابقة لها) .

(٨١٠) إحالات كراتشكوفسكي ، ص ١٥٦– ١٥٨ (١٦٢ – ١٦٣) . ونشير هنا على سبيل الذكرى فقط إلى الرأي القائل بأن الكاتب الملخص يحتمل أن يكون ابن الفقيه نفسه . ويصعب الدفاع عن هذا الرأي ، مثلما ابان دي خويه (مقدمة كتاب البلدان ، ص ٨ روماني) .

(٧١١) كان المأمول من المخطوطة المحفوظة في مشهد أن تعطي قطعاً نصاً أكمل ، لكنها مع الأسف اقتصرت على الجزء الأول من المصنف : انظر ف . مينورسكي ، « الجيهاني الزائف » في م م د ش ا ، ٣ روماني ، ١٩٤٩– ١٩٥٠ ، ص ٨٩ ، حاشية ٥ ، ومدخل إلى رسالة أبي دلف مسعر الثانية ، مشار إليها سابقاً ، ص ٢ ، حاشية ٣ (مع المراجع) .

(٧١٢) « طريقة أخرى » في ترجمتي لهذا المقطع (فقرة ١٣) : وينبغي فهم كلمة « أخرى » بالنسبة إلى صورة الأرض والبلخي ، والكلام يتعلق بهما ، قبل هذا اللفظ مباشرة.

(٧١٣) طبعة دي خويه ، ص ٢٤١ .

(٧١٤) وهذا أيضاً رأى دي‌خويه (مقدمة كتاب البلدان ، ص ٨ روماني) الذي يشير بعد لوث ، إلى أن جميع مقاطع الأصل تقريباً ، الواردة عند ياقوت ، موجودة في المختصر : مما يدفعنا إلى التفكير بأن التلخيص الجاري لم يكن واسعاً حجماً بالقدر الذي توحي به الأرقام المحضة (خمسة أحجام للأصل — انظر المقدسي ، الترجمة ، فقرة ١٣ مكرر) مقابل المختصر ، وألف ورقة للأصل إياه (انظر الفهرست ، ص ١٥٤ ، وياقوت ، معجم الأدباء ، ج ٤ ، ص ١٩٩ — ٢٠٠) مقابل ٣٣٠ صفحة لطبعة دي‌خويه). وسنرجع إلى مناقشة هذه النقطة الدقيقة فيما بعد .

(٧١٥) انظر ماتقدم ، ص ١٣١ (وحاشية ١٦٩) ، وص ١٣٩ ، ١٥٣ ، ١٥٩ . أضف إلى الاحالات المعطاة صيغة ابن حزم (مذكورة في غرونباوم ، مشار إليه من قبل ، ص ٢٢٨ ، حاشية ٢) الذي يعتبر الجاحظ « عابثاً تهيمن عليه رغبة المزاح ، ومضللا ، لكنه مع ذلك ، كما رأينا ، لا يروي أبداً في مصنفاته كذباً مقصوداً جازماً ، وإن كان غالباً ما يذكر أكاذيب الآخرين » . وهذه الجملة محيرة ، تبين ترددها جيداً الصراع القائم بين الأسطورة المتناقلة وبين الحكم الشخصي السريع التأثر بالقلق الجاحظي ، وبكل تقصي يحترس من العقائدية .

(٧١٦) انظر ماتقدم ، حاشية ٧١٤ .

(٧١٧) تعتبر تذكرة الحفاظ للذهبي أفضل مثال عن هذا النمط .

(٧١٨) يصفه الفهرست وياقوت (مشار إليهما من قبل) صراحة بأنه « من أهل الأدب » .

(٧١٩) ص ١٩٥ — ٢٨٦ (فارس ، كرمان ، الجبل ، أدربيجان) ، ٣٠١ — ٣١٤ (طبرستان) ، يحتل الجبل وحده الصفحات ٢٠٩ — ٢٨٤ من مجمل عدد صفحات المختصر ال ٣٣٠ .

(٧٢٠) عرف ابن الفقيه أيضاً في عصره بمنتخبات نقدية عن الشعراء « الحديثين » : انظر الفهرست وياقوت (مشار إليهما سابقاً) .

(٧٢١) الزيج الأعظم : لعله زيج محمد بن موسى الخوارزمي ، الواسع الانتشار فعلا (انظر ك . ا . نالينو ، « الفلك » الموسوعة الإسلامية ، جزء ١ ، ص ٥٠) أو زيج أبي معشر (انظر دي خوية ، مشار إليه سابقاً ، ص ٨ روماني) .

(٧٢٢) ودام تداوله قروناً أخرى أيضاً ، إذ إن ياقوت ، في القرن الرابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، يعرفه على ما نرى على هذا الشكل دوماً : انظر ماتقدم ، حاشية ٧١٤. وهذا أيضاً رأي دي خويه ، مشار إليه سابقاً ، ص ٧ — ٨ روماني .

(٧٢٣) يذكر ياقوت هذا المصنف كثيراً جداً : انظر الإحالات المعطاة عند دي خويه مشار إليه سابقاً ، ص ٨ — ٩ روماني ، وما يلي ص ٢٥٨ . ورب معترض يقول إن استملاك مصنف الغير لم يكن ينظر إليه آنذاك نظرة أيامنا الحاضرة . على أن حماية الأصول القانونية — وهي ليست قديمة إلى هذا الحد — تختلف عن الحكم على الانتحال : فالمقدسي يعلم جيداً جداً ويقول صراحة ، مثلا ، إن كتاب الجيهاني قد احتوى على جميع أصل ابن خرداذبة (طبعة دي خويه ، ص ٢٤١) ؛ ولا يفوت ياقوت ، عند حديثه عن ابن الفقيه ، الذي يحترمه مع ذلك بما فيه الكفاية ليستغله استغلالا واسعاً ، إن يعيب عليه انتحاله الجيهاني دون الاشارة إليه ، فيقول : « سلخ كتاب الجيهاني » (مشار إليه سابقاً) : أي حرفياً انتزع جلد مصنف الجيهاني ، وتباهى به على غير حق (صيغة كررها الفهرست ، مشار إليه سابقاً) .

(٧٢٤) ينبغي فهمها بالمعنى التالي : المعلومات الجغرافية عن المدن جافة ، مثل معلومات الجدول الفلكي (الذي يكتفي باعطاء موقعها على الكرة) ، ويؤيد هذا القول النص المستشهد به ، ص ١٥٥ ، س ١٦ — ١٧ (من هذا الكتاب) .

(٧٢٥) ص ١٠٦ ، حاشية ١ .

(٧٢٦) نحيل هنا أيضاً ، إلى حاشية ص ١٠٦ ، المشار إليها من قبل ، حيث بينا كيف تعالج الأمثلة النادرة العائدة إلى التدوينات المرقومة ، في اطار تحولها إلى أدب .

(٧٢٧) مشار إليه سابقاً ، ص ٩ — ١٠ روماني .

(٧٢٨) تتضح جميع هذه الفروق الحجمية وضوحاً تاماً في الحواشي والتعليقات ، بفضل دقة دي خوية الدائمة والرائعة .

(٧٢٩) أورد دي خويه (مشار إليه سابقاً) تماماً ٥٧ مثالا ، لكن ينبغي أن نطرح منها :

١ — مقطعين أخذهما ابن الفقيه ذاته عن البلاذري (مذكورين سابقاً ، ص ٩ روماني ، س ٨ — ٩ ، ٣٦ — ٣٧) .

٢ — تسعة مقاطع لخصت فعلا عند الانتقال إلى المختصر ، الذي يحتفظ مع ذلك بأثر

منها ، بنسب متفاوتة (ص ٩ روماني ، س ١٢ — ١٣ ، ١٥ — ١٦ (مثالان) ، ٢٥ — ٢٧ ، ٢٩ — ٣٠ ، ٣١ — ٣٢ . ٣٤ — ٣٥ ، ٣٨ — ٣٩ ، ص ١٠ روماني ، س ٥ — ٦) .

٣ — أخيراً ١٥ مقطعاً اختفت تماماً بلا ريب ، وتتعلق بمواضيع حوفظ عليها هنا وهناك في المختصر : فاسوان ، وبرذعة ، وبرهوت ، وعقرقوف (في مقطعين اختفيا) ، وجنديسابور ، ونيسابور ، وسابور هوسط ، وجيحون ، وحضرموت ، والحوز ، والامبراطورية البيزنطية (في مقطعين اختفيا) ، وزمزم ، وعانا ، جميعها عناوين بترت ، تقطعاً ، من مقاطع ذكرها دي خوية ، وإن كانت موجودة فعلا في المختصر من ناحية أخرى ، خلافاً للاحد وثلاثين عنواناً المحتفظ بها ، التي اختفى حتى اسمها اثناء التحويل إلى مختصر . والرقم ٣١ حد أدنى بلا ريب ، لأنه يحتمل جداً ، مثلما اشار دي خويه (ص ١٠ — روماني ، س ٧ — ١٠) أن يكون ياقوت قد أخذ أكثر من مرة عن ابن الفقيه دون أن يذكره . لكن عندئذ ، ينبغي أيضاً ، لنفس الأسباب ، رفع الرقم ١٣٢ وجميع هذه الإضافات ، مثلما نرى ، تثير الجدل حتماً . وعلى هذا المستوى ، يمتاز نهجنا بابراز مقادير مرقومة ، وله ميزة أخرى ، في نفس اطار الطريقة المرقومة المأخوذ بها على هذا المنوال : فلم نأخذ بعين الإعتبار ، فيما يتعلق بالتوافقات بين نصي ياقوت والمختصر ، منهجياً ، إلا انتحالات المقاطع (المقاطع المؤلفة من كلمة أو سطر استبعدت مثلما قلنا) ، بتعبير آخر ، حددنا رقم هذه التوافقات عند مستواها الأدنى ، فعلمنا أن النسبة القائمة تمثل حقاً الحد الأدنى للدلالة على أمانة المختصر لكتاب البلدان .

(٧٣٠) نسبة الـ ١٣٢ موضوعاً المحتفظ بها في المختصر إلى مجمل الـ ١٦٣ (١٣٢ + ٣١) المعالجة في الأصل .

(٧٣١) « اخذه عن كتب الناس » ، الفهرست وياقوت ، مشار إليهما سابقاً .

(٧٣٢) ص ٢٨٤ — ٢٨٦ .

(٧٣٣) ص ١٦ — ٤٤ ، ٩١ — ١٢٧ ، ١٦١ — ١٩٢ .

(٧٣٤) ص ٢٩٠ آخرها .

(٧٣٥) انظر ما تقدم ، ص ••• — ••• .

(٧٣٦) في الحد الأدنى في المثال المذكور هنا . من أجل مجمل وضع اليعقوبي ، انظر فيما يلي . ص ٢٩٣ .

(٧٣٧) متذرع بها صراحة ، ص ١١٦ (بشأن الأهواز) ، ٢٥٣ (نخيل البصرة) . حول انتحال المواضيع الجاحظية ، دون ذكر اسم الجاحظ ، انظر ما يلي ، حاشية ٧٦٩ .

(٧٣٨) حول الموضوع واصوله انظر س . أ . دبلر ، الموسوعة الإسلامية (٢) جزء ١ ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

(٧٣٩) انظر ما تقدم ، خصوصاً الفصل ١ ، حاشية ٤٨ ، الفصل ٣ حاشية ٣٢٩.

(٧٤٠) مثال (ص ٣٢٥) : نمل ، مثل الكلاب السلوقية ، يحرس الذهب فيما بين خراسان وارض الهند . ويطرح له اللحم ليشتغل به . مثال نموذجي : طرافة الكلاب السلوقية ، وأصلها من جزيرة العرب الجنوبية أو من الهند حسب مصادر أخرى ، موضوع شهير في هذا النوع من الأدب (انظر الإحالات عند ج . وايت ، ترجمة ابن رسته ، ص ١٥١ ، حاشية ٤) . يلتقي هنا مع الحيوان الذي يحرس الكنز ، الوارد مثلا في رحلة السندبا د الثانية وفي عجائب الهند (فقرة ١٨١) .

(٧٤١) لائحة طويلة لهذه « العجائب » ، ص ٢٥١ — ٢٥٥ .

(٧٤٢) على التوالي ص ٦٦ ، ٦٧ و ٧٦ .

(٧٤٣) ما تقدم ، ص ٢١٢ .

(٧٤٤) حول مزج أبواب الأدب ، انظر ، ص ٤١ — ٤٦ . حول إعلان مبادىء الأدب ، ص ١ — ٣، ١٩٣ — ١٩٥ .

(٧٤٥) ص ١٩٥ بلفظ جزل ومخرج سهل » .

(٧٤٦) هذه النظريات الأدبية معروضة « في ص ١٩٣ — ١٩٥ ، المذكورة سابقاً ، خصوصاً ص ١٩٣ ، س ٩ وما يليه ، حيث أعطى ، على حد ما « الحكماء قالت » ، هذه النصيحة إلى من أراد صناعة الكتابة ، أو وسم نفسه بقول الشعر : « فلا يدعوه العجب بها وبنفسه إلى أن ينتحله أو يدعيه ولكن يعرضه على العلماء في عرض رسائل أو اشعار أو خطب أو اخبار ، فان رأي الأسماع تصغي إليه ورأى من يطلبه ويستحسنه انتحله وادعاه » . وهذا النص أساسي ، لأنه يبين أن الاستحسان الجماعي لمصنف لا يمكن أن ينشأ إلا عن توافق هذا المصنف مع قواعد مقبولة أصولا ، ومع عادات مكررة نهائياً ، بالتالي يصبح الانتحال (انتحال الهجة أو العقلية أو المادة) ضرورياً إلى حد يجعله يمتزج مع عمل الكتابة ذاته : ومن هنا جاء الاقتران الدائم بين الإدعاء والانتحال ، المعبر عنه عادة بـ « النقل » أو « السرقة » ،

الذي ينبغي درجة في الواقع في عداد الأضداد (جمع ضد) التي تفتخر بها اللغة العربية : ادعاء المصنف الكاتب نفسه مع تأليفه اعتماداً على النقل . وفي الوقت نفسه ، نشير إلى إبهام اخر : أي ابهام النقد الأدبي المتصور على هذا النحو ، الذي يفرض الكتابة حسب قاعدة معينة ، ويدين السرقة إذا مورست بوقاحة وانتظام (بالفعل لا نتصوران ينخدع هذا الجمهور من « العارفين » إلى درجة يوافق فيها على نسبة مصنف موجود من قبل ، مهما كان ، إلى مؤلف جديد . ويحترس ابن الفقيه جيداً في الواقع من اعطاء نصائح تؤيد السرقة التامة) مع ذلك ، لا يبدو هذا الإبهام نوعياً في النقد الأدبي : فقضية القاعدة ، والتجديد ، و « التقليد » و « العبودية » تلازم في الواقع جميع اشكال النقد .

(٧٤٧) ص ١٩٤ . لخصت النص الذي يقول حرفياً : « ... محل في القلوب ومجال في الآذان ، فعلى قدر نقاء الكلام وعذوبة الفاظه وجودة معانيه يجذب القلوب ، وتحرص الآذان على التقرب منه ... » .

(٧٤٨) وطغى حتى على الأدب الديني ـ ويبدو لي أن كتاب التوابين مثال واضح بما فيه الكفاية على ذلك . وهو لابن قدامة ، الفقيه الحنبلي ، المتوفى عام ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م . ولم يفت الناشر ج . مقدسي أن يعجب لهذه الصفة ، فأشار على حق واضح (دمشق م ف د ، ١٩٦١ ، ص ١٨ روماني) ، كمرجع أساسي للمصنف ، إلى « أساس أدبي مسلم وافر ومتنوع إلى حد يصبح بلا جدوى اقامة علاقة بين كل خبر ومصدره الدقيق » .

(٧٤٩) حول هذه النقطة ، نحيل إلى مقالة س . ا . دبلر ، مشار إليه سابقاً .

(٧٥٠) نترك جانباً المفكرين والكتاب ، ولا نذكر إلا الشخصيات التاريخية المحضة ، التي يروي ابن الفقيه افعالها أو احاديثها .

(٧٥١) ليس لليونان مثل هؤلاء الأبطال ، إذ انها تتمثل بمفكريها بنوع خاص ، الكثيرين أصلاً ، لكن دون أن يذكر أحد منهم حسب النسب المشار إليها هنا . وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد . حول الإسكندر انظر ما يلي . حول الشخصيات المذكورة هنا ، انظر فهرس كتاب البلدان .

(٧٥٢) اشير إلى سليمان في أماكن كثيرة ، منها تدمر ، الإسكندرية ، اللد ، همذان (اكبتان) ، اصطخر (برسيبوليس) ، اليمن ، اضافة إلى بيت المقدس طبعاً . حوله انظر ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧—٩٩ ، ١٠١ ،

١٠٢ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١٤٣ ، ١٧٣ ، ٢١٩ ، ٢٦٤ ، ٢٧٩ ، أي جملة حوالي عشرين استشهاداً ، مثلما نرى .

(٧٥٣) انظر ص ٨٤ — ٨٦ ، ٩٠ — ٩١ (حول مدينة النحاس ، مدينة البهت ، حرفياً : مدينة اكسيد الحديد (ايتيت) (انظر دوزي ، جزء ١ ، ص ١٢١) . ترجمت بـ « مدينة النحاس » نظراً للصيغة الأكثر استعمالا في الموضوع الوارد مثلا في الف ليلة وليلة ، جزء ٧ ، ص ٦٣ وما يليها ، وعند المسعودي مروج الذهب ، فقرة ٤٠٩) ، ٣٤٣ (القسطنطينية) ، ٢١٩ (اكبتان) همذان .

(٧٥٤) ص ٣٤ .

(٧٥٥) ص ٨٨ .

(٧٥٦) اختصر ابن الفقيه اسطورة الإسكندر بهذه الجملة (ص ٥٠) : طوى « الأقاليم» وأشاد المدن (دوخ الأقاليم ومدن المدن ، حول معنى فعل دوخ ، انظر المقدسي ، ترجمة ، ص ٣٩٥) . من ناحية اخرى ، نستغرب عندما نلاحظ أن النظر إلى الإسكندر في هذه الرؤية التاريخية الشاملة (الإسكندر وحده أو موصوفاً بذي القرنين : انظر الموسوعة الإسلامية ، جزء ١ ، ص ٩٨٧ — ٩٨٨ (ا . ميتوش) ، جزء ٢ ، ص ٥٦٨ — ٥٦٩ (مغفل الأسم) لم يحل دونها نقاش (ص ٧١) يقطع فيه ابن الفقيه ، باسم التسلسل الزمني التاريخي ، بوجوب التمييز بين البطلين .

(٧٥٧) حول هذه النقطة الأخيرة ، انظر الإحالات السابقة ، حاشية ٧٥٣ . حول اسكندر ذي القرنين ، انظر ص ٥٠ — ٥٢ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨٤ — ٨٦ ، ٨٨ ، ١٤٣ ، ١٦٠ ، ٢١٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٦٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ — ٣٠٠ ، ٣١٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، وحجم هذه الشواهد مماثل لشواهد سليمان .

(٧٥٨) حول محمد ، انظر ص ٣ ، ٩ ، ١٧ — ٢٠ ، ٢٣ — ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٧ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٥٦ ، ١٦٨ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٢٢ ، ٢٨٣ ، ٣١٦ ، ٣١٨ . حول عمر ، ص ٢٠ ، ٢٤ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٠

١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٠ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٢٩٣ ، ٣١٥ .

(٧٥٩) انظر بهذا الشأن حكم سوفاجيه الصارم ، مشار إليه سابقاً ، ص ٢٤ روماني . المقاطع المذكورة موجودة ص ١٦٣ – ١٥١ ، ٣ – ٩ ، ٩ – ١٦ .

(٧٦٠) انظر الإحالات فيما تقدم حاشية ٧١٩ ، حاشية ٧٣٣ ، أي جملة ، أقل من ٢٠٠ صفحة تمثل تلثي المصنف تقريباً . وتكاد ولاية هامة كمصر لا تشغل سوى ٢٢ صفحة (ص ٥٦ – ٧٨) ، والمغرب ١٣ (٧٨ – ٩١) .

(٧٦١) انظر ما تقدم ، ص ٠٠٠ – ٠٠٠ .

(٧٦٢) ص ٢٠٣ لن نتحدث عن الجغرافية الفلكية ، الممثلة ببعض المفاهيم المشار إليها فيما سبق ، حاشية ٧٥٩ ، مع اشارة (ص ٤) إلى محمد بن موسى الخوارزمي . حول قضية أبي معشر ، انظر حاشية ٧٢١ ، ودي خويه ، مشار إليه سابقاً ، ص ١٢ روماني .

(٧٦٣) انظر دي خويه ، ص ١١ – ١٢ روماني ، وما تقدم ، حاشية ٧٢٣ .

(٧٦٤) انظر بشأن المسالك ، ص ١٣٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣١٨ – ٣١٩ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ وبشأن الخراج ، ص ٧٦ ، ١٠٣ ، ١٣٣ ، ١٤٧ ، ٢٦٣ ، ٢٨٦ ، ٣٢٨ . وبشأن التقسيمات الأرضية والإدارية ، ص ١٣٣ ، ٢٦٣ ، ٣٠٣ ، ٣٢١ – ٣٢٢ (مع ذلك حول هذين المثالين الأخيرين ، انظر مايلي ، الحاشية ٧٨٢).

(٧٦٥) لا يسمنا طبعاً استنفاد جميع الأحاديث المتعلقة به ، نظراً لضخامة حجم المعطيات نحيل بهذا الشأن إلى فهرس كتاب البلدان على وجه العموم .

(٧٦٦) انظر مثالين مميزين عن هذه الصيغ ص ١٤٨ ، ٢٤١ – ٢٤٤

(٧٦٧) يعتمد عليه أكثر بكثير مما يدفعنا إلى الاعتقاد ذكر اسمه مرتين ، ص ٣٠٣ ، ٣٢١ : انظر دي خويه مشار إليه سابقا ، ص ١٢ روماني . لم يذكر اليعقوبي (باسم أحمد بن واضح الاصفهاني) إلا استثناء (ص ٢٩٠ – ٢٩٢) ، بمناسبة ارمينية ، دون أن نتمكن من القول ان الأمر يتعلق بانتحال من مصنفه التاريخي أو الجغرافي (ج . وايت ، في ترجمة كتاب البلدان اليعقوبي ، يضع النص (ص ٢٣٢ – ٢٣٣) ضمن مجموعة « مقاطع اليعقوبي الواردة عند مؤلفين آخرين ، دون أن يحدد إلى أي مؤلفين يمكن أن

ينتمي ، ويفترض ان الأمر قد يتعلق بنقل خبر شفهيا إلى ابن الفقيه : انظر مدخل ج . وايت ، ص ٩ روماني .

(٧٦٨) انظر ماتقدم ، ص ٠٠٠ ، ٠٠٠ — ٠٠٠ .

(٧٦٩) ذكر ص ١١٦ (باسم عمر بن بحر) ، ١٩٥ ، ٢٥٣ ، مغفل ، ص ٢٩٦ ، عند الحديث عن هجرات الأسماك ، ومسافات من البصرة إلى افريقية والصين ، وتجربة الملا حين في هذه الناحية (انظر كتاب الحيوان ، جزء ٣ ، ص ٢٦١ — ٢٦٣) .

(٧٧٠) انظر بيلا ، وسط ، ص ١٤٤ ؛ المدائني مذكور ص ٣٩ ، ١٠٥ ، ١١٥ ، ١٦١ ، ١٧٥ ، ١٩٢ ، ٣١٨ .

(٧٧٦) « عبد الحميد الأصل ، وسهل بن هارون الفرع ، وابن المقفع الثمر ، وأحمد بن يوسف (انظر د . سورديل ، الموسوعة الاسلامية (٢) ، جزء ١ ، ص ٢٨٨) الزهر (ص ١٩٤) . وذكر ابن المقفع مرتين اخريين ، لكن بصورة ثانوية ايضاً ، ص ٢٨٤ (بمناسبة أصل اسم اذربيجان) و ٣١٧ (كمثال وحيد مع الفضل بن سهل ، وزير الخليفة المأمون ، على فرس شهيرين منذ ظهور الاسلام) .

(٧٧٢) ابرز ش . بيلا قرابتهما الذهنية ، مشار إليه سابقا ، ص ١٤٤ — ١٤٥ ، والمدائني اقدم من الجاحظ أصلا وأشد ميلا منه إلى التاريخ : ولا ريب مطلقا ان هذه النزعة لديه جعلت ابن الفقيه يفضله .

(٧٧٣) حول هذه النقاط جميعا ، انظر ماسبق ، ص ١٩ — ٢١ ، ٤٤ — ٤٥ ، ٦٤ ، ٦٨ ؟

(٧٧٤) ص ١٥٢ ، ٢٣٨ ، ٣٠١ ، ٦٠ ، ٣٣٠ ، ١٦٠ . ممن ذكروا أيضاً : دوروتيوس (سيدونيوس) ، مؤلف قصائد فلكية (ص ٥) (وحاشية د انظر كروازيه ، الأدب اليوناني ، جزء ٥ ، ص ٤٥٠ ، حاشية ٥) ، وهرميس (ص ٧ كروازيه ، جزء ٥ ، ص ٨٤٢ — ٨٤٣ ، انظر ايضا الجاحظ ، كتاب التربيع ، طبعة بيلا ، ص ١٨ — ١٩ من الفهرس) ، وفيستوس (ص ١٥٢ أو كاستوس ، كوستوس : انظر الفصل ١ ، حاشية ٧٨) ، تيمستيوس (ص ٢٠٧ (وحاشية ط) ، كروازيه ، جزء ٥ ، ص(٨٧٢ — ٨٧٧) ، وتيودوز (ص ٢٢٣) ؛ بالاحرى حسب النص ، النحوي تيودوسيوس الاسكندري ، من القرن الرابع آخره (انظر كروازيه ، جزء ٥ ، ص ٩٧٣) ، وليس القس تيودوز ، مؤلف رحلة إلى الأرض المقدسة (القرن السادس .

حوله.انظر مدخل ش . غيلد مايستر لطبعة هذه الرحلة (موقع الأرض المقدسة ، بون ، ١٨٨٢) ، (ص ٣ — ١٤) ، أو الرياضي والفلكي تيودوز الطرابلسي (انظر كروازيه ، جزء ٥ ، ص ٧٠٥) ، الذي أخذ أعماله نصير الدين الطوسي) أما اسم قنبوس ، ص ٢٩٦ ، فغامض بالنسبة الي . حول ابولونيوس ، انظر مايلي ، ٧٧٦ ، حاشية ٧٧٦

(٧٧٥) ص ٦٠ ، يصحح النص حسب الصيغة المبينة في حاشية ل

(٧٥٦) يمكن أن نجد مثالا جيدا عليه مع باليناس (ابو لونيوس ، الذي يشار بانتظام الى أصله الرومي) والذي يتدخل هنا فقط في تاريخ فارس الساسانية . نلاحظ انه ، خلافا لجميع الاغارقة المذكورين ، شخصية مركبة جدا ، نصف اسطورية ، قدم بنوع خاص ساحرا وشخصية تاريخية (مفكرا) ، يتفوق كثيرا بعدد شواهده (ص ٢١٢ ، ١٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٤ ، ٢٩٦) ، دون ان يصل مع ذلك إلى عدد شواهد الأبطال الفرس أو العرب المشار اليهم سابقا . حول باليناس (أو بالينوس) انظر م . بليسنر ، الموسوعة الاسلامية ، جزء ١ ، ص ١٠٢٤ — ١٠٢٦ .

(٧٧٧) لا نفكر فقط بالتقاليد ، بل أيضا ببعض المعارف « التقنية » . انظر ما تقدم ، ص ٠٠٠ .

(٧٧٨) مثلا ، ذكرت معارف الجغرافية الفلكية في كتاب البلدان تحت اسم أبي معشر أو الخوارزمي ، لا تحت اسم الائمة اليونان : انظر ما تقدم ، حاشية ٧٢١ . ونلاحظ القلة نفسها في ذكر الشواهد اليونانية (ص ٥ ، س ٧ — ١٠ ، ص ٧ ، س ٤ — ٥) في مجمل معطيات كتاب صورة الأرض في مصنفه (ص ٣ — ٩) . ونذكر بنوع خاص ان الموضوع الكبير . لعلاقة السكان بالأرض والهواء ، معالج ، في ص ١٥١ وما يليها ، معالجة ميكانيكية ، بشكل جمل تمثل « دروسا » أو « خلاصات » ويمكن جيدا ان يذكر صدفة (ص ١٥٢ آخرها) بقراط وفسطوس ، لكن لا شيء يمنع ان تندرج هذه المفاهيم في فصل يؤلف مضمونه في الواقع موضوعا أدبيا : « في مدح البناء » ، ص ١٥١ — ١٥٢ ، الذي يقابله « في ذم البناء » ، ص ١٥٦ — ١٦١ .

(٧٧٩) مثال نموذجي ، ص ٢٣٨ : يحوي تأملات طبيعية طبية ، نسبت بنوع خاص إلى بقراط ، وتتعلق ، هنا أيضاً ، بعلاقة الناس باوطانهم ، وتقترن بالموضوع الأخلاقي المقابل لها ، الواسع الانتشار في الأدب العربي (انظر رسالة الجاحظ التي تحمل هذا العنوان) الخاص بالحنين إلى الوطن .

(٧٨٠) ص ٣٣٠ ، مثلا ، يعرض افلاطون العيوب الخاصة بكل عرق (الترك ، الروم ، الخزر ، الخ) ، في حين يمثل توزيع الخصال أو المثالب على الأمم صفة نوعية في الأدب العربي آنذاك : انظر الجاحظ رسالة الفتح بن خاقان ، ص ٣٨ — ٤٦ ، وأماكن أخرى ، ابن الفقيه ، ص ١١٩ ، وقدامة م ١٥٣ ، الخ .

(٧٨١) انظر ما تقدم ، ص ١٥٦ ، ١٦١ . يمكن اجراء ملاحظة مماثلة بالنسبة إلى فارس ، التي يعتبر حكماؤها (بزرجمهر ، انوشروان ...) شخصيات اساسية في أدب الأخلاق . إلا ان ابن الفقيه ، وقبله ابن قتيبة ، واصلا اتجاها ، بدأ قبلهما بكثير ، اذ انه يرجع مع كليلة ودمنة ، مثلا ، إلى اصول النثر العربي . وسنعود فيما يلي إلى مكانة فارس في نظام ابن الفقيه ، ص ١٦٨ .

(٧٨٢) ينظر مثلا إلى بعض معطيات الجغرافية الادارية من خلال نظام الأخبار : فقد أخذت (ص ١٠٥) تقسيمات الشام الادارية عن المدائني ، وكورطبرستان ورساتيقها (٣٠٣) عن البلاذري ، وكذلك أربعة ارباع خراسان الاساسية (ص ٣٢١) .

(٧٨٣) الاناسة (انتروبولوجيا) البنيوية ، باريس ، ١٩٥٨ ، ص ٤٠٠ وما يليها .

(٧٨٤) الايضاح في علم النحو ، طبعة م . مبارك ، القاهرة ، ١٣٧٨ ه / ١٩٥٩ ، ص ٥٧ (بشأن نظرية المصدر أو اسم الفعل ، وكانت الجملة المعطاة : زيد ضرب) : « المصدر حدث والحدث احدثه زيد ، ثم حدث عنه ، والفعل حديث عنه . ومن المفيد ان نذكر ان مرادف حديث في المقطع ذاته ، كلمة أخبار (مصدر اخبر ، روى خبرا ، جمعه أخبار) ، مما يدل على ان الخبر التاريخي والدنيوي ، المشار اليه بهذا اللفظ ، يعتمد على التصورات المحللة هنا نفسها .

(٧٨٥) انظر بيلا ، الوسط ، ص ٢٤٦ ، وما تقدم ، حاشية ٢٤٠ ، وحاشية ٢٤١ .

(٧٨٦) انظر كتاب البلدان ، ص ١٦٧ — ١٧٣ ، ١٧٥ — ١٧٦ .

(٧٨٧) تسمح حسب رأي ش . بيلا (مشار اليه سابقا ، ص ٣٢ — ٣٣) ، فيما يتعلق بالامصار القديمة العراقية ، بتذكيرات ماضوية لتحاشي « سبر حاضر أضعف مجداً» .

(٧٨٨) انظر ص ٢٢٣ : «الماء حيوة كل شيء وهلاك كل شيء وغضارة كل شيء

وكاسف بال كل شيء » . والجملة منسوبة إلى تيودوسيوس ، الذي يمكن تشبيهه بمجمل الأدب الفارسي الا لهام في أصله ، سيما ان الميل إلى المناظرة (يمكن ان يخطر ببالنا « لسان » ايزيوب) وحتى إلى التناقض ، يبدو ملازما « حكمة الأمم » الشهيرة . انظر بشأن البصرة والكوفة ، ص ١٦٧ — ١٧٣ ، ١٧٥ — ١٧٦ المشار اليهما . تكمل بصفحة ١٥٤ — ١٨٧ (أيضا حول ذم الكوفة) .

(٧٨٩) ص ٧٤ — ٧٥ ، تتناول عيوب مصر ، بعد صفحات مديح (انظر بنوع خاص المفاخر ص ٥٨ بآخرها ، ٦٦) .

(٧٩٠) انظر ما تقدم ، الفصل الثاني ، حاشية ٢٤٠ ، ٢٤١ ، وحاشية ٢٤٣ .

(٧٩١) يعبر اليعقوبي جيداً ، وهو رائد النمط ، عن هذه الحالة الذهنية عندما يكتب (ترجمة ، ص ١٨٥) : « وكور مصر منسوبة إلى مدنها ، لأن لكل كورة مدينة مخصوصة بأمر من الأمور » .

(٧٩٢) ص ٢٥١ — ٢٥٥ ، حيث تدخل الأمتعة مع سائر عجائب البلدان المذكورة .

(٧٩٣) ص ٣٣٠ ، ٣١٩ — ٣٢٠ ، ١١٤ (س ١١ وما يليه) ، ١٣٥ (س ٣ وما يليه) .

(٧٩٤) ص ١١٤ ، ١٣٥ ، ٣١٩ — ٣٢٠ ، المشار إليها من قبل .

(٧٩٥) انظر مثلا في أسفل الصفحة ١٠٦ ، المخطط الكلاسيكي : « أول من ... » (اشارة إلى الوليد) المستعمل منهجياً عند ابن الفقيه (انظر الإحالات التي اعطاها ج . وايت في ترجمة ابن رسته ، ص ٢٢١ ، وما يليها ، حواشي ٢ وما يليها) ، في حين أن الجاحظ لا يستخدمها إلا نادراً جداً عندما تتفق مع الواقع (كتاب الحيوان ، جزء ١ ،ص ٨٢ ، في حديثه عن الحجاج وبناء السفن المقيرة والمسمرة ، غير المخروزة ، وكرره ابن رسته ، ترجمة ص ٢٢٧) : هنا أيضاً اختلاف في وجهات النظر ، إذ أن الجاحظ يستعمل النظام لصالح التقصي ، بينما يدخل ابن قتيبة عنوة جميع المعطيات الممكنة في اطار النظام الذي أصبح غاية بحد ذاته . ص ٣١ — ٣٢ ، بشأن اصناف تمور اليمامة (الإحالة خطأ ص ٢٩ — ٣٠)

(٧٩٧) وتتقوى أيضاً من جراء تحويل موضوع الشرق الأقصى إلى موضوع أدبي ، خصوصاً في المناظرة بين الصين والهند . ونرى الفتنة بوضوح بالغ ص ١٥ مثلا : فالمملكة الواقعة في اخبار الصين والهند (فقرة ٤ ، حاشية ٤ و ٥) في جزر لاكديف ومالديف ،

أصبحت هنا ، على ساحل البحر ، كذلك ، يعزل اهمال البيانات الطوبوغرافية ، أو المسافات اسماء البلدان ، فيجعلها اسماء بلدان اسطورية ، منفصلة بعضها عن بعض ، وملقاة في حالة من عدم الدقة .

(٧٩٨) وهذه ظاهرة بينة عن المعطيات نفسها العائدة إلى الشرق الأقصى ، خصوصاً في ص ١٥ المشار إليها سابقاً ، حيث يأتي بطريقة تراكمية توافق معطيات اخبار الصين والهند مع معطيات التقليد العربي . لكن يمكن ابداء الملاحظة نفسها على مجمل الكتاب : فيؤدي الخوف اللاشعوري من ضياع خبر معين إلى اغراق مواضيع حسية ، إذا جاز هذا القول ، كالبصرة والكوفة وبغداد أو جزيرة العرب ، بالنوادر .

(٧٩٩) مثلا موضوع مدينة النحاس ، الذي كان ابن الفقيه فيما يبدو ، وفيما أعلم ، أول من استغله منهجياً (ص ٨٤ وما يليها) .

(٨٠٠) حول الأماكن المقدسة ، انظر ص ١٦ – ٢٤ ، حول الاترجة ، ص ٦٧ ، حول الموضوعين المصريين المذكورين ، ص ٦١ – ٦٥ عن النيل ، و ص ٥٦ – ٥٧ عن اسم مصر .

(٨٠١) ص ١٤٩ – ١٥٠ (انظر ابن خرداذبة ، ترجمة ، ص ٨٧) . مثال آخر ، ص ٢٢ ، حاشية هـ .

(٨٠٢) ص ١٠ (انظر أخبار الصين والهند ، فقرة ٥) : حتى ولو احتفظ نص بن الفقيه بأثر ذكرى الجثة الرمزي الكوني حسب الجهات الأربعة ، فهو لا يعطي موضوعياً ي اثبات ، ويبدو التدوين ببساطة تعديلا يجري باتجاه العجيب .

(٨٠٣) ص ٢٥٩ (انظر أبو دلف مسعر ٢ ، ص ٢٩) .

(٨٠٤) ص ٧١ – ٧٢ (انظر ابن خرداذبة ، ص ١٦٠) .

(٨٠٥) ص ١١٨

(٨٠٦) ص ١٦٢

(٨٠٧) ص ١٧٤ باسفلها – ١٧٥ ، بواسطة الفرات ، نهر الكوفة ، اعتبر من انهار نة الأربعة . وهناك حركة من النوع نفسه ، ص ١٧٦ وما يليها : من قصر الخورنق هر الكوفة إلى اسماء بناته ، ثم إلى بناء العباسين .

(٨٠٨) المقدمة ، ص ١ — ٣ ، وصف الأرض والبحار ، ص ٣ — ١٣ ، الصين والهند ، ص ١٣ — ١٦ ، جزيرة العرب ، ص ١٦ — ٢١ ، الجد والهزل ، مدح الغربة والاغتراب : ص ٤١ — ٥٦ ، الغرب (مصر ، المغرب ، الشام ، الجزيرة ، الروم) : ص ٥٦ — ١٥١ . مدح البناء وذمه : ١٥١ — ١٦١ ، العراق : ص ١٦١ — ١٩٢ ، مقدمة جديدة : ص ١٩٢ — ١٩٥ ، فارس ، اذربيجان وارمينية : ص ١٩٥ — ٢٩٨ ، ياجوج وما جوج : ص ٢٩٨ — ٣٠١ ، طبرستان وخراسان : ص ٣٠١ — ٣٣٠ (عناوين الأحرف المائلة هي عناوين الفواصل الترفيهية) .

(٨٠٩) ب . شربنترا ، في N . N . R . F ، تشرين الأول ١٩٥٩ ، ص ٧٠٢ ، مع الفارق بان الباروك في الهندسة المعمارية يميل إلى تقوية المحور بحركة المنحنيات : أما هنا ، فكل ما يمكن أن يصبو إليه الاتجاه الخطي في العرض هو الا ينسى .

(٨١٠) طبعة بيروت ، ١٣٧٤ — ١٣٧٦ (١٩٥٥ — ١٩٥٦) ، ١٥ جزأ ، جزء ١ ، ص ٥٨٠ — ٥٨١ .

(٨١١) مثلا ، ٧٥ (« زوج ابراهيم ، وصفت بالعجيب ، أي لا يخطر ببال ، فكرة الحمل في عمرها ، » (حول موضوع : الشيء الذي لا يخطر ببال ليس القيامة ، لكن أن نفكر أن القيامة لا تخطر ببال) .

(٨١٢) القرآن ٥٠ ، ٢ — ٣ . الجملة ٢٧ شاهداً على الجذر .

(٨١٣) ص ٢٥١ — ٢٥٥ .

(٨١٤) انظر ص ٧٦ ، حيث يجري الانتقال ، بصورة لها مغزاها ، من المعنى النوعي إلى المعنى الخارق : ومن عجائب مصر الشب ، وهو حجر أسود ، مجدر ، يطفو فوق الماء ، والابنوس يرسب في الماء . فأي شيء اعجب من خشب يرسب في الماء وحجر يطفو على الماء ؟ وضروب من الخشب ترسب في الماء مثل الابنوس والشيز (خشب قريب من الابنوس : انظر اللسان ، جزء ٥ ، ص ٣٦٣) والعناب والاهندال (حرفياً : شجر الحديد ، من الفارسية آهن (حديد) ودار (شجرة ، خشب) ، المحرفة إلى دال : انظر مكتبة الجغرافيين العرب ، جزء ٥ ، معجم الألفاظ ، ص ١٥ روماني) .

(٨١٥) باستثناء فكرة سبينوزية النزعة ، تداري ، في كل شيء ، وراء القطاعة الظاهرية وبهجة الخلود ، امكانية وجود مخطط إلهي : رأينا بهذا الشأن ، اعلاه ، ص ٤٢ — ٤٣ ، ٥١ موقف الجاحظ .

(٨١٦) ص ١١٩ .

(٨١٧) ص ٢٥١ بالتأكيد استثمر موضوع السفر على نطاق واسع في كتب الأدب لكن في حين رأينا فيما تقدم (ص ٢٠٨ – ٢٠٩) ، تبريراً اخلاقياً له ، نجد هنا في مبدأ التباينات المتبادلة الذي بني عليه ، تبريراً منطقياً . فقد نشأ السفر من هذه الفوارق ، فخلق بدورة النشاط والمعرفة أيضاً . انظر كتاب البلدان ص ٥٠ : « لولا اغتراب المغتربين ما عرف ما بين الأندلس إلى الصين » ، وهذا الموضوع يقابل موضوعاً آخر ، شهيراً مثله ، تحدثنا عنه من قبل ، أي الحنين إلى الأوطان : انظر المرجع نفسه .

(٨١٨) انظر ما تقدم ص ١٣٦ – ١٣٧ . نجد الأمثولة نفسها عند المسعودي ، فقرة ٢٤٩ : « ولولا أن النفوس تنكر مالم تعرفه وتدفع مالم تألفه ، لأخبرنا عن عجائب هذه البحار » .

(٨١٩) مثلا ، ص ٢١٥ ، التي يروي فيها ، نقلا عن غيره اصلا ، دحض وجود حجر تتغير ألوانه .

(٨٢٠) خصوصاً بعلم اللغة (أصول الكلمات ، اسماء المدن ، مناقشات علم الدلالة : انظر ص ٢٦ وما يليها ، ٥٦ – ٥٧ ، ٥٩ – ٦٠ ، ٢٥٨ ، ٢٨٤ ، تداخل اسماء وصفات النتاج (التمور) ، ص ٢٩ – ٣٠ ، الذي لا يخلو من تذكير بطريقة الجاحظ في التبصر بالتجارة ، انظر أيضاً اليعقوبي ، ص ٣٦٥ – ٣٦٦ ، حول المسك) . « تجديدات » أخرى مع أخبار عن المد والجزر (ص ٩) وتدوينات عن شعلة النار والجرشي (ص ١٣) .

(٨٢٠) تكييف ، مثلما رأينا ، مواضيع اخبار الصين والهند ، بادخالها في اطار البحار البحار الشرقية الأعم (ص ٩ – ١٦) .

(٨٢١) « العجيب » ، بالمعاني المختلفة التي حددناها ، يلهم تدوينات الجغرافية الطبيعية (انظر مثلا ص ٦٠ – ٦١ ، ٧٦ ، ١٢٤ – ١٢٧ ، ٢٠٧ ، ٢٩٦) والاقتصادية (ص ٥٠ ، ٢٠٤ – ٢٠٥ أو البشرية (ص ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٥١ وما يليها ، ٣٣٠) بشأن الجغرافية الإدارية ، التي تتناول بصورة أساسيةمناطقأو حالات شهيرة ، انظر الإحالات المعطاة فيما تقدم ، حاشية ٧٦٤ .

(٨٢٢) ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .

(٨٢٣) ص ١١٧ – ١١٨ .

(٨٢٤) انظر الإحالات عند ا . غولد زيهر ، (« اختلاف » ، الموسوعة الإسلامية ، جزء ٢ ، ص ٤٨٧ .)

(٨٢٥) انظر ما تقدم ، حاشية ٨١٧ .

(٨٢٦) سيعترض بلا ريب بأن الحديث عن الخلافات المعتبرة نعمة الهية، لم يتدخل إلا لتأكيد أمر واقع عندما يجد المجتمع نفسه منقسماً فعلياً، وفاقداً أمل العودة إلى الوحدة. لكن هل يحول الشعور بهذه الفوارق ، الملحوظة بوضوح إلى حد كبير ضمن العالم الإسلامي ، دون الإحساس بالشعور الآخر ، شعور الوحدة الإسلامية هذه المرة ، متى أدركنا هذا العالم نفسه اجمالياً ، خلافاً للعوالم الاجنبية بنوع خاص ، وعالم الروم بالدرجة الأولى (انظر الفصل ٣ ، وحاشية ٤٦) ؟

(٨٢٧) انظر ما تقدم ، ص ٢٠٠ .

(٨٢٨) الأوساط (ص ١٥٣) . انظر أيضاً بشأن ما يلي الفصل ٢ ، حاشية ٢٩٥).

(٨٢٩) انظر النص ، المقنع جداً ، المترجم ، ص ٢٦٣ ، حاشية ٦ .

(٨٣٠) انظر ما تقدم ، ص ١٩٢ – ١٩٤

(٨٣١) انظر ما تقدم ، ص ٢٠٧ ، ٢٢٦ – ٢٢٧ .

(٨٣٢) انظر ش . بيلا ، مشار إليه فيما تقدم ، حاشية ٧٨٧ .

(٨٣٣) ص ٣١٤ ، في اسفلها .

(٨٣٤) انظر ما تقدم ، حاشية ٣٠٥ .

(٨٣٥) رأينا أهمية أساليب الفكر العربية (أخبار ، معاجم ، الخ) . ولعل هنالك ميزة أخرى لهذه التأليفية العربية الإسلامية ، تتمثل في امتلاك المواضي القومية ، المتصورة ، مثلما قلنا ، في منظور العناية الإلهية في تاريخ يتسامى في الإسلام : حالة الماضي القومي الفارسي لكن ايضاً استرجاع الماضي الشامي باكتشاف رأس يحيى بن زكرياء (١٠٧) ، وبناء المساجد في المدن القديمة (مثال ص ١١٢ : حالة المصيصة) وحالة الماضي المصري مع موسى ، ألخ . وهكذا تجنبت هذه التأليفية قوى معارضة تحتفظ النصوص بذكراها : فاحد اشهر الأمثلة مقاومة أهل دمشق لمشاريع الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، الذي اراد أن يستدرك بعض الأموال من مسجد دمشق (ص ١٠٨ انظر المقدسي ، ترجمة فقرة ١٤٣ – ١٤٤). ولا عجب في هذه التأليفية من جانب ابن الفقيه : فهو يمثل بدقة تامة نزعة ابن قتيبة ، التي تبرز الدور الهام الذي ينبغي أن تلعبه فارس ، لكن في حضارة لغتها ومثلها الأعلى عربيان . ونود أن نلاحظ في هذه الناحية التوافق التام بين وجهتي نظر ابن الفقيه وابن قتيبة حول موضوع الدفاع ومثال

خراسان : مثل معارضة النقد الجاحظي لبخلهم (ص ٣١٦ - ٣١٧ ، حيث أصل الموضوع الجاحظي واضح جداً ، إذ أن الجاحظ يشار إليه بتلميح (الطاعن على أهل خراسان ») بتمجيد خراسان حامية الخلافة المعهود به صراحة إلى ابن قتيبة (ص ٣١٤ - ٣١٥) . وهكذا نجد مواقف معروفة : بالنسبة إلى الجاحظ ارتياب ازاء فارس ، وبالنسبة إلى ابن قتيبة يتم تمثل فارس ذاتها ، فكلاهما يريدان أن يحافظا على أولوية اللغة والثقافة العربيتين ، ويختلفان في نهاية الأمر - تلعب اليونان دور الرائز - على صفة هذه الثقافة المنفتحة ، أو المغلقة : انظر ما تقدم ، ص ٣٩ - ٤٤ ، ٦٢ - ٦٨ . ش . بيلا ، الجاحظ » الموسوعة الإسلامية (٢) جزء ٢ ، ص ٣٩٦ - ٣٩٧ ج . لوكونت ابن قتيبة ، ص ٣٤٧ - ٣٥٨ .

(٨٣٦) ما تقدم ، ص ١٥٩ .

(٨٣٧) مثال ذو مغزى بالنسبة إلى القدس (ص ٩٩ - ١٠١) ، لم يذكر حتى مرة واحدة اسم المسجد الأقصى ، مع أنه وارد في القرآن .

(٨٣٨) مع فارق طفيف ، مما سمح بايراد الشاهد المشار إليه اعلاه ، حاشية ٧٦٧ .

(٨٣٩) انظر بالنسبة إلى قدامة والبلخي ، ما تقدم ، ص ١٧٥ - ١٧٨ ، ١٩٠ - ١٩٢ وحول المجمل ، الفصل ٣ ، واماكن أخرى .

(٨٤٠) إذا استثنينا ذكر ابن الفقيه نفسه لليقوبي (ما تقدم ، حاشية ٧٦٧) ، فلاحظ أن قبول اليعقوبي نموذجاً تباطأ أكثر بكثير من قبول ابن الفقيه : ففي حين استشهد المقدسي بابن الفقيه (ترجمة فقرة ١٣ ، ١٣ مكررة ، ٣٥ ، طبعة دي خويه ، ص ٦٨ ، حاشية و ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٤١) ، فان أول كاتب يذكر اليعقوبي صراحة ، باعتباره جغرافياً ، هو الإدريسي ، في القرن السادس الهجري / الثاني عشر ميلادي (انظر ج . وايت ، مدخل إلى ترجمة اليعقوبي ص ٢٠ روماني ، وما تقدم ، الفصل ٣ ، ص ١٠٢ ، حاشية ٥). حول حالة اسحاق بن الحسين ، انظر ثبت المؤلفين .

فهرس مواد القسم الاول

تنبيه ٥

ثبت المؤلفين : ٢٧

أولا – ثبت المؤلفين المدروسين في المجلد الحالي ٢٣

ثانياً – ثبت المؤلفين ومصنفاتهم الواجب استغلالها في دراسة الموضوعات الجغرافية ٦٧

المراجع ٧١

المدخل ٩٥

الفصل الأول

أصول الجغرافية العربية

العلوم الجديدة والعلوم التقليدية ، رياضيات الخلق

رياضيات الخلق ١٠٣

علوم الأرض : علم قياس الأرض ، علم التنجيم ، نشوء نوع من علم رسم الخرائط يسمى صورة الأرض ١٠٦

علوم الأرض : جغرافية الأرض الطبيعية ١١٠

علوم الأرض : الكائنات الحية ١١٢

العلم اليوناني والجغرافية ١١٣

العلوم الاخلاقية : علم الأخلاق ١١٥
العلوم السياسية: تقنية السلطة ١١٧
التقليد: علوم اللغة ، الجغرافية ، النزعة الفارسية ، اللغة العربية ١١٩
التقليد: العلوم الشرعية ١٢١
التقليد: التاريخ ١٢٣
إلتاريخ والجغرافية والأخبار. العلم اليوناني والعلم العربي ١٢٦

الفصل الثاني

الاتجاهات الحاسمة في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي الجغرافية والأدب عند الجاحظ وابن قتيبة

قضية الأدب ١٢٩
الجاحظ : اهميته في تكوين الجغرافية العربية ١٣١
كتاب التربيع والتدوير : اهتمام جديد ١٣٢
كتاب الحيوان : بداية جغرافية بشرية ١٤٠
كتاب الأمصار وعجائب البلدان : الجغرافية والتقليد ١٥١
ابن قتيبة : مستلزمات السنة ١٥٤
ابن قتيبة والجغرافية ١٦١

الفصل الثالث

الاهتمامات التقنية

علم الخرائط في صورة الأرض وتطوره ، الأدب الإداري وتطوره التحقيقات التجارية

- تعريف نمط صورة الأرض ومعطياته ١٦٥

مدرسة الكندي وتطورات صورة الأرض : السرخسي ، ابن
سيرابيون ، البلخي ١٦٩
نشوء الجغرافية الإدارية ١٧٨
رائد الجغرافية الإدارية : ابن خرداذبه ١٨١
الجيهاني خلف ابن خرداذبة ١٨٥
قدامة بن جعفر أو العلم الإداري الشامل ١٨٨
اليعقوبي والأدب الإداري ١٩٥
الموضوعات الإدارية في غير الأدب الإداري ١٩٧
دوام الجغرافية الإدارية وصورة الأرض ٢٠٠
قوائم الأسعار والسلع ٢٠٢

الفصل الرابع

الرحالة

الموهوبون ٢٠٧
التجارة والطرق البحرية في بحر الهند : أخبار الصين والهند ٢١٠
أبو زيد السيرافي : اعادة النظر في اخبار الصين والهند واكمالها ٢١٦
كتاب عجائب الهند ٢٢٢
الطريق الشمالية والرحالة الرسميون : ابن فضلان ٢٢٧
الطريق الشمالية : ابو دلف مسعر ، الرحلة الحقيقية والرحلة الخيالية ٢٣٥
الطرق الشمالية الغربية والجنوبية : أوربة وافريقية ٢٤١
بداية « جغرافية شفاعات روحية » ٢٤٥
خاتمة ٢٤٨

الفصل الخامس

ابن الفقيه أو الجغرافية من وجهة نظر الأدب

مصنف ابن الفقيه ومشكلة انتقاله	٢٥١
خصائص مصنف ابن الفقيه العامة	٢٥٩
مصادر كتاب البلدان ، عناصره وموضوعاته	٢٦٤
التقنيات والآليات في مصنف ابن الفقيه	٢٧١
« علم البلدان » عام على طريقة ابن الفقيه	٢٧٩
جغرافية بشرية أم نزعة انسانية جغرافية	٢٨٥
خاتمة	٢٩٢

حواشي القسم الأول

حواشي المدخل	٢٩٥
حواشي الفصل الأول	٢٩٧
حواشي الفصل الثاني	٣١٥
حواشي الفصل الثالث	٣٣٥
حواشي الفصل الرابع	٣٦٧
حواشي الفصل الخامس	٣٩١
فهرس مواد القسم الأول	٤٠٩
جدول الخطأ والصواب	٤١٣

جدول الخطأ والصواب

نأسف لحصول بعض الاخطاء المطبعية التي لا تخفى على القارىء اللبيب ، لاسيما في وضع الهمزة فوق الحرف عوضاً عن وضعها تحته ، بخاصة في الصفحات والأسطر التالية ٥ : ٤ ، ٥ : ١٠ ، ٧ : ٧ ، ٧ : ١٠ ، ١١ ، ١ ، ١١ : ٢ ، ١١ : ٦ ، ١٢ : ٦ ، ١٢ : ٩ ، ١٢ : ١٩ ، ١٣ : ٨ ، ١٣ : ٩ ، : ١٣ : ٢٠ ، ١٣ : ٢٢ ، ١٤ : ، ١٢ ، ١٤ : ٢١ ، ٥٣ : ٩ ، ٥٥ : ١ ، ١٣ : ١٣ ، ١١٥ : ٢٢ ، ١١٦ : ١ ، ١١٦ : ٢٠ ، ١١٧ : ٤ ، ١٢٠ : ٣ ، ١٢٦ : ١٤ ، ١٣١ : ، ٢٢ ، ١٣٦ : ١٨ ، ١٤٠ : ١٧ ، ١٤٨ : ١٣ ، ١٥٤ : ٧ ، ١٥٥ : ١١ ، ١٥٩ : ١٤ ، ١٦٨ : ٢٢ ، ١٧٢ : ٢٠ ، ١٧٥ : ٢٠ ، ١٧٥ : ٢٢ ، ١٨٠ : ١٣ ، ١٨٢ : ٩ ، ١٨٧ : ٢١ ، ١٩٢ : ١١ ، ١٩٧ : ٢٠ ، ٢٠٣ : ٢ ، ٢٠٩ : ١ ، ٢١٤ : ١٩ ، ٢١٧ : ١٠ ، ٢٢٠ : ١٣ ، ٢٢٢ : ١٨ ، ٢٣٨ : ٢ ، ٢٤١ : ٥ ، ٢٤١ : ١٦ ، ٢٤٢ : ٦ ، ٣٤٤ : ٤ ، ٢٤٤ : ١٥ ، ٢٤٧ : ١١ ، ٢٦١ : ٤ ، ٢٦٣ : ٧ ، ٢٩٠ : ١٦ ،

اما سائر الاخطاء المطبعية ، فندرجها فيما يأتي :

الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
٥ : ١٤	يكتشف	يكتنف
٦ : ١	مستهدّفا	مستهدِفا
٦ : ١٥	المفاهيمَ	المفاهيمِ
١١ : ٢	في في	في
١٣ : ٩	حتُى	حتى
١٨ : ١٠	مصنّف	مصنّف
٣٠ : ٤	(ص ١٠٦ — ١٠٧ (	(ص ١٠٦ — ١٠٧)
٣١ : ٣	الكندي (. . ؟ . . — نحو ٢٦٠ ﻫ ؟ ٨٧٣ م)	خط مائل عوضاً عن الهمزة
٣٩ : ١٣ — ١٤	أبي عبد عبد الله	أبي عبد الله
٤٨ : ٢٠	التاخذاه	الناخذاه
٥٢ : ٧ ، ١٣	اسحاق	اسحق
٥٢ : ١٠	أكام	آكام
٥٤ : ١٨	افريقية ومسالكها	افريقية وممالكها
٦٢ : ١١	الالفاظ الاجنبية	
٦٧ : ٧	ايرا(١) . . . ابزاهيم	ابرا(١) . . . ابراهيم
٦٧ : ١٩	مجهو	مجهول
٦٧ : ٢٢	بني همذان	بني همدان
٦٨ : ١	أبي القداء	أبي الفداء

الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
٦٨ : ٢٦	ثلد	ثلد
٦٩ : ٢	بحو (ص)	بخو (ص)
٦٩ : ١٢	غز	غز (ن)
٧٣ : ٧	ار بن خداذبة	ابن خرداذبه
٧٥ : ٤	نشرها وترجمها	رسالة نشرها وترجمها
٧٦ : ١٥ ، ١٧	اسحاق	اسحق
٨٧ : ١٣	ورد النص الإدريسي	ورد نص الادريسي
٨٨ : ١١	اسحاق	اسحق
٩٠ : ٨		
١٠٣ : ٣	نقص في العنوان	اضافة : رياضيات الخلق
١٠٥ : ٩	لم	« لم .
١١٠ : ١٩	دينامية	دينامية وصنعة
١١٢ : ٢٠	روفي	روفس
١١٢ : ٢١	واسكند	واسكندر
١١٧ : ٢١	فمستوحات	فمستوحاة
١٢٥ : ٤	اسظورة	الاسطورة
١٢٧ : ٢٢	لتفرقة	لتفرقه

الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
١٣٣ : ١	للدين	اللدين
١٣٦ : ١٧	إنه	أنه
١٣٧ : ١٤	برويا ت	بروايا ت
١٣٩ : ١٠	بعيته	بعينه
١٤٠ : ٦	وحاه	وحاده
١٤٠ : ١٥	في »	« في
١٤٠ : ١٩	كتابا في الأعضاء	كتابا « في الاعضاء
١٤٣ : ٨	دراك	ادراك
١٤٧ : ٨	ولا يفتاء	لا يفتأ
١٤٧ : ١٤	(٢٣٧) : فقد	(٢٣٧) : « فقد
١٥١ : ١٢	قرائته	قراءته
١٥٢ : ٥	لم يترخ	لم يتوخ
١٥٦ : ٤	فيبدأ	فيبدأ
١٥٩ : ٩	في مظاهرة	في مظاهرة
١٥٩ : ٢٢	جميع عبادة	جميع عباده
١٦٥ : ٥	نقص عنوان فقرة	اضافة : تعريف نمط صورة الارض ومعطياته
١٧٨ : ٢٠	الفقيه (٣٨٤)	الفقيه (٣٨٤) «

الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
١٧٩ : ١٣	وأما	وإما
١٨٦ : ١٨	الخنس	الُخُنّس
١٨٨ : ١٣	أدب خرداذبه	ابن خرداذبه
١٨٨ : ١٧	الهجريين : /	الهجريين /
١٩٠ : ٢١	السياسة	السياسية
١٩٥ : ١٣ – ١٤	من ، المصنطين	من المصنفين
١٩٨ : ٢٠	التحققات	التحقيقات
١٩٩ : ٢١	تنشاء	تنشأ
٢٠٢ : ٧	قرائتنا	قراءتنا
٢٠٤ : ١٥	(٥١٠)	(٥١٠)
٢٠٨ : ١٢	تاضلت	ناضلت
٢١٤ : ١٠	(٥٤٣)	(٥٤٣)
٢٠٨ : ١٣	فيما يلي : « «	فيما « : »
٢١٩ : ١٥	(٥٧٣)	(٥٧٣) «
٢٢٠ : ٣	: اتجه	: « اتجه
٢٢١ : ٢٠	لسد أقوال	لسرد أقوال
٢٢٣ : ٩	في كهوف	في « كهوف
٢٢٤ : ١٨	الطبارة	الطيارة

الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
٢٢٨ : ١٩	« ٦٢٧ »	(٦٢٧)
٢٣٠ : ٧	البحناك	البجناك
٢٣٢ : ١٦	بين الحير	بين الحبر
٢٣٣ : ٩	ويقيّم . . . تقييمات	ويقوّم . . . تقويمات
٢٣٦ : ٥	باقام المؤلف	باقحام المؤلف
٢٣٦ : ٨	(٤٦٥)	(٦٥٤)
٢٣٨ : ١٤	الادني	الادنى
٢٣٩ : ٨	المرصوفة	الموصوفة
٢٤٧ : ٩	ادني شك	أدنى شك
٢٥٦ : ١٢	قراءة	قرأة
٢٦١ :	. في النهاية ،	، في النهاية ،
٢٦٤ : ١٦	يشق الطريق	بشق الطريق
٢٦٥ : ١٤	قياذ	قباذ
٢٦٥ : ١٥	(برفيذ)	(برفيز)
٢٦٨ : ٣	٧٦٢)	(٧٦٢)
٢٦٨ : ٨	حكم (٧٦٦)	حكم (٧٦٦))
٢٦٩ : ١٢	تيودوز	تيودوز أو بقراط
	ودوروتيوس	ودوروتيوس
٢٧٠ : ١٥	وترى	وترى

الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
٢٧٠ : ١٥	مكتساب	مكتسبات
٢٧٣ : ١٧	يبلو قسورا	يبدو قصورا
٢٧٤ : ٩	مثلما ترى	مثلما نرى
٢٨٨ : ١	تجربة انهة	تجربة الهيئة
٢٩٠ : ٥	نلمحاضرة	الحاضرة
٢٩٠ : ١٤	مجد الوحدة	مجد للوحدة
٢٩١ : ٥ ـ ٦	مما فعل الديني	مما فعل التقليد الديني
٢٩٥ : ١٦	هذا الرائي	هذا الرأي
٢٩٥ : ١٧	الرطنية	الوطنية
٢٩٦ : ٦	كاتب مكثر	كاتب مكثر
٢٩٨ : ١٥	ان نففل	ان نغفل
٢٩٨ : ١٦	ولمثال	والمثال
٢٩٨ : ٢٠	اخر	آخر
٢٩٩ : ١٨	التترجمة	الترجمة
٣٠٢ : ٩	اذ أن	اذ إن
٣٠٣ : ١	كارراد ي فو	كاراد ي فو
٣٠٤ : ١٠	كروازية	كروازية
٣٠٥ : ٢٢	كيف قراء	كيف قرأ
٣٠٦ : ٥	نظر	انظر

الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
٣٠٩ : ٨	يعتر	يعثر
٣٠٩ : ١١	والمسائي	والكسائي
٣١١ : ١٨	من فبل	من قبل
٣١١ : ٢٦	لبلوتارك موضوع	لبلوتارك وبين موضوع
٣١٥ : ١٥	ينبعي	ينبغي
٣١٦ : ١٨	علينا أن . . . ال	علينا أن . . . إلى
٣١٦ : ٢٧	حجة مناقضه	حجة مناقضة
٣١٨ : ٨	مجاراه	مجاراة
٣٢١ : ٢٥	كروزية	كروازية
٣٢٢ : ١٧	الناشي	الناشيء
٣٢٥ : ٢٦	ما ينطوى	مع ما ينطوى
٣٢٦ : ٢٤	من روايتهم	من راويتهم
٣٢٦ : ٢٧	اعظم منهل	اعظم منهلا
٣٣٧ : ٩	اذ أن	ان إن
٣٣٨ : ٧	المذكورون	المذكورون
٣٤٠ : ١٨	اذ أن	اذ إن
٣٤٣ : ١١	المتعلفة	المتعلقة
٣٤٣ : ١٦	يدعي	يدعى
٣٤٦ : ١٤	التزجمة	الترجمة

الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
٣٤٩ : ٦٠	وتذاكرات	وتذكرات
٣٥٢ : ٨	ألك اقرضشان	أو اقرشان
٣٥٣ : ١٠	البغذادي	البغدادي
٣٥٨ : ١٨	للملكة	للمملكة
٣٥٨ : ٢٥	ص … ، … ، …	ص ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ، ١٨٧
٣٦٣ : ٢٠	عن كتب	عن كثب
٣٦٦ : ١	صيفته	صيغته
٣٧١ : ١٢ — ١٣	لفظان اجنبيان	حذفهما
٣٧٤ : ٨	ص …	ص ٢٠٠
٣٧٦ : ٥	بما يعامل	بما يعامل
٣٧٧ : ١٠	عاتقها	عاتقه
٣٨١ : ١١	(٦٢٧)	(٦٣٧)
٣٨١ : ١٥	ص … ، …	ص ١١٠ ، ١١٢
٣٨٣ : ٢٢	الاوراح	الارواح
٣٨٥ : ١	ص …	ص ١٤٧
٣٩٠ : ١٧	تلقاها	نلقاها
٣٩٤ : ٢٦	ص … — …	ص ١٣١ — ١٣٩

الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
٣٩٥ : ٢٢	رأي	رأي
٣٩٨ : ٣	ص .. ، ... ، ...	ص ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٢٤
٣٩٨ : ٣	ص ... — ...	ص ١٦٥ — ١٦٩
٣٩٩ : ١٧— ١٨	ص ١٩ — ٢١ ، ٤٤— ٤٥ ، ٦٤ ، ٦٨	ص ١١٥ — ١١٧ ، ١٣٨ — ١٣٩ ، ١٥٨ ، ١٦٣
٤٠٠	ص ...	ص ١٢٦

* * *

١٩٨٣ / ٣ / ٣٠٠٠

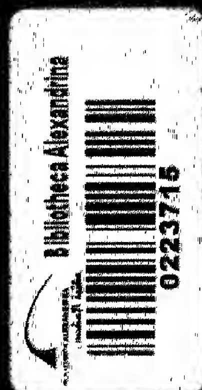
Bibliotheca Alexandrina
0223715